دكتور
عصام الدين عبد الرءوف الفقي
أستاذ التاريخ الاسلامي
كلية الآداب - جامعة القاهرة



معالم التاريخ الإسلامي

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي
الادارة : ١١ شارع جواد حسني
ص ب ١٣٠ القاهرة - ت : ٣٩٢٣٥٥٢١٣





رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ

نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا

تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾

سُورَةُ النَّمْلِ

موضوعات الكتاب

البـــاب الأول
الدول العربية والإسلامية

الفصل الأول
العرب قبل الإسلام

الفصل الثانى
ظهور الإسلام وقيام الدولة العربية والإسلامية

الفصل الثالث

الدولة العربية الإسلامية فى عهد الخلفاء الراشدين

الفصل الرابع

الدولة الأموية

البـــــاب الثاني

الدولة العباسية

الفصل الأول

العصر العباسي الأول

الفصل الثانى

العصر العباسي الثانى

الفصل الثالث

الدول الإسلامية المستقلة في الشرق والغرب

الفصل الرابع

مصر والشام على عهد الأيوبيين والمماليك

البـــاب الثالث

الصليبيون والمغول

الفصل الأول

الصليبيـــون

الفصل الثانى

المغول

البـــاب الرابع

الحضارة العربية الإسلامية

الفصل الأول

نظم الحكم

الفصل الثانى

الحالة الإقتصادية

الفصل الثالث

الحالة الاجتماعية

الفصل الرابع

الحياة الفكرية

الفصل الخامس

الفنون والآثار

الفصل السادس

الجيش والأسطول

الفصل السابع

أثر الحضارة الإسلامية فى الحضارة الأوروبية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدلله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد أفضل المرسلين وبعد.

لابد للمسلم أن يتزود بالثقافة الإسلامية، وهي شرط أساسي لاستقامة وضعه في هذه الحياة، ولإمكانية توازنه مع نفسه ومع مجتمعه. ومن مقومات هذه الثقافة الإسلامية معرفة أركان العبادة وممارستها بطريقة صحيحة، وقراءة القرآن الكريم قراءة صحيحة، وإلمامه بالواجبات الدينية على المسلم، والجوانب التي يجب أن يتحلى بها، ويتصف بها.

ويجب على كل مسلم أن يلم بشكل عام بتاريخ الإسلام حتى يعرف عن كثب تطور الحياة الإسلامية، لأن تاريخنا الإسلامي جزء لا يتجزأ من كياننا ومقومات حياتنا.

لذلك رأيت بعد أن قضيت سنوات طوال في كتابة وتأليف الكتب التاريخية المتخصصة، والبحوث العلمية التي هي موجهة للقارىء المتخصص ــ رأيت أن أضع كتابا في تاريخ الإسلام بشكل عام يفيد المسلم غير المتخصص الذي يريد أن يلمّ بتاريخ الإسلام، ويتثقف بهذا النوع الهام من الثقافة.

وهذا الكتاب عرض عام للدول التي تعاقبت على حكم المسلمين بداية من دولة رسول الله ﷺ التي أقامها في المدينة المنورة، وما زالت تتسع حتى شملت الجزيرة العربية كلها، وأعقبها دولة الخلفاء الراشدين، فالدولة الأموية فالدولة

العباسية، ثم أعقب ذلك دول مستقلة حكمت كل منها إقليما أو أكثر من العالم الإسلامي الكبير.

وتشمل هذه الدراسة دولة المسلمين في الأندلس، التي أرست قواعد الحضارة الإسلامية في أوروبا، وزالت في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي.

كذلك تعرضت في هذا الكتاب إلى ما تعرض إليه العالم الإسلامي من محن على أيدي الصليبيين والمغول ولكنه تغلب عليها بعد لأى وعناء.

وهذا يدعونا إلى عدم التشاؤم مما نتعرض له اليوم من محن وكوارث. فدراسة التاريخ تعلمنا أن الأحداث لا تسير على وتيرة واحدة، ولكن هناك متغيرات ليست في الحسبان، بالاضافة إلى أن المحن تكسب الناس خبرات وتجارب، وتعلمهم طرقا للتغلب عليها، بل وتكسبهم صلابة ومقدرة على مقاومة الشدائد. فالنور يبدد الظلام، والليل يعقبه نهار، والحق لابد وأن ينتصر وقد وعد الله بنصر المؤمنين ما نصروه، وعملوا بما أمر به. والله متم نصره ولو كره المشركون.

هذا وبالله التوفيق.

أ.د. عصام الدين عبدالرءوف الفقي

الباب الأول
الدول العربية والاسلامية

الفصل الأول — العرب قبل الاسلام

الفصل الثاني — ظهور الاسلام وقيام الدولة العربية والاسلامية

الفصل الثالث — الدولة العربية الاسلامية في عهد الخلفاء الراشدين

الفصل الرابع — الدولة الأموية

الفصل الأول

العرب قبل الإسلام

قبل البدء في الحديث عن الدولة العربية وحضارتها، لابد من طرح سؤال على شيء من الأهمية وهو: هل كان العرب تجمعهم دولة واحدة قبل الإسلام؟، والإجابة على ذلك هي النفي القاطع، لأنه من المؤكد أن جزيرة العرب لم تشهد دولة عربية موحدة قبل الإسلام. ففي جزء منها، وهو الحجاز، قامت مدن لكل منها نظام سياسي من أشهرها: مكة، يثرب، والطائف. وفي بلاد اليمن وتقع في جنوب جزيرة العرب، قامت عدة دول أهمها ثلاث: معين، وسبأ، وحمير. كما قامت في الشمال الشرقي لجزيرة العرب مملكة الحيرة، وفي الشمال الغربي مملكة الغساسنة.

(أ) مدن الحجاز

١ ــ مكة:

تقع مكة في منتصف الطريق بين اليمن وبلاد الشام، وتقوم في واد غير ذي زرع تحيط به الجبال من كل جانب، إلا من ثلاث منافذ، يتصل عن طريقها بكل من اليمن وساحل البحر الأحمر وفلسطين. وتعرف مكة أيضا باسم

«بكة» وقد ورد ذلك في قوله تعالى ﴿إن أول بيت وضع للناس الذي ببكة مباركا﴾[1].

لم تكن قبيلة قريش أول من سكن مكة، لأن قريشا تنسب إلى عدنان من ولد اسماعيل بن ابراهيم عليه السلام. والمعروف أن سيدنا ابراهيم لما قدم مكة مع زوجه هاجر وابنه اسماعيل، كان يسكنها وقتذاك قبيلة يمنية اسمها «جرهم» منها تزوج اسماعيل، وبلغتها تكلم. ثم آل أمر مكة فيما بعد إلى قبيلة يمنية أخرى هاجرت إليها اسمها «خزاعة»، وقد انحاز اليها بنو اسماعيل، ومن أشهر زعمائها عمرو بن لحى، الخزاعي، أول من نصب الأصنام حول الكعبة وأحل الأوثان محل الحنيفية دين ابراهيم عليه السلام.

ظلت خزاعة تلي البيت الحرام بمكة نحوا من ثلاثمائة سنة. ثم قدم مكة قصي بن كلاب بن مرة، وهو من قريش، وتزوج ابنة زعيم خزاعة الذي كان يلي شئون البيت الحرام بمكة، فلما مات هذا الزعيم تطلع قصي إلى أن يلي أمر مكة والبيت الحرام، وتمكن من تحقيق غرضه بعد أن أوقع بخزاعة الهزيمة. وقد انتهى الأمر بصلح بين الطرفين اعترف فيه بالزعامة لقصي وكان ذلك حوالي منتصف القرن الخامس الميلادي.

بعد أن تمت لقصي الغلبة، جمع قومه (قريش) من الشعاب والأودية والجبال إلى مكة، وأصبح منذ ذلك الحين ملكا على قومه وأهل بيته. وقسم قصي مكة إلى رباع أي أحياء، وزعها بين بطون قريش. وكان القرشيون لا يعقدون أمرا ولا يفعلون فعلا إلا في داره، مما دعاه إلى إنشاء «دار الندوة» وفي هذه الدار التي لم يكن يدخلها من قريش إلا من بلغ الأربعين من عمره، كان

---

(١) سورة آل عمران آية ٩٦

الرؤساء والأعيان يجتمعون للتشاور والبت في الأمور. كما كانت تجري فيها عقود الزواج وكثير من المعاملات فهي دار مشورة ودار حكومة في آن واحد. وكانت الرياسة لقصي أثناء حياته وبعد وفاته اتفق على أن يدير مكة مجلس أطلق عليه «الملأ» يتكون من زعماء الأسر ورؤساء الأحياء وأصحاب الرأي والمشورة للبت فيما يعرض عليهم من مشكلات. وبذلك تتجنب مكة ما كان يقع بين القبائل والمدن الأخرى من حروب عشائرية بسبب النزاع حول منصب شيخ القبيلة وكثيرا ما نجح رجال الملأ في حسم النزاع وحقن الدماء بين بيوتات قريش المختلفة.

ومما يذكر بالخير لقصي أنه تصدى لاطعام الحجاج وسقا بينهم، على اعتبار أنهم ضيوف الله وزوار بيته، وفرض على قريش ضريبة سنوية لينفق منها على اطعام فقراء الحجاج. وقد صار الاشراف على اطعام هؤلاء وظيفة هامة عرفت بالرفادة. ومن الوظائف التي أنشأها قصي: السقاية، الحجابة «خدمة الكعبة» واللواء، ورئاسة دار الندوة.

كان من أشهر أبناء قصي: عبدالدار، وعبدمناف. وقد اختص بنو عبدالدار بحجابة الكعبة ولا تزال في بيته حتى اليوم. أما عبد مناف فقد ارتفع شأنه كثيرا في حياة أبيه وبلغ من الشرف درجة عظيمة، ومن أشهر أبنائه «عبد شمس» الذي ينسب إليه بنو أمية، وهاشم والد عبدالمطلب جد النبي عليه السلام. وقد تولى هاشم وظيفة الرفادة والسقاية، وكان هو واخوته تجارا تربطهم علاقات الود بالحكومات المعاصرة لهم. وبعد وفاة هاشم آلت السقاية والرفادة إلى أحد اخوته، ثم إلى ابنه عبدالمطلب الذي نجح في اعادة حفر بئر زمزم، بعد أن كانت قبيلة جرهم قد طمستها وأخفتها لما أيقنت من تغلب خزاعة عليها، وكان توفيق عبدالمطلب في العثور على بئر زمزم، من العوامل التي رفعت قدره ونشرت ذكره في كل أنحاء جزيرة العرب، كذلك لم ينس العرب موقفه من

غارة أبرهة الحبشي على مكة، حين اتجه إلى ربه بالدعاء الحار ليحفظ بيته ويقهر عدوه، وما تلا ذلك من هلاك جيش أبرهة وتمزيقه كل ممزق.

وهكذا نهضت مكة على يد قبيلة قريش، وتمتعت بمركز مرموق قبيل ظهور الإسلام بسبب ما أظهرته قريش من قدرة على التنظيم السياسي واقامة حكم متطور عن بقية المدن والقبائل الأخرى على النحو الذي رأيته. كما أن بعض فضلائها اهتدوا إلى عقد حلف أطلق عليه «حلف الفضول» تعهدوا بمقتضاه على نصرة المظلوم، وأن يكونوا على من ظلمه حتى ترد مظلمته، سواء أكان من قريش أو من غيرها. وقد شهد الرسول عليه السلام هذا الحلف قبل بعثته.

كذلك تمتعت قريش بمركز ممتاز بين العرب لاتساع متاجرها، فكان تجارها يخرجون من مكة بتجارتهم في قوافل عظيمة بلغت احداها ألفا وخمسمائة بعير. ولا عجب فقد كانت مكة أهم المراكز التجارية باعتبارها حلقة الاتصال بين اليمن والحبشة جنوبا وفارس وبيزنطة شمالا. وقد تطورت التجارة في مكة قبيل الاسلام إلى درجة عالية من التقدم، يدل على ذلك ما عقدته قريش من معاهدات تجارية مع حكومات الروم والفرس والحبشة. كما امتازت رحلاتها التجارية بتمتعها بالأمن لأنهم أهل حرم الله وولاة بيته (الكعبة) فلا يتعرض لهم الناس بسوء، على حين كان غيرهم من العرب مهددين بالاغارة عليهم. ولا شك أن هذا المركز الاقتصادي المتفوق، هو الذي دفع الأحباش إلى غزو الحجاز ومحاولة هدم الكعبة، ولما أصيبت حملة أبرهة الحبشي بالفشل على أبواب مكة ارتفعت مكانة قريش، وقال الناس عنهم «أهل الله قاتل عنهم وكفاهم كيد عدوهم».

ولا شك أن مركز قريش الديني بسبب سيادتها على الكعبة جعل كثيرا من القبائل العربية تخطب ودها وتسعى للتقرب منها. ولذلك نجحت قريش في اقامة

علاقات حسنة مع كل القبائل عن طريق المحالفات والمعاهدات، سواء في البادية أو المدن، وبذلك أمنت قريش عادية القبائل البدوية، كما أمنت خصومات المدن الحجازية، وحظيت بذلك باحترام عام في كافة أنحاء شبه الجزيرة العربية.

ومن الواضح أن قريش قد استفادت من اشتغالها بالتجارة فوائد معنوية وأدبية، فان كثرة أسفار القرشيين إلى بلاد الشام والحبشة والحيرة وغيرها، ومخالطتهم لأقوام مختلفين مثل الفرس والروم من ذوي المدنيات القديمة، قد ساعدتهم على معرفة أحوال هذه الأمم الاجتماعية والأدبية، كما وقفوا على العلاقات بين فارس والروم وبين اليمن والحبشة، وقد أتاح كل ذلك الفرصة أمام كثير من رجالات قريش لاظهار مواهبهم في الحروب والسياسة بعد ظهور الإسلام.

والخلاصة أن الاستقرار الذي كانت تتمتع به مكة وطبيعة مركزها الديني والتجاري ألزم أهلها الابتعاد عن الحروب وخلق المشكلات وحل كل معضلة بالمفاوضات أولا، كما جعلهم يرحبون بالتحالف مع القبائل الأخرى. وقد أفادتهم هذه السياسة كثيرا، فظهرت زعامة مكة على القبائل العربية، وبخاصة ضعف شأن آخر دولة يمنية قبل الاسلام وهي دولة حمير. وقد أدى اعتراف القبائل العربية بزعامة مكة إلى سير هذه القبائل في ركابها والحضور في مواسمها وأسواقها.

يثرب:

كانت يثرب من بين مدن الحجاز المتحضرة. وهي تقع الى الشمال من مكة في واحة خصيبة التربة غزيرة الماء. وقد اشتهرت بأكثر من اسم عند ظهور الإسلام ثم غلب عليها اسم «المدينة».

ويروى أن «العمالقة» كانوا أول من سكن يثرب، وهم من القبائل العربية البائدة التي انقرضت قبل الإسلام، مثلهم في ذلك مثل عاد وثمود. وكانت بعض القبائل اليهودية قد تغلبت على العمالقة، ولم تظهر الهجرة اليهودية بشكل واضح إلا في القرنين الأول والثاني الميلاديين، وذلك على أثر الحرب التي شنها الرومان ضد اليهود ببلاد الشام، والتي انتهت بطردهم منها وتشتيتهم في أنحاء متفرقة، فهاجر منهم بعض القبائل مثل: بنو قينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة الى شمال جزيرة العرب وأقاموا بيثرب. وظل هؤلاء مقيمين بها إلى أن نزح إليهم من بلاد اليمن قبيلتا الأوس والخزرج العربيتين، وعاش الجميع أول الأمر في سلام غير أن اليهود لم يلبثوا أن تحرشوا بالعرب في يثرب، رغبة منهم في الانفراد بخيرات هذا البلد العربي، واستغلوا كثرتهم وقوتهم في الاضرار بالعرب والاساءة إليهم، مما حمل الأوس والخزرج على الاستعانة بأقربائهم الغساسنة على اليهود. وكان لبني غسان وقتذاك مملكة قوية في جنوبي بلاد الشام، فأمدوا لهم يد العون ضد اليهود، مما مكن العرب في يثرب وجعل لهم السيادة فيها.

على أن الصراع لم يلبث أن وقع بين الأوس والخزرج، وكان النصر في أغلب الأحيان محالفا للخزرج، حتى اضطرت الأوس أن تسعى لمحالفة قريش حتى تكون عونا لها على الخزرج. لكن قريشا أبت أن تزج بنفسها في هذا الصراع، حرصا منها على مصالحها التجارية، وبخاصة وأن يثرب تقع على طريق قوافلها إلى بلاد الشام وقد استغل اليهود هذه الفرصة وأعانوا الأوس في حربها ضد الخزرج تلك الحرب المشهورة في التاريخ بيوم «بعاث» وهو اليوم الذي هزمت فيه الخزرج هزيمة كبيرة، وحاول اليهود إبادة جميع رجال الخزرج، لولا أن فطن بعض عقلاء الأوس إلى ذلك وبادروا بإيقاف القتال.

وهكذا لم يتمتع سكان يثرب بالاستقرار كما حدث لقريش في مكة، مما جعل الظروف في يثرب أكثر ملاءمة من حيث سرعة الاستجابة إلى الإسلام وشدة الذود عن الدعوة الإسلامية وحمايتها، ذلك أن حياة السكان في يثرب كانت تعتمد أساسا على الزعامة وتملك الأراضي الخصبة وموارد الماء، وأن الضمان الوحيد للحفاظ على الملكية أو التوسع فيها كان اللجوء إلى العنف، سواء من جانب الأفراد أو الجماعات وهذا أمر طبيعي في مجتمع ليس به حكومة عامة تقوم على حماية الحقوق ومما زاد من هذا العنف في يثرب، اختلاف عناصر السكان فيها بين عرب ويهود وانقسام كل منهما إلى عدد من القبائل.

وقد رأيت أن النزاع حدث أولا بين العرب واليهود، ولما انتهى أمره بغلبة العرب، نشب الصراع بين القبيلتين العربيتين واتسع نطاقه حتى اضطربت الحياة في يثرب اضطرابا شديدا، مما حمل عقلاء يثرب وزعماؤها على التفكير في إيجاد حل لمشاكلها وتحقيق الأمن لأهلها، وقد اتجهوا في البداية إلى إقامة حكومة عامة في يثرب برئاسة أحد زعماء الخزرج، ولكن العصبية القبلية الشديدة حالت دون تحقيق هذه الفكرة. ولما ظهر النبي عليه السلام بدعوته الجديدة رأى فيه أهل يثرب أملهم المنشود، وبخاصة وأنه محايد ولا ينتسب لأي طرف منهم فبايعوه ودعوه للإقامة بين ظهرانيهم، وكانت هجرته إلى يثرب بداية التغيير العميق لأحوال تلك المدينة.

وكان عرب يثرب أقل حرصا على التمسك بعقيدتهم الوثنية، لأن عبادة الأوثان لم تعد عليهم بأي فائدة مادية أو أدبية مثلما كان الحال بالنسبة لقريش في مكة. كما كان لوجود أديان سماوية بهذه المدينة كاليهودية أثر كبير في إضعاف الوثنية في نفوس العرب النازلين بها، مما جعلهم يتخلون عنها حين دعاهم النبي إلى الإسلام.

٣ ــ الطائف :

اسمها القديم «وج» نسبة إلى أحد العمالقة الذين سكنوها منذ القدم، ولما نزلت بها قبيلة «ثقيف» فيما بعد، وأصبحت في سعة من العيش، تطلعت أنظار من حولهم من العرب إليهم وطمعوا في ممتلكاتهم. لذلك رأت ثقيف أن تبني سورا يكون لهم حصنا، وأطلقوا عليه اسم «الطائف» لإحاطته بهم. وقد عرفت هذه المدينة منذ ذلك باسم «الطائف».

وتقع الطائف على مرتفع من الأرض شرق مكة، يبعد عنها بنحو خمسة وسبعين ميلا. وتمتاز بخصوبة تربتها، وطيب هوائها، ومياهها الجارية، وبساتينها الرائعة ذات الفواكه المختلفة. ولذلك قيل أنها بقعة من الشام انتقلت إلى الحجاز وكانت ـ وما تزال ـ مصيفا طيبا يقصده أهل مكة فرارا من وهج الشمس.

وقد زاد موقع الطائف من أهميتها كمركز تجاري فكان يمر بها طريق القوافل الممتد من جنوب بلاد العرب إلى شمالها، ومن العراق إلى اليمن، كما ربطها بمكة علاقات تجارية، فضلا عن أن الأثرياء من قريش كانوا يمتلكون بساتين بالطائف ويقرضون أهاليها ما يحتاجون إليه من مال.

استفاد أهالي الطائف من الزراعة والتجارة، فزادت ثروتهم وصارت بلدهم تقرن بمكة فيقال المكتين والقريتين. وهذه التسمية وردت في قوله تعالى ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[1].

وقبيلة ثقيف التي كانت تعيش بالطائف عند ظهور الإسلام انقسمت إلى طبقتين قبيل ظهوره، عرفت الأولى ببني مالك والثانية بالأحلاف. وقد قامت

---

(١) سورة الزخرف آية رقم ٣١.

بينهما حروب أهمها يوم الطائف الذي انتصر فيه الأحلاف. مما حمل بني مالك على السعي لدى بعض القبائل لمعاونتهم، فخشي الأحلاف وذهب زعيمهم إلى الأوس بيثرب يطلب مؤازرتهم. لكن الأوس نصحوه بمهادنة بني مالك، وعلى الرغم من ذلك فقد زودوه بالسلاح والمؤن.

(ب) الممالك العربية

دول اليمن:

كانت اليمن في القديم مقسمة إلى وحدات سياسية كثيرة يهيمن على كل منها أحد شيوخ القبائل من أصحاب الأملاك والجاه، فكان كل واحد من هؤلاء يعيش في قصر أشبه بقلعة ذات سور متين مقام وسط أملاكه ومزارعه وكان يطلق على هذا الشيخ اسم «ذو» فإذا قيل ذو صرواح مثلا فإنه يعني بذلك صاحب قصر صرواح. وكان يحدث أن يضم أحد الأذواء مجموعة من القصور المجاورة إلى قصره، فيتكون حينئذ ما يسمى «محفد» وإذا نجح شخص في امتلاك عدد من المحافد تكون ما يسمى «مخلاف»، ويطلق على هذا الشخص اسم «قيل» فإذاتمكن أحد الأقيال من الاستحواذ على عدد من المخاليف المجاورة فإنه يكون بذلك قد أقام دولة ويصبح ملكا، ثم يتوالى الحكم في أبنائه. ومن هذا التدرج السياسي قامت عدة دول باليمن أهمها: معين، وسبأ، وحمير.

١ ـ دولة معين (١٣٠٠ - ٦٥٠ ق. م):

قامت هذه الدولة شرق صنعاء، في منطقة تعرف بالجوف، وهي أرض سهلية تقع بين نجران وحضرموت. وقد زار هذه المنطقة عدد من الرحالة وعلماء

الآثار ابتداء من سنة ١٢٦١م وما بعدها، وكشف هؤلاء عن مجموعة من النقوش المعينية وقاموا بدراستها، مما ألقى بعض الضوء على تاريخ هذه الدولة الذي لم يكن يعرف الكثير عنه.

وتشير هذه النقوش المعينية إلى أن عاصمة معين كانت مدينة «قرن» (مكان معين الحالية)، ويفهم من هذه النقوش أيضا أن الحكم في دولة معين كان ملكيا وراثيا، ينتقل من الأب إلى الابن وقد يشترك الاثنان معا. وقد استطاع رجال الآثار أن يعثروا على نقوش بأسماء ملوكها في أنقاض منطقة الجوف.

كذلك يستدل من النقوش المعينية أن هذه الدولة كانت على جانب عظيم من القوة والثروة، وأن نفوذ المعينيين امتد بفضل نشاطهم التجاري إلى شمال جزيرة العرب.

على أن دولة معين بدأت في الانحلال حين ضعف ملوكها، وقد ازداد نفوذ جيرانهم السبئيين الذين تمكنوا في النهاية من إخضاع معين لسلطانهم.

٢ ـ دولة سبأ (٩٥٠ ـ ١١٥ ق. م):

السبئيون في الأصل قبائل من البدو وفدت من الشمال وسكنت اليمن إلى جوار المعينيين، واختلطوا بهم واقتبسوا لغتهم وديانتهم، وفي الوقت الذي بدأت فيه قوة السبئيين تزداد ويكثر عددهم كانت دولة معين قد ضعف شأنها إلى درجة أن السبئيين تمكنوا من إقامة دولة لهم عاصرت أواخر عهد الدولة المعينية، حتى إذا جاء منتصف القرن السابع قبل الميلاد سقطت معين وورث ملكها السبئيون.

وقد مرت دولة سبأ بمرحلتين، انتهت الأولى حوالي سنة ٦٥٠ ق. م وحاكم الدولة في هذه المرحلة ذو صفة دينية، لأنه كان يسمى «مكرب سبأ» أي المقرب

من الآلهة. وقد تلقب بهذا اللقب نحو سبعة عشر حاكما. وكانت قلعة «صرواح» (غرب مأرب) مقراً للحاكم في هذه المرحلة الأولى. أما المرحلة الثانية التي تمتد م (٦٥٠ ـ ١١٥ ق. م) فنجد أن الحكام تجردوا من صفتهم الدينية وأصبح الواحد منهم يحمل لقب «ملك سبأ» ويعرف من هؤلاء الملوك عشرة، وكانت حاضرة الدولة في عهدهم مدينة مأرب، التي تقع على بعد خمسة وخمسين ميلا شمال صنعاء.

تمتعت دولة سبأ بثروة عظيمة، بسبب عنايتها بالزراعة والتجارة. ومن دلائل عنايتها بالزراعة ما أقامته من منشآت وخاصة الخزانات التي منها سد مأرب ويعرف أيضا بسد العرب كما يفهم من القرآن الكريم. وهو يقع في واد بين جبلين. وقد أقيم بقصد حجز مياه السيل المنحدرة إلى هذا الوادي للانتفاع بها في ري الأراضي الزراعية على جانبي السد، وبذلك تيسر لأهالي مأرب ري أراضيهم ريا منتظما.

بدأت دولة سبأ في الضعف والانهيار منذ القرن الثاني قبل الميلاد بسبب المنافسة التجارية من جانب البطالمة في مصر، فقد أعاد هؤلاء حفر قناة سيزوستريس التي تربط النيل بالبحر الأحمر، مما ساعد على ازدياد النشاط البحري وأدت إلى ضعف التجارة السبئية القائمة على القوافل البرية. على أن زوال هذه الدولة يرجع بصفة أساسية إلى تصدع سد مأرب بسبب إهمال ترميمه من جانب الملوك الذين حكموها في الفترة الأخيرة من عهدها وحين غمرت المياه المزارع والبلاد المحيطة بهذا السد اضطر الكثير من الناس إلى أن يهاجروا من اليمن، فهاجرت خزاعة إلى مكة، والأوس والخزرج إلى يثرب وبنو لخم إلى أرض الحيرة، وبنو غسان إلى جنوبي بلاد الشام.

٣ ــ دولة حمير (١١٥ ق. م - ٥٢٥م).

اتخذ الحميريون من «ريدان» مقرا لحكمهم، وعرفت هذه المدينة فيما بعد باسم «ظفار» وهي تقع جنوبي بلاد اليمن على مقربة من المحيط الهندي. وحين تغلب الحميريون على السبئيين حوالي سنة ١١٥ ق. م، اتخذ كبيرهم لقب «ملك سبأ وذو ريدان».

لم تلبث دولة حمير أن وقعت في دائرة التنافس بين الدولتين الفارسية والرومانية. فقد حاول الروم بسط سيادتهم عن طريق نشر المسيحية في بعض البلاد ومنها الحبشة، كما عملوا على إدخال هذه الديانة في بلاد اليمن، وبخاصة في نجران، التي شهدت أكبر تجمع مسيحي ببلاد اليمن قبل الإسلام. وكان الروم يهدفون من وراء ذلك أن يكون لهم نفوذ سياسي واقتصادي في تلك البلاد. وأخذوا بالفعل يسيرون تجارتهم بين الخليج العربي والبحر الأحمر مارين ببلاد اليمن، الأمر الذي أغضب اليمنيين ودفعهم إلى مضايقة الروم بالوقوف في وجه تجارتهم.

أما الفرس فقد لجئوا إلى تشجيع انتشار اليهودية ببلاد اليمن نكاية في الدولة الرومانية وقد اشتد ساعد اليهودية في هذه البلاد إلى حد أن الدولة الحميرية في أوائل القرن السادس الميلادي كان على رأسها ملك يهودي هو يوسف ذو نواس.

كان من الطبيعي أن يحدث الصراع بين أتباع اليهودية والمسيحية في بلاد اليمن، وبدأ هذا الصراع باضطهاد يوسف ذو نواس للنصارى واتهامهم بالتواطؤ مع الأحباش، فقام بهجوم عنيف على نجران بصفة خاصة وخير أهلها من المسيحيين بين أن يتركوا دينهم أو يحرقهم. فلما تمسكوا بنصرانيتهم قضى عليهم في الخنادق التي أعدت لإحراقهم. ولما بلغ قيصر الروم ما حل بأهل نجران

كتب إلى نجاشي (ملك الحبشة) يحرضه على غزو بلاد اليمن لنصرة المسيحيين فأجاب طلبه وسير جيشا من الحبشة تمكن من فتح بلاد اليمن سنة ٥٢٥م. وانتهى الأمر بهزيمة ذونواس.

كان أبرهة نائبا لقائد الجيش الحبشي الذي فتح اليمن، ولكنه لم يلبث أن تخلص منه وانفرد بالقيادة وحده. وقد بذل أبرهة جهده لتثبيت دعائم الحكم الحبشي في بلاد اليمن، كما سعى إلى تحويل النشاط التجاري إليها بدلا من مكة ولتحقيق ذلك لجأ إلى بناء كنيسة كبيرة في صنعاء، وعني كثيرا بتزيينها وتجميلها على أمل أن تجتذب العرب وتصرفهم عن الكعبة. ولما لم يتحقق له ذلك زحف إلى الحجاز على رأس جيش يضم بعض الفيلة وأراد أن يهدم الكعبة، لكنه مني بالفشل الذريع، وعاد أبرهة مقهورا إلى اليمن حيث توفي بعد عودته بقليل. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الفشل، فقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴾[1]. وكانت هزيمة أبرهة فاتحة خير على العرب عامة وقريش خاصة، حتى أنهم أصبحوا يؤرخون به أحداثهم الهامة، فيقولون ـ على سبيل المثال ـ ولد النبي ﷺ في عام الفيل.

كان فشل حملة أبرهة على الحجاز من العوامل التي أضعفت مركز الأحباش وشجعت اليمنيين على مقاومتهم والتخلص من حكمهم. وقد ظهر من بينهم بطل يمني يدعى سيف بن ذي يزن الحميري تزعم هذه المقاومة، وتوجه إلى كسرى الفرس يطلب المؤازرة، فأمده بقوة عاونته على طرد الأحباش من اليمن سنة ٥٧٥ م، على أن الفرس أخذوا يتدخلون بعد ذلك في حكم اليمن، فعينوا حاكما من قبلهم يجمع الضرائب لحسابهم، ثم واليا فارسيا يشارك في الحكم بجانب الملك الحميري وأخيرا تملك الفرس بلاد اليمن، لكن سيطرتهم على

---

(١) سورة الفيل آية ١، ٢.

البلاد لم تدم طويلا، فقد استقلت عنهم حين اعتنق باذان آخر ولاة الفرس الإسلام ودخل في طاعة الرسول عليه الصلاة والسلام.

(ج) الممالك التي قامت في أطراف جزيرة العرب قبيل ظهور الإسلام:

أهم هذه الممالك اثنتان: مملكة الحيرة، ومملكة الغساسنة.

١ ــ مملكة الحيرة:

تقع الحيرة إلى الغرب من نهر الفرات على بعد ثلاثة أميال جنوب الكوفة وقد توافد إلى هذه المنطقة الخصبة قبائل عربية من أصل يمني منذ القرن الثالث الميلادي، وأطلق على المكان الذي نزلوا فيه اسم «الحيرة» ومعناها المخيم أو المعسكر. ولما دأب عرب الحيرة على غزو أطراف أملاك فارس من حين لآخر، وعجز الفرس عن طردهم، استقر رأيهم على أن يعملوا على ترضيتهم وينتفعوا بهم في أغراضهم السياسية والحربية ضد الدولة الرومانية الشرقية من ناحية وضد البدو من عرب شبه الجزيرة العربية الذين يغيرون على أملاك الفرس من ناحية أخرى، فأسسوا إمارة الحيرة سنة ٢٤٠ م وعينوا عربيا من بني لخم أميرا عليها، وظلت أسرته تتقلد زمام الحكم بالحيرة حتى دخلت في حوزة الدولة العربية الإسلامية أثناء خلافة أبي بكر الصديق.

وقد ساعدت إمارة الحيرة دولة الفرس في حروبها التي أعلنتها ضد الروم في القرن السادس الميلادي، فقد تمكن أحد ملوكها، وهو المنذر الملقب بابن ماء السماء، من الحاق الهزيمة بقوات الامبراطور الروماني جستنيان الذي كان مشغولا وقتذاك عن الدولة الفارسية وأعوانها بمد نفوذه على الأجزاء الغربية من الامبراطورية الرومانية، فاضطر إلى عقد الصلح سنة ٥٣٢ م، وكان من شروطه

أن يدفع الروم مبلغا من المال لأنو شروان كسرى فارس والمنذر الثالث ملك الحيرة، ولهذا السبب حظي المنذر بمكانة ممتازة في البلاط الفارسي، وخاطبه كسرى بلقب «ملك العرب» تفخيما له.

وفي أواخر القرن السادس الميلادي قلت حاجة الفرس إلى ملوك الحيرة بسبب امتداد النفوذ الفارسي إلى اليمن ومنطقة الخليج العربي من ناحية، وتوقف الحروب مؤقتا مع الروم من ناحية أخرى وحينئذ تنكروا لملوك الحيرة وعمدوا إلى القضاء على استقلالهم ــ فتدخلوا في شئونهم الداخلية وعينوا حكاما من الفرس على الحيرة ضمانا لتوطيد سلطانهم بها. غير أن اللخميين ما لبثوا أن استعادوا سلطانهم على الحيرة، فولى إمارتها المنذر بن النعمان سنة ٦٢٨ م، فظل واليا على الحيرة حتى فتحها خالد بن الوليد.

٢ ــ مملكة الغساسنة:

يرجع أصل الغساسنة إلى قبيلة الأزد اليمنية. وقد هاجروا من اليمن على أثر انهيار سد مأرب إلى جنوبي بلاد الشام، وأقاموا هناك حول بئر اسمه غسان فنسبوا اليه. وكانت الزعامة في هذه المنطقة لقبيلة عربية أخرى، ولكن الغساسنة تمكنوا بمضي الزمن من التغلب عليها والانفراد بالنفوذ. وقد تم ذلك على الأرجح أواخر القرن الخامس الميلادي.

كانت بلاد الشام وقتذاك خاضعة لحكم الدولة الرومانية الشرقية التي أطلق عليها اسم الدولة البيزنطية نسبة إلى عاصمتها «بيزنطة» (القسطنطينية). وقد رأى أباطرتها أن يستفيدوا من الغساسنة مثلما يستفيد الفرس من اللخميين في الحيرة فاتفقوا على منح الغساسنة مبلغا من المال سنويا نظير مساعدتهم ضد الفرس واللخميين من جهة والتصدي للبدو الذين يهاجمون أملاك البيزنطيين في

الشام من جهة أخرى، وقد بسط الامبراطور جستنيان (٥٢٧ ـ ٥٦٥م) سلطة الحارث بن جبلة الغساني على جميع القبائل العربية في بلاد الشام.

قضى الحارث بن جبلة أكثر أيام ملكه يقاتل في سبيل بيزنطة ويعمل على خدمة مصالحها. ومن أجل ذلك اشتبك مع المنذر الثالث أمير الحيرة في أكثر من معركة تبادلا فيها الهزيمة والنصر، وقد انتهت الحرب التي طال أمدها بين هذين الأميرين بوقعة أدت إلى دخول قنسرين (قرب حمص) في حوزة الحارث بن جبلة.

توفي الحارث سنة ٥٦٩ م، وبدأت دولة الغساسنة بعد وفاته في الضعف والانهيار فعلى الرغم من أن المنذر بن الحارث قد غزا الحيرة وانتصر على أهلها سنة ٥٨٠ م، إلا أن الروم تنكروا له واتهموه بالخيانة وعدم الولاء ودبروا مؤامرة للتخلص منه، فألقوا القبض عليه واقتادوه أسيرا إلى القسطنطينية. ثم نفوه إلى صقلية حيث توفي هناك. ثم اتبعت الحكومة البيزنطية هذا العمل بقطع الأتاوة التي كانت تعطيها سنويا لدولة الغساسنة.

ترتب على موقف البيزنطيين نحو حلفاء الحارث الغساني أن بدأت الفوضى تدب في أرجاء دولة الغساسنة، وتفرقت كلمة القبائل العربية ببلاد الشام، وأخذت كل منها تختار رئيسها، ثم ازداد ضعف الغساسنة في أعقاب تعرضهم لهجوم الفرس على بلاد الشام سنة ٧١٣ م على أن البيزنطيين ما لبثوا أن استردوا بلاد الشام من الفرس، وظهر من الغسانيين جبلة بن الأيهم، وهو آخر أمراء البيت الغساني.

وهكذا ترى أن مملكتي الحيرة والغساسنة العربيتين قد انهارتا بسبب سياستهما الخرقاء في معاداة بعضهما لخدمة مصالح دولتي الفرس والرومان، فاشتبكوا في حرب طاحنة لا ناقة لهم فيها ولا جمل، سقط على أثرها كثير من أبطالها صرعى، وأخذ الضعف يدب في كيانهما.

أحوال العرب الدينية والاجتماعية قبل الإسلام

شهدت جزيرة العرب كثيرا من الاختلاف في العقائد الدينية، فكان أغلب العرب يعبدون الأصنام. كما أن المسيحية انتشرت بين الغساسنة وأهالي الحيرة كما كان لها أتباع كثيرون في جنوبي جزيرة العرب. أما اليهودية فقد ظهرت في بلاد اليمن، كما هاجرت بعض القبائل اليهودية إلى شمال الجزيرة العربية استقرت هناك، وبخاصة في يثرب وخيبر ووادي القرى وفدك وتيماء وذلك على أثر طرد الرومان لهم من بلاد الشام وبالاضافة إلى العقائد السابقة نجد أن بعض أهل شبه الجزيرة العربية اعتنقوا المجوسية التي نقلها أهل الحيرة عن الفرس، كما عبد البعض الآخر الكواكب والنجوم.

أدى إختلاط العرب بأصحاب الديانات السماوية إلى ظهور أفراد شكوا في الوثنية العربية، فاعتنق بعضهم اليهودية، ودخل البعض الآخر في المسيحية واكتفى فريق ثالث بفعل الخير وتجنب الشر، وأخذ هذا الفريق يبحث عن ديانة ابراهيم عليه السلام، ولذا يعرفون بالحنفاء نسبة إلى لفظ حنيف وهو دين ابراهيم.

أما عن الحياة الاجتماعية قبل الإسلام، فتلاحظ أن المجتمع القبلي بصفة عامة كان ينقسم من وجهة النظر الاقتصادية إلى طبقتين: طبقة أصحاب الأموال من التجار والملاك الزراعيين وأصحاب الإبل، وهي الطبقة التي تتركز في أيديها الثروة وتتحكم رؤوس أموالها في الحياة الاقتصادية وطبقة الفقراء الذين لم يستطيعوا المشاركة في النشاط الجارف في المدن وأماكن الاستقرار، والذين سدت طبيعة الحياة الرعوية في مجتمع البادية أبواب الثراء في وجوههم. وكانت الفوارق بين هاتين الطبقتين كبيرة جدا. مما أدى إلى إختلال التوازن في المجتمع اختلالا شديدا وهذا الاختلال هو الذي وقف منه القرآن موقفا حاسما حين حمل على

المرابين المنتشرين في المدن التجارية، الذين زاد جشعهم، وحين توعد بالويل والعذاب لأولئك الذين يلجأون إلى الغش في البيع والشراء وسماهم «المطففين» ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾[1]. وحين نعى على الأعراب قسوة قلوبهم وتحجر عواطفهم حتى أنهم يئدون بناتهم ويقتلون أولادهم خشية الإملاق (الفقر).

ومن وجهة النظر الاجتماعية كانت القبيلة يميز فيها بين فئات ثلاث: الأحرار الصرحاء، وهم أبناء القبيلة من نسلها الصريح، والموالي وهم أناس أحرار انضموا للقبيلة عن طريق الجوار أو الحلف أو العتق أو السود الذين كانوا محرومين من كافة الحقوق وعليهم كل الواجبات. وكان الموالي والعبيد يحسون بالظلم ويتطلعون إلى تغيير هذا النظام الاجتماعي مما أدى إلى سرعة استجابة الكثيرين منهم للدعوة الإسلامية.

ولا شك أن أحوال العرب السيئة قبل الإسلام كان السبب الذي جعل كثيرين منهم يتطلعون إلى تغييرها، مما مهد لاقبالهم على الدعوة الإسلامية وساعد على نجاحها، فقد وجد من بين العرب من استنكروا عادة وأد البنات، فنهضوا إلى محاربتها والتخفيف من آثارها بما بذلوا من مال كثير وسعي حميد.

وكان حلف الفضول الذي تكون برياسة عبدالله بن جدعان لنصرة المظلوم يعتبر هدما للشعار الجاهلي «أعن أخاك ظالما أو مظلوما» هذا فضلا عن أن كثرة تكوين الأحلاف بين القبائل وولاء العرف للحلف كان يعني كبح جماح العصبية القبلية، لأن العربي في البداية لم يكن يخضع بالولاء إلا لقبيلته فقط. أضف إلى ذلك أن اتفاق العرب على تحريم القتال في الأشهر الحرم كان يعني أنهم أدركوا

---

(١) سورة المطففين آية ٢، ٣

العواقب الوخيمة للقتال المتواصل، وشرعوا في وضع الحلول لمعالجة هذا الأمر ولو بصورة جزئية.

وبجانب كل ذلك فإن العرب بصفة عامة، كانوا على وشك الاحساس بالكيان الواحد، بدليل فرحهم جميعا لما فشل أبرهة الحبشي في هدم الكعبة وانهيال التهاني على سيف بن ذي يزن من كافة أرجاء شبه الجزيرة العربية حين تغلب على الأحباش ونجح في طردهم من اليمن، ورنة الفرح الشامل في جزيرة العرب كلها عندما هزم الفرس في يوم ذي قار.

وهكذا كانت بلاد العرب، في بداية القرن السابع الميلادي، مهيأة لتلقي أكبر حدث في تاريخها، ألا وهو ظهور الدعوة الإسلامية التي جمعت العرب لأول مرة تحت راية دولة واحدة، وأقرت مبادىء جديدة في الدين والأخلاق والمعاملات لا عهد للبشرية بمثلها. وحين خرج العرب بهذه الدعوة إلى العالم من حولهم وطبقوا مبادئها، غيروا خريطة العالم السياسية والاجتماعية والفكرية والدينية على السواء وصار من الواضح أن ظهور هذه الدعوة كان أكبر حدث في التاريخ الإنساني العام.

الفصل الثاني

ظهور الإسلام وقيام الدولة العربية والإسلامية

بعثة الرسول ﷺ:

كان محمد من نخبة بني هاشم وأشرف العرب بدوا وحضرا، فأبوه عبدالله بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب. وأمه آمنة بنت وهب، من بني زهرة بن كلاب. وقد اجتمع لقصي جده الأعلى من الشرف والمجد والسيادة ما لم يجتمع لغيره، على نحو ما سبق أن عرفت. وكان مولده عليه السلام في صبيحة يوم الاثنين ١٢ من ربيع الأول الموافق ٢٠ ابريل سنة ٥٧١م، وهو العام المشهور لدى العرب بعام الفيل.

ولد محمد يتيماً، فقد توفى أبوه وهو حمل في بطن أمه، ثم توفيت والدته حين جاوز السادسة من عمره بقليل، فكفله جده عبدالمطلب. وكان قد فرح كثيراً لما أخبر بولادته، وهو الذي سماه محمداً مع أن هذا الاسم لم يكن شائعاً عند العرب على أن عبدالمطلب لم يلبث أن توفى بعد حوالي عامين، فكفل النبي عمه أبو طالب وعنى بتربيته أشد عناية، وكان يصحبه أينما سار، حتى أن أبا طالب وافق على أن يرافقه النبي في رحلة تجارية إلى الشام ولم يتجاوز عمره حينذاك الثانية عشرة.

لما بلغ النبي العشرين من عمره اشترك في حلف الفضول الذي سبقت الإشارة إليه، وقال عن هذا الحلف بعد بعثته ما معناه: شهدت مع أعمامي حلفاً

في دار عبدالله بن جدعان، لو دعيت إليه اليوم لأجبت. يريد عليه السلام أنه لو قال قائل من المظلومين: يا لحلف الفضول لأجبته ونصرته.

اشتغل النبي قبل البعثة برعي الغنم والتجارة. وقد تعلم من الرعي الصبر والرأفة والرحمة كما استلزمت هذه الحرفة منه العزلة كثيراً في البادية، مما هيأ له الفرصة للتفكير العميق ونمو عقله، أما التجارة فقد غرست فيه صفات الإقدام والشجاعة والقيادة، لأنها صفات ضرورية لمن يتحملون مسئولية نجاة قوافلهم التجارية التي تخترق الصحراء ذهابا وإياباً من مكة إلى بلاد الشام واليمن. وقد اشتهر النبي بين معاصريه بسمو خلقه وأمانته وصدقه وسمعت بذلك السيدة خديجة بنت خويلد، وهي وقتذاك أرملة توفى عنها زوجها وتركها على درجة من الغنى، وكان العرب يسمونها الطاهرة وكانت خديجة ومما تملكه من ثروة في حاجة إلى رعاية ولها ابن عم يسمى «خزيمة» تعرف على محمد خلال رحلاته التجارية ولمس فيه نشاطاً وأمانة في مناسبات غير قليلة فتحدث عنه إلى ابنة عمه وأشار عليها أن تستعين به في أعمالها التجارية. ولما عرضت على محمد أن يشرف على تجارتها صادف ذلك قبولاً منه وارتياحاً.

خرج محمد في تجارة خديجة إلى الشام بمصاحبة غلامها ميسرة، وفي أثناء هذه الرحلة رأى ميسرة من صدق حديثه وأمانته وحسن معاملته وعلو شأنه ما أعجبه فلما عاد إلى سيدته أخذ يمتدحه ويثني عليه، فأبدت رضاها عن طريقة محمد في أداء واجبه وما لبثت أن أبدت رغبتها في التزويج به، وما رجته في ذلك من الخير فقبل الرسول أن يتزوج بها بعد موافقة أعمامه، وكان عليه السلام حينذاك في الخامسة والعشرين من عمره.

لما بلغ الرسول عليه السلام الخامسة والثلاثين من عمره حدث أن تهدمت بعض جدران الكعبة، ومن ثم أسرعت قريش في هدمها وإعادة بنائها. وبعد

اكتمال البناء أرادوا وضع الحجر الأسود في مكانه، ولكنهم اختلفوا فيمن يضعه ودام الخلاف بين قريش أربعة ليال متتالية. وهنا تجلت حكمة النبي حين قام بوضع الحجر في ثوب وطلب أن يشارك في رفعه رجال يمثلون القبائل المختلفة حتى يوصلوه إلى قرب موضعه من الكعبة وهناك رفعه الرسول بيده الشريفة ووضعه مكانه. وبذلك انحسم الخلاف وقضى النبي بحكمته وسداد رأيه على مشكلة كادت تهدد أمن قريش.

لم يشترك النبي مع بقية قومه فيما كانوا يقومون به من عبادة الأوثان وحضور مجالس اللهو، وإنما تحلى بمكارم الأخلاق وآثر العزلة وأقدم على التعبد بمعنى التأمل والتفكير، فكان يذهب إلى غار حراء في أوقات معينة يخلو فيها بنفسه وقد لقى المعاونة من زوجته السيدة خديجة، فكانت تحترم شعوره، وتعد له الزاد الذي يكفيه أثناء انقطاعه في الغار للتعبد.

وحين بلغ الأربعين من عمره، نزل عليه الوحي وهو يتعبد بغار حراء يوم الاثنين ١٧ من رمضان، فسمع صوتاً يناديه بيا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل، ويقول له: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾(١). فقرأ النبي هذه الآيات. فلما انصرف عنه جبريل، أسرع إلى البيت فزعاً وقص ما حدث على زوجته، فبشرته بالخير وزيادة في ادخال الطمأنينة على قلبه ذهبت إلى ابن عمها ورقة بن نوفل، وكان قد اعتزل الأوثان، وسألته عن تفسير ما حدث لزوجها، فأجاب بأن محمداً نبي هذه الأمة لأن ما رآه هو الناموس الأكبر (الوحي) الذي أنزله الله على أنبيائه.

---

(١) سورة العلق آية ١ ـ ٤.

عاد محمد إلى الغار بعد فترة، فنزل عليه جبريل مؤكداً أنه رسول الله وبلغه آيات كريمة تحثه على البدء في الدعوة للإسلام. وأدرك النبي أن دعوته سوف تواجه معارضة شديدة من جانب قريش، ولذا بدأ بأقرب الناس إليه فآمنت به السيدة خديجة، وابن عمه علي بن أبي طالب الذي كان وقتذاك في العاشرة من عمره، ومولاه (خادمه) زيد بن حارثة.

استجاب للنبي بعد ذلك أبو بكر عبدالله بن أبي قحافة، وهو الذي أسلم على يديه: عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، وعبدالرحمن بن عوف، وطلحة بن عبيدالله وتلا هؤلاء بعض رجال قريش، كأبي عبيدة عامر بن الجراح والأرقم بن أبي الأرقم، الذي اتخذ الرسول من داره مركزاً سرياً للدعوة إلى الإسلام وقد أسلم فيها كثير من العرب.

الجهر بالدعوة وموقف قريش منها:

ظل الرسول ثلاث سنين يدعو إلى الإسلام سراً كل من يثق فيه ويطمئن إلى استعداده لقبول الإسلام ثم أوحى الله تعالى إلى نبيه باظهار دينه. وحينئذ أبدت قريش استياءها من جهر النبي بالدعوة إلى وحدانية الله، خشية القضاء على عبادة الأوثان التي كان وجودها مصدراً هاماً لثرائها، فعمدت إلى معاداته ومناهضة دعوته، لأن مكة إذا فقدت مركزها الديني بين القبائل العربية، ينصرف الناس عن الحج وتكون خسارة القرشيين عظيمة.

إن قصة كفاح النبي مع أعداء الدعوة الإسلامية يجب أن تكون عبرة لكل مناضل شريف، لأن هؤلاء لجئوا إلى مختلف الأسلحة ليثنوا النبي عن عزمه على نشر دعوته، لكنه صمد أمامها جميعاً مستعيناً بأسلحة أكثر مضاء منها: الثقة بالنفس، والمثابرة على الكفاح، والإيمان بحتمية نصر الله.

كان من الوسائل التي لجأت إليها قريش لمحاربة الدعوة الإسلامية: الضغط على أبي طالب عم النبي لحمل ابن أخيه على ايقاف دعوته، لكن أبا طالب حين لمس حماسة النبي وإصراره على المضي قدماً في أداء رسالته لم يعبأ بهم. فجربوا سلاح الإغراء، إذ عرضوا الملك على النبي شريطة أن يكف عن دعوته وعن مهاجمة عبادة الأوثان. غير أن النبي لم يعبأ بهم فلجئوا إلى الحاق الأذى بأصحابه وصان الله رسوله بعمه أبي طالب الذي كان مطاعاً في قومه، فصدهم عنه واستمر الرسول في دعوته لا تأخذه في الله لومة لائم. لكنه سمح لمن يرغب من أتباعه بالهجرة إلى الحبشة فهاجر إليها عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت النبي وتبعه المسلمون من مكة. وقد وقع اختيار النبي على الحبشة لما كان يعهده في ملكها من العدل والتسامح، كما أن الهجرة إلى أي مكان داخل جزيرة العرب كانت غير مأمونة لارتباط قريش مع القبائل بمصاهرات ومحالفات.

كان لهجرة المسلمين إلى الحبشة نتائج هامة، فقد ذاع بين العرب أن فريقاً من القرشيين هاجروا إلى الحبشة فراراً بدين تلقوه عن نبي بمكة، وبذلك سمع عن الدين الإسلامي من لم يسمع به من قبل، كما أنه كان لخروج هذه الجماعة أثر في تخفيف حدة عداء قومهم، لأنهم رأوا فريقاً منهم أصبح مضطهداً وأوذى في دينه حتى اضطر إلى أن يهاجر إلى مكان بعيد. وكان أكبر مكسب للدعوة الإسلامية عقب هجرة بعض أتباعها إلى الحبشة، إسلام حمزة عم النبي وعمر بن الخطاب، إذ تشجع كثير من أهل مكة في الدخول في الإسلام بعد أن هدى الله إليه هذين البطلين.

كانت هجرة المسلمين إلى الحبشة وإسلام حمزة وعمر، ضربتين أصابتا قريشاً في الصميم، فرأى القرشيون أن يتخذوا موقفاً حاسماً فاتفقوا على مقاطعة بني هاشم وبني المطلب[1] وعاهدوا أنفسهم على ألا يتعاملوا معهم في بيع أو

(١) المطلب شقيق لهاشم بن عبد مناف.

شراء أو زواج، ولا يجالسوهم ولا يكلموهم، حتى يسلموا إليهم محمداً ليقتلوه، وكتبوا بذلك صحيفة علقوها في جوف الكعبة. على أن الحمية والرأفة أخذت نفراً من القرشيين فاتفقوا على إعادة بني هاشم وبني المطلب إلى مساكنهم التي رحلوا عنها وبذلك نقضت صحيفة المقاطعة.

وفي السنة العاشرة من البعثة النبوية، أي بعد انتهاء حادث المقاطعة بقليل فقد النبي عمه أبا طالب وزوجته خديجة في يومين متقاربين من شهر شوال، فحزن على فقدهما حزناً شديداً، لدرجة أنه أطلق على العام الذي توفيا فيه عام الحزن. وقد بالغت قريش في أذى الرسول بعد موت عمه، مما حمل الرسول على الخروج إلى مدينة الطائف والتماس النصرة من أهلها، لكنهم خذلوه، وفضلاً عن ذلك فقد أغروا به سفهاءهم فصاروا يرمونه بالحجارة، فانصرف عن الطائف إلى مكة دون أن يستجيب له أي فرد من أهالي هذا البلد.

الهجرة إلى يثرب:

لما رأى النبي أن قريشاً مصرة على مناوأته، فكر في التحول عن مكة فصار كلما اجتمعت قبائل العرب في موسم الحج يقدم نفسه إليهم ويدعوهم إلى الله وإلى الإسلام، لكنه صادف إعراضاً من وفود هذه القبائل. على أن بشائر النصر لاحت للرسول من ناحية عرب يثرب بالذات، ولاشك أن سرعة استجابة هؤلاء للإسلام ترجع إلى الظروف الخاصة بمدينتهم، تلك التي جعلت منها بيئة أكثر ملاءمة من مكة لتقبل الدعوة الإسلامية والذود عنها، ففي موسم الحج الذي تلا يوم «بعاث» لقي النبي ستة من الخزرج، فدعاهم إلى الله وقرأ عليهم القرآن، فلقيت دعوته قبولاً منهم وعادوا إلى المدينة يتحدثون عن الإسلام بين قومهم حتى لم يبق دار من دور عرب المدينة إلا وفيها ذكر الرسول. وفي موسم الحج التالي

جاء مكة اثنى عشر رجلاً من يثرب، فقابلهم النبي عند العقبة بمنى (على مقربة من مكة) وبايعوه. وبعد انتهاء هذه البيعة التي تعرف في التاريخ ببيعة العقبة الأولى رجعوا إلى المدينة ومعهم مصعب بن عمير، أرسله النبي معهم ليعلمهم الإسلام. ولم يمض عام حتى أصبحت كل أسرة من عرب المدينة تضم فريقاً ممن دخل في الإسلام على يد مصعب بن عمير. وكان من نتيجة ذلك أنه في العام التالي (أي السنة الثالثة عشر من البعثة النبوية) اجتمع بالنبي ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان من الأوس والخزرج الذين أسلموا حديثاً، وتم هذا الاجتماع ليلاً بالعقبة أيضا، وفيه بايعوا النبي على أن يحموه بكل ما أوتوا من قوة، كما دعوه للهجرة إلى بلدهم والإقامة بين ظهرانيهم. وتعرف هذه البيعة ببيعة العقبة الثانية. وقد مهدت للمسلمين سبيل الهجرة إلى يثرب.

لما علمت قريش بنبأ تحالف الرسول مع عرب يثرب اضطربت اضطراباً شديداً واشتد أذاها للمسلمين، فأذن الرسول لأتباعه في مكة بالهجرة إلى المدينة وخرج هؤلاء في جماعة بعد جماعة حتى لم يبق بمكة إلا رسول الله وأبو بكر الصديق وعلي بن أبي طالب ومن اعتقله المشركون كرهاً. ونتيجة لذلك اجتمع زعماء قريش في دار الندوة لاتخاذ قرار حاسم بشأن الدعوة الإسلامية، وكان قرارهم الذي اتخذوه هو قتل النبي. لكن الله كشف هذه المؤامرة لنبيه، ففي الليلة التي اتفقوا فيها على قتله، خرج الرسول من داره في جنح الظلام، بعد أن اتفق مع علي بن أبي طالب على أن ينام في فراشه، وذهب إلى بيت أبي بكر الصديق الذي رحب به والذي صحبه في الهجرة إلى يثرب. ولما وصل إليها رحب به أهلها أجمل ترحيب ونزل في دار أبي أيوب خالد بن زيد الأنصاري وأمر الرسول ببناء مسجد للمسلمين في الموضع التي بركت فيه ناقته، وبنى إلى جانبه مساكنه التي انتقل إليها بعد سبعة أشهر قضاها في ضيافة أبي أيوب الأنصاري.

الرسول في المدينة ونشأة الدولة العربية:

كان سكان المدينة حين دخلها الرسول يتألفون من عدة عناصر: المسلمون من الأوس والخزرج الذين عرفوا بالأنصار، وبعض مشركي هاتين القبيلتين واليهود، ثم انضم إليهم المهاجرون من مكة.

حاول الرسول تنظيم صفوف المهاجرين والأنصار بالمدينة وتوكيد وحدتهم عن طريق تآلفهم، فآخى بينهم وكان الرسول يرمى من وراء المؤاخاة بين أصحابه من المهاجرين والأنصار أن يشد أزر بعضهم ببعض.

كذلك حرص الرسول على أن يضع نظاماً للحياة العامة في المدينة يكون أساساً لتحقيق الوحدة بين أهاليها ووضع نواة الدولة العربية، فكتب كتاباً اشتهر في التاريخ باسم «الصحيفة» أكد فيه على ضرورة التضامن والتعاون بين الجماعة الإسلامية وفتح الطريق للراغبين من اليهود في الإسلام. كما تضمن ما يتبع في فض الخصومات بين أهالي المدينة.

ولاشك أن الرسول عليه السلام قصد من هذا الدستور تحقيق الأمن والاستقرار بالمدينة والتعاون بين جميع سكانها في الدفاع عنها ضد أي اعتداء قد يقع عليها. وكان لهذا الدستور أثر بارز في وضع نواة الدولة الجديدة.

لم يلجأ الرسول إلى القتال طيلة إقامته بمكة، بل عمد إلى اقناع المشركين بالحجة والبرهان، ولكن هؤلاء اشتدوا في طغيانهم حتى اضطروا المسلمين إلى الهجرة أكثر من مرة. ولم يكن ثمة دليل على أن المشركين سيكفون عن مواصلة العدوان ومحاربة الدعوة الإسلامية، ولذلك أذن الله للمسلمين بالتصدي لهم للذود عن أنفسهم، ولتأمين الدعوة الإسلامية، وصد من يقف في سبيلها حتى لا يفتن أحد من المسلمين عن دينه ويرغم على التخلي عنه.

كان لتشريع الجهاد أهمية خاصة بالنسبة للمسلمين بالمدينة، فقد أعطاهم صفة سياسية لم يتمتعوا بها من قبل، ذلك أنهم أصبحوا نواة الأمة العربية الإسلامية عليهم أن يجاهدوا في سبيل اعلاء كلمة الإسلام وجمع شتات العرب ولتحقيق هذا الهدف السامي خاضوا غمار كثير من المعارك الحربية بقيادة النبي، أطلق عليها إسم الغزوات.

شرع الإسلام الجهاد للمسلم، ومعناه بذل الجهد في سبيل اعلاء كلمة الله، وإقامة المجتمع الإسلامي، وبذل الجهد بالقتال نوع من أنواعه. وأما غايته فهو إقامة المجتمع الإسلامي وتكوين دولة إسلامية قوية ومتماسكة.

وشرع الله الجهاد لإزالة كل عقبة تقف في سبيل الجماعة الإسلامية الناشئة، ولا يقبل من المشركين عبدة الأصنام غير الإسلام، أما أهل الكتاب، فيخيرون بين الإسلام أو البقاء على دينهم بشرط أداء الجزية.

وفي ذلك يقول الله تعالى ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ - ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾[١] - ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[٢] ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[٣] ويقول رسول الله ﷺ «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قال لا إله إلا الله، عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله».

---

(١) سورة الحج آية ٤٠.
(٢) سورة الأنفال آية ٣٩.
(٣) سورة البقرة آية ٢١٦.

وقد شُرع الجهاد لحماية الدعوة الإسلامية من أعدائها المتربصين بها، واستعداد المسلمين المستمر لدرء الخطر المحيط بهم، وإعداد العدة، وما استطاعوا من قوة لمحاربة أعدائهم الذين أخرجوهم من ديارهم بغير حق.

وكان لتشريع الجهاد أهمية خاصة للمسلمين، إذ أعطاهم صفة سياسية لم يتمتعوا بها من قبل، ذلك أنهم أصبحوا نواة الأمة العربية الإسلامية، عليهم أن يجاهدوا في سبيل رفع راية الإسلام، وجعل كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، وتوحيد شمل العرب في ظل الإسلام.

غزوة بدر (٢هـ/٦٢٤م):

فكر الرسول في الضغط على قريش وتهديدها بتعطيل تجارتها. ولم يكن في ذلك متجنياً عليها، لأن عدوانها على المهاجرين كان لم يزل قائماً منذ أن أرغمتهم على ترك بلدهم. ولذلك ندب النبي نفراً من أصحابه لاعتراض قافلة تجارية لقريش كانت تمر بالقرب من المدينة. لكن أبا سفيان رئيس هذه القافلة لما علم بما اعتزمه النبي وأصحابه أرسل إلى قريش يستنفرها لحماية تجارتها، كما لم يتابع سيره في الطريق المعتاد، بل سلك طريقاً أخر محاذيا لساحل البحر الأحمر، وواصل سيره حتى جاوز المكان الذي كان المسلمون يترصدون القافلة عنده، وعاد إلى مكة بقافلته دون أن يتعرض لها المسلمون.

خرج كثير من القرشيين من مكة لنجدة أبي سفيان، ولكنه حين تمكن من النجاة بالقافلة أرسل إليهم يحثهم على العودة، فاختلف هؤلاء فيما بينهم، إذ رأى فريق منهم أنه لا ضرورة لمواصلة السير وقتال المسلمين بعد نجاة القافلة. لكن أبا جهل اتهم هؤلاء بالجبن واستطاع أن يحمل الجميع على المضي لقتال المسلمين.


بحر نيطش
الخزر
دولة الروم القياصرة
ارمينية
اذربيجان
الديلم
جرجان
ماوراء النهر
سمرقند
بخارى
خوارزم
خراسان
مرو
نيسابور
هراة
كابل
غزنة
دولة الفرس
سجستان
فارس
شيراز
اصبهان
نهاوند
بغداد
الجزيرة
دجلة
الفرات
الانبار
البصرة
السند
مكران
بحر فارس
الإحساء
عمان
البحر الأخضر
جزيرة العرب
تبوك
خيبر
المدينة
بدر
مكة
الروم
حلب
حماة
حمص
دمشق
يافا
القدس
الاسكندرية
منفيس
مصر
اسوان

خريطة رقم (١)

وفي السابع عشر من رمضان التقى الجمعان عند بئر بدر (على مسافة ١٤٦ ك.م من المدينة) وكان عدد المشركين يقارب الألف وهذا يعادل ثلاثة أضعاف المسلمين تقريباً. وعلى الرغم من ذلك فقد دارت الدائرة على المشركين، وقتل من رؤسائهم سبعون، كما أسر نحو سبعون واستشهد من المسلمين أربعة عشر.

وتعتبر غزوة بدر حدثاً هاماً في تاريخ الإسلام، لأنها كانت أول معركة حربية دارت بين المسلمين والمشركين، انتصر فيها المسلمون على قلة عددهم وضعف عدتهم، وأظهروا من خلالها مدى تمسكهم بدينهم وتفانيهم في نصرته. وكان لهذا النصر نتائج بعيدة الأثر، فدخل في الإسلام كثير من المشركين كما ضعفت شوكة اليهود.

أظهرت قبيلة بني قينقاع اليهودية التي كانت تسكن بالمدينة ما كانت تخفيه من العداء للمسلمين عقب انتصارهم في بدر، فقام شعراؤها برثاء قتلى بدر في هذه المعركة، كما أخذوا يقللون من قيمة النصر الذي أحرزه المسلمون فيها، بل نقضوا العهد الذي عقده الرسول معهم مما اضطره إلى إجلائهم عن المدينة.

أرادت قريش أن تثأر لمن قتل من رجالها في معركة بدر، فرصدت كل مال القافلة التي كانت سبباً في تلك المعركة للتجهيز لحرب أخرى ضد المسلمين. وكان هذا المال قد أودع دار الندوة بعد نجاة القافلة. وقد طلب أصحابه أثر عودة المشركين من بدر الإستعانة به على الانتقام من المسلمين.

تجهز أبوسفيان في ثلاثة آلاف مقاتل من قريش وحلفائها وخرج قاصداً المدينة ولما علم بذلك الرسول استشار أصحابه فيما ينبغي أن يفعله للدفاع عنها. وكان رأي الشباب الذين لم يشهدوا معركة بدر أن يخرج المسلمون لملاقاة العدو

خارج المدينة أما شيوخ الصحابة فكانوا يرون التحصن بالمدينة وصد العدو عنها، وكان الرسول يستصوب رأي هؤلاء الشيوخ. ولكنه أخذ بالرأي الأول نزولاً على رأي الأغلبية لأن القائلين به كانوا أكثر أهل المدينة، كما أن البقاء بالمدينة ربما يشعر قريشاً بخيفه المسلمين من لقائها فتزداد جرأتها ويقوى أملها في النصر.

خرج النبي في ألف من أهل المدينة يوم الجمعة ١٤ شوال من السنة الثالثة للهجرة، وبعد أن غادر المدينة بقليل، رجع ثلاثمائة من المنافقين فلم يعبأ الرسول بهم، ومضى بالباقين حيث عسكر بسفح جبل أحد (على بعد خمسة أميال من المدينة) وكان جيش قريش قد عسكر بالوادي الذي ينحدر إليه هذا السفح. وقد رتب المسلمون أنفسهم بحيث تكون ظهورهم إلى الجبل ووجوههم نحو المدينة والوادي الذي يعسكر فيه الأعداء. وخص النبي خمسين من الرماة وفقوا على مرتفع وراء ظهور جيشه ليمنعوا أية حركة تطويقية له، وأوصاهم بألا يتركوا مكانهم إلا بناء على أمر منه مهما كانت نتيجة المعركة. ولما التقى الجمعان رجحت كفة المسلمين أول الأمر، وشرع المشركون في التقهقر، فطمع الرماة في الغنائم ونزلوا يجمعون ما تركه العدو منها، فانتهز الكفار هذه الفرصة وأتوا المسلمين من الخلف وصوبوا الرماح في ظهورهم فاضطربوا لهذه المفاجأة واختل نظامهم، وقتل منهم سبعون فيهم حمزة بن عبدالمطلب، كما جرح الرسول وظن الكفار أنه قتل فقنعوا بهذا الانتقام ورجعوا إلى مكة.

وتتركز أهمية هذه الموقعة في أنها كشفت عن نوايا المنافقين، كما ألقت على المسلمين درساً بالغ الأهمية في وجوب طاعة النبي فيما يأمرهم به أو ينهاهم عنه وبينت لهم أهمية الاحتياط في المعارك الحربية مما أفادهم في حروبهم المستقبلة.

غزوة الخندق (٥هـ/٦٢٧م):

كانت العلاقة قد توترت بين الرسول وقبيلة بني النضير اليهودية بعد واقعة أحد وعمل على اجلائها عن المدينة بعد أن فطن إلى تآمرها ضده حين قدم إليها يستعين بها في دفع دية مطلوبة من المسلمين طبقاً لما بينهما من عهد فسار بعضهم إلى مكة وأخذوا يحرضون القرشيين ويدفعونهم إلى محاربة المسلمين ولقى هذا التحريض قبولاً من قريش وانضم إليها جماعات من القبائل العربية واليهودية وتعرف هذه القبائل بالأحزاب.

ولما علم الرسول بخروج قريش وحلفائها إلى المدينة شاور أصحابه فيما يفعل لصد أعدائه فأشار عليه سلمان الفارسي بحفر خندق حول المدينة. فأعجب الرسول برأيه واشترك بنفسه في حفر الخندق.

لما بلغت قوات قريش وحلفاؤها المدينة، فوجئت بوجود الخندق، لأنها لم تكن تتوقع هذا النوع من وسائل الدفاع التي لم تكن معروفة لدى العرب ورأى هؤلاء ألا سبيل إلى اجتياز الخندق، فاكتفوا بحصار المسلمين والتراشق معهم بالنبال عدة أيام متتابعة بلغت قرابة شهر، وقد تعب المسلمون كثيراً من شدة وطأة هذا الحصار. ومما زاد الطين بلة، أن زعيم بني النضير تمكن من اقناع يهود بني قريظة بنقض عهدهم مع النبي. ومعنى ذلك أن أطفال المسلمين ونساءهم داخل المدينة صاروا معرضين للفتك بهم في أية لحظة، لأن رجال المسلمين تركوا هؤلاء داخل المدينة (وبجوارهم بنو قريظة) ورابطوا خلف الخندق لصد المهاجمين. فكان ذلك مما أوقع الذعر في قلوب المسلمين.

على أن شدة إيمان المخلصين من الصحابة، مكنهم من تحقيق النصر في النهاية، وقد لجأ النبي إلى الحيلة في تفريق شمل أعدائه، وبدأ ذلك بالاتصال بزعماء قبيلة غطفان المحالفة لقريش، يعرض عليهم التخلي عنها مقابل منحهم

بعض الأموال والثمار. كما أحسن الاستفادة من نعيم بن مسعود الغطفاني حين جاءه مسلماً ولم يعلم بإسلامه أحد من الأعداء، فطلب منه أن يعمل على تشكيك الأعداء بعضهم في بعض، فزين لليهود من بني قريظة أخذ رهائن من قريش وحلفائها ليضمنوا بذلك عدم تخلي الحلفاء عنهم، ثم أخبر هؤلاء الحلفاء بأن اليهود يريدون أخذ رهائن منهم لتسليمها لمحمد كدليل على وفائهم له. ولما طلب اليهود هذه الرهائن رفض الحلفاء وساءت العلاقة بين الطرفين، ولم يخامر كل منهما الشك في صحة ما قاله نعيم، مما دفع اليأس إلى قلوب قريش وحلفائها، وبخاصة حين هبت ريح عاتية عصفت بمعسكرهم، فقرر أبو سفيان رفع الحصار والرحيل عن المدينة.

وهكذا انتهت أخطر حملة وجهت إلى المسلمين دون أن تكلفهم خسائر تذكر في الأرواح. وقد تحولوا بعدها من موقفهم الدفاعي إلى الهجوم. ويروي البعض أن النبي قال أثر رحيل هؤلاء عن المدينة «الآن نغزوهم ولا يغزوننا».

صلح الحديبية:

لما اطمأن الرسول إلى تفوق المسلمين على أعدائهم، أمر أصحابه في ذي القعدة من السنة السادسة للهجرة بالمسير إلى مكة لأداء العمرة، فلبوا دعوته، وخرج بمن معه من المسلمين الذين بلغ عددهم ألف وأربعمائة قاصدين مكة، وساق قوم منهم الهدى (الذبائح)، دلالة على أنهم لا يقصدون حرباً ولا يبتغون إلا زيارة البيت الحرام. وفي أثناء الطريق بلغهم أن قريشاً تأهبت لمنعهم من دخول مكة، وما زال سائراً حتى وصل إلى مكان يقال له «الحديبية» (على بعد تسعة أميال من مكة) اطمأن إلى الإقامة به. وأوفد الرسول إلى قريش عثمان بن عفان ليؤكد لها أن المسلمين لم يأتوا لمحاربتهم وإنما لزيارة بيت الله الحرام. لكن

قريشاً احتجزت عثمان بن عفان عندها، وأشيع بين الناس أنه قتل فبايع المسلمون النبي على حرب قريش بيعة تعرف ببيعة الرضوان. ولما علمت قريش بهذه البيعة خشيت بأس المسلمين، وانتهت السفارات بينها وبين الرسول بعقد صلح، وكان من أهم شروطه: أن يؤجل المسلمون دخول مكة وأداء العمرة إلى العام القادم، وتوقف الحرب بين الفريقين لمدة عشر سنوات، وأن يعيد الرسول من يأتيه من قريش مسلماً بدون إذن وليه، ولا تلزم قريش برد من يأتي إليها من عند محمد.

كان هذا الصلح دليلاً على بعد نظر الرسول وحسن سياسته، فأصبحت قريش ترى أن المسلمين بزعامة الرسول صاروا قوة لها شأنها واجبة الاحترام. كما فطن بعض عظمائها إلى أن الإسلام لا محالة منتصر فبادروا بالدخول فيه والهجرة إلى المدينة، ومن هؤلاء خالد بن الوليد وعمرو بن العاص.

هكذا فضلاً عن أن الهدنة التي تقررت في هذا الصلح أتاحت للنبي أن يتفرغ لمواجهة اليهود وتأمين دعوته من شرهم. أضف إلى ذلك أنها مكنته من توسيع دائرة الدعوة إلى الإسلام ونقلها إلى كثير من العناصر والأماكن، فخاطب النبي بشأنها الملوك والأمراء ورؤساء القبائل، وكان رسله يذهبون ويرجعون وقد آمنوا شر قريش وحلفائها. وهكذا أتاح صلح الحديبية للمسلمين القيام بجهود فعالة لتأمين أنفسهم ونشر دعوتهم داخل شبه الجزيرة العربية وخارجها.

موقف اليهود من الرسول والمسلمين في المدينة المنورة

كان فريق من اليهود يقيم في يثرب منذ زمن قديم موغل في القدم، ولكنهم هاجروا بجماعات كثيرة إلى يثرب في القرنين الأول والثاني الميلاديين عقب تعرضهم لاضطهاد الرومان في سوريا، وتفرقهم على أثر ذلك في أنحاء متفرقة من الأرض، وهاجر بنو النضير وبنو قريظة إلى يثرب. واختلطوا بالعرب، وتأثروا بالحياة العربية، وتكلموا اللغة العربية، ونبغ منهم الشعراء، ولكنهم استطاعوا أن يسيطروا على الوضع الاقتصادي في يثرب، وزرعوا الأرض المحيطة بيثرب، واستصلحوا بعض الأراضي في هذه المنطقة، واشتغلوا بالتجارة، والصناعة، خصوصاً صياغة الذهب وصناعة الأسلحة والآلات الزراعية، واستأثر بنو قينقاع بالصياغة، وأقاموا لهم في يثرب سوقاً عُرف باسمهم.

أصبح لليهود بفضل سيطرتهم الاقتصادية على يثرب وضع متميز، فكانوا يقرضون العرب من الأوس والخزرج بالربا، ويلجأ إليهم أهل يثرب لحل مشاكلهم المالية، ويعتمدون عليهم في النواحي التجارية والصناعية والزراعية.

ولما هاجر الرسول ﷺ إلى يثرب عقد ميثاق المؤاخاة مع الأوس والخزرج، كما عقد اتفاقاً مع اليهود، يعرض عليهم الإسلام لمن يشاء، «ولكل يهودي حريته الكاملة إن بقي على دينه» ويتضح ذلك من قوله: «وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم» أما من بقي على دينه من اليهود «لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم».

وعلى الرغم من أن الرسول كفل لليهود حرية العقيدة، وحرية العيش في المدينة بسلام، إلا أنهم عبروا عن كراهيتهم للرسول والإسلام منذ هجرته إلى يثرب، فأخذوا يثيرون الشك حول عقيدة الإسلام، ويزعمون أن النبوة لا تكون

إلا في بني إسرائيل، ولا تظهر في بلاد الحجاز، إنما تظهر في بلاد الشام.

أول من نقض الميثاق الذي عقده الرسول ﷺ مع اليهود، يهود بني قينقاع فقد راعهم انتصار الرسول على قريش في غزوة بدر، وخشوا من ازدياد نفوذ المسلمين نتيجة لذلك، ورأوا أن ارتفاع شأن المسلمين وازدياد مكانة الرسول عقب هذا النصر خطراً عليهم، وإضعافاً لهم، لذلك أشاعوا بين أهل المدينة المنورة قبل وصول الرسول والمسلمين إليها بعد غزوة بدر، أن المسلمين قد هُزموا في المعركة، وأن النصر كان لقريش، ورثى شعراؤهم قتلى بدر من المشركين، وهذا يدل على موقفهم العدائي من المسلمين ومن الرسول، وحينما قدم الرسول إلى المدينة ظافراً منتصراً لم يأبه بموقف هؤلاء اليهود وتغاضى عن أخطائهم.

على أن اليهود من بني قينقاع لم يكفوا عن إظهار عداوتهم نحو المسلمين، فتعرضوا كل ما أمكنهم ذلك لبعض المسلمين بالضر والأذى، ومن بين هذه الأعمال العدوانية تعرضهم لامرأة مسلمة ذهبت إلى سوقهم لبيع بعض حليها، وأهانها الصائغ وسخر منها، هنا حدثت مشاجرة بين رجل من المسلمين والصائغ، وقتل المسلم الصائغ، وأثار ذلك اليهود من بني قينقاع، فاعتدوا على المسلم، وعلى أثر ذلك حدث نزاع بين المسلمين وبني قينقاع.

رأى الرسول أن بقاء بني قينقاع في المدينة المنورة يشكل خطراً على دولته الناشئة ودعوته السماوية بعد أن نقضوا العهد، وبعد أن كشفوا عن موقفهم العدائي من الإسلام ونبي الإسلام لذلك جمعهم في سوقهم، وعرض عليهم الإسلام، وقال: يا معشر اليهود، احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة، واسلموا، فإنكم قد عرفتم أني نبي مرسل، تجدون ذلك في كتابكم

---

(١) أي أصحاب بدر.

وعهد الله إليكم. ولكنهم أبوْا وردوا على الرسول رداً ينم عن الضغينة والكبرياء، وقالوا: يا محمد لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب، فأصبت منهم فرصة، إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس. وفي ذلك نزل قول الله تعالى ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾[1].

حاصر الرسول والمسلمون بني قينقاع خمسة عشر يوماً، حتى وهنوا وضعفوا، واستسلموا، واتفقوا مع الرسول على أن يتنازلوا عن أموالهم له، ويحتفظوا بالنساء والذرية، ويغادروا ديارهم، ويجلوا عن المدينة. وتم تنفيذ الاتفاق فعلاً. ورحلوا بنسائهم وذراريهم إلى أذرعات وقسم الرسول الثروات التي حصل عليها منهم على المسلمين. وبذلك تخلص الرسول من خصومه وخصوم الإسلام والمسلمين.

وفي سنة ٤هـ أرسل الرسول نفراً من خيار الصحابة إلى أهل نجد يدعونهم إلى الدخول في الإسلام، ولكن أهل نجد أساءوا إلى هذا الوفد، وتعرضوا له، بل قتل عامر بن الطفيل الرجل المسلم الذي سلمه كتاب الرسول، ودعا بني سُليم إلى قتال المسلمين، فقتلوا معظمهم، ولم ينج من القتل إلا القليل، ومن بينهم عمرو بن أمية الضمري، فعوّل على الانتقام لمقتل المسلمين، فقتل رجلين من بني عامر، ولم يكن يعلم أن مع العامريين عقدا مع رسول الله وجوار. لذلك غضب الرسول لمقتل الرجلين، وقرر دفع ديتهما لبني عامر.

---

(١) سورة آل عمران آية ١٢ ـ ١٣.

خرج الرسول الكريم إلى بني النضير يستعين بهم في أداء دية القتيلين على اعتبار أن ثمة حلفا كان بين بني النضير وبني عامر، فرحب اليهود من بني النضير بمقدم الرسول وبمطلبه خداعاً ونفاقاً، وجلس الرسول مع الصحابة بجوار بعض منازلهم ينتظر تحقيق مطلبه، ولكنه شعر بتآمرهم عليه، ومحاولة إلقاء صخرة عليه للتخلص منه فغادر الرسول المكان، ورأى أن هؤلاء اليهود قد نقضوا العهد بهذا المسلك العدواني، لذلك وجب التخلص منهم، وطردهم من المدينة المنورة بعد أن غدروا به وخانوه. وفي الحقيقة أن الدعوة لا يستقيم أمرها، ولا يكتب لها النجاح مع وجود خونة وأعداء في حدود دولتها وأرضها. إذن لا بد من استئصال هذا الورم الخبيث من جسم هذا البنيان الصاعد.

لذلك حاصرهم ستة أيام، فتحصنوا في حصونهم، فأمر الرسول بإشعال النيران في نخيلهم، ولما اشتد بهم الحصار وقذف الله في قلوبهم الرعب، ورأوا أنهم لن يستطيعوا البقاء في المدينة، سألوا الرسول أن يجليهم، ويكف عن دمائهم، وأن يأذن لهم الرسول بحمل أمتعتهم على الأبل فوافق الرسول على ذلك، وأجلوا عن المدينة بعد أن خربوا ودمروا بيوتهم. وتركوا الأموال لرسول الله، فقسمها على المهاجرين الأولين دون الأنصار. ووفد بعض بني النضير إلى خيبر، وبعضهم إلى بلاد الشام.

ونزلت في بني النضير سورة الحشر، يذكر فيها ما أصابهم الله به من نقمته، وما سلط عليهم به رسوله، وما عمل به فيهم، فقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ

وَرَسُولَهُۥ وَمَن يُشَاقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾.

وبذلك تخلص الرسول من بني النضير، وأمن مكرهم وشرهم. ومن ناحية أخرى استفاد المسلمون المهاجرون الذين تركوا ديارهم وأموالهم، وقدموا إلى المدينة، بهذه الأموال الأمر الذي يسر لهم الاستقلال بمعيشتهم، بعد أن كانوا يقاسمون الأنصار حياتهم المعيشية. وفي نفس الوقت استفاد الأنصار من هذا الأمر، فاستقل كل أنصارى بمعيشته بعد أن كان يقاسمه فيها أخوه المهاجر طبقاً لميثاق المؤاخاة.

لم يبق في المدينة المنورة من اليهود إلا بنو قريظة وقد بقوا على عهدهم مع رسول الله، ولكنهم نقضوا العهد في أثناء غزوة الأحزاب.

ذلك أن بني النضير لم يتغاضوا عن طردهم من المدينة فذهب زعماؤهم إلى مكة، وعلى رأسهم حيى بن أخطب وحرضوا قريشاً على محاربة الرسول، والتخلص منه ومن المسلمين، وزعموا أن دين قريش أفضل من الإسلام. وفي ذلك نزل قول الله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴾ (سورة النساء آية ٥٠ ـ ٥١).

كذلك حرض اليهود من بني النضير، غطفان على قتال المسلمين، وعرض اليهود على المشركين المساهمة في نفقات الحرب، وتقديم المساعدات المادية الضرورية. ولقيت هذه الدعوة استجابة من قريش، لأن انتصار القرشيين في أحد شجعهم على مواصلة الحرب ضد الرسول، وعلى التخلص منه. لذلك

خرجت حملة كبيرة من مكة إلى المدينة في سنة ٥هـ لغزوها، وهي غزوة الأحزاب أو الخندق.

لم يبق في المدينة ـ أثناء حصار الأحزاب ـ من اليهود سوى بنو قريظة، واستطاع حيي بن أخطب أن ينفذ داخلها لتحريض هؤلاء اليهود على الانضمام إلى الأحزاب، والتقى بهم فعلاً واستجابوا لدعوته، ونقضوا عهدهم مع الرسول واطمأنوا إلى أن حصار المشركين للمدينة، سوف يؤدي إلى زوال دولة الرسول، وتخليصهم منه.

كان إنضمام بني قريظة إلى العدو خطراً جسيماً على الإسلام وأهله، فالمسلمون الآن يحاربون في جبهتين، جبهة داخلية تتمثل في بني قريظة، وجبهة خارجية تتمثل في العدو المحاصر للمدينة، والجبهة الداخلية لا تقل خطورة عن الجبهة الخارجية. وكان نقض يهود بني قريظة للعهد مع الرسول في ذلك الوقت الحرج بالذات عاملاً قد يؤدي ويعجل بهزيمته، لولا أن إرادة الله تدخلت، ونصر الله المسلمين بانسحاب قريش والأحزاب.

لما انتهت غزوة الخندق رأى الرسول ضرورة معاقبة بني قريظة على خيانتهم، فأمر الرسول مؤذناً، فأذن في الناس: من كان سامعاً مطيعاً فليصلين العصر ببني قريظة. وحاصرهم رسول الله خمساً وعشرين ليلة حتى أجهدهم الحصار، وقذف الله في قلوبهم الرعب.

ولما كان بنو قريظة حلفاء الأوس، فقد طلبوا من الرسول أن يعاملهم كما عامل بني قينقاع، وبني النضير مكتفياً بإجلائهم عن المدينة بدلاً من قتلهم. لذلك قرر الرسول النزول على حكم سعد بن معاذ ـ وهو من الأوس ـ قال سعد: فإني أحكم فيهم أن تُقتل الرجال وتقسم الأموال، وتسبى الذراري والنساء. فوافق الرسول على حكمه. وأمر الرسول بقتل رجال بني قريظة، وهم

ست أو سبع مائة. وكان حيبى بن أخطب ممن قُتل، وقد تزيا وقت مقتله بثياب فاخرة، ونظر إلى الرسول، وقال: أما والله سالمت نفسي في عداوتك، ولكنه من يخذل الله يخذل، ثم أقبل على الناس وقال: إنه لا بأس بأمر الله كتاب وقدر وملحمة كتبها الله على بني إسرائيل.

قسم الرسول أموال بني قريظة ونساءهم وأبناءهم على المسلمين، فكان للفارس ثلاثة أسهم، للفرس سهمان ولفارسه سهم، وللراجل من ليس له فرس، سهم، واصطفى الرسول لنفسه من نساء بني قريظة، ريحانة، ولم يفرض عليها الاسلام، بل ظلت على يهوديتها فترة من الزمن، حتى أسلمت.

وكان للتخلص من بني قريظة، وطرد اليهود من المدينة نتائج بالغة الأهمية لدولة الرسول الناشئة، ذلك أن مجتمع المدينة المنورة تخلص من عناصر الغدر والخيانة، وأصبح مجتمعا متجانسا من العرب والمسلمين، أنصارا ومهاجرين يدين بدين واحد، ويتبع نبيا واحدا، ويستظل براية الاسلام، ويتخذ من منهج السماء دستورا يسير بمقتضاه، ويهتدي بهديه. كما أن الرسول والمسلمين تخلصوا من عدو خطير داخل أراضيهم، يضمر لهم العداوة والبغضاء، وواتت الفرصة للرسول لكي يتفرغ لعدو واحد يتمثل في قريش وحلفاء قريش، بدلا من التصدي لعدوين في وقت واحد، وتمكن الرسول أيضا بعد التخلص من اليهود في المدينة أن يتفرغ في جو سلمي للمسلمين، ويوضح لهم شريعتهم، ويفسر لهم القرآن الكريم، ويبصرهم بأمور دينهم، ويرشدهم إلى ما فيه الخير والصلاح في دنياهم، وينظم العلاقة بين أفرادهم، ويطبق في المجتمع الجديد قواعد الشريعة الاسلامية.

غزوة خيبر ٧ هـ / ٦٢٨ م

لئن كان الرسول بعد صلح الحديبية قد أمن شر الأخطار التي تهدد المدينة من ناحية الجنوب حيث تقيم قريش وحلفاؤها فإن الخطر ظل يتهددها من ناحية الشمال، حيث، توجد تجمعات يهودية كبيرة تقيم في خيبر وفدك وتيماء وأم القرى.

وتقع خيبر على بعد ستة وتسعين ميلا شمال المدينة، وهي واحة كبيرة حصينة، بها نخل كثير ومزارع واسعة وحصون عالية مقامة بين النخيل والحقول، على مرتفعات من الأرض تزيدها حصانة ومناعة، ولذلك ظن اليهود أن الرسول لن يستطيع غزوها.

اجتمع الكثير من اليهود الذين أجلاهم الرسول عن المدينة في خيبر، ورأى الرسول أن بقاءهم في الجزيرة العربية يشكل خطرا على دولته وقد يتآمرون عليه، كما فعلوا أثناء وجودهم في المدينة، وقد يتحالفون مع قريش وأعداء الإسلام، وينضمون إليهم في غزو المدينة، كما فعل بنوالنضير، حينما حرضوا قريشا وحلفاءها على غزو المدينة، فيما يعرف بغزوة الأحزاب. لذلك اقتضت ضرورة المحافظة على أمن وسلامة الدولة الاسلامية الناشئة، التخلص من اليهود القابعين في الجزيرة العربية، حتى يتفرغ الرسول لاخضاع قريش بعيدا عن عناصر الغدر والخيانة، ولم يغب عن ذهن الرسول والمسلمين أن اليهود قد يوحدون صفوفهم ويحاولون الانتقام مما لحق بهم على أيدي المسلمين الذين طردوهم من ديارهم وقتلوا الكثير من رجالهم، واستولوا على أموالهم، وممتلكاتهم. لذلك رأى الرسول ضرورة إخضاعهم درءا لخطرهم، ودفعا لشرهم.

وفي المحرم سنة سبع من الهجرة عقب عودة الرسول من الحديبية، دعا الرسول المسلمين إلى الخروج إلى خيبر لغزو اليهود، ودفع الراية البيضاء إلى

علي بن أبي طالب، أي ولاه قيادة الجند، وسار المسلمون يتصدرهم الرسول الكريم، حتى اقتربوا من خيبر، ودعا الرسول ربه بالنصر والسلامة، وقال: اللهم رب السماوات وما أظللن، ورب الأرضين وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، ورب الرياح وما أذرين، فإنا نسألك خير هذه القرية، وخير أهلها وخير ما فيها، ونعوذ بك من شرها وشر أهلها، وشر ما فيها، أقدموا باسم الله.

لما اقترب المسلمون من خيبر في الصباح الباكر، كان أهل خيبر خارجين إلى أراضيهم الزراعية، فعادوا إلى حصونهم وأغلقوها، وتحصنوا بها، وحال الرسول بين غطفان ــ حلفاء اليهود ــ من أن يهبوا لنصرة حلفائهم، وهاجم اليهود وسقطت معظم الحصون في أيدي المسلمين، ولما هاجم المسلمون حصني الوطيح والسُّلالم، خشوا يهود هذين الحصنين بأس المسلمين، وآثروا المسالمة، وأرسلوا إلى الرسول يعرضون عليه الصلح، ويحقن دماءهم فلقيت هذه الدعوة استجابة من الرسول الكريم، وحذا أهل فدك حذو يهود هذين الحصنين، وعرضوا على الرسول الصلح والاستسلام على أن يحقن لهم دماءهم، فوافق الرسول.

وعلى ذلك فُتحت أكثر حصون خيبر عنوة، وقسم الرسول أموال وأراضي وممتلكات هذه الحصون بين المسلمين، بعد أن حجز الخمس. أما الحصون التي فتحها المسلمون صلحا، فقد أقرها الرسول في أيدي أصحابها اليهود، يزرعونها ويؤدون النصف عن ناتج المحصول إلى الرسول. أما فدك فكانت خالصة للرسول بمعنى أن ملكيتها آلت إليه.

وبذلك حققت غزوة خيبر أهدافها، فأخضع الرسول يهود خيبر، وأمن مكرهم، وتفرغ لعدو واحد بعد أن كان يحارب في جبهتين، ويواجه العداوة من خصمين عنيدين، وضمت دولة الرسول الناشئة بعد هذه الغزوة أراض خارج

المدينة، وهي أرض خيبر. وبذلك اتسع نفوذها، كما أصبح لدولة الرسول الناشئة أراض يؤدي أهلها عنها نصف دخلها، الأمر الذي دعم الوضع الاقتصادي للدولة الإسلامية، وضمت هذه الدولة رعايا جدد وهم اليهود، يؤدون الجزية لدولة الإسلام.

كتب الرسول إلى الملوك والأمراء داخل جزيرة العرب وخارجها:

رأى النبي بعد تأمين المدينة من الأخطار التي كانت تهددها من الجنوب والشمال أن يوجه دعوته إلى الملوك والأمراء المعاصرين له داخل جزيرة العرب وخارجها، فأوفد رسله إلى مختلف البلاد يحملون كتباً منه إلى هؤلاء الملوك والأمراء يدعوهم فيها لاعتناق الإسلام، فاستجاب أغلب الأمراء العرب لهذه الدعوة وبخاصة أمراء اليمن والبحرين وعمان. أما الملوك والحكام من غير العرب فقد اختلفت مواقفهم من هذه الكتب، إذ أظهر بعضهم استياءاً شديداً مثل كسرى فارس الذي مزق كتاب النبي فمزق الله ملكه. أما البعض الآخر مثل: هرقل امبراطور الروم، ونجاشي (ملك) الحبشة، والمقوقس حاكم مصر ـ من قبل هرقل ـ فقبلوا كتب الرسول ولم يظهروا أي استياء لما لمسوه من صدق دعوة النبي، الذي يتضح من النداء الذي وجهه في كتبه إلى كل منهم، وهو (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم، ألا نعبد إلا الله، ولا نشرك به شيئا، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون).

ولا شك أن مكاتبة النبي لهؤلاء الملوك والأمراء كانت خطوة على جانب كبير من الأهمية فهي نقطة تحول هامة في تاريخ بلاد العرب، فبعد أن كانت

تلك البلاد مفككة العرى، وتخضع بعض أطرافها للنفوذ الأجنبي، استطاع بسياسته التي اتبعها لتعميم الدعوة الإسلامية أن يمهد السبيل لتوحيد بلاد العرب سياسياً ودينياً.

عالمية الدعوة الإسلامية

تدل الكتب التي أرسلها الرسول إلى ملوك وأمراء الدول المعاصرة له إلى أن الإسلام لم ينزل للعرب فقط بل للناس جميعاً في مشارق الأرض ومغاربها. وهناك أكثر من أربعين آية في القرآن الكريم، يُذكر فيها اسم الله، باسم رب العالمين، هذا عدا الآيات التي ـ سنشير إليها فيما بعد ـ وتوضح أن الرسول الكريم أُرسل للناس كافة، وأن القرآن أنزله الله على نبيه ليقرأه الناس.

ويزعم بعض المستشرقين أن الإسلام نزل للعرب فقط، بدليل أن الرسول لم يحاول نشر الإسلام إلا بين العرب. ويرد على ذلك بأن الرسول لم يكن عنده الوقت الكافي للجهاد في سبيل نشر الإسلام خارج الجزيرة العربية. ولا يغيب عن الأذهان أن نشر الإسلام بين القبائل التي تقيم في صحراء شاسعة، وفرقت بين مواطنها مساحات شاسعة من الأراضي الصحراوية، والجبال والهضاب، لابد أن يستغرق وقتاً طويلاً. إذن لم يكن لدى الرسول الوقت الكافي لنشر الإسلام خارج الجزيرة العربية، ولكنه بدأ فعلاً بمحاولة ذلك، حين أرسل إلى ملوك وأمراء الدول المجاورة كتباً يدعوهم إلى الإسلام.

ومما يدحض حجج هؤلاء المستشرقين أن المسيحية لم تنشر في بقاع الأرض إلا بعد حياة المسيح، كما أن المسيح لم يوجه دعوة إلى خارج بلاده لنشر المسيحية. ومثل ذلك يقال بالنسبة لموسى بن عمران.

وبالرجوع إلى القرآن الكريم يتضح لنا أن الإسلام دين نزل للعالم وليس للعرب فقط. قال تعالى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ۝ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾(١).

﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ۝ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾(٢).

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾(٣).

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(٤).

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾.

كتب الرسول كتباً إلى الأمراء في الجزيرة العربية يدعوهم إلى الإسلام، وبدعوة نبي الإسلام، كما كتب إلى هرقل ـ امبراطور الدولة البيزنطية ـ كتاباً جاء فيه (إني أدعوك بدعاية الإسلام، إسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين) فأحسن هرقل استقبال مندوب الرسول، ورد على رسالة الرسول رداً طيباً. كذلك أكرم نجاشي الحبشة وفادة مندوب الرسول، ويقال بأنه اعتنق الإسلام. بدليل أن الرسول ﷺ صلى عليه يوم وفاته. أما كسرى ـ امبراطور الفرس ـ فقد أساء مقابلة مندوب الرسول، بل كاد أن يقتله، ومزق رسالة النبي، فقال الرسول: مزق الله ملكه، ولم يمض على ذلك إلا سنوات قليلة حتى سقطت امبراطورية الفرس، وفتحها العرب.

---

(١) سورة ص آية ٨٧ ـ ٨٨.
(٢) سورة يسن آية ٦٩، ٧٠.
(٣) سورة الفرقان آية ١.
(٤) سورة سبأ آية ٢٨.

وأرسل الرسول إلى المقوقس ـ حاكم مصر البيزنطي ـ كتاباً يدعوه إلى الإسلام «اسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين» وقد استقبل مندوب الرسول استقبالاً لائقاً. ورد على الرسالة رداً مناسباً، بل أرسل إلى الرسول هدية قيمة.

إذن رسالة الإسلام لا يختص بها قوم دون قوم أو شعب دون شعب أو أمة دون أمة بل تتميز عن الرسالات التي سبقتها بأنها صالحة لجميع الناس في كل زمان ومكان. قال تعالى ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾. وقال الرسول ﷺ «كان كل نبي يبعث في قومه خاصة، وبُعثت إلى كل أحمر وأسود». ومما يؤكد عالمية الدعوة الإسلامية أن تعاليم الإسلام، يقصد بها حفظ الدين، وحفظ النفس، وحفظ العقل، وحفظ المال. وهذه الأمور تصلح للناس جميعاً في كل زمان ومكان وتيسر لهم الحياة الحرة الكريمة.

غزوة مؤته (٨هـ/ ٦٣٠م)

يرجع سبب هذه الغزوة إلى أن النبي كان قد بعث إلى حاكم بصرى بالشام رسولاً يدعوه إلى الإسلام، فاعترضه أحد أمراء الغساسنة وقتله.

أعد الرسول حملة لغزو مؤته في جمادي الأولى سنة ثمان واستعمل عليهم زيد بن حارثه، وقال: إن أُصيب زيد فجعفر بن أبي طالب علي الناس، فإن أُصيب جعفر فعبدالله بن رواحه على الناس. فتجهز الجيش وأعد العدة للخروج، وهم ثلاثة آلاف، وودعهم المسلمون، ومضى الجيش شمال الحجاز، حتى بلغ معان من أرض الشام وكان الروم قد أعدوا جيشاً قوياً، لأنهم خشوا من ظهور دين جديد، يوحد شمل العرب، ويبعث فيهم نهضة جديدة، وقوة صاعدة، قد يكون لها آثار سلبية على ممتلكاتهم في بلاد الشام. ويبالغ ابن هشام في ذكر عدد أفراد جيش الروم، ويذكر أنه مائة ألف. وضم هذا الجيش بعض

العرب المقيمين في جنوب الشام. ولم تكن المعركة متكافئة، قلة من المسلمين تحارب بأسلحة بدائية، ضد جيش كبير معد إعداداً قوياً. هنا خشي المسلمون بأس جند الروم. وبث فيهم زيد بن حارثة روح الحماس، وقال لجنده: لقد خرجتم تطلبون الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقابلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين، إما ظهور، وإما شهادة. لذلك اندفع المسلمون إلى القتال بروح الجهاد. وفي تخوم البلقاء إشتبك المسلمون مع جموع الروم اشتباكاً غير متكافىء، وظل عبدالله بن رواحه يقاتل حتى قُتل، فأخذ الراية جعفر، وقاتل الروم حتى قُتل. ويقال أن جعفر أخذ اللواء بيمينه، فقطعت، فأخذه بشماله فقُطعت، فاحتضنه بعضديه حتى قُتل، فحمل الراية عبدالله بن رواحه ولم يلبث أن استشهد، فقاد المسلمون خالد بن الوليد، بعد أن وهنوا وضعفوا، فرأى أن لا طاقة للمسلمين بالروم، وانسحب بفلول المسلمين بطريقة بارعة، تجنب فيها هجوم الروم على جيش المسلمين من الخلف.

وعاد المسلمون إلى المدينة مهزومين مدحورين، وأساء أهل المدينة استقبالهم، وقالوا: يا فرار، فررتم في سبيل الله. ولكن الرسول رفع من روحهم المعنوية، وقال: ليسوا بالفرار، ولكنهم الكرار إن شاء الله.

فتح مكة (٨هـ/ ٦٣٠م)

أعان القرشيون حلفاءهم من قبيلة بكر بالسلاح والرجال فتمكنوا من هزيمة قبيلة «خزاعة» المتحالفة مع المسلمين، مما حمل الخزاعيين على طلب المساعدة من الرسول. وكان هذا الموقف من جانب قريش يعد نقضا لصلح الحديبية، فرأى الرسول أن ينتهز الفرصة لاخضاع قريش، وتحقيق رغبته في دخول مكة.

حرص الرسول على أن يتم هذا الفتح دون إراقة دماء، فأرسل إلى أهل البادية وغيرهم من المسلمين يدعوهم إلى المدينة، وبلغ عدد الذين اجتمعوا إليه في النصف الأول من شهر رمضان سنة ٨هـ عشرة آلاف رجل، سار بهم قاصداً مكة. ووقعت في منتصف الطريق أثناء سير النبي إلى مكة عدة حوادث تدل على رغبة قادة قريش في الإستسلام. نخص بالذكر منها لقاء الرسول مع عمه العباس بن عبدالمطلب وأبي سفيان بن حرب الذي أعلن إسلامه، ومنحه الرسول أماناً يتضمن أن من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ثم عاد أبوسفيان إلى مكة، داعياً قريش إلى الإسلام.

ولما دخل الرسول مكة لم يقع قتال يذكر بين المسلمين والقرشيين بل اقتصر الأمر على مناوشات يسيرة، ثم جاءته قريش وأسلموا بين يديه، وعاملهم الرسول معاملة تنطوي على كثير من التسامح، فأصدر عفواً عاماً عنهم. وقال: إذهبوا فأنتم الطلقاء.

لما فتح الرسول مكة، طاف حول البيت، وأمر بتحطيم الأصنام، وقال ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ وألقى في الناس خطابا جاء فيه «إن الله حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض، فهي حرام حرام إلى يوم القيامة، فلا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دما، ولا يعضد فيها شجرا، لم تحلل لأحد كان قبلي، ولا تحل لأحد يكون بعدي... فليبلغ الشاهد منكم الغائب.

كان تغلب المسلمين على قريش، واستيلائهم على البيت الحرام الذي يقدسه جميع العرب، من أهم الأسباب التي عجلت بانضواء جميع سكان شبه

الجزيرة العربية تحت لواء الإسلام، لأن القبائل العربية التي كانت ما تزال معاندة، اعتقدت أن المسلمين ترعاهم عناية الله، فدخل أغلبها في دين الله.

غزوة حنين (٨ هـ / ٦٣٠ م)

رأت القبائل العربية التي تقيم على مقربة من مكة أن الرسول لابد أن يفكر في مهاجمتها بعد أن قضى على مقاومة قريش، لذلك صممت على محاربته، واتفقت قبيلتا هوازن وثقيف على السير إلى مكة لمهاجمة المسلمين. ولما علم الرسول بذلك، خرج على رأس الجيش الذي فتح مكة، وانضم إليه ألفان من القرشيين الذين اعتنقوا الإسلام بعد الفتح. ولما انتهى الرسول إلى حنين (واد بينه وبين مكة ثلاثة أميال بالقرب من الطائف) في ١٠ شوال سنة ٨ هـ.، عسكر بها. أما هوازن وثقيف فكمنوا في شعاب الوادي، ولم يلبث المسلمون أن فزعوا واختل نظامهم حين خرج إليهم العدو وانقض عليهم، ففر كثير منهم. ثم أعاد الرسول تنظيم صفوف المسلمين واستؤنف القتال، فأوقع المسلمون الهزيمة بهوازن وثقيف ولم يلبث أن سعى وفد من زعماء هوازن لمقابلة النبي حيث أعلنوا إسلامهم.

أما قبيلة ثقيف فقد انسحبت إلى الطائف وتحصنت بها، فحاصرها جيش المسلمين بقيادة النبي قرابة شهر، لكنه اضطر لرفع الحصار بسبب حلول شهر ذي القعدة، وهو من الأشهر الحرم التي لا يجوز فيها القتال. وعلى الرغم من ذلك فقد رأى زعماء هذه القبيلة أنه لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب الذين أسلموا واستقر رأيهم في السنة التاسعة للهجرة على أن يبعثوا إلى الرسول بالمدينة وفدا لاعلان دخولهم في الإسلام. وقد فرح الرسول كثيرا حين حضر إليه هذا الوفد وأكرم أعضاءه غاية التكريم، وسرعان ما دخل أهل الطائف في دين الله وأصبحوا بعد إسلامهم من أخلص العرب للدين الإسلامي وأشدهم حرصا للذود عنه.

غزوة تبوك (٩ هـ / ٦٣٠ م):

لما عاد النبي إلى المدينة بعد رفع الحصار عن الطائف رأى أن يقضي على الآثار التي خلفتها غزوة مؤتة، ويقوم بعمل حاسم يحول دون حدوث أي تهديد من قبل الروم، خاصة بعد أن بلغه أنهم قاموا بحشد قوات كبيرة وأغروا بعض القبائل العربية القاطنة جنوب الشام بالانضمام اليهم ومهاجمة المسلمين. فاستقر رأيه على غزو بلاد الشام الجنوبية المتاخمة لأعالي الحجاز، لتوطيد نفوذه بتلك المنطقة ودعوة أهلها إلى الإسلام.

قامت عدة عقبات في سبيل اعداد الجيش الإسلامي لهذه الغزوة، مما جعل البعض يطلقون عليه «جيش العسرة» ومن هذه العقبات: ما تعرض له المسلمون من جدب خلال الأشهر الأولى من العام التاسع الهجري، وشدة حرارة الصيف التي جعلت من السفر الطويل عبر الصحراء إلى حدود الشام وقتذاك أمرا بالغ المشقة، هذا فضلا عن أن كثيرا من المنافقين أخذوا يثبطون همم الناس ويخوفونهم من لقاء الروم مذكرين إياهم بهزيمة مؤتة. وعلى الرغم من كل هذه الظروف، صمم النبي على ضرورة القيام بهذه الغزوة، وحث المسلمين على البذل والتضحية، فتأهب للخروج معه نحو ثلاثين ألفا. وقدم كثير من الصحابة تبرعات جليلة لاعداد هذا الجيش.

سار النبي بهذا الجيش حتى وصل قرية تبوك قرب الحدود الشامية فوجد الروم قد انسحبوا داخل حدودهم، فمكث بضعة عشر يوما قبل أن يرجع إلى المدينة أخضع أثناءها القبائل العربية بهذه المنطقة لسلطانه السياسي، حيث دخل بعضها في الإسلام ووافق البعض الآخر ممن لم يرغبوا الدخول فيه على دفع الجزية. (خريطة رقم ١)

تحقيق الوحدة الدينية والسياسية بجزيرة العرب

ظهرت بوادر الوحدة الدينية والسياسية بجزيرة العرب بعد عودة الرسول من تبوك في السنة التاسعة للهجرة، حيث أخذت القبائل العربية توفد من قبلها في هذه السنة وفودا إلى رسول الله تعلن ولاءها له ودخولها في الإسلام عن طوع واختيار، وكان عليه السلام يحرص على أن يلبس أحسن ثيابه عند مقابلة أعضاء هذه الوفود ويأمر أصحابه أن يفعلوا مثله. كما كان يمنحهم بعض الجوائز عند انصرافهم من المدينة عائدين إلى بلادهم نظرا لما كان يتكبده هؤلاء من نفقات السفر ومشقاته.

وكان أعضاء الوفود العربية الذين يأتون إلى المدينة ليحظوا بمقابلة الرسول يتعلمون منه شعائر الإسلام، فاذا ما عادوا إلى مواطنهم نشروا الدعوة الإسلامية بين أهاليهم وقاموا بتعليمهم فرائض الإسلام وأحكامه. وكان بعض هذه الوفود يعودون حاملين كتبا من الرسول مبينا لهم ما يفرضه الإسلام عليهم من واجبات، وأحيانا كان يبعث معهم الرسول بعض صحابته ليقوموا بتعليم القبائل قواعد الدين وأحكامه.

حجة الوداع:

لما اطمأن الرسول إلى انضواء جزيرة العرب تحت لواء الإسلام استقر رأيه على الخروج للحج، فدعا المسلمين الى أداء هذه الفريضة معه، فلبوا دعوته، وفي الخامس والعشرين من شهر ذي القعدة من السنة العاشرة للهجرة، سار الرسول من المدينة في جمع كبير من المسلمين، بلغ عددهم ما يقرب من مائة ألف قاصدا مكة، وأناب عنه في حكم المدينة أحد الصحابة، ومضى الرسول إلى حجه. وأرى الناس مناسكهم، وأعلمهم سنن حجهم. وعند جبل عرفات،

ألقى على المسلمين خطبة، تعتبر دستور الإسلام، ووعظ الناس، وقال: «إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا، وحرمة شهركم هذا، وإنكم ستلقون ربكم، فيسألكم عن أعمالكم، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من إئتمنه عليها.. فإن لكم على نسائكم حقا، ولهن عليكم حقا.. وقد تركت فيكم ما اعتصمتم به لن تضلوا أبدا.. كتاب الله وسنة نبيه».

وتمت رسالة النبي وهو بعرفات، حتى أنزل الله في سورة المائدة ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ (سورة المائدة آية ٣).

وفي سنة ٩ هـ عهد الرسول إلى أبي بكر الصديق بإمارة الحج، ليقيم للمسلمين حجهم، وينهى عن حج المشركين، ونزلت براءة في نقض ما بين رسول الله وبين المشركين من العهد الذي كانوا عليه فيما بينه وبينهم، أن لا يصد عن البيت أحد جاءه، ولا يخاف أحد في الشهر الحرام. وكان ذلك عهدا عاما بينه وبين المشركين، ومن ناحية أخرى كانت هناك عهود بين الرسول وبين بعض القبائل إلى آجال محددة، ونزلت على الرسول في ذلك ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي لأهل العهد العام من المشركين ﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾ أي بعد هذه الحجة ﴿فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي العهد الخاص إلى الأجل المسمى.

فلما نزلت براءة على الرسول، عهد الرسول بإمارة الحج إلى علي بن أبي طالب بدلا من أبي بكر، وقال لعلي: أذن في الناس يوم النحر اذا اجتمعوا بمنى، أن لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عند الرسول عهد، فهو له إلى ورثته. وبذلك أمر علي بن أبي طالب المشركين بألا يقربوا البيت الحرام بعد هذا العام إلا إذا اعتنقوا الإسلام، وأنه لا يحق لمشرك الطواف بالبيت بعد هذا العام، وأمهلهم أربعة أشهر، ليرجع كل قوم إلى بلادهم. ثم لا عهد لمشرك ولا ذمة إلا إن كان له عهد عند الرسول إلى مدة، فلم يحج بعد عام ٩ هـ. مشرك، ولم يطف بالبيت إلا مسلم.

ومن بين هذه الوفود، وفود أهل اليمن، ففي سنة ٩ هـ قدم وفد ضروة بن مسيك المرادي، واستعمله الرسول على مراد وزبيد ومذحج كلها، وبعث معه خالد بن سعيد بن العاص، فكان معه على بلاده حتى توفي.

وقدم على الرسول الحارث بن عبدكلال ونعيم بن عبدكلال والنعمان قيل ذي رعين ممثلين لملوك حمير ومعلنين دخول أهليهم في الاسلام وكتب الرسول لهم كتابا يأمرهم فيه بأداء الصلاة وطاعة الله ورسوله وإيتاء الزكاة ممن أسلم، والجزية على من بقي على ذمته من النصارى واليهود، ويعفى منها من أسلم.

كذلك قدم على الرسول وفد الأزد، وعلى رأسه الصرد بن عبدالله في بضعة عشر رجلا، ودخلوا وقومهم في الإسلام، وأمره الرسول بأن يجاهد بمن أسلم من أهل بيته المشركين من قبائل اليمن، وخرج مجاهدا فعلا هو ورجاله، وما زالوا بأهل جرش حتى دخلوا في الإسلام، وقدم وفدهم على الرسول معلنين إسلامهم.

وقدم على الرسول كذلك وفد زبيد معلنين دخولهم في دين الله وتزعم هذا الوفد عمرو بن معد يكرب، وقدم على الرسول وفد خولان، ودخلوا وقومهم في الإسلام، ووفد على النبي وفد كندة، بزعامة الأشعث بن قيس الكندي في ستين رجلا، ووفد على الرسول كذلك وفد الرهاويين، ووفد العاقب والسيد من نجران ووفد عبس، ومندوبون عن عشائر صغيرة وعائلات وأفراد يعلنون إسلامهم، ودخولهم في الدين الحنيف.

وجه الرسول الكريم اهتماما خاصا نحو إدخال بلاد اليمن في الإسلام فعهد إلى معاذ بن جبل — وهو من خيرة شباب الأنصار — بقضاء اليمن وصلاتها سنة ٩ هـ، وأوصاه بالعمل بكتاب الله وسنة نبيه فإن لم يجد يجتهد ولا يقصر، وأوصاه بدعوة أهل الكتاب في اليمن إلى الإسلام، فإن لم يسلموا فعليهم الجزية، وإن أسلموا فعليهم الزكاة، تؤخذ من أغنيائهم لترد إلى فقرائهم، وأوصاه بتقوى الله وأداء الأمانة وتجنب الخيانة، ومجالسة المساكين والفقراء، ويكون للأرملة كالزوج الصالح، واليتيم كالأب الرحيم، وأن يعلم الجاهل الخير، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وأن يصبر على البلاء، ولا تأخذه في الحق لومة لائم، وأن ييسر ولا يعسر، ويبشر ولا ينفر.

توجه معاذ إلى اليمن، وبلغ صعده، وأمر أهلها ببناء مسجد ثم ودعهم وانصرف حتى قدم صنعاء، واجتمع بأهلها وألقى عليهم كتاب الرسول. ولم يمكث معاذ بصنعاء طويلا. وقبل أن يغادرها أمر أهلها ببناء مسجد. وهو الجامع الكبير المعروف الآن بصنعاء. ثم سار معاذ إلى الجند، وفي طريقه كان ينشر الإسلام بين أهل القرى ويأمرهم ببناء مساجد. ولما بلغ الجند في أوائل رجب بنى مسجدا، وأقيمت فيه أول صلاة للجمعة في اليمن. واجتمع في المسجد أهل الجند والبلاد المجاورة وهي أول صلاة للجمعة في تاريخ اليمن خلف أول إمام لهم، وأدوها فرحين مستبشرين بأن أعزهم الله بالإسلام، وحررهم من الكفر

والشرك. لذلك اتخذ أهل اليمن الجمعة الأولى من رجب عيدا لهم، وفي هذه المناسبة يزورون مسجد الجند للذكرى والعبادة.

ولم يكد يمضى شهران على عودة الرسول من حجة الوداع حتى اعتراه المرض لكن ذلك لم يمنعه من أن يسير إلى المسجد ليصلي بالناس. وظل على هذه الحال حتى اشتد به المرض. فطلب إلى أبي بكر أن يصلي بالناس. فصلى بهم عدة أيام. ولم يلبث أن توفي الرسول في اليوم الثاني من شهر ربيع الأول سنة إحدى عشر من الهجرة (٨ يونية سنة ٦٣٢ م) وهو في الثالثة والستين من عمره بعد أن بلغ رسالة ربه

أثر الإسلام في العرب

أحدث الإسلام تغيراً جذرياً في حياة عرب الجزيرة، وفي جميع نواحي الحياة الدينية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية وانتقل العرب بفضل الإسلام من حياة بدائية إلى حياة حضارية غيرت مجرى تاريخهم، ومسار حياتهم، وأظهرهم الإسلام على مسرح التاريخ، أمة قوية، تلعب دوراً رئيسياً في حياة العالم، والأمم. وللشعوب استعداد لليقظة والنهضة، والخروج مما هي فيه من تخلف وبدائية، ولكن عوامل هذه اليقظة، تكمن عادة في دعوة دينية إصلاحية تؤمن بها هذه الشعوب، وتحطم فيها الأغلال التي تقيد حركتها، وتسير بها قدماً إلى الأمام. والأمثلة على ذلك كثيرة. ولكننا سنقتصر على موضوع دراستنا وهو أثر الإسلام في العرب.

قضى الإسلام على كل عوامل التخلف والجهل والجهالة. والضلال عند العرب، وأخرجهم من الظلمات إلى النور وأيقظهم من ليل طويل كئيب خيم على عقولهم، ونفوسهم، وحال بينهم وبين التطلع إلى حياة أفضل.

كما نظم الإسلام حياة المجتمع، ودعا العرب إلى رعاية اليتامى والفقراء، وإلى تقوية الروابط بين أفراد المجتمع، وإلى صلة الرحم. وإلى المؤاخاة بين أفراد المجتمع ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ وأصبح العربي فرداً في الدول الإسلامية الجديدة، وبذلك حلت الدولة محل القبيلة. وأدى ذلك إلى تخفيف حدة العصبية القبلية تدريجياً.

كما أن المثل العليا والقيم التي أقرها الإسلام وطالب العرب العمل بها، قد آمن بها وعمل بها كثيرون، الأمر الذي نشر الفضيلة بين العرب، وخفف من الرذيلة، وأصبح كل من يفعلها، مخطىء في نظر المجتمع. لذلك كان الفرد الذي تحدثه نفسه بالرذيلة يتردد قبل أن يرتكبها، وربما يمنعه دينه من ارتكابها.

ومن الناحية الفكرية أحيا الإسلام عند العرب أهمية الفكر والعلم ودعاهم إلى التفكير في حقيقة الخلق ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (١). وقوله تعالى ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

وبذلك يخاطب القرآن الكريم المسلمين ويدعوهم إلى أن يحكموا عقولهم، وينظروا إلى قدرة الله القدير ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ

(١) سورة الروم آية ٢٥ ـ ٢٨.

﴿ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾[1] ويقول عز من قائل ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فقد أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾[2].

لذلك فالقرآن الكريم يدعو الناس إلى الفكر والنظر والبصر والتدبر والذكر والعلم ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾[3] وقوله تعالى ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَـٰهَا وَزَيَّنَّـٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾[4] وقوله ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَـٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾[5] وقوله ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾[6] وقوله ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾[7] وقوله ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[8] وقوله تعالى ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾[9] وقوله ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[10] وقوله ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[11]؛

---

(1) الزمر آية ١٨ .
(2) البقرة ٢٦٩ .
(3) الروم آية ٨ .
(4) سورة ق آية ٦ .
(5) السجدة ٢٧ .
(6) سورة محمد ٢٤ .
(7) النحل ١٣ .
(8) يونس ٥ .
(9) يونس ٣ .
(10) الزمر ٢٧ ـ ٢٨ .
(11) الزمر ٤٢ .

والآيات القرآنية كثيرة تدعو العربي إلى التفكير في الأمم الغابرة ومصيرها. وبذلك اتسعت دائرة تفكير العربي بعد أن كانت محدودة بحياته فقط. ودعاهم الإسلام إلى التأمل في السماوات والأرض والشمس والقمر والكواكب والنجوم والأرض والجبال والبحار إلى غير ذلك من ظاهرات الكون الطبيعية. وهذا أوجد تطوراً كبيراً في حياة العرب العقلية. وأصبح العربي يتأمل في حقيقة الخلق وفلسفة الحياة وفيما وراء الطبيعة يضاف إلى ذلك أن القرآن الكريم وما فيه من آيات بينات دعا العربي إلى قراءته ومحاولة تفسير آياته وفهم معانيه، والالتقاء بالصحابة الذين صاحبوا الرسول وفهموا عنه معاني القرآن، ورووا عنه الأحاديث.

لذلك أحيا الإسلام العقلية العربية، وأوجد عند العرب حب التفكير الفلسفي والديني. وإذا أضفنا إلى ذلك أن الرسول الكريم كان يرغب في تعليم الكتابة، حين عهد إلى أسرى بدر بتعليم المسلمين في المدينة القراءة والكتابة لأدركنا أن الإسلام رغّب العرب في التعلم.

والخلاصة أن الإسلام أوجد يقظة كبيرة في حياة العرب، وأحدث تغيراً كبيراً في جميع نواحي حياتهم الدينية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية.

ومن الناحية الدينية كان العرب يعبدون الأصنام والأوثان والشمس والقمر والكواكب والنجوم إلى غير ذلك من العبادات البدائية. وهذه العبادات أبعدتهم عن الحقيقة حقيقة الوجود، وحقيقة الخالق، وحقيقة الخلق. والإنسان عادة يتطلع إلى الحقيقة، وإذا بعد عنها، أو ضل بها عاش في اضطراب، الأمر الذي يبعده عن الشعور بالأمن والطمأنينة ويؤدي إلى بؤسه وشقائه، واقترابه من الحيوان الذي يعيش فقط لارضاء غرائزه. وبذلك فإن الإنسان الضال عن الحقيقة، يبتعد حتماً عن السمو الإنساني، وعن الشعور بحقيقة الوجود، ولابد

من أن هذا الإنسان العربي قد فكر في الوجود، وفكر في عبادته الضالة لهذه الأصنام والأوثان، ونظر إليها نظرة شك وريبة، بدليل ظهور رجال من العرب تشككوا في هذه العبادة وثاروا عليها.

إلا أن الإنسان العربي رغم هذه الشكوك، كان يفضل التسليم بما هو كائن من عبادات، ويحافظ على التراث الذي ورثه من آبائه وأجداده.

ودعا الرسول إلى الإسلام، وإلى عبادة الإله الواحد القهار الذي ليس كمثله شيء، والذي لا تدركه الأبصار وهو يدركها، والذي خلق كل شيء، ويحيي ويميت، وأعد الجنة للمتقين، والنار للعصاة، ودعا الرسول الكريم إلى أن هذا الدين ليس فقط متمثلاً في عبادة الإله الواحد ولكن في تنظيم حياة الناس الدنيوية، وتحديد العلاقة بين الأفراد على أساس من مكارم الأخلاق، ونبذ الرذائل والمحرمات.

وكان من الطبيعي أن يكذب المكذبون الدعوة الإسلامية في مهدها، لأن الانتقال من عبادة الآباء والأجداد إلى عبادة أخرى، لا يمكن أن يتم بسهولة ويسر، ولكن لابد من حدوث تكذيب وعناد ومعارضة. خصوصاً أنهم يؤمنون بديانات بدائية ملموسة مثل الأصنام تتناسب مع عقلياتهم البدائية. والإيمان بالإسلام يحتاج إلى عقلية فلسفية تتعقل حقائق الكون وطبيعة الحياة، والإيمان بالله الواحد الأحد الذي لا يراه الإنسان والإيمان بالوحي الذي ينزل على الرسول والإيمان بالبعث والثواب والعقاب، والبعث بعد الموت، والتأمل في ملكوت السماوات والأرض.

وظل الرسول مجاهداً صابراً على الإيذاء والمعارضة حتى أخرج العرب من ضلالتهم، وبذلك أيقظ الإسلام العرب من العبادات البدائية التي كانوا يعبدونها، ونقلهم إلى الحقيقة، دين الله، وهو الإسلام. الذي حل لهم كل

مشاكل الحياة، ومصاعبها، وأنقذهم من الجهل بالحقيقة. وأدرك العرب جميعاً أنهم كانوا يعيشون في ضلال، وأن أصنامهم لا تضر ولا تنفع. وبذلك خرج العرب من حياتهم المادية المحدودة، إلى آفاق أوسع تتمثل في حياة روحية غير محدودة، فاتسعت أمامهم آفاق الحياة والكون والوجود.

يضاف إلى ذلك أن ما تضمنه الإسلام من شرائع أصلحت حياة العرب، وكفلت للفرد الحياة الآمنة، ووضعت الحدود لمنع الجرائم التي كانت منتشرة كالقتل والسرقة والزنا، واغتصاب القوى للضعيف. وشدد الإسلام على ضرورة التحلي بمكارم الأخلاق ونبذ الرذائل وبذلك أوجد الإسلام مجتمعاً عربياً، يدين بدين واحد وهو الإسلام دين الله، ويؤمن برسول الله صاحب الرساله، ويتخذ من القرآن الكريم دستوراً ومنهجاً يسير بمقتضاه في كل نواحي الحياة، وفي تنظيم المجتمع، والعلاقات بين أفراده، ويستظل براية الإسلام، الذي يكفل للعربي الحياة الحرة الكريمة.

وهذب الإسلام من طبيعة العرب الجافة في ذلك العصر فنهى الاسلام عن كل الصفات السيئة التي كانت تجعل الحياة العربية عبئاً ثقيلاً على من يحياها. فبعد أن كان ينتشر بين العرب الظلم والقتل والسطو، نهى الإسلام عن كل ذلك، وحدد العقوبات لكل جريمة من هذه الجرائم بالإضافة إلى عذاب الآخرة. لذلك أوجد الوازع الديني الذي تحلى به العربي، مانعاً من ارتكاب هذه المحرمات. كما أن الإسلام دعا العرب والمسلمين عموماً إلى التآخي والمحبة.

ومن ناحية أخرى آخى الإسلام بين العرب جميعاً، فأوجد نوعاً من الأخوة بينهم، وشعر كل عربي نحو أخيه العربي بالتقارب نتيجة للإسلام، وشعر العربي أن له حقوقاً وواجبات نحو أخيه في الإسلام. وأوجد الإسلام بين العرب لأول مرة في تاريخهم، وبعد أن مزقتهم الخلافات، التآلف والتضامن والشعور بالحياة

المشتركة والمصير المشترك فالعرب جميعهم في أنحاء الجزيرة يؤدون الخمس صلوات مستقبلين القبلة، ويصومون رمضان، ويؤدون الحج ويحتفلون بالعيدين، ويقرأون القرآن، ويتحدثون بأحاديث رسول الله وسيرته، ويتجهون جميعاً نحو خالقهم رب السماوات والأرض وخالق كل شيء. فحياتهم إذن يجمعها مصير واحد، وتسير وفق أسس مشتركة وتتجه وجهة واحدة.

ومن الناحية السياسية كان العرب ينقسمون إلى قبائل كل قبيلة تستقل استقلالاً كاملاً بحياتها الخاصة. أما بلاد اليمن فقد عرفت نظام الدولة بسبب الاستقرار الذي كفله لها حياة الزراعة، وكان الفرس يحكمون أجزاء من بلاد اليمن.

وهذه التفرقة السياسية بين العرب أضعفتهم، وأكثرت من الخصومات والمنازعات بينهم، وأوجدت الاضطراب في حياة الناس، وأخلت بالأمن والاستقرار في الجزيرة العربية، وكثرت الحروب بين العرب. ولما ظهر الإسلام، وهاجر الرسول إلى المدينة، جعلها دولة أو نواة لدولة كبرى، وطبق فيها شريعة السماء، ولم تلبث هذه المدينة الدولة أن اتسعت حتى ضمت مكة والبلاد المجاورة. أو أم القرى وما حولها، وظل أمر هذه الدولة في اتساع حتى وفاة الرسول، فكانت الدولة العربية الإسلامية، تضم شبه الجزيرة العربية، وبذلك وحدت هذه الدولة بين العرب لأول مرة في تاريخ العرب. وأدت وحدة العرب في ظل الإسلام إلى إحياء الطاقات الكامنة فيهم، وتجلى ذلك في وقت قصير جداً، إذ قهر العرب دولة عظمى، وقضوا عليها نهائياً، كما فتحوا الكثير من البلاد الخاضعة للدولة العظمى الأخرى.

ومن الناحية الاقتصادية، نظم الإسلام حياة العرب الاقتصادية، ومنع العرب من الإعتداء على ممتلكات بعضهم البعض، ودعاهم إلى ضرورة احترام

الملكيات الخاصة وعدم التعرض لها، ودعاهم إلى استصلاح الأرض وزراعتها «من أحيا أرضاً ميتة فهي له»، «ما من مسلم يغرس غرساً إن كان ما أكل منه له صدقة، وما سُرق منه له صدقة. وما أكل السبع منه فهو له صدقة، وما أكلت الطير فهو له صدقة»[1].

وكفلت الدولة الجديدة الأمن والسلام للعرب، فكانت القوافل التجارية تجوب الجزيرة العربية في أمن وسلام ودون التعرض للسلب والنهب، لأن الإسلام نهى العرب عن العدوان وعن السرقة. وأدى توحيد العرب إلى تقوية العلاقة بينهم، فازدهرت التجارة، وانتشر تبادل السلع بين العرب في طمأنينة وقناعة بالرزق الحلال.

وفرض الإسلام الزكاة. والزكاة صدقة، والصدقة زكاة، يفترق الاسم، ويتفق المسمى، ولا يجب على المسلم في ماله حق سواها، وسميت بذلك لأن اخراج شيء من مال الإنسان، والتصدق به، يؤدي إلى تنمية هذا المال، وإنزال البركة فيه، ولأن إخراج شيء من المال يزكي صاحبه ويطهره. قال تعالى ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ وكانت أموال الزكاة تقسم على الأشخاص المذكورين في قول تعالى ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[2].

ورُوى عن الرسول الكريم أحاديث تطلب من الأغنياء، رعاية الفقراء، ومن هذه الأحاديث. ليس منا من بات شبعان وجاره جائع وهو يعلم.

---

(١) رواه مسلم.

(١) سورة التوبة آية ١٠٣.

(٢) سورة التوبة آية ٦٠.

ومن الناحية الاجتماعية. كفل الإسلام للأسرة المسلمة الاستقرار فحدد حقوق الزوج على زوجته، والزوجة على زوجها، وواجب كل منهما نحو الآخر.

وغاية الزواج في الإسلام، هو أن يسكن الزوج إلى زوجته، وتسكن الزوجة إلى زوجها ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾ فالهدف من الزواج في الإسلام هو الاستقرار المادي والنفسي. وحافظ الإسلام في تحديده لواجبات الزوجة على شخصيتها وحرماتها، وجعل منها شريكاً للزوج في حياته، وفي نفس الوقت حافظ على استقلالها في التصرف في أملاكها الخاصة، وأعطاها حق التملك، ولم يفرض عليها المشاركة بمالها في نفقات الحياة الزوجية، ولها حق الاختيار في ذلك، وأعطاها حرية الرأي والقول والاعتقاد.

ويقول أستاذنا المرحوم الدكتور محمد البهى في بعض محاضراته بأن المجتمع الإسلامي يتميز بالإيمان بوحدة الألوهية وعبادة الله الواحد الأحد الفرد الصمد، أي وحدة العقيدة ووحدة الإيمان، وما جاء بعد ذلك من تفصيلات وحدود في علاقات الأفراد بعضهم ببعض ولم تزل العبادات التي فرضها الإسلام والحدود التي رسمها للمعاملات نلتزم بها إلى يومنا هذا.

وعن هذا الإيمان بالله يصدر المؤمن أيضا في معاملاته المدنية والتجارية، وفي علاقاته الزوجية والأسرية، فلا يتصرف ولا يسلك إلا سلوكا محققا للتعاليم وللمثل التي جاءت بها رسالة الإسلام بعد الإيمان بالله.

إذن الإيمان بالله وحده هو أساس قيام المجتمع الإسلامي في الماضي والحاضر ومن هذا الإيمان تتحقق أهداف المجتمع الإسلامي من قوة الترابط وحسن العلاقات بين الأفراد.

---

(١) انظر كتاب الإسلام في حياة المسلم ص٣٢٤ وما بعدها

أوصى الإسلام بأن يتعاطف الناس مع بعضهم، فالغني يساعد الفقير، لقوى يقف إلى جانب الضعيف، والعالم يمد يد العون للجاهل حتى تخف فجوة بين النفوس، ويقل الحقد والحسد، وتسير الحياة الاجتماعية قدماً إلى أمام، وتعم الطمأنينة المجتمع العربي المسلم، ويقدم كل فرد لمجتمعه ما اسب قدراته، ودعا الإسلام إلى تماسك الأفراد وترابطهم ووحدتهم.

رفع الإسلام من مكانة المرأة، ونقلها من ذل الجاهلية ومن العبودية التي كانت ترزح تحت نيرها إلى حياة نعمت فيها بالكرامة والحرية، وسوى الإسلام ينها وبين الرجل في الحقوق والواجبات وكان الزواج قبل الإسلام يخضع لقانون يجحف بالمرأة، فالرجل يتزوج المرأة كرها دون رأيها، ولا يمهر لها مهراً، ويطلقها دون حقوق لها، وانتشر الفساد والعلاقات غير المشروعة، كانت المرأة ضحيتها، وترتب على ذلك، اختلاط الأنساب، وشيوع الفساد والبغاء، فمنع الإسلام العلاقات الفاسدة، ووضع نظاماً دقيقاً ومحكماً للزواج، حفظ فيه المرأة والرجل من الانحراف، وكفل التناسل بطريقة حلال.

جاءت أحكام الشريعة الإسلامية لتضع الرجل والمرأة في سياج واحد، وسوى بينهما في الحقوق والواجبات. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾.

عدلت الشريعة الإسلامية من وضع المرأة، فمنعت ما كانت تتعرض له النساء من قسوة الرجال، وحرر إنسانية المرأة روحاً وجسداً، وأتاحت لها فرصة التزود بالعلم والمعرفة وكفلت لها حقوقها المالية، وربطتها برسالة الأمة ودعوتها العامة، فالمرأة في السلم والحرب عنصر فعال، وفي مجال تعاليم الإسلام لا يقل وعي المرأة عن الرجل بأمور الدين والدنيا معاً.

ولقد بين القرآن الكريم المساواة بين المرأة والرجل، والتباين بينهما يكون بالأعمال، وما يحسنه كل منهما، قال تعالى ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ والقرآن الكريم رسم الخطوط العامة التي يشترك فيها الرجل والمرأة والتي ينضح منها أن وضع المرأة بصفة عامة هو من نوع وضع الرجل. وأن الوضعين يشكلان الوضع العام للحياة في مسؤولياتها وواجباتها وحقوقها.

الفصل الثالث

الدولة العربية الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين

أولا: قيام الخلافة وتوطيد دعائمها:

أصبح المسلمون بعد وفاة الرسول ﷺ في حاجة إلى من يخلفه في تدبير أمورهم وخاصة أنه لم يعهد لأحد بالخلافة من أصحابه، بل ترك الأمر للمسلمين ليختاروا من نظم الحكم ما يناسبهم ويتمشى مع تطور حياتهم. وكان ذلك سبب قيام الخلاف بين المهاجرين والأنصار على من يتولى الخلافة بعد وفاته.

كان الأنصار يرون ضرورة أن يكون الخليفة من بينهم، فلما بلغهم خبر وفاة الرسول ﷺ، سارعوا إلى التفكير فيمن يخلفه، واجتمعوا بسقيفة بني ساعدة ورشحوا للإمارة رجلا منهم هو سعد بن عبادة.

خشي المهاجرون أن ينفرد الأنصار بالبت في اختيار الشخص الذي سوف يخلف الرسول ﷺ، لما يحتمل أن يحدثه ذلك من الشقاق والفتنة، فبادر ثلاثة من زعمائهم بالذهاب إلى سقيفة بني ساعدة، وهم أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وأبو عبيدة بن الجراح، وهناك ذكر أبو بكر فضل الأنصار في خدمة الدعوة الإسلامية، لكنه أوضح أن المهاجرين أحق الناس بخلافة النبي ﷺ، على

---

(١) السقيفة: هي مظلة لبني ساعدة كانوا يجتمعون فيها، وكانت تقع بالقرب من دار سعد بن عبادة زعيم الخزرج.

أساس أنهم أول من آمنوا بدعوته وتحملوا الكثير من الأذى في سبيلها، كما أنهم ينتسبون إلى قبيلة قريش التي تعترف العرب لها بالفضل والزعامة، وما لبث المجتمعون بالسقيفة أن فوجئوا بتأييد بشير بن سعد ـ أحد زعماء قبيلة الخزرج ـ لدعوى المهاجرين، وطلب من قومه ألا يخالفوهم ولا ينازعوهم. وكان لهذا القول أثر بالغ في نفوس المهاجرين والأنصار، فأعلن عمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح مبايعتهما لأبي بكر، ثم تقدم بشير بن سعد فبايعه. وانحازت قبيلة الأوس إلى جانب المهاجرين، فبايعت أبا بكر خشية أن تظفر الخزرج بالخلافة. واضطرت الخزرج بعد أن أفلت الأمر من يدها إلى مبايعة أبي بكر. وتعرف هذه البيعة التي تمت في سقيفة بني ساعدة بالبيعة الخاصة. ثم بويع أبو بكر في مسجد الرسول ﷺ بالمدينة بيعة عامة.

بويع أبو بكر بالخلافة سنة ١١ هـ، وتولاها من بعده ثلاثة خلفاء: هم على الترتيب: عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب. ويعرف هؤلاء بالخلفاء الراشدين. وقد استشهد آخرهم سنة ٤٠ هـ، وبذلك يكون عهدهم قد دام قرابة الثلاثين عاما.

بدأ عهد أبي بكر بمشكلة كبرى كادت تعصف بحكومته وتتسبب في انهيار الوحدة العربية، ذلك أن بعض القبائل، وبخاصة في المناطق البعيدة عن المدينة كاليمن واليمامة ونجد، لم تثبت في نفوسهم تعاليم الإسلام، فاتخذوا من موت الرسول ﷺ فرصة للتخلي عن بعض الفروض الإسلامية، وبخاصة الزكاة التي خيل إليهم أنها أتاوة قبلوا أداءها للرسول ﷺ، أما بعد وفاته فليس لمن يخلفه الحق في المطالبة بها.

كذلك كان للعصبية أثر واضح في هذه الحركة فزعماء القبائل العربية الذين ادعوا النبوة كانوا يعبرون عن نزعات قبلية، إذ حاولواالاحتفاظ باستقلال قبائلهم، واتخذ نفر من هؤلاء الزعماء النبوة وسيلة لنشر سلطانهم في مناطقهم

وأدى إعجابهم بنجاح النبي ﷺ الرائع إلى التشبه به ليصلوا إلى ما وصل إليه بالدعوة الدينية وبالوحي.

كان هؤلاء الزعماء أقرب إلى الكهانة، فادعوا العلم بالغيب والاتصال بالجن واستطاعوا بمهارتهم جمع كثير من الأنصار حولهم ومن أشهرهم.

● **الأسود العنسي**: حاول إثارة الفتنة بين أهل اليمن والمسلمين الذين ليسوا من أصل يمني، كما ادعى النبوة وزعم أن له شيطانا يخبره بالغيب. على أن رسول الله ﷺ لما بلغه انضمام القبائل اليمنية إليه واتساع سلطانه، أرسل إلى ولاة المسلمين باليمن يأمرهم بالقيام بأمر دينهم ومناهضة الأسود.

● **طليحة بن خويلد الأسدي**: ادعى النبوة في حياة الرسول ﷺ، وشايعه قومه من بني أسد. ودعوا إليه حلفاءهم من القبائل الأخرى مثل غطفان، وقد تمكن خالد بن الوليد في عهد أبي بكر من هزيمته وإرغامه على الفرار، لكنه عاد فأسلم فيما بعد، ورجع إلى المدينة في عهد عمر بن الخطاب حيث اشترك مع المجاهدين في الفتوح الإسلامية.

● **مسيلمة بن حبيب الحنفي**: من قبيلة بني حنيفة التي كانت تنزل باليمامة، وقد اشتهر مسيلمة بالكذاب، لأنه زعم أنه شريك للرسول في النبوة، كما ادعى أن النبي ﷺ نزل له عن نصف أرض المسلمين، وكتب إلى الرسول في آخر السنة العاشرة بعد الهجرة، يقول «من مسيلمة إلى محمد رسول الله، أما بعد: فإني أشركت معك في الأمر، وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصفها ولكن قريشا قوم يعتدون».

وكان مسيلمة يعبر عن ميول قبلية لقبيلة بني حنيفة التي كانت لا تقل عن قريش قوة في الجاهلية، وتطمع في أن يكون لها منطقة نفوذ في بلاد العرب، وقد تجلت خطورة الحركة التي قادها مسيلمة بعد وفاة الرسول ﷺ، إذ استطاع بدهائه

وكثرة أتباعه الذين خرجوا معه وبلغ عددهم أربعين ألفا مجهزين بعدد القتال أن يحرج الدولة الإسلامية في أوائل عهد أبي بكر إحراجا تاما، ثم تمكن خالد بن الوليد من هزيمته في معركة «الحديقة».

كانت حركة الردة من الخطورة إلى درجة أن أغلب الصحابة ـ وعلى رأسهم عمر بن الخطاب ـ كان يرى أنه من العسير التغلب على زعماء العرب الخارجين على الحكومة الإسلامية بالحرب وينبغي التفاهم معهم. غير أن أبا بكر صمم على ضرورة التصدي لهم وإخماد حركتهم مهما كانت النتيجة، وأعد لذلك عدة حملات كان من أشهرها وأهمها الحملة التي قادها خالد بن الوليد. وقد استطاعت هذه الحملات التغلب على هؤلاء المرتدين. وإرغامهم على الإذعان والولاء للدولة الإسلامية.

انتفضت بلاد اليمن على دولة الإسلام الناشئة قبيل وفاة الرسول ﷺ وتزعم هذه الحركة الأسود العنسي، وكان يضع خمارا على وجهه كعادة الكهان في ذلك الوقت، ولُقب الأسود لسواد لونه وادعى الأسود النبوة، ومعرفة الغيب، وكان يري أهل اليمن الأعاجيب، واتبعته مذحج، وغزا نجران، ووثب أنصاره بقيادة قيس بن عبد يغوث على فروة بن مسيك ـ وهو على مراد ـ فأجلاه ونزل منزله. وسار الأسود من نجران إلى صنعاء، واشتبك مع واليها ـ شهر بن باذان ـ وهزمه وقتله واشتد خطر الأسود العنسي في اليمن، وقوي بأسه، حتى أن اليمانية الذين تمسكوا بالإسلام، كذبوه، وفروا بدينهم من بلاد اليمن، حتى لا يتعرضوا لبطشه. وما زال أمر الأسود في صعود حتى سيطر على بلاد اليمن، وغادرها الولاة المسلمون. وامتد نفوذه إلى حضرموت وإلى الطائف والبحرين والإحساء وعدن، واستطار أمره كالحريق، وأناب عنه ولاة على البلاد التي خضعت لنفوذه.

كان الأسود العنسي يدعو إلى التخلص من الأبناء والمسلمين ـ وهم الدخلاء ـ حسب اعتقاده. والمعروف أن الأبناء هم أبناء الفرس. ويرى اليمنيون

أنهم رمز للاستعمار الفارسي والأسود العنسي يعبر بشعوره نحو الأبناء عن شعور مواطنيه. أما موقفه من الإسلام والمسلمين، فيوضح أنه لم يفهم بعد تعاليم الإسلام، ولم يدرك أن الإسلام دين سماوي، أنزله الله على عباده كافة، وإنما كان يرى أن الإسلام دين ابتدعه نبي قريش، وفرض به سلطانه على اليمن. ورأى في الزكاة التي قررها الرسول رمزا لسيادة محمد ﷺ على اليمن. والشعب اليمني قاسى من الاستعمارين الحبشي والفارسي، ويخشى أن يتعرض لاستعمار آخر. لذلك انضم اليمنيون إلى دعوته، التي رأوا فيها تخلصا وتحررا من السيطرة الخارجية والنفوذ الدخيل. وقد ساعد على نمو هذه الحركة وازدهارها في اليمن أن الإسلام لم يتمكن بعد من قلوب اليمانية، ولم يثبت في نفوسهم، لذلك سارعوا إلى الانضمام إلى حركة الأسود العنسي الذي رأوا فيه قائدا وزعيما يعمل على تحريرهم من الدخلاء. وأقرب الطرق في رأيه لتأكيد زعامته، هي أسلوب الكهانة، ووضع خمار على وجهه على طريقة الكهان والإقامة في كهف، وادعاء معرفة الغيب، وأن له شيطانا يخبره بالمستقبل، وكل هذه الأمور أراد بها أن يضاهي بها دعوة النبي ﷺ الذي يوحى إليه. كما عول العنسي أن يحقق من المكاسب ما حققه محمد ﷺ بفضل النبوة. واتخذت هذه الحركة الطابع القومي، يؤيد ذلك ما قاله الأسود العنسي: أيها المتوردون علينا إمسكوا علينا ما أخذتم من أرضنا، ووفروا ما جمعتم، فنحن أولى به....

رأى النبي ﷺ ضرورة التخلص من الأسود العنسي الذي خرج على الإسلام، وضم إليه الكثير من اليمانية في مناهضة الدعوة الإسلامية، فأرسل إلى المسلمين في اليمن يدعوهم إلى التخلص من الأسود العنسي، ودعوة أنصاره إلى العودة إلى الدين الحنيف وقد خرج قيس بن عبد يغوث ـ قائد جيش العنسي ونائبه ـ على سيده حينما استمع إلى رسالة النبي ﷺ، وقد تأثر بها وندم على مناصرة العنسي، وانضم إلى المسلمين في مقاومته، كما انضم إلى المسلمين، كبار

الأذواء، واستجاب أهل نجران لدعوة الرسول في مقاومة العنسي، وانضمت إلى حركة المعارضة ضد العنسي - إمرأته آزال وهي أرملة شهر بن باذان الذي قتله العنسي - وكانت تبغضه لأنه قتل زوجها، وأرغمها على الزواج منه وأهلك عشيرتها.

على كل حال تزعم الأبناء حركة مقاومة العنسي، وقتلوه، وهُزم أنصار العنسي، وعلم الرسول بخبر مقتل العنسي قبل وفاته.

وبذلك فشلت حركة الخروج على الإسلام في اليمن، وارتفعت رايته على هذا البلد، ونصر الله دينه، وبطل كيد الكافرين وعاد أصحاب النبي ﷺ وولاته كل إلى عمله. وعاد معاذ إلى التنقل بين بلدان اليمن، يعظ الناس، ويفقههم، ويصلي بهم.

على أن حركة الردة عن الإسلام عادت من جديد إلى بلاد اليمن بعد وفاة الرسول وتولية أبي بكر الصديق الخلافة، وجاءت هذه الحركة من بين حركات شملت الجزيرة العربية كلها، ومما شجع على عودة الردة إلى بلاد اليمن أن تعاليم الأسود العنسي بقيت آثارها في نفوس اليمانية. لذلك كانت أكثر حركات الردة في بلاد اليمن شدة، بزعامة قيس بن عبد يغوث بن مكشوح. ذلك أنه على الرغم من تآمره على الأسود العنسي، إلا أنه كان يعتنق مبادئه وتعاليمه، ويرى ضرورة طرد الأبناء من اليمن، وكتب إلى شيوخ أهل اليمن يدعوهم إلى الانضمام إلى حركته، وطرد الأبناء، وانضم إلى قيس أنصار حركة الأسود العنسي. ولما رأى فيروز بن باذان - والي صنعاء - أن حركة قيس موجهة إليه وإلى الأبناء، غادر صنعاء، ولجأ إلى أخواله من بني خولان، وانضم إلى فيروز بعض اليمانية، وبذلك ظهرت جبهتان قويتان متعاديتان في اليمن. الأولى جبهة قيس وأنصاره المرتدين عن الإسلام والمعادية للأبناء والمسلمين والجبهة الثانية هي من

تمسك بدينه وعقيدته الإسلامية، ويتزعمها فيروز وأعوانه من الأبناء والمسلمين.

عول فيروز على مناهضة حركة قيس المعادية للمسلمين عامة والأبناء خاصة، وفعلا استطاع هو وأنصاره من المسلمين والأبناء هزيمة قيس ورجاله.

وتأثر بحركة الأسود العنسي عمرو بن معدي كرب، والكثير من ذوي النفوذ في اليمن، وكانت سياسة أبي بكر تهدف إلى إخضاع المرتدين وقتالهم أينما وجدوا، فأرسل الحملات إلى سائر أنحاء الجزيرة العربية، وأرسل إلى اليمن الإمدادات بقيادة عكرمة بن أبي جهل، والمهاجر بن أبي أمية. وشدد المسلمون هجماتهم على المرتدين، وقبضوا على عمرو بن معدي كرب وعلى قيس، وسيقا مكبلين بالسلاسل والاغلال إلى الخليفة أبي بكر، فعادا إلى الإسلام، وعفا عنهما الخليفة.

لكن أنصار العنسي ظلوا يعيثون في بلاد اليمن فسادا، ويهاجمون المسلمين، على الرغم من تخلي زعمائهم عنهم، ومقتل الكثير من أنصارهم، فجمع المهاجر جيشا كبيرا يضم الكثير من اليمانية المسلمين، وشدد هجماته على العنسيين، وقتلهم بكل سبيل ودخل المهاجر صنعاء، وكتب إلى أبي بكر يبشره بهزيمة العنسيين وانتهاء حركتهم.

وامتنع أهل حضرموت عن أداء الزكاة بعد وفاة النبي ﷺ، فبعث أبو بكر إلى زياد بن لبيد البياضي ـ والي حضرموت ـ والمهاجر بن أبي أمية ـ الذي كان يلي أمر كنده ـ يطلب إليهما أن يأخذا له البيعة، ويقاتلا الممتنعين عن أداء الزكاة. ولما طلب منهم زياد بن لبيد تأدية الجزية، اختلفوا عليه وتصايحت كنده، وغضبت بنو السكون والحضارمة لزياد. والتقى الفريقان في قتال، فريق يرفض أداء الزكاة، وفريق يقف إلى جانب زياد، ويدعو إلى أداء الصدقة، وانتصر

المسلمون على أعدائهم الخارجين على الإسلام، وأكثروا فيهم القتل، ولاذ بالفرار من استطاع.

أما الأشعث بن قيس الكندي، فقد استنفر قومه، وأعاد تنظيم صفوفهم، وجمع جمعا كبيرا حتى قوى بأسه، وازداد خطره، فأرسل زياد بن لبيد إلى المهاجر بن أميه يطلب منه الإسراع لنجدته، فسارع زياد إلى نجدته، وواصل المسلمون هجماتهم على المرتدين في كنده، وشددوا عليهم القتال حتى هزموهم واستسلموا، وتتبع المسلمون كل من فر منهم، أو تحصن في بعض الحصون حتى وهنوا وضعفوا، وقتل منهم الكثيرون. ولما أيقن زعيم كنده بأنه لا يستطيع مقاومة المسلمين رأى أن من الأفضل له ولقومه الاستسلام، والعودة إلى الإسلام، فقدم إلى زياد على رأس وفد من قبيلته، وأعلنوا عودتهم إلى الإسلام، والخضوع للدولة العربية الإسلامية، فأرسل زياد، الأشعث إلى المدينة المنورة، فعفا عنه أبو بكر، وأسلم وحسن إسلامه، بل اشترك في الفتوح الإسلامية.

وبذلك انتهت الحركات المضادة للإسلام في اليمن، ونصر الله دينه، ودخل اليمانية في الإسلام زرافات ووحدانا، وارتفعت رايات الإسلام المنصورة في ربوع اليمن مبشرة بعصر جديد وحياة جديدة. ودحض اليمانية عقائد الشرك، وتخلصوا من الأفكار البالية التي آمنوا بها قرونا، وأتم الله فضله ونعمته عليهم، بعد أن نطقوا بالشهادتين، واندمجوا في دين الله الذي يحقق لهم الخير في دنياهم وآخرتهم.

ومن الناحية السياسية توحدت بلاد اليمن لأول مرة في تاريخها تحت راية الإسلام، وأصبحت ولاية من ولايات الخلافة، وحررها الإسلام من الاستعمار، ومن نفوذ الأقيال والأذواء الذين عاملوا الأهلين معاملة تنطوي على الظلم والجور، واغتصبوا أموالهم، وأزهقوا أرواحهم في الحروب القبلية.

ثانيا: الفتوح الإسلامية:

لم تكن غزوتا مؤتة وتبوك إلا محاولتين من جانب الرسول لتأمين حدود بلاد العرب الشمالية وتوطيد سلطة المسلمين فيها. ولما عاد من حجة الوداع أصبح لا يخشى شيئا من ناحية جزيرة العرب. لكنه كان يرى أن دولته الإسلامية لا تزال مهددة بالخطر من ناحية الشمال. فأمر بتجهيز جيش لغزو أطراف الشام الجنوبية.

أسند قيادته إلى أسامة ـ كما سنرى ـ

عوامل الفتوح الإسلامية:

هناك عدة عوامل حملت العرب على الفتح والتوسع، من أهمها العامل الديني. فلا شك أن الحملة الدينية التي بثها الرسول ﷺ والصحابة في نفوس العرب، كان من نتيجتها أن وجهوا جهودهم إلى نشر الدعوة الإسلامية في البلاد التي لا تدين بالإسلام. وقد شجعهم على تحقيق هذه الغاية ما ورد في القرآن الكريم من الآيات البينات التي توضح أن الإسلام لم يُبعث للعرب فقط، وإنما بعث للناس كافة.

هناك أيضا العامل الاقتصادي، وهو سوء الوضع الاقتصادي في جزيرة العرب، وخاصة بعد حروب الردة، فكان ذلك مما حمل العرب على القيام بحركة الفتح، ليضموا إلى حوزتهم أقطارا تتوفر فيها مقومات الحياة.

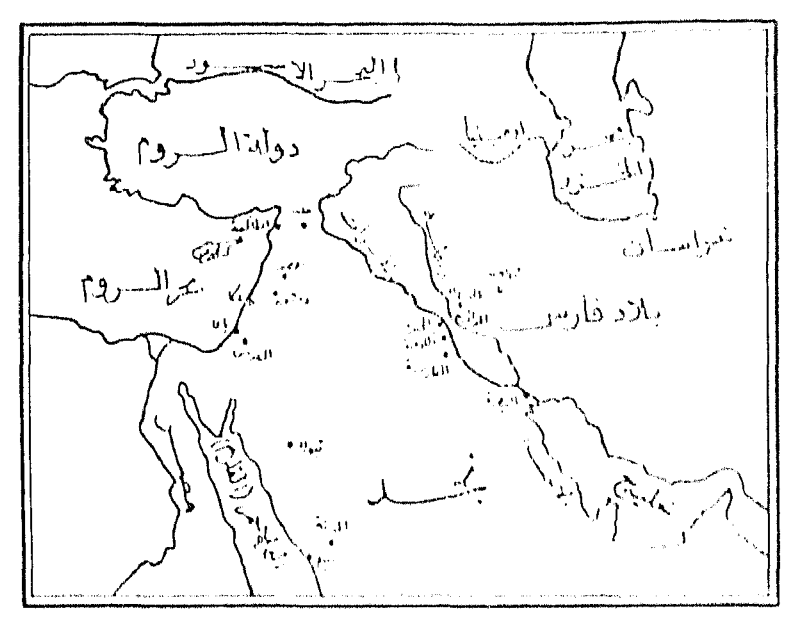
كذلك كان للعوامل السياسية أثرها في قيام العرب بحركة الفتح. فقد رأى أبو بكر الصديق وأصحابه أن يشغلوا العرب بمشروعات قومية تصرف أذهانهم عن التفكير في المسائل الداخلية ففي بلاد الحجاز كان الأنصار لا يزالون

مستائين من المهاجرين لفوزهم بالخلافة. كما أن عوامل الخلاف بين القبائل العربية لم تمح آثارها.

(أ) العراق وبلاد الفرس:

كان العراق خاضعا للفرس منذ مدة طويلة، ولما فرغ أبو بكر من حرب الردة أمر خالد بن الوليد أن يسير بجيشه من اليمامة إلى جنوبي العراق واستطاع أن يحقق هناك عدة انتصارات. ثم اقتضت ظروف الحرب بين العرب والروم أن ينتقل خالد بنصف جيشه إلى بلاد الشام لتعزيز قوات المسلمين هناك. على أن انتصارات خالد بن الوليد في جنوبي العراق مهدت الطريق - بلا شك - لضم هذا القطر بأكمله إلى الدولة العربية أثناء خلافة عمر بن الخطاب. فلما دفع الفرس في عهده بقواتهم إلى العراق، على أمل سحق المسلمين هناك، تمكن هذا الخليفة من أن يعد جيشا قوامه حوالي ثلاثين ألفا من المقاتلين لمواجهتهم، أسند قيادته إلى سعد بن أبي وقاص، فانتصر على الفرس في واقعة القادسية (١٦ هـ / ٦٣٦ م) وقد فتح الطريق بعد هذه الواقعة أمام العرب في أراضي العراق بدون أن يلقوا مقاومة تذكر حتى بلغوا «المدائن» عاصمة الفرس، فاستولوا عليها بعد حصار دام شهرين، وفر منها كسرى فارس «يزدجرد الثالث» إلى مدينة حلوان الفارسية، وقد جمع العرب من المدائن غنائم كثيرة، وشاهدوا فيها كثيرا من مظاهر ثراء الفرس وترفهم.

ولما تم للعرب فتح القادسية، كتب الخليفة عمر بن الخطاب سنة ١٧ هـ. (٦٣٧م) إلى سعد بن أبي وقاص، بألا يتتبع الفرس، ويتخذ للمسلمين مدينة فاتخذ سعد الكوفة وأنشأ بها المسجد الجامع.



خريطة رقم (٢)

فتح فارس

أما بالنسبة لبلاد فارس. فإن يزدجرد الثالث لما فر من المدائن على أثر اقتحام العرب لها، استطاع أن يحشد قوات كبيرة عند «نهاوند» (انظر الخريطة رقم ٢) فالتحم معه جيش عربي بقيادة «النعمان بن مقرن» في سنة ٣١ هـ / ٦٤٢م. وانجلى القتال عن هزيمة ساحقة للقوات الفارسية، فر على أثرها يزدجرد الثالث إلى الشرق حيث اغتاله بعض الفرس في عهد الخليفة عثمان بن عفان. ونظرا لأهمية هذه المعركة، فقد أطلق العرب عليها اسم «فتح الفتوح» لأن الفرس ضعفت مقاومتهم بعدها، وساعد ذلك على انطلاق الجيوش العربية في أنحاء بلاد الفرس حيث نجحت في ضمها إلى الدولة العربية.

الفتح العربي لبلاد الشام

شرع المسلمون في غزو الأطراف الجنوبية لبلاد الشام في حياة النبي، ولما ولي أبو بكر الخلافة بدأ عمله بإنفاذ حملة أسامة بن زيد التي جهزها الرسول قبل وفاته، وزودها بخيرة المسلمين من المهاجرين والأنصار.

كان أبو بكر يرمي من وراء الإسراع بهذه الحملة إشعار الخارجين على الحكومة الإسلامية في المدينة بقوتها وثبات مركزها. هذا فضلا عن شغل الأنصار الذين كانوا غير راضين عن فوز المهاجرين بالخلافة في بيعة السقيفة.

لكن بعض الصحابة اعترض على إرسال هذه الحملة، وقالوا للخليفة: «انتفضت عليك العرب، فلا ينبغي أن تفرق جماعة المسلمين عنك، فأجابهم أبو بكر بقوله: لا أرد قضاءً قضى به رسول الله ﷺ ولو ظننت أن السباع تخطفني لأنفذت جيش أسامة كما أمر النبي ﷺ.

ولما تحرك الجيش خرج أبو بكر لتوديعه. وأوصى أفراد هذه الحملة بقوله: «لا تخونوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلا ولا شيخا كبيراً، ولا إمرأة، ولا تعقروا نخلا وتحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع. فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له. وسوف تقدمون على قوم بآنية فيها ألوان الطعام، فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شيء فاذكروا اسم الله عليه، وتلقون أقواماً قد فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب، فاخفقوهم بالسيف خفقاً. اندفعوا باسم الله».

سار أسامة على رأس جيشه قاصداً البلقاء، فلما بلغ أبنى غزا قوماً من قضاعة وأوقع بهم، وتغلب على كل من تعرض له، وغنم وعاد منتصراً إلى

المدينة بعد أن قضى في غزوته ما يقرب من شهرين. وبذلك أخذ أسامة الثأر لأبيه ولمن استشهد معه من المسلمين في مؤتة.

وكانت هذه الحملة أولى السلسلة الرائعة من الحملات التي اجتاح العرب فيها سورية وفارس وشمال أفريقية.

وجه أبو بكر اهتمامه بعد أن فرغ من أهل الردة إلى توجيه الجيوش إلى الشام ليحقق بذلك سياسة التوسع للدولة العربية الإسلامية التي وضع أساسها الرسول ﷺ قبل وفاته. فجمع الصحابة في المسجد وقال لهم: «اعلموا أن الله فضلكم بالإسلام وجعلكم من أمة محمد عليه السلام وزادكم إيمانا ويقينا، واعلموا أن رسول الله ﷺ كان عول أن يصرف همته إلى الشام... ألا وإني عازم أن أوجه أبطال المسلمين إلى الشام بأهليهم ومالهم فإن الرسول ﷺ أنبأني بذلك قبل موته» فاستجاب الصحابة لنداء الخليفة وقالوا له: مرنا بأمرك ووجهنا حيث شئت.

كتب أبو بكر إلى أهل مكة والطائف واليمن وجميع العرب بنجد والحجاز، يدعوهم للجهاد ويرغبهم فيه وفي غنائم الروم. وقد استجاب المسلمون في جميع أنحاء الجزيرة العربية لنداء الخليفة «فسارع الناس إليه من بين محتسب وطامع»، فأقبلوا ومعهم الذراري والأموال والنساء والأطفال. وخرج المسلمون لاستقبالهم «وأظهروا زينتهم وعددهم ونشروا الأعلام الإسلامية ورفعوا الألوية المحمدية، فما كان إلا قليل حتى أشرفت الكتائب والمواكب يتلو بعضها بعضا قوم في أثر قوم وقبيلة في أثر قبيلة» فأنزلهم أبو بكر حول المدينة وجعل كل قبيلة تقيم في ناحية معينة.

عقد أبو بكر أربعة ألوية لأربعة من قواد المسلمين، وهم يزيد بن أبي سفيان ووجهته دمشق، وشرحبيل بن حسنه ووجهته وادي الأردن، وعمرو بن

العاص ووجهته فلسطين، وعهد إلى أبي عبيدة عامر بن الجراح بالمسير إلى حمص، وطلب إليهم في حالة اضطرارهم إلى الانضمام لبعض أن تكون القيادة لأمير المنطقة التي فيها التجمع.

أوصى أبو بكر الصديق يزيد بن أبي سفيان بقوله: «إذا سرت فلا تضيق على نفسك وعلى أصحابك في مسيرك وشاور أصحابك في الأمر» واستعمل العدل، وباعد عنك الظلم، فإنه لا أفلح قوم ظلموا ولا نصروا على عدوهم، وإذا نصرتم على عدوكم فلا تقتلوا ولدا ولا إمرأة ولا طفلا، ولا تغدروا إذا عاهدتم ولا تنقضوا إذا صالحتم، ولا تهدموا صوامع الرهبان، وحاربوا عبدة الصلبان حتى يرجعوا إلى الإسلام أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون»

لما بلغ يزيد بن أبي سفيان تبوك - وهو في طريقه إلى الشام - أنفذ هرقل امبراطور الروم جيشاً ليحول دون دخول العرب بلاد الشام، ودارت بين العرب والروم موقعة انتصر فيها العرب.

وعندما سار عمرو بن العاص إلى فلسطين أسرع أميرها سرجيوس لصد غارات العرب، لكنه هُزم في موقع يقال له العربة (Araba) ثم فر وقُتل أثناء فراره، وفي هذه الأثناء كان هرقل امبراطور الروم في شمال الشام قد حشد جيشاً كبيراً لصد القوات العربية، فكتب عمرو بن العاص إلى أبي بكر يستنجده ويخبره بكثرة عدد العدو وعدتهم، وكان أبو بكر إذ ذاك يرى أن فتح الشام أكثر أهمية من فتح العراق، ومن ثم كتب إلى خالد بن الوليد - الذي كان وقتذاك يواصل زحفه في بلاد العراق - يأمره بالتوجه إلى الشام، وأسند إليه قيادة الجيوش العربية في تلك البلاد.

لما أتى خالد بن الوليد كتاب أبي بكر وهو بالحيرة أسند قيادة الجيوش العربية في العراق إلى المثنى بن حارثة الشيباني، وسار في ربيع الأول سنة ١٣ هـ

إلى بلاد الشام على رأس نصف الجيش الذي كان يقوده في العراق.

ولما وصل إلى بلدة بصرى ـ وكان فتحها قد استعصى على شرحبيل بن حسنة ـ استطاع أن يستولي عليها بمعاونة واليها رومانوس الذي اعتنق الإسلام، ويسر للعرب أمر دخولها، وصالح خالد أهل بصرى وأعطاهم أماناً على دمائهم وأولادهم على أن يؤدوا الجزية.

وكان عمرو بن العاص إذ ذاك قد أغار على جنوبي فلسطين حتى بلغ غزة، فقطع المواصلات بين مدينة بيت المقدس وبين الساحل، أما هرقل قيصر الروم فقد أعد جيشاً في ناحية تقع جنوبي دمشق، وأسند قيادته إلى أخيه تيودور الذي سار جنوباً للدفاع عن بيت المقدس وغزة، فخشي خالد بن الوليد هزيمة القوات العربية في الجنوب، وأسرع جنوباً عبر شرق الأردن، وحشد قواته في وادي عربة، ثم زحف إلى فلسطين لمحاربة تيودور، وفي جمادى الأول سنة ١٣ هـ نشبت معركة بين العرب والروم في أجنادين دارت الدائرة فيها على الروم، وولى تيودور هارباً حيث التقى بأخيه هرقل الذي غادر حمص وتراجع إلى انطاكية.

وبانتصار العرب في أجنادين أصبحت فلسطين كلها في يدهم وقد نوه عن ذلك سفرنيوس رئيس أساقفة بيت المقدس في خطاب ألقاه في الاحتفال بعيد الميلاد سنة ١٣ هـ (٦٣٤م) إذا قال: أن المسيحيين أصبحوا لا يستطيعون الحج إلى بيت لحم لأن بلاد فلسطين أصبحت في قبضة العرب.

لما علم أهل الحجاز واليمن ونجد بالانتصارات التي أحرزها المسلمون والغنائم الكثيرة التي غنموها، تسابقوا في الخروج إلى الشام لمشاركة إخوانهم في الجهاد، فأقبل إلى المدينة غدد غفير منهم، وطلبوا من أبي بكر أن يأذن لهم بالخروج إلى الشام فأذن الخليفة لهم، وكتب إلى خالد بن الوليد كتاباً جاء فيه:

«قد فرحت بما أفاء الله على المسلمين من النصر وهلاك الكافرين، وأخبرك أن تنزل إلى دمشق حتى يأذن الله بفتحها على يدك، فإذا تم ذلك، فسر إلى حمص وأنطاكية والسلام».

تركزت المعارك في بداية عهد عمر بن الخطاب في الأردن حيث انتصر العرب عل الروم في بيسان وفحل، ذلك أن هرقل امبراطور الروم لما توجه إلى أنطاكية أعد جيشا كبيرا التقى بالقوات العربية في فحل التي كانت تحمي الطريق إلى دمشق ـ وهدم الروم سدود المياه ليعرقلوا تحركات العرب، لكنهم رغم ذلك انتصروا على أعدائهم، وتحصن أهل فحل في مدينتهم، فشدد العرب عليهم الحصار حتى طلبوا الأمان على أن يؤدوا الجزية والخراج فاستجاب العرب لطلبهم، وأمنوا على أنفسهم وأموالهم ودخلوا فحل سنة ١٣ هـ (٦٣٤)٠.

مهدت الانتصارات التي أحرزها العرب في الأردن الطريق إلى دمشق، فتوجه العرب في المحرم سنة ١٤ هـ إلى دمشق ـ وكان الروم قد أعادوا تنظيم صفوفهم بعد أن أمدهم هرقل ببعض قواته ـ والتقى العرب بالروم في مرج الصفر وأوقعوا بهم الهزيمة وبذلك أصبح الطريق مفتوحا أمام العرب للزحف إلى دمشق فاستولوا على الغوطة وكنائسها عنوة وتحصنت الحاميات البيزنطية في المدينة، وأغلقوا أبوابها، ومن ثم بدأ التعاون والتنسيق بين سائر قواد العرب، فوزعوا قواتهم على أبواب المدينة الرئيسية لتشديد الحصار عليها، وحملها على التسليم، فاختص خالد بن الوليد بالباب الشرقي، واتخذ من دير صليبا ـ الذي عرف فيها بعد بدير خالد ـ مقرا لقيادته، ونزل عمرو بن العاص بباب توما، وشرحبيل بن حسنة باب الفراديس، وأبو عبيدة عامر بن الجراح بباب الجابية.

وبينما كان أبو عبيدة عامر بن الجراح يشترك مع قواد العرب في محاصرة دمشق وصله كتاب من الخليفة عمر بن الخطاب يتضمن إسناد قيادة الجيوش

العربية في الشام إليه بدلا من خالد بن الوليد. ومما جاء في هذا الكتاب «قد بلغنا حصاركم لأهل دمشق وقد وليتك جماعة المسلمين، فبث سراياك في نواحي أهل حمص ودمشق وما سواها من أرض الشام، وانظر في ذلك برأيك، ومن حضرك من المسلمين ومن استغنيت عنه فسيره، ومن احتجت إليه في حصارك فاحتبسه وليكن فيمن يحتبس خالد بن الوليد فإنه لا غنى بك عنه».

كتم أبو عبيدة عن خالد بن الوليد توليته قيادة الجيوش العربية حتى تم فتح دمشق، وحينئذ أظهرها له قائلا: كرهت أن أكسرك وأوهن أمرك وأنت بإزاء عدو. ولما قرأ خالد بن الوليد كتاب الخليفة قال: (ما أنا بالذي أعصي أمير المؤمنين)، وحارب تحت إمرة أبي عبيدة.

ظل العرب يحاصرون مدينة دمشق ستة أشهر متوالية ولم تجد أهالي هذه المدينة منعة حصونهم نفعاً، كما أنه في أثناء الحصار كانت بعض القوات العربية بين دمشق وحمص تحول دون وصول أية إمدادات قد تصل إليهم، فضعفت مقاومتهم، ووهنت عزيمتهم.

لما اشتد الحصار على أهل دمشق بعثوا إلى هرقل وهو بأنطاكية رسلا يقولون له: «أن العرب قد حاصرونا وليس لنا بهم طاقة، وقد قاتلناهم مراراً، فإن كان لك فينا وفي السلطان علينا حاجة، فأمددنا وأعنا وإلا فإنا في ضيق وجهد فاعذرنا وقد أعطانا القوم الأمان، ورضوا منا بالجزية اليسيرة».

لما رأى أسقف دمشق أن أبا عبيدة بن الجراح على وشك دخول مدينة دمشق من باب الجابية توجه إلى خالد بن الوليد وطلب منه أن يعقد معه صلحا بقوله: «يا أبا سليمان إن أمركم مقبل ولي عليك عدة، فصالحني عن هذه المدينة» فأجاب خالد طلبه، وكتب إليه كتاب صلح لأهل دمشق جاء فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق إذا دخلها أعطاهم أماناً على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وسور مدينتهم لا يهدم ولا يسكن شيء من دورهم لهم بذلك عهد الله وذمة رسوله ﷺ والخلفاء والمؤمنون لا يعرض لهم إلا بخير إذا أعطوا الجزية».

فتح أسقف دمشق على أثر ذلك الباب الشرقي لخالد بن الوليد، فدخل خالد المدينة في ربيع الثاني سنة ١٥ هـ (٦٣٦م) وبصحبته الأسقف ناشرا كتاب الصلح الذي كتبه خالد بن الوليد له. والتقى خالد بقواد العرب في دمشق على مقربة من كنيسة المقسلاط، وأخبرهم بالصلح الذي كتبه لأهل دمشق، فأمروا قواتهم بالكف عن القتال وكتب أبو عبيدة إلى عمر بن الخطاب بهذا الصلح فوافق عليه.

هناك روايات كثيرة تدور حول الفتح العربي لمدينة دمشق يناقض بعضها بعضاً، ومن أبرز هذه الروايات رواية ابن عساكر التي ذكر فيها أن خالد بن الوليد دخل المدينة من الباب الشرقي عنوة، في حين دخل أبو عبيدة من باب الجابية صلحاً، وعلى ذلك كان صلح أهل دمشق على أنصاف منازلهم وكنائسهم. وهذه الرواية متأخرة وتناقض كل الروايات الموثوق بها والسابقة عليها في الزمن، ورواية البلاذري أقرب هذه الروايات إلى الصحة.

ذكر البلاذري أن محمد بن سعد روى عن الواقدي قوله: «قرأت كتاب خالد بن الوليد إلى أهل دمشق فلم أر فيه أنصاف المنازل والكنائس، ولكن دمشق لما فتحت لحق كثير من أهلها بهرقل وهو بأنطاكية. فكثر فضول منازلها، فنزلها المسلمون». وكان أبو عبيدة قد أعطاهم أماناً لمدة ثلاثة أيام يغادرون خلالها المدينة.

قضى العرب شتاء سنة (٦٣٦م) في دمشق واضطروا إلى الرحيل عنها وعن بعض المدن التي فتحوها لملاقاة الروم في اليرموك، بل أعادوا لأهل حمص ما اخذوه من الخراج وقالوا لهم: قد شغلنا عن نصرتكم والدفاع عنكم فأنتم على أمركم. ذلك أن هرقل عول على مهاجمة العرب بعد أن بلغه فتحهم دمشق، فجمع جيشا كبيرا من الروم وعرب الشام وأهل الجزيرة وأرمينية، وأسند قيادة هذا الجيش إلى تيودور.

اجتمعت القوات العربية في المنطقة المعروفة بحوض نهر اليرموك. أما قوات الروم فسارت إلى الواقوصه، وهاجمت خيالتهم العرب، واشتد القتال بين الفريقين، ولكن حدث أن استهوت عرب الشام بالجيش البيزنطي العصبية العربية، وانضموا للقوات العربية أثناء القتال وقالوا لهم: «أنتم أخوتنا وبنو أبينا». كما أن اليأس تسرب إلى جند الروم بعد أن فشلوا مراراً في وقف تيار الزحف العربي، وانتهت موقعة اليرموك بهزيمة الروم في رجب سنة ١٥ هـ (٦٣٦م).

عاد العرب إلى دمشق بعد انتصارهم الرائع في اليرموك في خريف هذه السنة، وفتحوها للمرة الثانية، وجدد خالد بن الوليد لأهل دمشق كتاب الصلح الذي كان قد كتبه لهم، وأثبت في هذا الكتاب شهادة أبي عبيدة بن الجراح ويزيد بن أبي سفيان وشرحبيل بن حسنة وغيرهم من قواد العرب.

ولما بلغ هرقل إيقاع المسلمين بجنده قال في حسرة وألم: «عليك السلام يا سورية لقد كنت سلمت عليك تسليم المسافر، فأما اليوم فعليك السلام يا سورية تسليم المفارق، ولا يعود إليك رومي أبداً إلا خائفاً».

عاد العرب عقب اليرموك إلى المناطق التي كانت تعسكر فيها قواتهم، نسافر عمرو بن العاص إلى فلسطين ليتم فتحها، واتجه شرحبيل بن حسنة إلى

الأردن، وفتح عكا وصور وأخذ يزيد يغزو مدن الشام ا لغربية، فاستولى على صيدا وجبيل وبيروت، أما أبو عبيدة فإنه تقدم شمالا واسترد المدن التي استولى عليها العرب من قبل، وامتدت فتوحه إلى حمص وقنسرين وحلب وأنطاكية، وكان خالد بن الوليد قد صار في صحبته، غير أنه ما لبث أن تركه وتوجه إلى المدينة تنفيذاً لأوامر الخليفة، وظل أبو عبيدة واليا على سوريا كلها.

كانت دمشق من بين المدن التي استردها العرب بعد انتصارهم في اليرموك. وكان خالد قد فتحها في أول الأمر صلحاً، ثم اضطر العرب إلى الرحيل عنها، فاستعاد الروم سلطانهم عليها، غير أنهم لم يبقوا بها طويلاً، فقد عادت إلى قبضة العرب سنة ١٥ هـ، ومن ثم أصبح لهم حق التصرف في أرضها.

صالح ابو عبيدة أهل دمشق على أداء الجزية والخراج وتقديم قدر من الطعام لمؤونة المسلمين، كما التزموا بإضافة من يمر بهم من المسلمين ثلاثة أيام من أواسط ما يأكلون ولا يحدثوا في دمشق ولا فيما حولها كنيسة أو ديرا ولا يجددوا ما خرب من كنائسهم، مما كان في خطط المسلمين ولا يأوون في منازلهم جاسوسا ولا يكتموا على من غش المسلمين.

طلب أسقف بيت المقدس أن الذي يُكتب معه عقد الصلح هو الخليفة دون سواه، لما لهذه المدينة من قدسية خاصة ومكانة عند أصحاب الديانات السماوية.

قدم عمر بن الخطاب في سنة ١٥ هـ إلى بيت المقدس لاستلامها وعقد اتفاق صلح مع أهلها، وكتب لهم كتاب الصلح، جاء فيه «هذا ما أعطى عبدالله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان، أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم... أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم، ولا ينتقص منها ولا

من حيزها، ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية. . . . وعلى مافي هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله ﷺ وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين، إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية»

وبذلك تم فتح بلاد الشام، وأصبحت جزءا من الدولة العربية الإسلامية.

(جـ) مصر:

بعد أن فرغ عمر بن الخطاب من استلام بيت المقدس، عقد مؤتمرا في الجابية (قرب دمشق) حيث اجتمع بقادة الجيوش العربية في بلاد الشام واستقر الرأي على ضرورة ضم مصر إلى الدولة العربية، لأنها كانت خاضعة وقتذاك للروم ويستطيع هؤلاء أن ينطلقوا منها لمهاجمة بلاد الشام برا وبحرا واستعادتها إلى حوزتهم.

عرض الخليفة عمر بن الخطاب إلى القائد عمرو بن العاص بمهمة فتح مصر وذلك لسابق زيارته لها وخبرته بظروفها. فتوجه على رأس جيش من فلسطين نحو مصر في آخر سنة ١٨ هـ / ٦٣٩م، وسار بمحاذاة شاطيء البحر المتوسط حتى دخل العريش ثم الفرما (شرقي بورسعيد) واستولى بعد ذلك على بلبيس. ثم اشتبك مع الروم في قتال شديد عند عين شمس اضطر على أثره أن يطلب المدد من الخليفة، فأمده بقوة ساعدته على تحقيق النصر والتقدم إلى حصن بابليون الذي استسلمت حاميته للعرب بعد حصار دام سبعة أشهر، واضطر القائد الروماني إلى عقد معاهدة مع العرب، اشترط فيها أن يخرج أهل الحصن في ثلاثة أيام وأن يتعهدوا بدفع الجزية.

كانت الإسكندرية إذ ذاك حاضرة الديار المصرية، فعمد الروم إلى إمدادها بقواتهم وتحصينها، فلما شرع عمرو بن العاص في الزحف إليها بعد استيلائه على

حصن بابليون لقي مقاومةمن الروم. على أن وفاة هرقل واضطراب الأحوال الداخلية في الدولة البيزنطية اضطر الروم إلى طلب الصلح مع العرب فعقدت معاهدة بين عمرو بن العاص والمقوقس الحاكم الروماني على مصر سنة ٢١ هـ / ٦٤٢م تم بمقتضاها جلاء حامية الروم عن الاسكندرية وأتيحت بعد ذلك الفرصة لعمرو بن العاص لإخضاع بلاد الصعيد، ولم تنته سنة ٣٢ هـ حتى أصبحت مصر كلها في قبضة العرب.

لم تعد الإسكندرية صالحة لأن تكون عاصمة مصر بعد انضمامها للدولة العربية وذلك نظرا لتهديد الروم لها من ناحية البحر، فضلا عن بعدها كثيرا عن عاصمة الخلافة وقتذاك وهي المدينة المنورة، ولذلك اختط عمرو بن العاص بأمر من الخليفة عمر بن الخطاب عاصمة جديدة لمصر واختار المنطقة التي بها حصن بابليون لتقام عليها لأن هذه المنطقة تتوسط أرض مصر وتقع بين الدلتا والصعيد، وقد سميت هذه العاصمة الجديدة بالفسطاط وأنشىء بها أول مسجد بمصر وهو المعروف حاليا بمسجد عمرو بن العاص.

توطيد نفوذ العرب في البلاد التي ضموها إلى دولتهم:

ولما ولي عثمان بن عفان الخلافة، نجح الفرس في استعادة سلطانهم على بعض المناطق التي ضمها العرب، لكن الخليفة الجديد سرعان ماعهد إلى ولاته في البصرة والكوفة باسترداد هذه المناطق، فانطلقت جيوش العرب إليها وتمكنت من استردادها. ولم تكتف بذلك، بل ضمت أجزاء أخرى من بلاد الفرس إلى حوزة الدولة العربية.

كذلك حاول الروم في عهد عثمان بن عفان استرداد الشام ومصر فسيروا جيشا من آسيا الصغرى لغزو شمال الشام، كما أنزلوا جيشا آخر بالإسكندرية

سنة ٢٥ هـ / ٦٤٥م لكن ولاة عثمان في هذين القطرين نجحوا أيضا في التصدي للروم. وقد بادر هذا الخليفة بإرسال الإمدادات إلى معاوية بن أبي سفيان واليه على الشام، كما أعاد عمرو بن العاص إلى مصر وأسند إليه ولاية الإسكندرية وعهد إليه بإخراج الروم من مصر، فتغلبت قواته عليهم، وبذلك تيسر له إجلاء الروم عن البلاد المصرية.

نتائج الفتوح العربية:

اقترنت حركة الفتوح العربية بانتشار الإسلام في البلاد التي تم للعرب فتحها إذ دخل الدين الإسلامي في هذه البلاد بدخول العرب فيها ولم يعمل العرب على إرغام أهالي هذه البلاد المفتوحة على الدخول في الإسلام. لكنهم فرضوا الجزية على الذين آثروا الاحتفاظ بديانتهم.

ولا يصح أن تعتبر الجزية نوعا من الضغط من جانب المسلمين لإكراه الناس على الدخول في الإسلام، لأنه من الثابت أن أهالي البلاد المفتوحة كانوا يدفعون هذه الضريبة قبل الفتح العربي تحت اسم آخر هو «ضريبة الرأس» وقد أعفى العرب منها الرهبان والنساء والأطفال وكبار السن وذوي العاهات كما جعلوا قيمتها تتفاوت بحسب الحالة المالية للناس. وقد بلغت في المتوسط دينارين في السنة.

كذلك انتشرت اللغة العربية في جميع البلاد التي فتحها العرب وحلت محل الفارسية في العراق، واليونانية في بلاد الشام واليونانية والقبطية في مصر. وحتى الشعوب التي احتفظت بلغتها رغم خضوعها للعرب واعتناقها الإسلام، مثل الفرس والترك، اتخذت اللغة العربية أداة للعلم والأدب.

ولا شك أن انتشار الإسلام بين أهل البلاد المفتوحة كان له بعض الأثر في تعلمهم العربية ليتمكنوا من قراءة القرآن وإقامة الصلاة التي هي عماد هذا الدين ثم اتسع نطاق انتشار اللغة العربية في هذه البلاد على أثر نقل الدواوين إلى العربية في عهد عبدالملك بن مروان وابنه الوليد، إذ حرص الكثيرون على تعلم العربية حتى تتاح أمامهم فرصة شغل الوظائف الحكومية.

كذلك ساعد استقرار القبائل العربية في البلاد المفتوحة، واشتغال أفرادها بالزراعة، وتصاهرها مع أهالي تلك البلاد على نشر الإسلام واللغة العربية فيها.

وهكذا غلب العرب دينهم وثقافتهم على شعوب رقعة كبيرة من الأرض وقد اكتسبت هذه الشعوب من الإسلام أفكارا جديدة. وبامتزاج هذه الثقافة العربية الإسلامية بثقافة الأمم التي فتحت بلادها وجد ما نسميه بالحضارة الإسلامية التي كان لها تأثير بالغ في حضارة الانسان.

الحالة السياسية في الدولة العربية في عهد عثمان وعلي:

وقع الاختيار على عثمان بن عفان في المحرم سنة ٢٤ هـ ليلي الخلافة بعد مقتل عمر، فعمل على توطيد نفوذ العرب في كثير من البلاد التي تم فتحها قبل أن يتولى الخلافة كما نجح ولاته في ضم مناطق جديدة إلى حوزة الدولة العربية.

على أنه حدثت فتنة في أواخر عهد عثمان، سببها استياء البعض من سياسته في الاعتماد على أقاربه من بني أمية وإسناد المناصب الهامة في الدولة إليهم. كما أن بعض الشخصيات صارت تبث روح السخط والتمرد في نفوس أهل الأمصار، من ذلك ما قام به عبدالله بن سبأ الذي تنقل في الأمصار الإسلامية محاولا إثارة الناس ضد عثمان، واستطاع بدهائه أن يدخل في روع كثير من أهالي هذه الأمصار أن عثمان أخذ الخلافة بغير حق من علي بن أبي طالب.

ولم يمض على ذلك وقت طويل حتى أقبل إلى المدينة في شوال سنة ٣٥ هـ، وفد من أهل العرب في مصر، وجموع من الكوفة والبصرة. ولما يئسوا من مناصرة أهل المدينة وزعمائها غادروها، ثم ما لبثوا أن عادوا إليها وضربوا حصارا حول دار عثمان بن عفان. ولما علموا أن عمال الخليفة في الإمصار الإسلامية أعدوا الجند لإرسالهم إليه، شددوا الحصار على عثمان وأساءوا معاملته، وبعد أن استمروا في محاصرته أربعين يوما، هجم عليه بعضهم وضربوا عنقه بالسيف. وذلك في اليوم الثامن عشر من شهر ذي الحجة سنة ٣٥ هـ.

ولا شك أن عثمان قتل مظلوما، فهو وإن كان قد استعان بأقربائه من بني أمية في تسيير أمور الدولة العربية، فإن النبي ﷺ نفسه قد ولى الكثير منهم شئون هذه الدولة. كما استعان بهم كل من أبي بكر وعمر. هذا فضلا عن أن الولاة الذين عينهم عثمان أظهروا كفاءة في شغل مناصبهم ومن هؤلاء معاوية بن أبي سفيان الذي كان أميرا على الشام وأحبه أهلها، وعبدالله بن سعد بن أبي سرح الذي نجح في أثناء ولايته على مصر في إنزال الهزيمة بالروم في الواقعة البحرية الكبيرة المعروفة بذات الصواري والتي كان لها أثرها في زوال السيادة البحرية للأسطول البيزنطي في البحر المتوسط، وعبدالله بن عامر الذي تمكن أثناء ولايته على البصرة من توطيد نفوذ المسلمين في كثير من بلاد الفرس، وطارد ملكهم يزدجرد الثالث الذي قتله بعض الفرس أثناء اختفائه في أحدى البلاد.

أصبحت الحالة في المدينة المنورة بعد مقتل عثمان تقتضي وجود خليفة قوي، يعيد الأمور إلى نصابها، فبايع أهل المدينة علي بن أبي طالب سنة ٣٥ هـ، وأيدهم الثوار بالمدينة واضطر علي إلى قبول الخلافة خشية حدوث خلاف بين المسلمين.

بدأ علي عمله بعزل ولاة عثمان الذين كانوا سببا في اعتراض الكثيرين على عثمان وعين بدلا منهم ولاة آخرين غير أنه حدث أن الوالي الذي أرسله إلى

الشام رده بعض أتباع معاوية بن أبي سفيان، وهو في طريقه إليها. ولما رأي علي أن معاوية لم يجبه إلى طلب البيعة، أخذ يعد جيشا لغزو الشام لعزله عنها. وبينما هو على هذه الحال، وقع حادث عرضي وهو سير طلحة بن عبيدالله والزبير بن العوام وعائشة أم المؤمنين إلى البصرة واستيلائهم عليها سنة ٣٦ هـ، فعدل عن غزو الشام ومضى في سيره إلى الكوفة ليستنجد بأهلها، فاستجاب الكوفيون لدعوته وخرج معه عدد غير قليل، ثم سار علي بهذا العدد الى البصرة حيث دارت موقعة الجمل (جمادى الآخرة سنة ٣٦ هـ) التي انتهت بانتصار علي وقتل طلحة والزبير أما السيدة عائشة فقد أعادها علي مكرمة إلى المدينة.

لما هدأت الأحوال في البصرة أخذ علي البيعة لنفسه من أهلها، ثم وجه اهتمامه إلى بلاد الشام حيث معاوية بن أبي سفيان الذي أبى الاذعان لأوامره فبعث إليه رسولا من قبله يدعوه إلى الطاعة والبيعة. وبعد أن تحقق علي من عدم استجابته لدعوته وتأهبه للقتال، سار من الكوفة لمحاربته والتقى بجند الشام وعلى رأسهم معاوية بن أبي سفيان في سهل صفين (ذي الحجة سنة ٣٦ هـ) حيث دارت بين الفريقين مناوشات يسيرة، ثم اتفقا على ايقاف الحرب إلى آخر المحرم طمعا في الصلح وترددت الرسل بينهما. لكن معاوية الذي كان يعتبر نفسه ولي دم عثمان بن عفان أصر على موقفه، وهو مطالبة علي بن أبي طالب بالتحقيق مع قتلة عثمان والاقتصاص منهم بينما رأى علي أن هذا الأمر غير ممكن الا بعد أن تهدأ الفتنة وتستقر الأحوال في الدولة. ولما لم يصل الطرفان إلى حل يرضي كلا منهما عادوا إلى القتال في شهر صفر سنة ٣٧ هـ. فزحف علي بجنده من أهل العراق على جيش الشام، وكاد الأمر ينتهي بانتصار أهل العراق لولا أن جند الشام رفعوا المصاحف على الرماح ودعوا إلى تحكيم كتاب الله فيما شجر بينهم، فلقيت هذه الدعوة قبولا من عدد كبير من جند علي الذين يعرفون بالقراء (لاجادتهم حفظ القرآن الكريم) واستنكروا المضي في القتال وبذلك انتهت

موقعة صفين وحل محلها التحكيم واتفق الطرفان على أن يختار كل منهما رجلا من قبله، فوقع اختيار معاوية على عمرو بن العاص واختار أتباع علي أبا موسى الأشعري.

بدأت الفرقة تظهر بين أنصار علي منذ ذلك الوقت لأن بعض جنده الذين رحبوا بالتحكيم في بادىء الأمر، عدلوا عن رأيهم وأنكروا أن يحكم الناس في قضية تبين فيها الحق من الباطل. وهؤلاء هم الذين خرجوا على علي وعرفوا بالخوارج ورفضوا أن يدخلوا الكوفة معه، وناصبوه العداء حين وجدوه يستعد للتحكيم.

أما فيما يتعلق بالتحكيم فإن الحكمين اجتمعا واتفقا على خلع علي ومعاوية وترك الأمر شورى للمسلمين. وقد انتصر بهذا الحكم معاوية بن أبي سفيان، لأنه بمقتضاه خلع علي من الخلافة، أما معاوية فلم يصبه شيء لأنه لم يكن خليفة بل كان واليا على بلاد الشام، فإذا عزل فانما يعزل عن ولاية هذه البلاد.

ولما فرغ علي من التحكيم، جهز جيشا للقضاء على فتنة الخوارج، فالتقى بهم عند النهروان (على بعد ميلين من الكوفة) وأوقع بهم الهزيمة. ثم دعا أصحابه لمحاربة معاوية بن أبي سفيان بالشام سنة ٣٨ هـ. فتخاذلوا عن نصرته بينما كان أصحاب معاوية كلهم يدا واحدة، فتمكن من الاستيلاء على مصر وولى عليها عمرو بن العاص، كما وجه حملات أغارت على أطراف دولة علي. بل ذهب معاوية إلى بيت المقدس سنة ٤٠ هـ وأخذ البيعة من أهلها، فكان ذلك سببا في اثارة حماسة أنصار علي للتخلص من معاوية، فانضموا إليه وكونوا جيشا يبلغ ٤٠ر٠٠٠ مقاتل لمحاربة معاوية. وبينما علي يستعد للمسير بهذا الجيش، طعنه أحد الخوارج ويدعى عبدالرحمن بن ملجم المرادي في مسجد الكوفة، فتوفي في ١٧ رمضان من هذه السنة، وبويع ابنه الحسن بالخلافة.

الفصل الرابع

الدولة الأموية

أهم خصائصها ـ امتداد سلطانها شرقا وغربا

١ ـ قيام الخلافة الأموية

بايع أهل العراق الحسن بن علي بالخلافة بعد مقتل أبيه سنة ٤٠ هـ وعاونه في ذلك قيس بن سعد بن عبادة، وقدر الحسن موقفه فجعله قائدا لجيشه ورأى الحسن بن علي بعد أن بلغه مسير معاوية، على رأس جند الشام إليه أن ينهض لمحاربته بالجيش الذي أعده أبوه من قبل وقد لجأ معاوية إلى الدهاء والخديعة فأخذ يستميل قواد جيش «الحسن» بالمال، وأشاع أن «قيس بن سعد» قد قتل، فاضطرب الجيش وسادت فيه الفوضى، فأدرك «الحسن» أن الأمر قد أفلت من يده ولذلك أرسل إلى معاوية يطلب لقاءه للاتفاق معه على أن ينزل له عن الخلافة بشروط منها:

أن يكون الأمر بعد وفاة معاوية شورى بين المسلمين يولون عليهم من يختارونه وتأمين الناس على أنفسهم وأموالهم وذراريهم، وأن يكفل العيش الرغد للحسن وأسرته.

قبل معاوية شروط الصلح مع الحسن، ورأى أن يستوثق لنفسه بالبيعة من أهل الكوفة، فسار إليها سنة ٤١ هـ حيث استقبله الحسن وبايعه وتبعه سائر الناس.

أما «الحسن» (رضي الله عنه) فرحل بأهل بيته إلى المدينة المنورة حيث توفي بها سنة ٥١ هـ.

لم يتول معاوية بن أبي سفيان الخلافة باجماع من المسلمين، فقد بايعه أهل الشام بعد أن أعلن الحكمان حكمهما، ثم بايعه فريق من أهل العراق بعد نزول الحسن عن الخلافة.

تنسب الدولة الأموية إلى (أمية)، جد معاوية لأبيه، إذ أن الاسم الكامل لمعاوية هو: معاوية بن أبي سفيان بن حرب، بن أمية، بن عبدشمس بن عبد مناف بن قصي.

وكان «أمية» سيدا من سادات قريش في الجاهلية يعلو في الشرف والرفعة عمه هاشم بن عبدمناف، وكانا يتنافسان على رياسة قريش.

ولما جاء الإسلام تغيرت العلاقة بين «بني أمية» وأبناء عمومتهم من «بني هاشم» اذ انقلب التنافس إلى عداء ظاهر لأن «بني أمية» وقفوا موقف العداء لرسول الله ﷺ ودعوته.

وكانت «لأبي سفيان» بن حرب والملقب «بصخر» وهو والد معاوية الزعامة الفعلية في مكة، وقت ظهور الإسلام ولم يدخل في الإسلام إلا قبيل فتح مكة ثم تبعه الأمويون، فدخلوا جميعا في الإسلام بعد أن تم للرسول فتح مكة.

أظهر بنو أمية بعد دخولهم في الإسلام بطولات رائعة في الحروب الإسلامية وحسبنا أن نذكر أن «أبا سفيان» فقد إحدى عينيه وهو يحارب بجانب الرسول ﷺ أثناء حصار الطائف، واستخدم الرسول ﷺ ابنه «معاوية» الذي

أسلم يوم الفتح في الكتابة، واستعمل عددا كبيرا من أفراد البيت الأموي على الصدقات وولاهم بعض الأعمال.

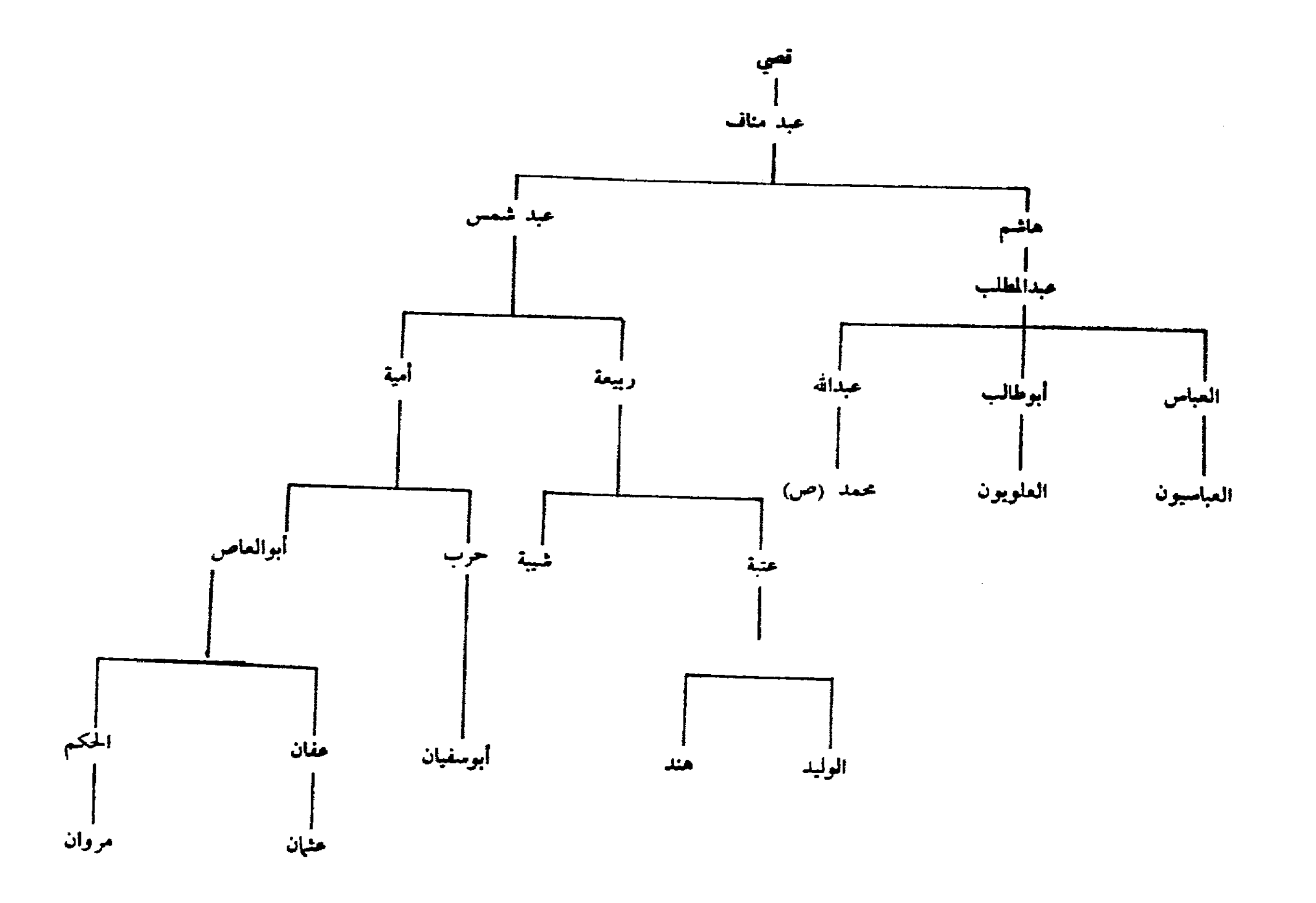
وجرى الخليفة «أبوبكر» ومن بعده الخليفة «عمر» رضي الله عنهما، على هذا التقليد، في تقريب بني أمية، فعين الخليفة «أبوبكر» يزيد بن أبي سفيان قائدا على أحد الجيوش الرئيسية في الشام، ولما تولى الخليفة «عمر» أقر يزيد في قيادة جيش الشام وعينه عمر أميرا على دمشق، ولما مات يزيد، أسند عمر إلى معاوية ما كان لأخيه يزيد، وبذلك أصبح لكبار الأمويين النفوذ في الدولة العربية.

الخلفاء الأمويون (٤١ ــ ١٣٢ هـ/ ٦٦١ ــ ٧٥٠ م)

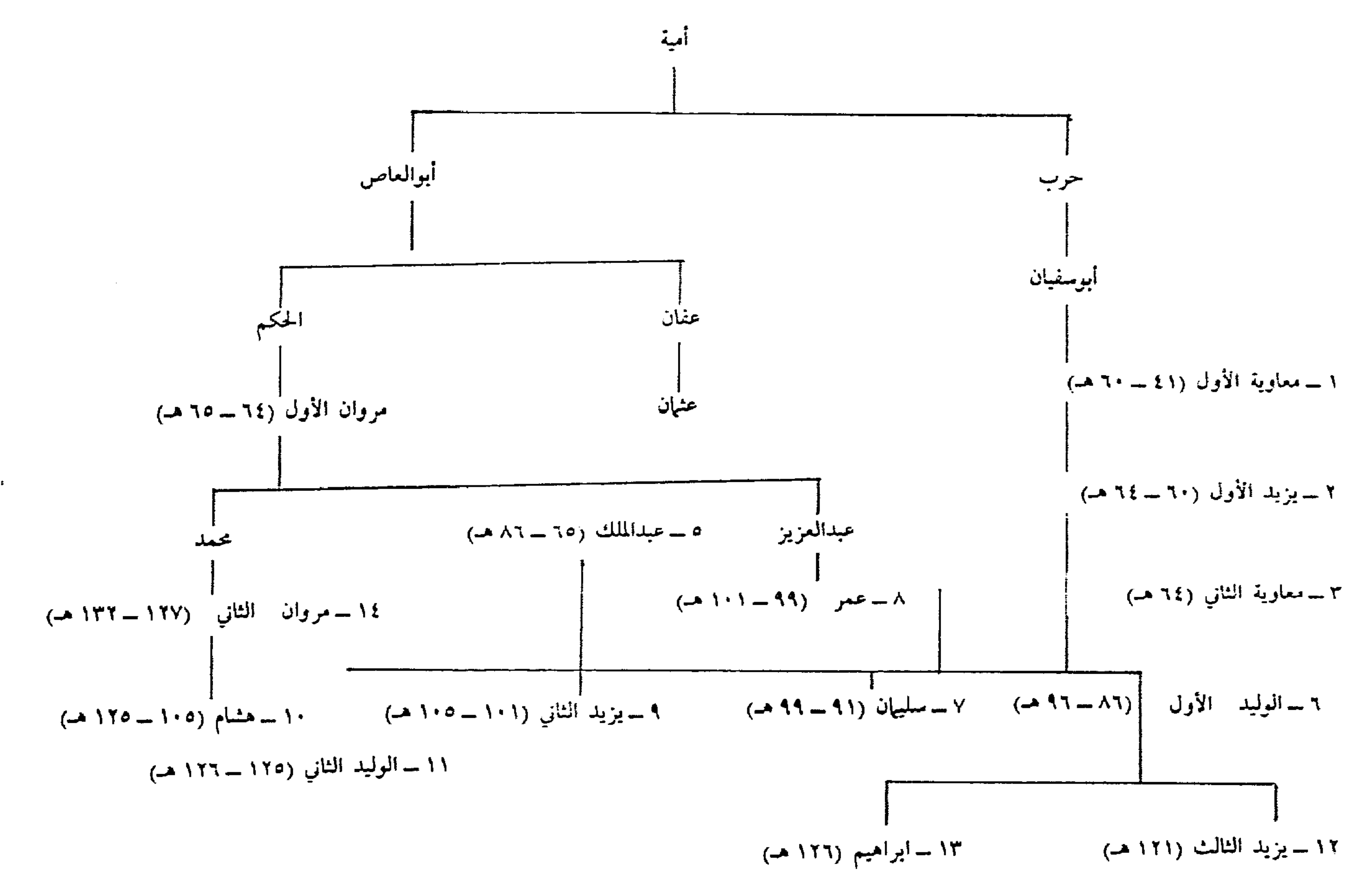
رقم	الخليفة	سنوات الحكم الهجرية	سنوات الحكم الميلادية
١	ــ معاوية بن أبي سفيان	٤١ ــ ٦٠	٦٦١ ــ ٦٨٠
٢	ــ يزيد بن معاوية (يزيد الأول)	٦٠ ــ ٦٤	٦٨٠ ــ ٦٨٣
٣	ــ معاوية بن يزيد (معاوية الثاني)	٦٤	٦٨٣
٤	ــ مروان بن الحكم	٦٤ ــ ٦٥	٦٨٣ ــ ٦٨٥
٥	ــ عبدالملك بن مروان	٦٥ ــ ٨٦	٦٨٥ ــ ٧٠٥
٦	ــ الوليد بن عبدالملك بن مروان	٨٦ ــ ٩٦	٧٠٥ ــ ٧١٥
٧	ــ سليمان بن عبدالملك بن مروان	٩٦ ــ ٩٩	٧١٥ ــ ٧١٧

رقم	الخليفة	سنوات الحكم الهجرية	سنوات الحكم الميلادية
٨	ـ عمر بن عبدالعزيز	٩٩ ـ ١٠١	٧١٧ ـ ٧٢٠
٩	ـ يزيد بن عبدالملك (يزيد الثاني)	١٠١ ـ ١٠٥	٧٢٠ ـ ٧٢٤
١٠	ـ هشام بن عبدالملك	١٠٥ ـ ١٢٥	٧٢٤ ـ ٧٤٣
١١	ـ الوليد بن يزيد بن عبدالملك (الوليد الثاني)	١٢٥ ـ ١٢٦	٧٤٣ ـ ٧٤٤
١٢	ـ يزيد بن الوليد بن عبدالملك (يزيد الثالث)	١٢٦	٧٤٤
١٣	ـ ابراهيم بن الوليد بن عبدالملك	١٢٦	٧٤٤
١٤	ـ مروان بن محمد بن الوليد (مروان الثاني)	١٢٧ ـ ١٣٢	٧٤٤ ـ ٧٥٠

نسب الأمويين



خلفاء بني أمية



٢ ـ الصعوبات التي واجهت الأمويين في سبيل توطيد سلطان خلافتهم

واجهت الدولة الأموية على قصر مدة خلافتها، فتنا وثورات حتى سقوطها سنة ١٣٢ هـ. واذا كانت ثورات الشيعة والخوارج قد اتخذت طابعا مميزا كان له أثر كبير في اضعاف الحكم الأموي، إلا أننا يجب ألا نغفل ما كان لعبدالله بن الزبير وخروجه على الأمويين بالحجاز وبيعته لنفسه في بعض الولايات الإسلامية من أثر في تقلص نفوذ الأمويين في الدولة العربية.

(أ) حركات الخوارج والشيعة:

عرف الخوارج بهذه التسمية لخروجهم على الخليفة الرابع علي بن أبي طالب بعد أن كانوا من أتباعه بسبب قبوله التحكيم، كما أطلقوا على أنفسهم «الشراه» أي الذين شروا آخرتهم بدنياهم، وعرفوا أيضا باسم «المحكمة» أي الذين يقولون لا حكم الا لله.

واجه معاوية بن أبي سفيان معارضة قوية منهم لاعتقادهم أنه لم ينل الخلافة عن اجماع من المسلمين، وعملوا على مناوأة سلطته في كل من الكوفة والبصرة، فوجه إليهم زياد بن أبيه والي العراق، فعمل على مطاردتهم. ولما ولي ابنه عبيدالله البصرة ظل يتعقبهم حتى قضى على كثير منهم، وبعد وفاة معاوية ثاروا في وجه يزيد، لأنه في رأيهم لم يتول الخلافة بالانتخاب وحاولوا الانضمام لعبدالله بن الزبير في مكة. ولما وجدوا أنه على خلاف رأيهم خرجوا من مكة. وانقسموا قسمين: فريق اتجه إلى البصرة وفيهم نافع بن الأزرق الحنفي. وقد عرف أتباعه بالأزارقة، وفريق اتجه إلى اليمامة حيث ولوا عليهم نجده بن عامر الحنفي، وهؤلاء عرفوا بالنجدات.

اشتد خطر الأزارقة من الخوارج في البصرة بعد وفاة يزيد بن معاوية، فوقع اختيار أهل البصرة على المهلب بن أبي صفرة لمحاربتهم لما عرف عنه من الشجاعة وحسن الرأي، فنهض لقتال الخوارج في عشرين ألفا من قبيلة الأزد وأهل البصرة فمضى ناحية المشرق يتبعهم حتى انتصر عليهم انتصارا حاسما سنة ٦٦ هـ انتهت بمقتل زعيمهم. على أن الخوارج ما لبثوا أن استعادوا قوتهم بقيادة قطرى بن الفجاءة، فواصلوا زحفهم في اتجاه البصرة حتى أصبحوا يهددون المدينة نفسها وعاد المهلب بن أبي صفرة إلى محاربتهم تنفيذا لرغبة عبدالملك بن مروان، الذي طلب من أخيه بشر بعد أن أسند إليه ولاية البصرة أن يمد المهلب بجيش من أهالي هذه المدينة واستطاع المهلب بمعاونة الأمداد التي وصلت إليه من العراق في عهد ولاية الحجاج بن يوسف الثقفي أن يطرد الأزارقة الذين يقودهم قطرى بن الفجاءة من فارس. ولم يزل يتعقبهم حتى أوقع بهم هزيمة ساحقة.

هدأت حركة الخوارج في عهد الوليد بن عبدالملك وأخيه سليمان واستطاع عمر بن عبدالعزيز بما عرف عنه من ميل إلى المسالمة إلى الاستماع إلى آرائهم وإقناعهم بحرصه على التزام جادة الصواب.

ولم يزل الخوارج يثورون بالأمويين كلما أتيحت لهم الفرصة حتى اشتدت وطأتهم في أواخر عهد بني أمية، فقاموا بعدة ثورات في الكوفة، وبعض مدن الحجاز واليمن فحاربهم مروان بن محمد آخر خلفاء الأمويين. ولم يشغله تفكك عرى دولته عن تعقب حركاتهم والعمل على إخمادها.

كان معظم الخوارج إلى ذلك الوقت من قبائل بكر وتميم، ومن القبائل التي تنزل شرقي بلاد العرب، فقالوا إن المسلمين سواء وأنه لا فضل لأحد على الآخر الا بالتقوى وأن الإمامة حق لكل مسلم يتصف بالصفات الحسنة وهكذا خالف الخوارج نظرية الشيعة القائلة بانحصار الخلافة في بيت النبي ﷺ وقصرها

على علي بن أبي طالب وآل بيته. كما خالفوا أهل السنة القائلين بأن الخلافة في قريش. أما عن الشيعة، فإنه منذ مقتل عثمان، ابتدأت تظهر نواة حزب جديد يناصر عليا، اقتصرت دعوته في باديء الأمر على أحقية علي في الخلافة. ثم ضعف شأن شيعة علي في العراق بعد مقتله، لكنهم مع ذلك جاهروا بتذمرهم من الصلح الذي عقده الحسن مع معاوية ونزل بمقتضاه عن حقه في الخلافة وازداد حنقهم على معاوية، حين أقر معاوية سب علي بن أبي طالب على المنابر، وبخاصة في الكوفة.

اشتدت معارضة الشيعة للأمويين منذ ولي الحسين بن علي رياسة الشيعة بعد وفاة أخيه الحسن سنة ٥١ هـ. وكان يرى أنه أحق المرشحين بالخلافة إذا أصبح الأمر شورى بين المسلمين بعد وفاة معاوية ـ فلما ولي يزيد بن معاوية، امتنع الحسين عن مبايعته ـ وكان اذ ذاك في المدينة. فخرج منها قاصدا مكة ومعه نساؤه وأهل بيته، وفي مكة تلقى رسائل من أهل الكوفة يدعونه فيها للقدوم عليهم ليتعرف حقيقة نواياهم. لكن عبيدالله بن زياد والي العراق أخذ يتعقب أخبار مسلم حتى قتله.

كان مسلم بن عقيل قد كتب إلى الحسين، حين كثر مبايعوه من أهل الكوفة يدعوه للمسير إليه فخرج الحسين من مكة إلى الكوفة يريد اللحاق به ولم يكن يعلم بما جرى له. ولم يكد يعلم عبيدالله بن زياد باقتراب الحسين من الكوفة حتى أرسل قوة لمنعه وتصدى له عمر بن سعد بن أبي وقاص، وانتهى الأمر بقتل الحسين وأتباعه بمكان يقال له كربلاء في اليوم العاشر من المحرم سنة ٦١ هـ، ولم ينج من هذه المعركة إلا خمسة هم ابنه علي زين العابدين وكان مريضا فلم يحضر المعركة، وأخته السيدة زينب (رضي الله عنها)، وابنه عمر أيضا، وابنتيه فاطمة وسكينة.

كانت حادثة كربلاء سيئة الأثر على المسلمين فقد ترتب عليها ظهور شعور عدائي في العراق وفارس ضد بني أمية، استغله أحفاد العباس بن عبدالمطلب عم الرسول في العمل على تقويض دعائم الخلافة الأموية.

رأى الشيعة بالكوفة بعد مقتل الحسين أنهم بحاجة لتنظيم أنفسهم، فاجتمع نفر منهم وتذاكروا دعوتهم للحسين وعدم اغاثتهم له حتى قتل بالقرب منهم في كربلاء وتزعمهم رجل يدعى سليمان بن صرد الخزاعي وظلت حركة هؤلاء النفر من الشيعة سرية حتى توفي يزيد بن معاوية، فأخذوا في اظهار دعوتهم، فساروا ذات ليلة إلى قبر الحسين وهناك أقاموا يوما وليلة وصاحوا طالبين التوبة والمغفرة من الله لخذلانهم الحسين ولذلك عرفوا في التاريخ بالتوابين ثم ساروا بقيادة زعيمهم سليمان بن صرد حيث التقوا بجيش الشام، فدارت بين الفريقين معركة في عين الوردة، من أرض الجزيرة سنة ٦٥ هـ انتهت بهزيمة الشيعة وقتل زعيمهم سليمان بن صرد وعدد غير قليل منهم، ثم رحلت فلولهم إلى الكوفة حيث ظلوا مقيمين بها إلى أن ثاروا مرة أخرى بقيادة المختار بن أبي عبيد الثقفي.

اتفق رأي التوابين بعد عودتهم من الكوفة على أن يكون المختار زعيما لهم، فأخذ يحرضهم على النهوض للأخذ بثأر الحسين فانضم اليه بعض العرب وعدد كبير من الموالي ــ وكان أغلبهم من القرى ــ كما أخذ البيعة لنفسه من أهالي الكوفة وشرع ينتقم من قتلة الحسين، فأعد جيشا بقيادة ابراهيم بن مالك بن الأشتر لمحاربة عبيدالله بن زياد ــ وهو يومئذ بالموصل ــ مع فريق كبير من جيش الشام فلما التقى الجيشان على باب الموصل انهزم جيش الشام وقتل عبيدالله بن زياد وكثير من كبار رجال الدولة الأموية. وبذلك أخذ المختار ثأر الحسين كاملا.

اتخذت الحركة التي قام بها المختار في الكوفة صفة دينية بجانب مظهرها السياسي على أثر انضواء الشيعة تحت زعامته وانضمام الموالي إليه فكون المختار فرقة شيعية من أتباعه تعرف بالمختارية أو الكيسانية نسبة إلى كيسان رئيس حرس المختار.

هدأت حركة الشيعة في عهد الوليد بن عبدالملك وعمر بن عبدالعزيز الذي منع سب علي بن أبي طالب على المنابر وجعل مكانه قوله تعالى **﴿إن الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون﴾**.

ولما آلت الخلافة إلى هشام بن عبدالملك، خرج عليه زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي. وكان يرى أنه أهل للخلافة. وقد حرضه أهل الكوفة على القيام في وجه هشام على الرغم من أن بعض أقاربه حذروه من وعودهم. ولما تكاثر عدد أنصار زيد بالكوفة دعاهم للخروج، فلم يستجب له سوى مائتين وثمانية عشر رجلاً، ثم اشتبك مع جند الشام في عدة معارك انتهت بهزيمته وقتله سنة ١٢٢هـ.

(ب) فتنة عبدالله بن الزبير في الحجاز:

شرع يزيد بن معاوية، بعد أن آلت إليه الخلافة سنة ٦٠هـ في أخذ البيعة من زعماء الحجاز ـ فبعث إلي واليه على المدينة الوليد بن عتبة بن أبي سفيان يأمره بأن يأخذ البيعة له من الحسين بن علي، وعبدالله بن عمر، وعبدالله بن الزبير. لكن هذا الوالي لم يعمد إلى تنفيذ أوامر يزيد بالسرعة المطلوبة، وبذلك أتاح لكل من الحسين بن علي وعبدالله بن الزبير فرصة الخروج إلى مكة.

ولما غادر الحسين بن علي مكة قاصداً الكوفة، خلا الجو لعبد الله بن الزبير في مكة، فظل مقيماً بها حتى بلغه مقتل الحسين، فأظهر ما كان يخفيه وأخذ البيعة من أصحابه بمكة.

كذلك اشتد السخط في المدينة المنورة على خلافة يزيد، فأعلنوا خلعه وولوا على أنفسهم عبدالله بن حنظلة وهكذا أصبح المبايعون بالخلافة ثلاثة: يزيد بن معاوية في دمشق وعبدالله بن الزبير في مكة وعبدالله بن حنظلة في المدينة.

لم ير يزيد ازاء موقف أهل المدينة العدائي من خلافته بدا من أن يلجأ إلى الشدة، فأرسل إلى المدينة جيشاً من جند الشام بقيادة مسلم بن عقبة المرى دارت بينه وبين أهل المدينة معركة هائلة عند جهة الحرة ـ وهي موضع بظاهر المدينة ـ أسفرت عن هزيمتهم.

ولما فرغ مسلم بن عقبة المرى من المدينة، وأخذ البيعة من كبار أهلها ليزيد أراد الخروج إلى مكة لمحاربة عبدالله بن الزبير الذي كان إذ ذاك قد أخذ البيعة لنفسه بالخلافة. لكن مسلم بن عقبة توفى في الطريق فخلفه الحصين بن نمير السكوني الذي سار على رأس الجيش الأموي حتى بلغ مكة وأحاطها بجيشه. أما أصحاب عبدالله فتحصنوا في البيت الحرام. وبينما القتال دائر بين الفريقين جاءهم خبر وفاة يزيد، فوقفت الحرب بين الفريقين.

لم تقتصر دعوة عبدالله بن الزبير على بلاد الحجاز، بل انتشرت في بعض أمصار العراق، والشام ومصر، فلما ولى مروان بن الحكم الخلافة سنة ٦٤هـ، زحف إلى مصر واستردها من عامل ابن الزبير، ثم أعد حملتين وجه أحداهما إلى الحجاز والأخرى إلى العراق، فهزمت حملة الحجاز ولم تقم حملة العراق بشيء يذكر في حياة مروان لأن الموت عاجله سنة ٦٥هـ.

ولما ولى عبدالملك بن مروان الخلافة، وجه اهتمامه إلى القضاء على نفود ابن الزبير في كل من بلاد العراق والحجاز، فتغلب أولاً على أخيه مصعب بالكوفة وعهد إلى الحجاج بن يوسف الثقفي بالمسير إلى مكة على رأس حملة من جند الشام لاخماد حركة عبدالله بن الزبير، فلما دخلها في ذي القعدة سنة ٦٢هـ. شرع في حصارها ونصب المنجنيقات على جبل أبي قبيس ورمى الكعبة بها. وكان عبدالله بن الزبير وأصحابه معتصمين ببيت الله الحرام.

واستمر الحصار ستة أشهر حتى تجرع أهل مكة ألم الجوع، واضطر كثير من أنصار ابن الزبير إلى الانفضاض من حوله، لكنه رغم ذلك ظل يقاتل الجيش الأموي حتى قتل في جمادي الآخرة سنة ٧٣هـ. وأخذ الحجاج البيعة من أهل مكة لعبدالملك بن مروان. ثم أسندت إليه ولاية الحجاز.

٣ ـ أهم خصائص الدولة الأموية

كان طبيعياً أن يتخذ معاوية دمشق مقراً لخلافته بعد أن كانت دار إمارة الشام ولم يكن هناك ما يقلق باله من ناحية الشام، فقد مكن لنفسه فيها منذ ولي أمورها في عهد عثمان بن عفان، كما أنه رأى في هذه المدينة ملجأ يأمن فيه على نفسه من بني هاشم منافسي بني أمية التقليديين منذ أيام الجاهلية، ومن تآمر الشيعة[١] والخوارج[٢] ضده.

كما أن دمشق بموقعها كانت مهيأة لقيادة دور جديد يتمثل في أن تكون مركزاً للفتوح من ناحية الشمال، حيث الدولة البيزنطية التي كانت تنتهز الفرص للانقضاض على الدولة العربية الفتية بغية استرجاع ممتلكاتها، وخاصة في الشام ومصر، ولم تكن المدينة والكوفة صالحتين لاعداد الحملات ضد البيزنطيين.

أما دمشق فكانت مدينة محصنة بعيدة عن الساحل ولا تستطيع السفن مهاجمتها إلى جانب أنها محاطة بالجبال الشاهقة التي تزيدها مناعة واستحكاماً. وإليك أهم خصائص الدولة الأموية:

(أ) تغيير مظهر الخلافة الإسلامية:

تغلب على الدولة ـ منذ ولي معاوية الخلافة ـ الطابع السياسي، على الطابع الديني الذي كان مسيطراً في عهد الخلفاء الراشدين ذلك أن معاوية استطاع أثناء تقلده ولاية الشام أن يقف على كثير من نظم الحكم عند الرومان فلما ولي

---

(١) الشيعة: أنصار علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٢) الخوارج: الذين قرروا قتل معاوية وعلي وعمرو بن العاص ونجحوا في قتل علي.

الخلافة أخذ منها ما يلائم العصر الذي عاش فيه فاتخذ السرير أو العرش وأحاط نفسه بحرس خاص وأقام مقصورة بالمسجد ليأمن غدر الأعداء به أثناء الصلاة.

وبعد معاوية دأب الخلفاء الأمويون على اقامة القصور الصحراوية وخاصة سليمان بن عبدالملك الذي تأنق في بناء قصره بالرملة، فأصبح وكأنه عاصمة صغيرة إذ بنى بجواره مسجداً، وحفر الآبار.

(ب) تعريب الدواوين والسكة:

كان الخليفة (عمر بن الخطاب) أول من دون الدواوين وقد أخذ هذا النظام عن الفرس ـ فأنشأ ديوان الجند لكتابة أسماء الجند وما يخص كلا منهم من العطاء وأبقى عمر دواوين الولايات على وضعها قبل الفتح العربي فكان ديوان الشام يكتب باليونانية، وديوان العراق وفارس «بالفارسية» وديوان مصر «بالقبطية» وذلك بالنسبة لديوان بيت المال، أما ديوان الجند وديوان الرسائل فكانا يكتبان بالعربية.

ظل هذا النظام سائداً في الدولة الأموية، حتى عهد الخليفة «عبدالملك بن مروان» فنقل ديوان الشام من اليونانية إلى العربية، ونقل الحجاج في عهده ديوان العراق من الفارسية إلى العربية، أما ديوان مصر فتأخر تعريبه إلى أوائل عهد الخليفة «الوليد بن عبدالملك».

وكان من نتائج تعريب الإدارة في الدولة الإسلامية أن أقبل كتابها من غير العرب على تعلم اللغة العربية، لكي يستمروا في عملهم بالدواوين، وبذلك أصبحت اللغة العربية لغة رسمية في أنحاء الدولة الإسلامية، مما مهد لتقريب ألسنة شعوبها، وتغلب الخط العربي على خطوطها، وتتبع خطوة تعريب الدواوين خطوة أخرى هامة، وهي خطوة تعريب السكة إذ كانت العملتان المستعملتان

عادة هما الدينار البيزنطي والدرهم الفارسي، وقد جرت محاولات لسك عملة إسلامية في عهد الخليفة معاوية، وكذلك ضرب مصعب بن الزبير الدنانير والدراهم في العراق. بأمر من أخيه «عبدالله بن الزبير» لكن هذه العملات لم تستطع منافسة عملة الروم أو الفرس، وعرفت العملة باسم السكة الإسلامية وكلمة (السكة) تعني خاتم الحديد الذي تطبع عليه العملة، أو تضرب عليه بالمطرقة وأصبح يطلق على الدار التي تسك فيها اسم «دار السكة» أو «دار الضرب» وقد تغير نقش العملة وأصبح كلمات من غير صور، وكان بالعملتين الفارسية واليونانية صور لكن المسلمين تحرزوا من استعمال الصور لارتباطها بالوثنية، وبدلا من الصور كان يكتب على أحد الوجهين أسماء الله والصلاة على النبي ﷺ، وعلى الوجه الآخر نقش التاريخ واسم الخليفة.

(جـ) تولية خلفاء بني أمية العهد لأكثر من واحد:

كان من الأمور التي استخدمها خلفاء بني أمية، اختيارهم ولي العهد في حياتهم، فضلاً عن توليتهم العهد لأكثر من واحد إذ كانت البيعة تتم لولي العهد بالوعد والوعيد، وقد جرى خلفاء بني أمية على اختيار أولياء العهد في حياتهم، ما عدا معاوية بن أبي سفيان، ومروان بن الحكم ويزيد بن الوليد بن عبدالملك، ومروان بن محمد فإنهم لم ينالوا الخلافة بالاختيار.

ويروى أن المغيرة بن شعبة هو الذي أشار على معاوية بأخذ البيعة لابنه يزيد تقرباً من معاوية كي لا يعزله عن الكوفة، ولا يخفى أن البيعة ما كانت لتتم بناء على رأى المغيرة لولا أن صادفت هوى في نفس معاوية والذي ظل عشرين عاماً بالشام مجاوراً للدولة البيزنطية، والتي كانت تأخذ بنظام وراثة العرش.

وهكذا نجد أن الأمويين ابتدعوا في الدولة الإسلامية مبدأ اختيار الخليفة، عن طريق الوراثة، والعمل على مبايعته، بل تعدوا ذلك في بعض الأحيان إلى تولية العهد لأكثر من واحد مما أدى إلى عدم استقرار الأمور في الدولة الأموية فضلاً عن إثارة النزاع.

ولم يكن يكتفي بأخذ البيعة لأولياء العهد في حياة الخلفاء بل كانت تجدد البيعة بعد وفاة القواد وولاة الأمصار الإسلامية وهؤلاء يأخذون البيعة علي من تحت امرتهم.

(د) التعصب للنعصر العربي:

سوى الإسلام بين الناس على اختلاف ألوانهم وأجناسهم، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾[1].

ووجه الرسول ﷺ إلى المسلمين في خطبته في حجة الوداع تذكرة وموعظة بهذه المساواة: «أيها الناس إنما المؤمنون أخوة، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربي فضل على عجمي إلا بالتقوى».

غير أن بني أمية لم يحققوا مبدأ المساواة بل انحازوا إلى العرب وأساءوا معاملة الموالي، وحرموهم من العطاء. ثم تعرضوا لاضطهاد الحجاج بن يوسف الثقفي أثناء ولايته على العراق في خلافة عبدالملك بن مروان فلم يسويهم بالعرب في المعاملة، بل أرغم حديثي العهد بالإسلام على دفع الجزية كما فرض الخراج على الأرض التي أسلم أهلها.

(١) سورة الحجرات آية ١٣.

استمرت حركة اضطهاد الموالي بعد وفاة عبدالملك بن مروان سنة ٨٦هـ، فاضطر كثير من موالي العراق في خلافة الوليد بن عبدالملك إلى الرحيل من بلادهم إلى الحجاز فراراً من عسف الحجاج. ولما آلت الخلافة إلى سليمان بن عبدالملك أحسن معاملة الموالي، فاطمأنت نفوسهم في عهده. كما منحهم الخليفة عمر بن عبدالعزيز الحقوق التي كان يتمتع بها المسلمون من العرب وحدهم وأعفاهم من دفع الجزية، كما جعل لهم نصيباً من الأعطيات السنوية.

وقد استغل دعاة العباسيين في أواخر العهد الأموي استياء الموالي من الحكم الأموي فعملوا على اغرائهم بالانضمام إليهم، ذلك أنهم وعدوهم بالعمل على تحسين حالهم ومساواتهم بالعرب، وإقامة العدل، وأن يعمل امامهم بما ورد في كتاب الله وسنة رسوله.

(هـ) احياء العصبية القبلية في بلاد الشام:

واجه الأمويون في بلاد الشام ظهور العصبية القبلية، بين أهالي هذه البلاد من اليمنية والمضرية. وكان الحكم الأموي يعتمد على اليمنيين. فلما توفي يزيد ولحق به ابنه معاوية الثاني، اشتد النزاع بين عرب الشام على من يتولى الخلافة، ففي شمال الشام كانت قبيلة قيس متذمرة من الأمويين لاعتمادهم على اليمنيين، فأصبحت بزعامة حاكم دمشق الذي خرج إلى مرج راهط (إلى الشرق من دمشق) وجاءته الأمداد من ولاة حمص وقنسرين وفلسطين. وهناك في مرج راهط بايعت القيسية عبدالله بن الزبير.

أما قبائل اليمنيين في بلاد الشام لأنهم أخوال يزيد بن معاوية جاءوا جميعاً إلى الجابية (قرية من أعمال دمشق). وكانوا رغم اتفاقهم على أن تكون الخلافة لأحد الأمويين مختلفين فمنهم من يريد خالد بن يزيد، وآخرون يعترضون على

توليته لصغر سنه ويفضلون عليه مروان بن الحكم. ثم أجمعوا على مبايعة مروان بالخلافة على أن يخلفه بعد وفاته خالد بن يزيد، وبعد خالد يلي الحكم عمرو بن سعيد بن العاص.

ولما تم أمر الخلافة لمروان بن الحكم سنة ٦٤هـ، خرج من الجابية في جموع اليمنية إلى مرج راهط حيث توافدت جموع القيسية، وهناك دارت بين الفريقين موقعة، كان النصر فيها حليف مروان وبذلك توطدت سلطته في بلاد الشام.

ولاشك أن موقعة مرج راهط كانت حرباً بين القيسية واليمنية أكثر مما كانت نزاعاً بين بني أمية وابن الزبير، وظهرت العصبية القبلية في الدولة الإسلامية بعد هذه الموقعة بمظهرها السياسي، فانقسم العرب في كل قطر إلى يمنية ومضرية.

على أن تعصب الخلفاء لقبيلة دون أخرى، لم يظهر بصورة واضحة إلا بعد وفاة عمر بن عبدالعزيز الذي قضى فترة خلافته في اصلاح أمور الدولة حتى نال رضاء جميع رعاياه.

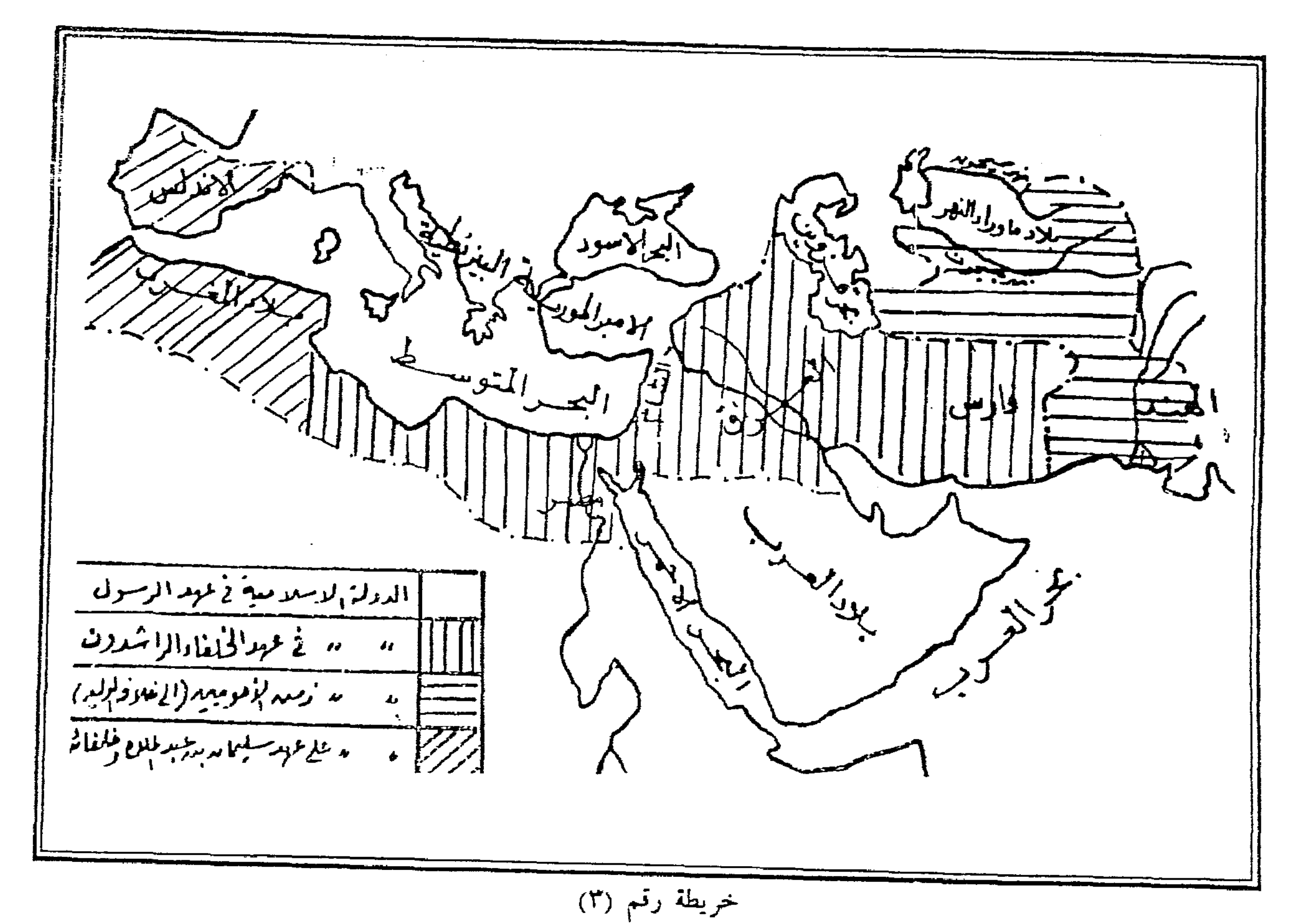
لما آلت الخلافة إلى يزيد بن عبدالملك بعد وفاة عمر بن عبدالعزيز واجه نزاعاً بين عرب الشمال والجنوب أو بين مضر واليمن، وذلك أن يزيد بن المهلب بن أبي صفرة فر من السجن ولحق بالبصرة حيث انضم إليه كثير من يمنية العراق، واشتد خطره وأصبح يهدد كيان الدولة، فأرسل إليه يزيد بن عبدالملك جيشاً كبيراً، ودارت بين الفريقين معركة انتهت بهزيمة يزيد بن المهلب وقتله. وكان من نتائج هذه المعركة أن انحاز يزيد بن عبدالملك إلى جانب القيسية، وبذلك ضعف شأن العنصر اليمني.

ولم يتبع هشام بن عبدالملك سياسة ثابتة إزاء القبائل المختلفة، فلما رأى أن القيسية، اشتد أمرها، خشي من ازدياد نفوذها على الدولة، فعمل على التخلص

منهم والانحياز إلى اليمنية رغبة في إعادة التوازن بينهما فعزل الولاة المضريين وأحل محلهم بعض اليمنيين، فولى خالد بن عبدالله القسرى على العراق، وولى أخاه أسداً على خراسان. ولم يلبث أن تحول عن اليمنيين إلى المضريين، فولى يوسف بن عمر الثقفي العراق. ونصر بن سيار خراسان.

أخذت اليمنية تظهر استياءها من الأمويين بسبب مقتل زعيمهم خالد بن عبدالله القسرى أمير العراق من قبل هشام بن عبدالملك ورأى الوليد بن يزيد بن عبدالملك الذي ولي الخلافة بعد هشام أن يلزم جانب المضريين، فأثارت هذه السياسة عوامل السخط والغضب في نفوس اليمنية ضد الوليد لأنه قتل زعيمهم وأقصاهم عن مناصب الدولة، فتآمروا على التخلص منه طمعاً في استعادة نفوذهم، وما لبثوا أن ثاروا عليه وقتلوه في جمادي الآخرة سنة ١٢٦هـ، وبايعوا يزيد بن الوليد بن عبدالملك، فانحاز إلى اليمنيين، وأخذ يولي العمال منهم. غير أنه لم يستمر طويلا في الحكم فقد توفى بعد ستة أشهر، فآلت الخلافة من بعده إلى أخيه ابراهيم لكنه لم يحظ بالاحترام الذي لقيه من سبقه من الخلفاء وظل الأمر على هذه الحال، إلى أن سار مروان بن محمد والي الجزيرة وأرمينية إلى الشام، مطالباً بدم الوليد بن يزيد، وانضمت إليه القيسية ليكيدوا لليمنية. وما لبث أن تمكن من التغلب على جند ابراهيم ودخل الشام، ثم بايعه أهلها وبذلك أصبح خليفة المسلمين سنة ١٢٧هـ.

على أن مروان بن محمد ما لبث بعد أن آلت إليه الخلافة أن تعصب للقيسية فأثار اليمنية الاضطرابات والقلاقل، كما خرج عليه سليمان بن هشام بن عبدالملك وانضمت إليه اليمنية، وقد اضطر مروان ازاء الفتن والقلاقل التي شغلته في بلاد الشام إلى الانتقال منها إلى إقليم الجزيرة شمال العراق.



خريطة رقم (٣)

الدولة العربية الاسلامية منذ نشأتها إلى سقوط الدولة الأموية

٤ ـ امتداد سلطان الدولة الإسلامية شرقا وغربا:

اتجه التوسع في عهد الأمويين في اتجاهات ثلاث:

(أ) اتجاه ضد الروم في آسيا الصغرى، بما في ذلك حصار القسطنطينية وغزو بعض جزر البحر المتوسط.

(ب) اتجاه نحو شمال أفريقيا وأسبانيا.

(جـ) اتجاه المشرق، في بلاد ما وراء النهر، وبلاد السند.

(أ) حروب المسلمين في بلاد الدولة الرومانية الشرقية

كانت الحدود بين الدولة العربية، والدولة الرومانية الشرقية في صدر الإسلام غير مستقرة، ويصعب تحديدها لأن الروم حين جلوا من الشام بعد الفتح العربي خربوا كل البلاد التي تصلح مراكز لهجوم العرب، وأصبحت منطقة خربة يصعب عبورها. وكان يطلق على هذه المنطقة إسم الثغور، وهي مواضع يقيم فيها الجند للمراقبة. وكانت تخرج منها حملات سنوية لغزو بلاد الروم في الشتاء والصيف عرفت بالشواتي والصوائف.

كان معاوية بن أبي سفيان أول من وضع للدولة العربية، سياسة خارجية تتبعها ازاء الدولة الرومانية الشرقية، ومما حمله على توجيه نشاطه إلى هذه الدولة، رغبته في ابعاد خطر الروم عن العرب، ومن ثم بدأ في غزو أملاك الروم في البحر المتوسط بعد أن أصبح للدولة العربية أسطول بجانب قوتها البرية، فغزا جزيرة قبرص سنة ٢٨هـ في خلافة عثمان بن عفان.

ظل معاوية منذ ولي الشام في عهد عمر بن الخطاب إلى أن توفى سنة ٦٠هـ يغزو أراضي الدولة الرومانية الشرقية، وسار بنفسه في خلافة عثمان بن

عفان سنة ٣٢هـ إلى القسطنطينية، وحاصرها، ثم اضطر إلى رفع الحصار عنها بسبب الأحداث الداخلية، التي وقعت في الدولة العربية هذا إلى مناعتها الطبيعية والصناعية.

على أن معاوية وأن كان قد غزا القسطنطينية ووصل إلى أسوارها في عهد امارته على الشام، فإنه لما ولى الخلافة، لم يسر إليها بنفسه بل أعد سنة ٤٩هـ حملة برية وأخرى بحرية، وأسند إلى ابنه يزيد قيادة الجيش، فوصلت القوتان القسطنطينية وحاصرتاها حصاراً شديداً. لكن للمرة الثانية لم يستطع العرب الاستيلاء على هذه المدينة لحصانتها. واضطر يزيد بعد أن دمرت معظم سفن الأسطول العربي إلى العودة.

ولما توفى معاوية سنة ٦٠هـ، واضطربت الأمور في بعض ولايات الدولة العربية في عهد ابنه يزيد، ثم في عهد مروان بن الحكم، حاول الروم استغلال هذا الاضطراب لمصلحتهم، فرأى عبدالملك بن مروان أن يعمل على مداراتهم، فجدد الهدنة مع الامبراطور قسطنطين الرابع، وتم الاتفاق على أن يؤدي إليه الخليفة اتاوة معينة.

على أن الروم ما لبثوا أن حاولوا مرة أخرى الانتفاع بالاضطرابات التي سادت بعض ولايات الدولة العربية، فطلب الامبراطور جستنيان الثاني من عبدالملك بن مروان النزول للروم عن نصف أرمينية وقبرص، فقبل الخليفة للمرة الثانية مطالب الروم لانشغاله بأحداث العراق وبلاد الحجاز.

ولما آلت الخلافة إلى الوليد بن عبدالملك، وبلغه الاضطراب الذي ساد الدولة الرومانية الشرقية، بسبب النزاع على العرش، رأى أن ينتهز هذه الفرصة لغزوها والاستيلاء على حاضرتها، فأعد حملة برية وأخرى بحرية لحصار القسطنطينية، غير أن الموت عاجله سنة ٩٦هـ وخلفه أخوه سليمان بن عبدالملك،

فسير في سنة ٩٨هـ الحملة البرية إلى آسيا الصغرى بقيادة أخيه مسلمة، كما عهد إلى عمر بن هبيرة قائد الأسطول بالابحار إلى القسطنطينية، ولما وصل المسلمون إلى عمورية انضم إليه رجل من الروم كان يطمع في الملك يسمى «ليو الأزوري Leo The Isurian»، ولما وصلوا إلى أسوار القسطنطينية خرج ليو على صفوف المسلمين، وأوهم أهل هذه المدينة أن في استطاعته صد غارة العرب إذا أسندوا إليه قيادة الأمور فولوه العرش وخلعوا ملكهم.

ولما ولى ليو عرش القسطنطينية، حشد أكبر قوة للدفاع عنها، ثم عمل على استدراج سفن المسلمين، وفي ذات الوقت كان الجيش العربي يحاصر المدينة من ناحية البر، وظل يهاجمها حتى نفذت الأقوات وقدم الشتاء، فهلك كثير من الجند، وبينما هم على هذه الحال جاءهم خبر وفاة سليمان بن عبدالملك سنة ٩٩هـ، وتولية عمر بن عبدالعزيز، فأوقف مسلمة الحرب، وعاد من آسيا الصغرى، مع من بقى من الجيش تنفيذا لأمر الخليفة.

(ب) فتوح المسلمين في شمال افريقيا

لما تم فتح مصر في عهد عمر بن الخطاب على يد عمرو بن العاص ووطد نفوذ العرب بها، استأنف فتوحه في شمال افريقيا، فاستولى على برقة سنة ٢٢هـ، وفرض على أهلها الجزية، ثم تابع سيره حتى وصل طرابلس الغرب، وكانت مدينة حصينة ففتحها عنوة. واكتفى عمرو بالبلاد التي فتحها وعاد إلى مصر. وعندما ولى عثمان بن عفان الخلافة، أذن لعبدالله بن سعد بن أبي سرح سنة ٢٦هـ بغزو بلاد أفريقية، فاشتبك مع أهلها في عدة معارك، ثم تمكن بفضل الحملة التي قدمت إليه بقيادة عبدالله بن الزبير من التغلب عليهم.

وعلى الرغم من أن العرب استولوا على بعض بلاد شمال أفريقيا، فإن نفوذهم لم يتمكن فيها، فكثيرا ما كان البربر يثورون عليهم كلما سنحت لهم

الفرص وظل الحال [illegible] ذلك إلى أن [illegible]لت الخلافة إلى معاوية بن أبي سفيان فأرسل سنة ٥٠هـ إلى عقبة بن نافع الفهري الذي كان مقيماً ببرقة عشرة آلاف جندي ليوطد سلطان العرب بالمغرب ففتح افريقية وأسلم على يده كثير من البربر ثم وقع اختياره على موضع القيروان (جنوب تونس) ليقيم بها جند المسلمين وأهلهم فوضع أساس هذه المدينة، وبنى المسلمون بها دار الإمارة والمسجد الجامع.

ولما فرغ عقبة بن نافع من تأسيس مدينة القيروان، تابع زحفه على بلاد المغرب سنة ٥٥هـ، وظل يتوغل فيها حتى وصل إلى المحيط الأطلسي، غير أنه لم يلبث أن ثار عليه البربر بزعامة كسيلة سنة ٦٣هـ، فانقضوا عليه وقتلوه هو وكثير من أتباعه، وعاد من بقي منهم حيا إلى مصر.

وهكذا استعاد البربر نفوذهم في شمال أفريقيا، وظل الحال على ذلك إلى أن أرسل إليهم عبدالملك بن مروان سنة ٦٩هـ جيشاً بقيادة حسان بن النعمان الغساني، اجتاح بلادهم واستولى على مدينة القيروان، على أن البربر لم يلبثوا أن دخلوا في طاعة امرأة تسمى الكاهنة، لاعتقادهم أنها أوتيت قوة خارقة للعادة. واستطاعت بمساعدتهم ارغام العرب على الانسحاب من برقة وبسطت بذلك سيادتها على افريقية.

وعندما استقر الأمر لعبدالملك بن مروان ببلاد المشرق، عول على استعادة نفوذه في بلاد المغرب، فأنفذ جيشاً لمساعدة حسان بن النعمان ولما علمت بذلك الكاهنة وجهت همتها إلى أن تحول دون تقدم العرب. فزحف حسان على رأس قواته لمحاربتها، فلقيته في جيوش ضخمة على مقربة من قابس، فقاتلهم حسان وهزمهم وهربت الكاهنة، ولم يزل يطاردها حتى التقى بجيشها سنة ٨٢هـ، فأوقع به الهزيمة وقتلها. وبذلك قضى حسان على كل أثر للمقاومة في المغرب الأدنى واستقامت له البلاد.

على أن حسان بن النعمان لم يتمتع بثمرة هذا النصر، فسرعان ما حقد عليه عبدالعزيز بن مروان والي مصر، وأسند إلى موسى بن نصير سنة ٨٥هـ ولاية افريقية بدلاً منه، فسار إليها وأخذ يقاتل البربر ويبسط نفوذ الأمويين وينشر الإسلام في بلاد المغرب حتى بلغ طنجة فحاصرها وبعد أن تمكن من فتحها أسلم أهلها، وقلد طارق بن زياد ولايتها.

وهكذا نجح موسى بن نصير في اخضاع بلاد المغرب للإسلام، ولم يستعص عليه سوى سبتة لمناعتها ووصول الامدادات إليها من البحر. وكان يحكمها من قبل القوط الأمير جوليان.

كذلك أتم موسى وطارق بن زياد فتح اسبانيا والبرتغال فيما عرف ببلاد الأندلس واجتاز المسلمون جبال البرانس، وواصلوا الفتح في جنوب فرنسا.

(جـ) الفتوح في بلاد المشرق

١ ـ بلاد ما وراء النهر[١]:

رأينا كيف شرع العرب في فتح بلاد العراق والفرس في عهد أبي بكر وعمر. غير أن هذه الفتوح لم تكن مستقرة في الأطراف، فكثيراً ما كانت تحاول الأمم المغلوبة استرداد سلطانها كلما سنحت لها الفرصة، فخرج كثير من البلاد الفارسية على المسلمين في عهد عثمان بن عفان فسير لها جيوشاً أخضعتها وأغارت على بلاد ما وراء النهر، غير أنه لم يتيسر لها توطيد نفوذ العرب في هذه المنطقة، وظل الحال على ذلك إلى أن ولي الوليد بن عبدالملك الخلافة، فعهد إلى قتيبة بن

(١) بلاد ما وراء النهر أو ما بين النهرين هي البلاد التي تقع بين نهري جيحون وسيحون.

مسلم الباهلي بغزوها، فسار إليها وتمكن من فتح بخارى سنة ٨٨هـ بعد أن لقى عناءاً كبيراً، ثم فتح مدن خوارزم وسمرقند سنة ٩٣هـ، ولما استقر له الأمر فيها عمل على نشر الإسلام بين أهلها، وابتدأ العالم الإسلامي منذ ذلك الوقت يتصل بأواسط آسيا حيث كان يقيم العنصر التركي.

٢ ـ فتح بلاد السند:

كذلك وجه المسلمون سياستهم إلى فتح بلاد الهند، فأمر عثمان بن عفان عبدالله بن عامر واليه على البصرة، أن يرسل إلى هذه البلاد رجلاً يخبره بحالها، فوجه إليها حكيم بن جبلة العبدي، فلما عاد منها، تقابل مع عثمان بن عفان ووصف له ما شاهده فيها.

وقف مشروع فتح بلاد الهند عند هذا الحد، فلم يقم أحد بغزوها، إلا في خلافة علي بن أبي طالب حين طلب إليه الحارث بن مرة أن يأذن له بالسير إليها، فأذن له بذلك وتمكن بفضل الحملة التي تولى قيادتها من الانتصار في بعض المواقع والحصول على كثير من الغنائم والأسرى، ثم لم يلبث بعد ذلك أن قتل سنة ٤٢هـ.

ولما ولي معاوية بن أبي سفيان الخلافة، عهد إلى المهلب بن أبي صفرة سنة ٤٤هـ بغزو بلاد السند، فسار إليها وامتدت فتوحاته إلى الأراضي الواقعة بين كابل والملتان[1]. ولم يتعد نفوذ العرب هذه البلاد حتى جاء الوليد بن عبدالملك فعهد الحجاج بن يوسف الثقفي واليه على بلاد المشرق إلى محمد بن القاسم بغزو بلاد الهند، فسار إليها سنة ٨٩هـ. ولما وصل إلى ثغر الديبل[2]، ظل يحاصره

---

(١) مركز مشهور للحجاج من الهنود يقع في جنوب بلاد البنجاب.

(٢) مدينة على الساحل الغربي للهند.

حتى تمكن من الاستيلاء عليه، ثم بنى به مسجداً وأخذ منذ ذلك الوقت يواصل فتوحاته حتى بلغ نهر مهران الذي يعرف الآن بنهر السند. وهناك التقى بداهر ملك هذه البلاد فوقعت بينهما معركة كبيرة انتهت بهزيمة هذا الملك وقتله.

ولم تقف مجهودات محمد بن القاسم عند هذا الحد، بل تابع فتوحه حتى وصل إلى الملتان، فاستولى عليها وغنم منها مغانم كثيرة، غير أنه ما لبث أن تعرض لحقد سليمان بن عبدالملك. وكان يبغض الحجاج بن يوسف الثقفي وولاته ـ فولى يزيد بن أبي كبشة السند، وعزل محمد بن القاسم الذي انتهت حياته بحبسه في سجن «واسط» بعد وصوله إلى العراق، ثم قتله.

الباب الثاني

الدولة العباسية

الفصل الأول — العصر العباسي الأول

الفصل الثاني — العصر العباسي الثاني

الفصل الثالث — الدول الإسلامية المستقلة في الشرق والغرب

الفصل الرابع — مصر والشام على عهد الأيوبيين والمماليك

الفصل الأول

العصر العباسي الأول

ضعف الدولة الأموية وانهيارها

قبل أن نتحدث عن عوامل قيام الدولة العباسية، يجدر بنا أن نناقش الأسباب التي أدت إلى انهيار الدولة الأموية على اعتبار أن هذه العوامل مهدت لقيام الدولة العباسية.

قامت الدولة الأموية على أثر انتصار معاوية بن أبي سفيان على، علي بن أبي طالب في الفتنة الكبرى، وتنازل الحسن بن علي عن الخلافة في عام الجماعة سنة ٤١هـ، بعد أن أيقن بانقسام أنصار علي، على أنفسهم، وازدياد معارضة الخوارج لحكم علي وبنيه، وازدياد نفوذ معاوية بن أبي سفيان، وكثرة أنصاره، وتخلي الكثير من المسلمين عن تأييد علي بن أبي طالب، والانضمام إلى معاوية بن أبي سفيان الذي أغراهم بالمنح والهبات والعطايا.

قلنا أن الحسن بن علي آثر وحدة المسلمين، والحيلولة دون تفرقهم شيعاً وأحزاباً، وقامت الدولة الأموية، ولكن لم يجمع المسلمون على تأييد معاوية، فبعضهم ظل موالياً لعلي وبنيه، ويرى وجوب استمرار الإمامة في آل بيت رسول الله، والبعض رأى أن معاوية أغفل نظام الشورى، وحول الخلافة إلى ملك

وراثي، الأمر الذي يتنافى مع سياسة الحكم التي وضعها رسول الله ﷺ وطبقها الشيخان أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب واعتقد الخوارج أن لا صلاح لهذه الأمة إلا بعودتها إلى نظام الشورى وتكون الخلافة حقا لكل مسلم حر يحظى بمبايعة جمهور المسلمين. ومن هنا عارض الخوارج الحكم الأموي بكل شدة، وقاوموا الحكم الأموي منذ أن ولي معاوية الخلافة.

ومن هنا نرى اشتداد المعارضة ضد الحكم الأموي، وحاول هؤلاء المعارضون اسقاط الدولة الأموية، بكل ما أوتوا من قوة وبأس، كما انقسم البيت الأموي على نفسه بسبب نظام ولاية العهد، وتولية العهد لأكثر من واحد، وأدت سياسة الأمويين إلى انقسام العرب وإلى حروب أهلية مريرة في الولايات الإسلامية بين القيسية واليمنية، أضعفت الدولة الأموية، وأنهكت قواها.

ولنستعرض بالتفصيل عوامل ضعف الدولة الأموية وانهيارها:

١ ـ الشيعة:

يرى الشيعة أن الإمامة يجب أن تنحصر في آل بيت رسول الله، وأن علياً وبنيه أصحاب الحق الشرعي فيها، وأن خلافة الأمويين باطلة من أساسها. والواقع أنه لم يرد عن الرسول ﷺ نص يعطي لعلي بن أبي طالب حق تولية الخلافة من بعده، كما لم يعهد لأحد من المسلمين، ولو كان هناك نص لتمسك به علي، واستند إليه في أحقيته في تولي الخلافة بعد النبي، بل بايع علي بن أبي طالب أبا بكر الصديق بالخلافة، وبايع عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان، ولكن عليا كان يرى أنه أولى بالأمر منهم، ولكنه بايعهم حرصا على وحدة المسلمين، وقال أنه وأهل بيته الثمرة، وقريش الشجرة، والثمرة أفضل من الشجرة. وقال الشيعة بعصمة الأئمة، ورفعوا مقام علي بن أبي طالب على غيره من الصحابة،

وقالوا أنه أفضل الخلق في الدنيا والآخرة، بعد الرسول، وأعلاهم منزلة في الجنة، وأكثرهم حظا ومزايا وكل من عاداه أو أبغضه فهو عدو الله.

واستند غلاة الشيعة في الرفع من شأن علي بن أبي طالب إلى أحاديث نسبوها إلى الرسول، وزعم عبد الله بن سبأ أن لكل نبي وصى، فكما أن محمدا خاتم الأنبياء، فعلى خاتم الأوصياء لأنه - أي على - وصى محمد، وانضم فريق كبير من الفرس الى الشيعة، لأنهم يجدون النظام الوراثى في الحكم في البيوتات الكبيرة وظل الشيعة حزبا معارضا للحكم الأموي، يعمل بكل ما استطاع على أسقاط الدولة الأموية. ولقد وحدث موقعة كربلاء (سنة ٦١هـ) التي استشهد فيها الحسين بن علي - بين الشيعة، وازداد حزبهم قوة بمن أنضم إليهم من جماهير المسلمين، الذين زادتهم هذه الحادثة والمأساة المروعة، تعاطفاً مع آل البيت وازداد سخط الناس على بني أمية، الذين قتلوا ابن بنت رسول الله، دون مراعاة لنسبه حتى يعتقد البعض أن مأساة كربلاء بداية النهاية للحكم الأموي، ولقد تمت بهذه الواقعة محنة لعلي في أبنائه، لم يمتحن بمثلها مسلم قط من قبل هذا اليوم فقد قتل في يوم واحد سبعة من أبناء فاطمة، وخمسة من أحفادها، وقتل غير هؤلاء سائر من كان مع الحسين من الموالي والأنصار، وكانت محنة للطالبين عامة ولأبناء فاطمة خاصة، ومحنة للإسلام نفسه، خولف فيها بوضوح تعاليم الإسلام التي تدعو إلى الرفق والرحمة والتعاطف وحقن الدماء وانتهك فيها أحق الحرمات بالرعاية، وهي حرمة رسول الله الذي لم يمض على وفاته الا خمسون عاماً. وكانت محنة كربلاء صدمة لأهل الحجاز الذين رأوا أن طاعة يزيد لم تعد واجبة بعد هذه المحنة، بل يجب الخروج عليه وعلى بني أمية.

وازداد سخط المسلمين على بني أمية بعد واقعة الحرة التي حدثت في عهد يزيد بن معاوية، وكان ضحيتها الكثير من أهل المدينة المنورة وتخريب الديار

ونهب الأموال، وبعدها ضرب بيت الله بالمنجنيق حينما نادى عبدالله بن الزبير باحياء عهد الخلفاء الراشدين، وأعلن نفسه أميراً للمؤمنين.

وثار التوابون انتقاما لمقتل الحسين، وقتلوا كل من اشترك في هذه المأساة، كما أعلن يزيد بن علي بن الحسين الثورة في الكوفة، وظل يقاتل بني أمية حتى قتل، ولم يلبث أن قتل ابنه يحيى، واشتد الأمويون في تعقب العلويين، وقتلوا كل من حامت حوله الشبهات بالثورة، وصادروا أموالهم، وزجوهم في السجون. ومع ذلك لم يضعف العلويون ولم يهنوا، بل زادتهم المحن صلابة وقوة، وبثوا دعاتهم في كل أرجاء الدولة الإسلامية للوقوف إلى جانبهم في القضاء على بني أمية، وإعادة الحكم إلى آل بيت الرسول، ووجهوا الدعوة من خلال تنظيمات سرية محكمة.

٢ ـ الخوارج:

الخوارج مفردها خارجي، وهم أتباع أقدم فرقة في الإسلام وقد نشطوا في أواخر عهد علي بن أبي طالب، وتولية معاوية الخلافة وأحدثوا اضطرابات كثيرة في الدولة الأموية، وقدر لبعض حركاتهم النجاح فترة من الزمن.

نشأت فرقة الخوارج في أثناء معركة صفين بين علي ومعاوية، وطلب جند معاوية تحكيم كتاب الله في النزاع بين الفريقين وعارض فريق من جيش علي التحكيم، على اعتبار أن الرجال لا يصح أن يحتكم إليهم في حكم الله، وهجروا جيش علي قائلين لا حكم إلا لله، ثم تركوا الجيش وانسحبوا إلى قرية حروراء غير بعيد عن الكوفة، وارتضوا بعبدالله بن وهب الراسبي قائداً عليهم.

وسمى هؤلاء الخوارج الأوائل بالحرورية، وانضم إليهم القراء في جيش علي، بعد ما شعروا بالخزلان وخيبة الأمل من نتيجة التحكيم التي كانت في

صالح معاوية وفي غير صالح علي، وأظهر الخوارج مذهبهم، وقالوا بعدم أحقية علي في الخلافة، وأصبحوا يعتقدون أنهم وحدهم المسلمون، ومن ليس على عقيدتهم كافر وعليهم رد هؤلاء الكفار إلى حظيرة الدين، وقوى أمر الخوارج شيئاً فشيئاً بتزايد العناصر الناقمة المعارضة، ومن بينهم الموالي الذين اجتذبهم مبدأ المساواة بين الشعوب في الاعتقاد وهو المبدأ الذي قال به الخوارج.

والخوارج جمهوريو الإسلام أو الحزب الديمقراطي فيه، واختلفوا عن اشيعة في مبدأ الخلافة، فبينما يقول الخوارج بأن الخلافة حق لكل مسلم حر يقع عليه اختيار المسلمين، يقول الشيعة بوجوب حصر الخلافة في آل بيت رسول الله، وأنكر الخوارج نظام الحكم القائم، واعتبروا عسكر السلطان مباح، لأنهم لا يقرون إسلام السلطان، ومن يلوز في فلكه، واستباحوا أموال السلطان ونسائه وأطفاله وخيله وسلاحه، وحاربوهم بكل شدة وضراوة، وضربوا المثل في الشجاعة النادرة، والبطولة الفذة.

شكل الخوارج أحد أحزاب المعارضة في الإسلام، وكان فكرهم السياسي يعبر عن قطاع عريض من الجماهير الساخطة على الخلافة، بينما يرى أهل السنة أن الخلافة حق لقريش، يراها الخوارج - كما قلنا - حق مباح لكل مسلم حر يبايعه المسلمون، والشيعة يرونها في آل البيت، وتمسك الخوارج بشدة بتعاليم الإسلام، والتزموا بالقرآن والسنة دون تأويل أو تحريف، ودعوا إلى اتباع نهج السلف الصالح ممثلاً في سياسة الرسول والشيخين، ورأوا ضرورة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وضرورة الثورة على أئمة الجور.

اشتدت ثورات الخوارج في العهد الأموي، وتعقبهم بنو أمية، ونكلوا بهم أينما وجدوا، لكنهم لم يهنوا ولم يضعفوا وواصلوا شن غاراتهم العنيفة في شرق الدولة الإسلامية، وكانت غاراتهم أشبه بحرب العصابات، وعرف عنهم سرعة

الحركة، دون أن يتوقعهم أحد، وكانوا يكتسحون البلاد، ويباغتون المدن غير الحصينة، ثم ينسحبون مسرعين حتى لا يطاردهم جيش الدولة، وتعددت ثوراتهم، وازداد خطرهم واستطار شرهم نتيجة لأعمالهم التخريبية، وانتفاضاتهم التي اتسمت بطابع العنف والوحشية.

واشتدت ثوراتهم في عهد مروان بن محمد ـ آخر خلفاء بني أمية ـ وثاروا بزعامة الضحاك بن قيس الشيباني، وهددوا العراق.

وكانت جزيرة العرب مسرحاً لحركات الخوارج، ونشبت في بلاد اليمن حركة الخوارج الأباضية، وتزعم هذه الحركة أبو حمزة، وانتهز فرصة سوء الأحوال الاقتصادية في حضرموت، ودعا عبدالله بن يحيى الكندي إلى ترشيح نفسه أميراً للمؤمنين على مذهب الخوارج الأباضية، وبايعه الحضارمة فعلاً، وخلعوا مروان بن محمد. وأيده اليمنيون، وانتشرت دعوته في ربوع اليمن واستولى عبدالله بن يحيى الكندي وأبو حمزة على صنعاء سنة ١٢٩هـ، ولقب نفسه طالب الحق، واستقر في صنعاء شهراً وفد عليه خلاله اليمانية من كل صوب وحدب يبايعونه، وتطلع إلى السيطرة على بلاد الحجاز، وأرسل أبا حمزة على رأس فريق من جنده إلى هذه البلاد، واستولى على مكة والمدينة، وألقى الذعر في نفوس أهلها، ولكن مروان بن محمد أرسل جيشاً طرد به الخوارج الأباضية من بلاد الحجاز، وتعقب الخوارج في اليمن حتى استأصل شأفتهم، وفشلت حركتهم، واسترد سيطرته على بلاد اليمن.

يتضح لنا مما تقدم أن الخوارج شكلوا حزبا معارضاً للحكم الأموي وأشعلوا الثورات في وجه خلفاء بني أمية، منذ ابتداء دولتهم وضموا إلى صفوفهم الكثير من المسلمين، ولم يكفوا عن الحاق الهزائم المتكررة بجيوش الدولة، والحاق الخراب والدمار ببلدان الخلافة حتى أضعفوا الدولة، وأقلقوا مواطنيها.

٣ ـ المعتزلة:

نشأ الاعتزال في البصرة، وسرعان ما انتشر في العراق، واعتنقه بعض الخلفاء الأمويين، والمعتزلة أكثر الفرق استفادة من الفلسفة اليونانية، وصبغها بصبغة إسلامية، والاستعانة بها على نظرياتهم وجدلهم، والحق أن المعتزلة هم الذين خلقوا علم الكلام في الإسلام، وتتكون عقيدتهم من خمسة أصول: التوحيد والعدل والوعيد والقول بالمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

بدأت المعتزلة طائفة دينية لا دخل لها بالسياسة على عكس ما كان عليه الخوارج والشيعة والمرجئة. ولم يلبث المعتزلة أن خاضوا في السياسة، وتكلموا في الإمامة، والشروط التي يجب أن تتوافر في الإمام، وتأثر الشيعة بمبادىء المعتزلة في عقيدتهم وأن الإمام المنتظر سوف يظهر لنشر العدل والتوحيد، وهذا هو بعينه عقيدة المعتزلة. والزيدية أكثر الشيعة تأثراً بالمعتزلة، ويتفق المعتزلة مع الخوارج في أن الإمامة يجوز أن تكون في قريش وغيرهم من الناس.

شهد العصر الأموي جدلاً كبيراً بين هذه المذاهب من خوارج وشيعة ومرجئة ومعتزلة، وملئت كتب التاريخ والأدب والملل بالمناقشات التي كانت تدور بين هذه الفرق.

ومن آراء المعتزلة:

القول بالمنزلة بين المنزلتين أي أن مرتكب الكبيرة ليس بكافر ولا مؤمن لكنه فاسق.

القول بالتوحيد، فنفوا أن يكون لله صفات أزلية من علم وقدرة وحياة وسمع وبصر، بل الله عالم وحي وسميع وبصير بذاته. وقالوا بسلطان العقل

وقدرته على معرفة الحسن والقبيح. ولذلك حكموا العقل في كل أمر من أمور الدين.

وأظهر المعتزلة آراءهم السياسية في عصرهم وما قبل عصرهم وكان لهذه الآراء ـ خاصة في الإمامة ـ وشرعية تولي معاوية الخلافة، ونظام الوراثة ـ الذي أدخله الأمويون في دولة الإسلام ـ والشورى وإغفال بني أمية لها، والتحكيم وموقف معاوية من علي، كان لها أثر كبير في ازدياد المعارضة ضد الحكم خصوصا وأن آراءهم منطقية ونابعة من سلطان العقل.

٤ ــ المرجئة:

حزب سياسي لا يريد أن يتورط في الفتن، ولا يريق دماء حزب ولا يحكم بتخطئة فريق وتصويب فريق آخر. والسبب في تكوينه هو اختلاف الأحزاب في الرأي حول الخلافة، وسموا بالمرجئة لأنهم يرجئون أمر هؤلاء إلى يوم الدين.

نشأت المرجئة لما رأت الخوارج يكفرون عليا وعثمان والقائلين بالتحكيم، ورأت بين الشيعة من يكفر أبا بكر وعمر وعثمان، وكلاهما يكفر الأمويين ويلعنهم، وكل طائفة تدعي أنها على حق، وأن من عداها كافر وفي ضلال، وتقول المرجئة أن الفرق الثلاث ـ الأمويين والشيعة والخوارج ـ مؤمنون، وبعضهم مخطىء وبعضهم مصيب، ولا يمكن معرفة المصيب، لذلك رأوا إرجاء هذا الأمر إلى الله وحده، يفصل في أمرهم يوم الدين.

وكانت أكبر مشكلة في العهد الأموي، الموقف من حديثي العهد بالإسلام وذهبت المرجئة إلى القول بأنه لا يحل للحكومة أن تعامل هؤلاء كما لو كانوا لا يزالون على كفرهم بعد أن أصبحوا مسلمين لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين. ولذلك لم يمتنعوا عن قتال أية حكومة تقر هذه المظالم. وكل ما كان

ينشده هؤلاء هو العودة إلى مبدأ المساواة بين الشعوب الذي أقره الإسلام. وعلى سبيل المثال ما قام به الحارث بن سريج على رأس فريق من أبنائه من المرجئة بالثورة ضد الأمويين في بلاد ما وراء النهر حينما رفع الأمويون الضرائب، ولجأ الولاة إلى العنف في جبايتها وكان يزعم أنه المهدي الذي أرسله الله لتخليص المضطهدين والأخذ بيد الضعفاء المقهورين، دعوا إلى ضرورة العودة إلى القرآن والسنة، وانتخاب حكومة ترضى عنها الأغلبية، ولم تكن ثورة الحارث إلا نتيجة لتذمر الموالي وعلى رأسهم المرجئة.

لذلك فالإرجاء يدعو بعدم تكفير مسلم مهما أذنب، وأن الذنب مهما عظم لا يذهب بالإيمان، وإذا اشتد الخلاف بين الفرق الإسلامية، وكفرت كل فرقة الفرقة الأخرى، فعلى هؤلاء إرجاء الأمر إلى يوم القيامة، يحكم الله فيما شجر بينهم.

ونشأت هذه الفرقة في الفتنة الكبرى التي أدت إلى مقتل عثمان واعتزل بعض المسلمين وامتنعوا عن الدخول في النزاع بين الفئات المتصارعة، ولكن الأرجاء لم يتكون كمذهب إلا بعد ظهور الخوارج والشيعة. ويقول الشهرستاني الأرجاء على معنيين أحدهما بمعنى التأخير كما في قوله تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ ﴾ أي أمهله وأخره والثاني إعطاء الرجاء. أما إطلاق اسم المرجئة على الجماعة بالمعنى الأول فصحيح، لأنهم كانوا يؤخرون العمل عن النية والعقد وأما بالمعنى الثاني فظاهر، فإنهم كانوا يقولون: لا تضر مع الإيمان معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة. وقيل الأرجاء تأخير حكم صاحب الكبيرة إلى يوم القيامة. فلا يقضى عليه بحكم ما في الدنيا من كونه من أهل الجنة، أو من أهل النار.

٥ ـ الموالي:

الموالي هم المسلمون من غير العرب، وقد أخذ عددهم في الازدياد بعد أن انتقلت الخلافة إلى الأمويين نتيجة لتوالي الفتوح الإسلامية.

كان الأمويون يستنكفون من زواج العرب بالموالي ولو كانوا من المنزلة الرفيعة أو أهل العلم والتقوى، على الرغم من أن الإسلام لم يمنع زواج العرب بالموالي، وكان الأمويون يترفعون على الموالي إلا أنهم اضطروا اضطرارا إلى الاستعانة بذوي الكفاءة والمقدرة منهم. ولقد نقم الموالي على الأمويين معاملتهم لهم على أنهم مواطنون من الدرجة الثانية، لا يولوهم المناصب الكبيرة في الدولة، ولا يشركوهم في شؤون السياسة والحكم والإدارة والجيش على الرغم من أن الموالي وخصوصا الفرس منهم أهل حضارة عريقة. وإحقاقا للحق يجب أن نقرر أن حرمان الموالي من المشاركة في الشؤون التي ذكرناها لم يكن السبب الوحيد لمعارضة الموالي لبني أمية. ولكن هناك أسباب أخرى على جانب كبير من الأهمية. ذلك أن الموالي الفرس ـ وهو فريق الموالي المعارض لبني أمية ـ لم تتحسن أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية في دولة الإسلام، ولم يتمتعوا بما أقره الإسلام من عدالة اجتماعية واقتصادية، فظل الدهاقون الفرس يستأثرون بثروة البلاد كما كان الحال قبل الإسلام ولم توزع الزكاة على المحتاجين. والزكاة فرض من فروض الإسلام وتمتع العرب الوافدون عليهم بالثروات الكبيرة، وامتلكوا الأراضي التي آلت إليهم بعد الفتوح، وهي الأرض التي هجرها أو مات أهلها لذلك لا نعجب إذا رأينا أن الموالي انضموا إلى الحركات المعارضة للحكم الأموي، على اعتبار أن بني أمية لم ينفذوا تعاليم الإسلام، فانضم فريق منهم إلى الخوارج، وهم الكادحون الذين رأوا أن الخوارج ينادون بالمساواة بين المسلمين جميعا. وفي ظل المساواة والعدالة بين الجميع يمكنهم التخلص مما

يقاسونه من ظلم وضيم، يؤدي بهم إلى مستوى معيشي أفضل. وانضم فريق من الموالي إلي الدعوة العلوية لأنهم أخذوا من حياتهم السياسية قبل الإسلام وجوب استمرار الحكم في أكثر البيوت عراقة. وسوف تعرفون أن الدعوة العباسية نمت وترعرعت بين الموالي. وأن الموالي حققوا أملهم المنشود في إسقاط الدولة الأموية وإقامة الدولة العباسية.

٦ ــ العصبية القبلية:

انحاز الأمويون للعرب على الرغم من أن الدين الإسلامي قام على أساس المساواة بين المسلمين كافة لا فرق في ذلك بين عربي وعجمي، والتقوى أساس الحكم بين المؤمنين ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ وما أثر عن الرسول ﷺ أنه قال: «لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى...».

سادت العصبية القبلية الدولة الأموية، وكان لها أثر بالغ في حياة العرب السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، وانقسم العرب إلى يمانية وقيسية. وقد أدى انحياز الخلفاء الأمويين إلى أحد الفريقين إلى قيام العداء بينهما، فازداد نفوذ اليمانية في عهد معاوية بن أبي سفيان وابنه يزيد، لأن معاوية ارتمى في أحضانهم، وجذبهم إليه، ليواجه بهم معارضة أهل الحجاز لنظام حكمه الملكي الوراثي، وسار يزيد على سياسة أبيه في تقريب اليمنيين إليه، وكان جيش يزيد من اليمانية الأمر الذي أثار القيسية، وظهرت هذه العصبية القبلية بوضوح بعد وفاة معاوية الثاني، وفي موقعة مرج راهط بالذات، التي قادها الضحاك بن قيس القهري، لتثبيت خلافة عبدالله بن الزبير وانتصر مروان بن الحكم على القيسية في هذه المعركة. وبذلك اعتبرت هذه الموقعة ـ التي بسببها تربع مروان بن الحكم على عرش الخلافة ـ معركة بين القيسية واليمنية. ومن أبرز نتائج هذه المعركة، ازدياد العداء بين الفريقين، ونشبت بين الفريقين الحروب في كل بلد من بلدان

الإسلامية، وأدى انحياز الخلفاء الأمويين إلى أحد الفريقين إلى ازدياد العصبية، وتجلى ذلك في عهد الوليد بن يزيد الذي تعصب للقيسية، لأن أمه قيسية وأقصى العنصر اليمني. وكان ذلك مما حمل هذا العنصر على تدبير المؤامرات للتخلص منه، ثم خلفه يزيد بن الوليد، فتعصب لليمانية، وأساء اليمانيون في عهده معاملة القيسيين، مما ترتب عليه قيامهم ببعض الثورات.

ولما ولي مروان بن محمد الخلافة، تعصب للقيسية، فثار عليه اليمانية. إذن انقسم العرب على أنفسهم في الدولة الأموية، وبدلا من أن يعمل الأمويون على إنهاء الخلافات، زادوها اشتعالا حتى أن كتب التاريخ مليئة بالأحداث التي تروي المنازعات والحروب الدامية بين القيسية واليمانية في أرجاء الدولة الإسلامية الكبرى ومما لا شك فيه أن هذه المشاحنات بين القيسية واليمنية، أضعفت الدولة الأموية، وعجلت بفنائها.

٧ ـ نظام الحكم:

واجه نظام الحكم الأموي المعارضة منذ قيام الدولة الأموية، فلم يستجب المسلمون لنظام الملكية الوراثية الذي أدخله معاوية ورأى الخوارج أن الخلافة حق للمسلم الحر الذي يجمع عليه المسلمون، ورأى الشيعة أن الإمامة يجب أن تنحصر في آل بيت رسول الله ﷺ. كما أن نظام ولاية العهد الذي اتبعه الأمويون ـ والذي يقضي بتولية العهد لأكثر من واحد ـ أدى إلى قيام النزاع بين أمراء البيت الأموي الحاكم، فعلى سبيل المثال عهد مروان بن الحكم إلى الخلافة من بعده إلى ولديه عبدالملك ثم عبدالعزيز، ولما ولي عبدالملك، اعتزم خلع أخيه عبدالعزيز من ولاية العهد وتولية ابنه الوليد بدلا منه، ولكن عبدالعزيز توفي في أثناء ذلك، وأفسح المجال للوليد، ولولا أن الموت عاجل الوليد بن عبدالملك، لخلع أخاه سليمان من ولاية العهد، وبايع ابنه بدلا منه.

اضطربت الأمور في الدولة الأموية بعد وفاة هشام بن عبدالملك سنة ١٢٥ هـ وتولية الوليد بن يزيد الخلافة الذي قضى معظم أيام خلافته في البادية، وبقي في الخلافة سنة وشهرين ثم قتل لسوء سيرته سنة ١٢٦ هـ، وخلفه يزيد بن الوليد الذي توفي بعد خمسة أشهر، وبويع بعده أخوه إبراهيم، وفي عهده تجلى الاضطراب في البيت الأموي، فلم يكن هناك إجماع على توليته فكان ناس يسلمون عليه بالخلافة، وناس بالإمارة، وناس لا يسلمون عليه بواحدة منهما، وانتهى الأمر بعزله وقتل على يد مروان بن محمد.

ولما آلت الخلافة إلى مروان بن محمد، تعصب للقيسية، وطالب اليمانية بدم الوليد بن يزيد، فثار عليه يزيد بن خالد القسري بدمشق، وانضمت إليه اليمانية، فأرسل مروان إلى دمشق جيشا أخمد الثورة، كما قضى على ثورات أخرى أشعلها اليمانية في بلاد الشام.

ولم يكد يستقر الأمر لمروان بن محمد في بلاد الشام حتى خرج عليه سليمان بن هشام بن عبدالملك، ودعا أهلها إلى خلعه، وانضمت إليه اليمانية، فسار إليه مروان، وأوقع به الهزيمة. وبذلك أضعف الأمويون دولتهم، بسبب الانقسامات بين أمرائهم.

وعلى ذلك يمكن القول بأن الدولة الأموية واجهت المعارضة من جماهير المسلمين، وتطلع المسلمون عامة إلى الخلاص من هذا الحكم والعودة إلى الحكم الإسلامي الحقيقي الذي يتمثل في الشورى، وانتخاب الخليفة من أفضل المسلمين علما وورعا وعدلا، وانتشرت الجمعيات السرية - التي عملت في الخفاء - للخلاص من هذا الحكم البغيض، فسعى الشيعة والخوارج إلى تدبير المؤامرات للقضاء على بني أمية، وناصر الموالي هذين الفريقين، ولم يستطع الأمويون الصمود أمام هذه المعارضة.

ومن ناحية أخرى اعتمد الأمويون على العرب، وأبعدوا الموالي ولكنهم بذروا بذور الشقاق بين العرب الذين انقسموا -كما قلنا- بين قيسية ويمانية، وحاربت هاتان الفئتان بعضها بعضا، وتورط الأمويون في هذه المنازعات بل زادوها ضراوة وانقسم البيت الأموي على نفسه، بسبب النزاع حول الخلافة. وفي أواخر العهد الأموي، تولى الخلافة خلفاء ضعاف، انصرفوا إلى اللهو والعبث، وانغمسوا في الترف والملذات، ولم يبالوا بما يجري ضد بني أمية من مؤامرات ودسائس وثورات تستهدف الخلاص من حكمهم، بل أعطوا للمعارضين سلاحا للنيل منهم.

إذن أصبح الوضع السياسي والاقتصادي والاجتماعي في الدولة الأموية يستلزم ثورة، تقضي على هذا الفساد في نظام الحكم الأموي، ويعيد إلى المسلمين وحدتهم وتضامنهم، ويمنع النزاع والتخاصم بين طوائف المسلمين، ويطمئن المسلمين على دينهم ودنياهم، ويحبط المؤامرات والفتن التي شملت ربوع الدولة الإسلامية، ويعيد توزيع الثروة بما يكفل للناس الحياة الحرة الكريمة، ويساوي بين المسلمين جميعا، وينشر العدل بينهم ويطبق مبادىء الإسلام بين الناس جميعا، ويعيد حكم الشورى وسير السلف الصالح.

لذلك كانت الأذهان مهيئة في أواخر العهد الأموي لعصر جديد، وثورةجديدة، أقصد الثورة العباسية.

قيام الدولة العباسية

ينسب العباسيون إلى العباس بن عبدالمطلب عم الرسول ﷺ، وتطلعوا إلى الخلافة في مستهل القرن الثاني الهجري وكان بنو هاشم ـ من قبل ـ خارجين عن نطاق هذا النزاع وأينما تأخروا ـ كما يقول الدكتور حسن محمود ـ والتأخر سابقه العباس، ثم تقدموا بفضل ما جمع عبدالله بن العباس من العلم، وبفضل عكرمة الذي نشر علم بني العباس في المشرق وبذلك ظهر فضل هذا البيت، وعرفه الناس، واحترموه لقرابته القريبة من بيت علي ومن رسول الله ﷺ.

لم يدع أحد العباسيين لنفسه بالخلافة خلال القرن الأول الهجري، وإنما اقتصرت الدعوة لآل علي، الذين ضعف أمرهم، وأنهكتهم الثورات، وقتل الكثير منهم، وتعرضوا لبطش بني أمية وتنكيلهم، وتوفي علي زين العابدين قبل نهاية القرن الأول بست سنوات تقريبا، وتوفي أبو هاشم محمد بن علي بن الحنفية قبل هذا التاريخ بسنتين، وكان محمد الباقر وزيد لا يزالان في سن الشباب، ولم يعقب أبو هاشم. وبذلك تزعم علي بن عبدالله بن العباس الدعوة إلى آل البيت على اعتبار أنه شيخ بني هاشم بلا منازع.

كان الناس ينظرون إلى آل البيت ككل متضامن، وإن كانوا بيوتا مختلفة، حسنيين وحسينيين وكيسانية أتباع محمد بن الحنفية، وعباسيين، الأمر الذي يسر انتقال الدعوة إلى العباسيين.

تطلع العباسيون ـ كما قلنا ـ إلى الخلافة في مستهل القرن الثاني الهجري بعد أن ضعف العلويون، ورأوا أن الفرصة مواتية لنشر دعوتهم، وتذرعوا ببعض الأسانيد الشرعية، لييسر انتقال الخلافة إليهم، فقالوا: إن الخلافة يجب أن تنتقل

إلى سلالة العباس عم الرسول ﷺ ـ لأنه الوريث الأول للرسول الذي ليس له وارث ذكر.

كان الكيسانية أقوى شأنا من بقية آل علي في أواخر القرن الأول الهجري بعد المحن الشديدة والمؤلمة التي أصابتهم ونظموا أمرهم، ونشروا الدعوة لآل علي في أرجاء الدولة الإسلامية، وانضم إلى صفوفهم الكثير من المسلمين، وكان لهم دعاة، يجوبون البلاد الإسلامية.

قوي شأن أبي هاشم عبدالله بن محمد بن علي بن أبي طالب ـ زعيم الكيسانية وشيخ آل علي ـ حتى اعتبره الخليفة سليمان بن عبدالملك خطراعليه وعلى دولته، وتروي المراجع العربية أن الخليفة سليمان بن عبدالملك، استدعاه إلى بلاطه وقضى حوائجه، وحوائج من كان معه، ثم دس له من سقاه سما، وهو منصرف من عنده، يريد فلسطين، فلما شعر بدنو أجله، توجه إلى ابن عمه علي بن عبدالله بن عباس ـ شيخ آل محمد ـ بالحميمة بأرض الشراة، وأوصاه بالإمامة من بعده له ولولده، وسلمه كتابا تضمن أسرار الدعوة، وزوده بأسماء الدعاة والنقباء وتوفي سنة ٩٧ هـ. وهذه القصة قد تكون من نسج خيال العباسيين لتبرير انتزاعهم الخلافة من العلويين، ولو صحت هذه القصة لأمكن القول أن أبا هاشم تنازل عن الإمامة لعلي بن عبدالله بن العباس فقط، وليس للعباسيين جميعهم على اعتبار أن العلويين والعباسين يجمعهما بيت واحد، وهو البيت الهاشمي ولكن العباسيين الذين تطلعوا إلى الخلافة، اعتبروا أن هذا التنازل، تنازل كلي من أبي هاشم للعباسيين. ومن ثم نشروا الدعوة لأنفسهم متجاهلين العلويين. ولا يعقل أن أبا هاشم حينما تنازل لعلي بن عبدالله بن العباس، قد ألغى كلية وإلى الأبد حق بيته في الخلافة. إنما يمكن القول بأنه تنازل لشيخ بني هاشم علي بن عبدالله بن العباس على أن يؤول الأمر من بعده لمن تصلح كفايته من البيت الهاشمي علويين وعباسيين.

ابتدأت الدعوة العباسية على أيدي محمد بن علي العباس، وقام بتنظيمها، على أن تكون الدعوة لآل البيت، وأمر الدعاة بكتمان الدعوة لبني العباس، حتى يضمن تأييد المسلمين له، وعدم نفور العلويين منه ومن دعوته، وأمر الدعاة بتركيز الدعوة في الكوفة وخراسان، لأن الكوفة بها أنصار علي وآله منذ فجر الإسلام. أما خراسان فمقر الموالي الذين يؤيدون آل البيت، وينقمون على بني أمية لعدم تسويتهم بالعرب، ويعتقدون في نظرية الحق المقدس التي كانت سائدة في بلاد الفرس منذ أيام آل ساسان. وقد وصف الإمام العباسي الأهواء والميول التي كانت سائدة بين أهالي الولايات الإسلامية في هذه العبارة: «أما الكوفة وسواها فشيعه علي، وأما البصرة فعثمانية.. وأما الجزيرة فحرورية. وأما أهل الشام فلا يعرفون غير معاوية وطاعة بني أمية، وعداوة راسخة وجهل متراكم. وأما مكة والمدينة، فقد غلب عليهما أبو بكر وعمر. ولكن عليكم بخراسان فإن هناك العدد الكثير والجلد الظاهر». وهذا يوضح مدى اعتماد الشيخ العباسي في دعوته على إقليم خراسان دون سواه، وعدم ثقته بالأقاليم الأخرى.

بث الإمام محمد بن علي العباسي الدعاة في أرجاء الدولة الإسلامية وانتشروا في الولايات، يدعون سرا للرضا من آل محمد وهذه الدعوة لاسم غامض، من السهل أن يلتبس على الناس فلا يفهمون منه أنها موجهة لشيخ غير علوي. وكان ظاهر أمر الدعاة التجارة أو الحج، وطافوا أقاليم الدولة الإسلامية، وتحملوا الأهوال والأخطار والمشقات ولم يبالوا بما قد يلاقوه في سبيل نشر الدعوة من قتل وتنكيل وصلب.

توجه الدعاة إلى العراق وخراسان، ومن بين الذين توجهوا إلى هذه الأقاليم أبو عكرمة ا لسراج، الذي اختار للإمام العباسي محمد بن علي اثني عشر رجلا عرفوا بالنقباء، منهم سليمان بن كثير الخزاعي، واختار أيضا أبو عكرمة سبعين رجلا من أهل خراسان، وكان الدعاة والنقباء يتميزون بصفات معينة

فهم وحدهم الذين يعرفون امام الوقت، ويحتفظون بهذا السر لأنفسهم، وتميز أعضاء هذا التنظيم السري -أقصد الدعاة والنقباء- بالمقدرة القتالية، والتعمق في علوم الدين من فقه وحديث وفي اللغة والأدب، ومداراة غرضهم الحقيقي، واجتذاب الأنصار، ومنطق في المخاطبة فيه أدب وبلاغة، ومقدرة على الجدل.

كان من أبرز الدعاة في خراسان، سليمان بن كثير الخزاعي، دعا هو وأعوانه إلى بني هاشم، وكثر من يجيبهم، وقدم بكير بن ماهان فأجابه خلق كثير إلى خلع بني أمية، وبيعة بني هاشم، وكثر أشياعه وأصحابه، ولما حضرت بكير بن ماهان الوفاة، استخلف أبا سلمة الخلال، وأقره الإمام محمد بن علي العباسي، ولما بلغ أسد بن عبدالله القسري أمرهم، أخذ جماعة منهم، وقطع أيديهم وأرجلهم وصلبهم، فما زالوا في خوف وذعر حتى مات أسد.

انضم إلى محمد بن علي العباسي -رئيس الدعوة العباسية- في سنة ١٢٥ هـ شاب من نوابغ الشبان من أصل غير عربي يعرف بأبي مسلم الخراساني، تلقى أسرار الدعوة عن بكير بن ماهان -داعى العباسين بالكوفة، وكان رجل علم، وكانت الدعوة العباسية في حاجة إلى قدرات هذا الرجل السياسية والعسكرية، فالفرصة الآن مواتية للعمل ضد الدولة الأموية التي مزقتها الفتن والاضطرابات، وأقليم خراسان -المركز الرئيسي للدعوة العباسية- مضطرب كل الاضطراب والعرب فيه يحاربون بعضهم بعضا.

أوصى محمد بن علي العباسي بالإمامة من بعده سنة ١٢٥ هـ إلى ابنه إبراهيم الإمام، وأخيه عبدالله من بعده وعهد بأمر الدعوة إلى أبي مسلم الخراساني.

بدأ العباسيون العمل ضد الدولة الأموية منذ سنة ١٢٧ هـ وتزعم هذا العمل إبراهيم الإمام، ويرجع إليه الفضل في قيام الدولة العباسية، واتخذ من

إقليم خراسان قاعدة للعمل لأن أهلها ـ كما قلنا ـ ينقمون على الأمويين كما أن الإقليم تسوده الفتن بين القيسية واليمنية، وعجز الولاة الأمويون عن القضاء على هذه الفتن.

تسلم أبو مسلم الخراساني مقاليد الأمور في خراسان، وكتب إبراهيم الإمام إلى أبي مسلم كتابا جاء فيه: «إنك رجل منا أهل البيت، احفظ وصيتي، انظر إلى هذا الحي من اليمن الزمهم، واسكن بين أظهرهم، فإن الله لا يتم هذا الأمر إلا بهم ـ وأما مضر فإنهم العدو القريب الدار، واقتل من شككت في أمرهم، وإن استطعت ألا تبقي بخراسان من يتكلم العربية فافعل». وهذا يوضح مدى اعتماد الدعوة العباسية على الموالي الفرس واعتبار العرب اليمانية أنصاراً لدعوتهم، والقيسية أعداء لهم.

ساعدت الاضطرابات التي سادت أقليم خراسان أبا مسلم على تحقيق سياسته الرامية إلى السيطرة على هذا الأقليم، فانتهز أبو مسلم الخراساني الفرقة بين العرب، وعمل على زيادتها، وناصر اليمانية في صراعهم ضد القيسية، حتى أضعف القيسيةواستطاع بجيشه الصغير السيطرة على أقليم خراسان، ثم عول على التخلص من مراكز القوى في الأقليم، فقبض على شيوخ القبائل وقتلهم.

أرسل نصر بن سيار ـ الوالي الأموي على خراسان ـ يستنجد بمروان بن محمد ـ آخر الخلفاء الأمويين ـ ويبلغه بمدى خطر الدعوة العباسية على الدولة الأموية. ولكن بعد فوات الأوان، فقد تتابعت انتصارات أبي مسلم الخراساني على جيش الدولة الأموية في خراسان، وانضمت إليه الكثير من بلدان هذا الأقليم، وأقبلت وفود البلاد الفارسية على أبي مسلم يرتدون السواد، ويعلنون تأييدهم للدعوة العباسية.

لما علم مروان بن محمد بأمر الدعوة العباسية بعد أن وقع في يده كتاب إبراهيم الإمام إلى أبي مسلم الخراساني يدعوه فيه إلى قتل كل من يتكلم العربية في خراسان، أمر بالقبض على إبراهيم، وزجه في السجن في حران، فعهد إبراهيم سرا إلى أخيه أبي العباس عبدالله سرا بأمر الدعوة، وأوصاه بمواصلة الدعوة والمسير إلى الكوفة، وأمر أهله بالسمع والطاعة له، وأنزل أبو سلمة الخلال أهل إبراهيم الإمام منازل في الكوفة، وكتم أمرهم أربعين ليلة. أما أبوالعباس فتوجه إلى الكوفة، ومعه شيوخ وسادة بني العباس، وهزم أبو سلمة الخلال يزيد بن هبيرة في ظاهر الكوفة فلجأ إلى واسط. وبذلك أفسح المجال لأبي سلمة الخلال بدخول الكوفة سنة ١٣٢ هـ دون مقاومة تذكر، وأقبل الناس على أبي العباس يبايعونه بالخلافة، وصعد المنبر في ١٢ ربيع الأول سنة ١٣٢ هـ، وألقى خطابا شكر فيه أهل الكوفة، وفاخر بقرابته لرسول الله ﷺ، وأوضح أحقية بيته بالخلافة، لنسبه إلى العباس عم الرسول وقال: «الحمد لله الذي خصنا برحم رسول الله ﷺ وقرابته وأنشأنا في آبائه.. وقام بالأمر بعده أصحابه وأمرهم شورى بينهم، فخووا مواريث الأمم، فعدلوا فيها، ثم وثب بنو حرب ومروان فابتزوها... فظلموا أهلها، فأملى الله لهم حينا حتى آسفوه، فلما آسفوه انتقم منهم بأيدينا، ورد علينا حقنا، وتدارك بنا أمتنا» واستشهد بالآيات البينات التي فيها ذكر لفضل آل اللبيت: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ وقال: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾.. وبذلك أعلن قيام الدولة العباسية، وكان شعار العباسيين السواد بدلا من البياض الذي كان شعار الأمويين، واجتذب مبدأ المساواة والإصلاح الجماهير الإسلامية، فأقبلوا على الخليفة أبي العباس يبايعونه، ويعلنون تأيدهم له.

كان لابد لأبي العباس من التخلص من مروان بن محمد ـ آخر خلفاء بني أمية ـ حتى ينفرد بحكم الدولة الإسلامية.

نزل مروان بن محمد الزاب ـ أحد روافد دجلة ـ وأسند أبو العباس مهمة التخلص من مزوان إلى عمه عبدالله بن علي، واشتبك الجيشان العباسي والأموي في معركة حامية الوطيس، انهزم فيها جند مروان، وكان من غرق أكثر ممن قتل، وهرب مروان، واستولى عبدالله بن علي، على كل ما في عسكر مروان،. وفيه من السلاح والمال الشيء الكثير. أما مروان فظل يضرب في الأرض وينتقل من بلد إلى بلد وجند العباسيين تتعقبه، فتوجه إلى الرقه، ومنها إلى حران، ثم إلى قنسرين، ومنها إلى حمص، ومر بدمشق والأردن وفلسطين، ولما ضاقت عليه الأرض بما رحبت، لجأ إلى مصر، ونزل ببلدة بوصير، فطارده صالح بن علي ـ الوالي العباسي على مصر ـ وقاتله حتى قتله، وأرسل رأسه إلى الخليفة أبي العباس. وبتخلص الخليفة العباسي من آخر خلفاء بني أمية، انفرد بالسيطرة والسلطات على الدولة الإسلامية.

ولكن الخليفة العباسي رأى ضرورة التخلص من بني أمية وأنصارهم حتى يضمن استقرار دولته، فأمر جنده بتتبع الأمراء الأمويين أينما وجدوا والتنكيل بهم ولم ينج حتى النساء والأطفال من بطش بني العباس، وتخلص العباسيون تقريبامن بني أمية إلا عبدالرحمن بن معاوية بن هشام بن عبدالملك الذي كتب له أن يفر من العباسيين، وكتب له أن يؤسس الدولة الأموية في الأندلس، وأعاد بذلك أمجاد آبائه وأجداده.

اتسمت حملات العباسيين على الأمويين بالعنف والقسوة ولم يكتفوا بقتل الأحياء، بل نبشوا قبور الأموات، ولما لم يعثروا على جثة معاوية بن أبي سفيان، أخرجوا جثة هشام بن عبدالملك، ومثلوا بها.

اشتد سخط أنصار بني أمية على العباسيين بسبب تنكيلهم بالأمويين، وقاموا بعدة ثورات في بلاد الحجاز والجزيرة والشام والعراق، وحاولوا إعادة

الحكم الأموي وإزالة حكم بني العباس، وقد التف الثوار حول رجل من سلالة معاوية بن أبي سفيان، واتخذوه أميرا عليهم وسموه السفياني. وقد عبرت هذه الثورة عن معارضة العرب وتخوفهم من الحكم الجديد الذي يستمد العون والتأييد من الموالي الفرس، ونشبت عدة معارك بين عبدالله بن علي - والي الشام العباسي - وبين الثوار انتهت بفشل الثورة، وفرار السفياني.

والغريب أن دعاة بني العباس الذين أفنوا أيامهم في إقامة صرح الدولة العباسية، وفي نجاح الدعوة، قد ذهبوا ضحية الثورة التي هي كالنار تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله، فشك العباسيون في نواياهم، وقتلوا أبا سلمة الخلال - وزير آل محمد - بتهمة محاولة نقل الحكم إلى العلويين كما قتلوا سليمان بن كثير الخزاعي. ولم ينج أبو مسلم الخراساني من بطش أبي جعفر.

عهد أبو العباس إلى أقاربه وأنصاره بحكم الولايات فأسند حكم المشرق إلى أبي مسلم الخراساني، وعهد بحكم الجزيرة إلى أخيه أبي جعفر المنصور، وولى على بلاد الشام عمه عبدالله بن علي، وأسند قبل وفاته بالأنبار سنة ١٣٦ هـ ولاية العهد إلى أخيه أبي جعفر المنصور، ثم لابن أخيه عيسى بن موسى بن محمد بن علي العباسي بالتعاقب، وكان أبو جعفر المنصور وقت وفاة أخيه بمكة المكرمة، فأخذ له البيعة بالأنبار ابن أخيه عيسى بن موسى، الذي كتب إليه يعلنه بوفاة أخيه، وانتقال الخلافة إليه، وبذلك تولى الخلافة من حفدة علي بن عبدالله بن العباس - أول من تزعم الدعوة العباسية - اثنين من حفدته، هما أبو العباس عبدالله بن محمد، ثم أبو جعفر بن محمد الذي لقب بالمنصور.

أثر الثورة العباسية في الدولة الإسلامية:

توقفت حركة الفتوح الإسلامية الواسعة النطاق والتي كانت سمة بني أمية، وأبرز ما تميز به العهد الأموي، ولم يعد للمسلمين نشاط عسكري في البحر المتوسط، وتوقفت الحملات الحربية المستمرة على الدولة البيزنطية، وتولى أمراء المغرب والأندلس الدفاع عن الحوض الغربي للبحر المتوسط، وأصبحت حملات العباسيين على الدولة البيزنطية دفاعية فقط. وبانتقال حاضرة الخلافة من دمشق إلى بغداد تركز نشاط الدولة وثقلها السياسي والاستراتيجي في العراق بدلا من الشام، وهدأت الحركة العسكرية، واقتصر النشاط العسكري في الثغور والعواصم بين الدولة العباسية والدولة البيزنطية.

ونشأت علاقات ودية بين الصين والدولة العباسية، لأن العباسيين اتجهوا نحو الشرق، وتمثلت هذه العلاقات في التجارة حيث راجت بضائع الصين في الدولة الإسلامية. كذلك راجت بضائع الهند وجزر الهند الشرقية، ومارس المسلمون نشاطهم التجاري في المحيط الهندي، وتدفقت الثروة على بلاد العراق وإيران.

وهناك أثر كبير للثورة العباسية على الحضارة الإسلامية فلما ساوى العباسيون الموالي بالعرب، فتح العباسيون بذلك الباب أمام الشعوب في دولتهم للدخول في الإسلام، وساهموا بثرائهم الفكري في ازدهار الحضارة الإسلامية. وأدى دخول الترك في الإسلام، واقتناع الخليفة المعتصم بميزاتهم إلى سيطرتهم على الجيش وإدارة الدولة، وازداد نفوذهم حتى سيطروا على الخلافة العباسية.

كما انتعشت الأحوال الاقتصادية في الدولة العباسية، فخفف العباسيون الضرائب عن الفلاحين، وأبيحت لهم ملكية الأرض فتمسكوا بالإقامة في الريف، وتوقفت حركة الهجرة من القرية إلى المدينة، الأمر الذي أدى إلى ازدهار

الزراعة، كما أدى تدفق البضائع ومنسجات من بلاد المشرق كالهند والصين على الدولة الإسلامية إلى رواج التجارة، وظهور طبقة من التجار تمتلك الثروات الضخمة، تصور حياتهم قصص ألف ليلة وليلة.

وتقدمت الصناعة بفضل تقدم المواد الخام، واستغلال العباسيين لمناجم الذهب والفضة والنحاس، واشتد الطلب على المصنوعات الإسلامية في السوق العالمية. وكل ذلك أدى إلى تدفق الثروة على الدولة العباسية، حتى أن المنصور خلف لابنه المهدي قبل وفاته ما ان كسر عليه الخراج عشر سنين، كفاه لأرزاق الجند وسائر النفقات، وامتد النشاط التجاري في العصر العباسي إلى العالم شرقه وغربه، وعثر على نقود عباسية في المشرق وفي شمال غرب أوربا.

تأثر العباسيون في بلاطهم بتقاليد آل ساسان، وتجلى ذلك في مراسم الخلفاء، وفي احتجابهم عن الناس، وفي أسلوب المقابلات الرسمية، والحشم والحاشية، كما ظهرت البيرقراطية الفارسية في دواوين العباسيين، وفي أسلوب عمل الموظفين وترتيب الوظائف.

ولما كانت الدولة العباسية تضم شعوبا مختلفة، فقد أفادت الدولة بثقافتها، وشجع العباسيون الحركة الفكرية، فنشطت حركة الترجمة، وظهر علماء أجلاء كتبوا في فروع العلم والمعرفة موسوعات لا تزال نعتمد عليها إلى يومنا هذا في دراستنا، وهذه الحركة الفكرية الكبرى كانت من أسباب النهضة الأوروبية، وكان سلطان الخليفة ومركز الخلافة قويا، وله تأثير كبير في النفوس، حتى الدول التي استقلت عن الخلافة العباسية، لم تستقل عنها نهائيا، إنما ظلت ترتبط بدولة الخلافة بروابط اسمية، كذكر اسم الخليفة في الخطبة، ونقشه على العملة، وحصول الأمراء والسلاطين على تقليد بالحكم من الخليفة العباسي، صاحب الحق الشرعي في الدولة الإسلامية الكبرى.

●●●

لماتولى الخليفة أبو جعفر المنصور حكم الدولة الإسلامية واجه صعابا كثيرة في دولته، أهمها ثورة عمه عبدالله بن علي ضده، والثانية الخلاف بينه وبين أبي مسلم الخراساني.

أما عبدالله بن علي ـ والي الشام ـ فقد رفض مبايعة المنصور، والدخول في طاعته، وزعم أن أبا العباس قال: من خرج إلى مروان فهو ولي عهدي. يقصد أن أبا العباس ولاه عهده، لأنه قاتل مروان بن محمد، وأعلن الثورة ضد الخليفة الجديد، وبايعه أهل الشام، وسار على رأس جيش إلى بلاد العراق، يريد استخلاص الحكم لنفسه.

عهد أبو جعفر المنصور إلى أبي مسلم الخراساني بالقضاء على ثورة عبدالله بن علي، والتقى أبو مسلم وعبدالله في بلاد الجزيرة في عدة معارك، وانتهت بهزيمة عبدالله، وتجلت العصبية في هذه المعارك بين العرب والفرس فقتل عبدالله بن علي بعض الخراسانيين في جيشه، على حين نكل أبو مسلم بالعرب الذين وقعوا في قبضته من جيش عدوه، وفر عبدالله بن علي من ساحة القتال، وأمر أبو مسلم ألا يعترضه أحد، فصار عبدالله إلى البصرة، حيث نزل عند أخيه سليمان بن علي ـ واليها ـ واختفى عنده. ولكن المنصور توجس خيفة من اختفاء عبدالله بن علي، فأرسل إلى سليمان يأمره بإنفاذ عبدالله إليه، وأعطاه من الأمان ما رضي به، وجاء في الأمان: فإن أنا فعلت أو دسست فالمسلمون براء من بيعتي، وفي حل من الإيمان والعهود، التي أخذتها عليهم. ولكن المنصور لم يف بهذا الأمان، فتخلص من عبدالله.

أما المشكلة الثانية التي واجهت المنصور فور توليه الخلافة فهي موقف أبي مسلم الخراساني من المنصور.

ظهر العداء بين المنصور وابي مسلم في عهد أبي العباس السفاح وكان المنصور يخشى على الدولة العباسية من ازدياد نفوذ أبي مسلم ومن التفاف الفرس حوله، كما أخذ المنصور على أبي مسلم تعصبه ضد العرب، وإسرافه في التنكيل بشيوخ العرب في خراسان ولما ولي المنصور الخلافة، وأرسل أبو مسلم لقمع ثورة عبدالله بن علي، نمى إلى علمه أن أبا مسلم أسرف قي قتل الجنود العرب من جيش عبدالله بن علي، وتغاضى عن الخراسانيين، فأرسل المنصور إلى أبي مسلم رسولا لإحصاء الغنائم التي آلت إليه من جيش عبدالله بن علي، فغضب أبو مسلم، واعتبر هذا العمل إجحافا به، ونكرانا لفضله في إقامة الدولة العباسية، وقال: أؤتمن على الدماء، ولا أؤتمن على الأموال. وغادر بلاد الشام مغاضبا إلى خراسان، لكن المنصور أرسل إليه يدعوه إلى الطاعة والولاء ويوليه مصر والشام. ورفض أبو مسلم عرض الخليفة وخداعه، وكان الخليفة يقصد إبعاد أبي مسلم عن خراسان منطقة نفوذه وحتى لا يستقل بها، أو يتخذها قاعدة للثورة على الدولة العباسية والإطاحة ببني العباس، أو على الأقل عزل الخليفة والتخلص منه. على أن المنصور أرسل عدة رسل إلى أبي مسلم يدعوه إلى الطاعة، ويحمله على مقابلته، ويمنيه بتولية بعض الأقاليم وما زالوا به حتى أقنعوه بمقابلة أبي جعفر، وتم اللقاء فعلا بين الرجلين في المدائن، ودبر المنصور مؤامرة للتخلص منه فأكرم وفادته، وأنزله بمنزل لائق به، ثم عاتبه وأطال العتاب، وأشار إلى حرسه بقتله، فقتلوه في شعبان سنة ١٣٧ هـ.

وبمقتل أبي مسلم الخراساني، يكون الخليفة المنصور قد تخلص من أكبر مركز قوى هدد كيان دولته، وعرف أنه أصبح بحق الحاكم الفعلي للدولة العباسية، لا ينازعه الحكم منازع ولا يمكن أن نعتبر الخليفة المنصور ناكرا للجميل بقتله أبي مسلم، بل اقتضت الضرورة السياسية، والحفاظ على كيان الدولة، وحماية العنصر العربي، اقتضت التخلص منه.

استناء الفرس من مقتل أبي مسلم الخراساني، واتخذوا من هذه الحادثة ذريعة للثورة على الدولة العباسية، أو بعبارة أخرى الانتقام مما حدث للفرس بمقتل أبي مسلم من العباسيين العرب، وخشوا أن تعود الارستقراطية العربية إلى الانفراد بالحكم، كما كان الحال في العهد الأموي، ونسجوا حول شخصية أبي مسلم ألوانا من الخيال، تلائم العقائد الفارسية القديمة، وزعمت الطائفة المسلمية أنه حي لم يمت، وخرج رجل منهم يسمى سنباذ - من بعض قرى نيسابور - وكثر أشياعه، وأطاعه كثير من أهل خراسان، وبخاصة أهل الجبال، ولكن المنصور قمع هذه الثورة في مهدها، وظلت طائفة المسلمية تنتظر رجعة أبي مسلم، ليملأ الأرض عدلا، بعد أن ملئت جورا، والتف بعض أنصاره حول ابنته فاطمة، ولم يزل المنصور يتتبع طائفة المسلمية التي كثر أنصارها في بلاد ما وراء النهر بصفة خاصة حتى تمكن من هزيمتهم، والقضاء على دعاياتهم.

وقد استطاع أبو جعفر المنصور بما أوتيه من دهاء وحزم أن يقهر أعداءه من العرب والفرس. ونحن نعتبر الخليفة أبا جعفر المنصور المؤسس الحقيقي للدولة العباسية على الرغم من أنه ثاني الخلفاء العباسيين، وإليه يرجع الفضل في استمرار الخلافة العباسية عدة قرون، وحرص على إعلاء شأن الخلافة، مما ساعد الخلفاء العباسيين على تدعيم سلطانهم.

الحركات السياسية والدينية في الدولة العباسية

أولا: مناهضة العلويين للخلافة العباسية:

رأينا أن العلويين ناصبوا الأمويين العداء، وأشعلوا ضدهم عدة ثورات، ولم يكفوا بالمطالبة بحقهم في تولي الحكم، ولكن العباسيين تمكنوا من العمل لأنفسهم حتى آلت إليهم الخلافة، وكان الناس لا يبالون كثيرا أن يتولى أمرهم علوي أو عباسي إنما انحصر تفكيرهم في العمل على التخلص من بني أمية، وتولي حكمهم خليفة من آل البيت رسول الله ﷺ. ولما آل الحكم إلى العباسيين، عارضهم العلويون، واعتبروهم مغتصبين للخلافة شأنهم شأن الأمويين، على الرغم من أن البيت العلوي والبيت العباسي، فرعان لشجرة واحدة تتمثل في البيت الهاشمي، ونظم العلويون حركاتهم المعارضة والمناهضة للخلافة العباسية في سرية وكتمان.

وأولى هذه الثورات التي حدثت في مستهل العصر العباسي الأول، ثورة محمد بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب الملقب بذي النفس الزكية لسمو فكره ونقاوته وطهارته وزهده، وثانيها ثورة أخيه إبراهيم. وكان الأخوان يقيمان في المدينة المنورة.

التف العلويون حول محمد ذي النفس الزكية، وشجعوه على الثورة ضد أبي العباس ـ أول الخلفاء العباسيين للقضاء على الدولة العباسية في مهدها، وبثوا الدعاة في كل البلاد الإسلامية، وانضم إلى هذه الثورة بعض قادة الأمويين مثل يزيد بن عمر بن هبيرة ـ أحد قادة مروان بن محمد ـ وأتباعه اليمانية، لذلك خشي

أبو العباس من ازدياد قوة محمد ذي النفس الزكية، فدعا أخاه أبا جعفر لقتال ابن هبيرة حتى يضعف من شأن ذي النفس الزكية، ولجأ أبو جعفر قبل قتال ابن هبيرة إلى الحيلة والخديعة، فدعاه إلى السلم والموادعة، وحقن الدماء، وأرسل إليه أمانا، ولكن أبا العباس لم يأبه بهذا الأمان، وأمر أخاه أبا جعفر بقتله، وبذلك أضعف أبو العباس من شأن ذي النفس الزكية.

ومن الأمور التي شجعت ذا النفس الزكية على الثورة ضد الخلافة العباسية، الاجتماع الذي عقد في مكة في أواخر العهد الأموي، وحضره العلويون والعباسيون، وحضر من شيوخ العباسين، أبو العباس وأبو جعفر، وتذاكر المجتمعون ما آل إليه أمر بني أمية من اضطراب وانقسام، وما يقاسيه بنو هاشم من اضطهاد، ورأوا أن لا صلاح لهذه الأمة إلا إذا ولي أمرها رجل من آل بيت رسول الله ﷺ، وبايعوا جميعا محمدا ذا النفس الزكية.

لكن العباسيين نقضوا هذا العهد، وعملوا على نقل الخلافة إليهم. لذلك رفض ذو النفس الزكية وأخوه إبراهيم مبايعة أبي العباس. على أن أبا العباس لم يعامل بني الحسن بالعنف بل استعان عليهم ببعض أقاربهم من العلويين، وصانعهم وهدأ من نفوسهم.

ولما ولي أبو جعفر المنصور الخلافة سنة ١٣٦ هـ، تتبع أخبار ذي النفس الزكية، الذي بايعه أهل المدينة، وعمد إلى التخفي، ولما قدم المنصور إلى المدينة سنة ١٤٠ هـ، سأل عبدالله بن الحسن عن مكان ابنه محمد، فلم يفده، لذلك قبض عليه وعلى جماعة من أهل بيته.

وفي سنة ١٤٤ هـ علم المنصور أن دعوة محمد ذي النفس الزكية انتشرت في البلاد الإسلامية، وأيده الكثير من الناس، والتف حوله العلويون، وترقب

أنصاره ظهوره، وحاول المنصور معرفة مكان ذي النفس الزكية من بعض العلويين، لكنه لم يستطع إلى ذلك سبيلا.

وفي سنة ١٤٥ هـ عهد المنصور إلى رباح بن عثمان بن حيان المري بولاية المدينة، وأمره بأن يعمل على قمع الثورة العلوية ولكن رباح لم يستطع، ولم يتمكن من معرفة مكان ذي النفس الزكية، فأرسل المنصور إلى أهل المدينة يتوعدهم وينذرهم إن لم يبلغوه عن سر اختفاء ذي النفس الزكية، وأبلغهم بأن عصيانهم سيؤدي بهم إلى التهلكة «وليقطعن البر والبحر عنكم، وليبعثن عليكم رجالا غلاظ الأكباد بعاد الأرحام» ولكن أهل المدينة لم يرهبهم تهديد الخليفة، وواصلوا الثورة ضد بني العباس. عندئذ اشتد إيذاء العباسيين لآل الحسن.

رأى محمد ذو النفس الزكية الخروج من مخبئه، حماية لأهله من الاضطهاد، فظهر في المدينة المنورة في رجب سنة ١٤٥ هـ واجتمع حوله خلق كثير، وأفرج عن المسجونين، وعزل الوالي العباسي، وعين واليا من قبله على المدينة، وخطب في الناس خطابا قال فيه: «إن أحق الناس بالقيام بهذا الدين أبناء المهاجرين الأولين والأنصار المواسين، اللهم إنهم قد أحلوا حرامك، وحرموا حلالك...» وطمأنهم على أن البلاد الإسلامية قد بايعته وقال: «والله ما جئت هذه وفي الأرض مصر يعبد الله فيه، إلا وقد أخذ لي فيه البيعة».

وكان المنصور وقتئذ منشغلا ببناء بغداد، فأمر بوقف البناء، وتوجه إلى الكوفة وأمر بإغلاق أبوابها حتى لا يخرج منها أحد، ولا يفد إليها وافد، وذلك لقرب الكوفة من الحجاز، ولأن أهل الكوفة شيعة علي، ويخشى من انضمامهم إلى محمد ذي النفس الزكية.

رأى المنصور أن يلجأ إلى الحيلة والخديعة لوقف الثورة العلوية، فأرسل أمانا إلى محمد ذي النفس الزكية، وعرض عليه عروضا سخية في مقابل العودة

إلى الطاعة، والكف عن الثورة. ويقول «إن تبت ورجعت من قبل أن أقدر عليك أؤمنك وجميع ولدك وإخوتك وأهل بيتك ومن اتبعكم على دمائكم وأموالكم، وأسوغك ما أصبت من دم أو مال وأعطيك ألف ألف درهم وما سألت من الحوائج، وأنزلك من البلاد حيث شئت، وأن أطلق من في حبسي من أهل بيتك» ولكن محمد ذا النفس الزكية رفض أمان المنصور، ولم يعترف به خليفة، فأرسل إليه يقول: «فإن الحق حقنا.. وإن أبانا عليا كان الوصي وكان الإمام، فكيف ورثتم ولايته وولده أحياء.. فأنا ابن أرفع الناس درجة في الجنة، وأهونهم عذابا في النار» ودعاه إلى طاعته، وندد بأمانه لأنه سبق أن غدر بأمانات أعطاها وقال: «فأي الأمانات تعطيني، أمان ابن هبيرة، أم أمان عمك عبدالله، أم أمان أبي مسلم» فأرسل المنصور إلى ذي النفس الزكية يستنكر ادعاءه الأفضلية بالإمامة لنسبه للسيدة فاطمة بنت الرسول، وقال: إن العباس عم الرسول هو الوارث الشرعي للرسول، لأن الرسول لم يترك ولدا ولم يكن له عم سوى العباس.

ولما لم يستجب محمد ذو النفس الزكية لعروض المنصور، كان لابد من الحرب، فأرسل المنصور إلى المدينة المنورة جيشا بقيادة ولي عهده وابن أخيه عيسى بن موسى، ولم يخش أهل المدينة من قوة الجيش العباسي ولا من بأس بني العباس، ولكن زادهم ذلك حماسا والتفافا حول قائدهم، وحفر محمد ذو النفس الزكية خندقا حول المدينة أسوة برسول الله ﷺ في غزوة الخندق.

عول عيسى بن موسى إنهاء الثورة بالسلم بدلا من الحرب، فدعا أهل المدينة إلى الكف عن الثورة وقال: «إن الله قد حرم دماء بعضنا على بعض، فهلموا إلى الأمان، فمن قام تحت رايتنا فهو آمن، ومن دخل داره فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن ألقى سلاحه فهو آمن، ومن خرج من المدينة

فهو آمن». ولكن أهل المدينة رفضوا هذا العرض وأصروا على صد الجيش العباسي.

ولم يكتف عيسى بن موسى بذلك، بل نادى محمدا ذا النفس الزكية وقال: فلك على نفسك وأهلك وولدك وأصحابك وتعطي من المال كذا وكذا، ويقضى عنك دينك، ولكن محمد رفض هذا العرض أيضا. ودارت الحرب بين الفريقين، أبلى فيها محمد ذو النفس الزكية بلاءا حسنا، لكنه قتل وهزم أصحابه لتفوق الجيش العباسي وقتل عيسى بن موسى أنصار ذي النفس الزكية. وبذلك فشلت هذه الحركة العلوية.

حركة إبراهيم بن عبدالله بن الحسن:

والثورة العلوية الثانية، اتخذت مركزا آخر لها فاستبدلت البصرة بدلا من المدينة المنورة، وهذا ما ذهب إليه زعيمها إبراهيم، فلجأ إلى البصرة أثناء ثورة أخيه ذي النفس الزكية في المدينة المنورة، وقد أصاب في ذلك، لأن البصرة قريبة من الكوفة - معقل العلويين، ومن الموالي الفرس - أنصار الشيعة. ومهما يكن من أمر، فقد بايع أهل البصرة، الإمام العلوي إبراهيم بن الحسن، وقصد دار الإمارة، بعد أن قوي أمره، واشتد بأسه، فطلب أمير البصرة الأمان من إبراهيم، فأمنه، واستولى إبراهيم على بيت المال. وسيطر على البصرة سيطرة كاملة، وانتشرت دعوته في سائر البلاد الإسلامية، ووجه عماله إلى الأهواز وفارس وخراسان وكسكر، ودانت كل هذه البلاد بالولاء والطاعة للإمام العلوي، وزادت دعوته قوة ونفوذه تدعيما بانضمام الزيدية والمعتزلة له.

كان المنصور يقيم في الكوفة أثناء حركة إبراهيم، وأغلق البلدة، حتى لا تنضم إلى الحركة العلوية، وبث عيونه لمراقبة تطور حركة إبراهيم الذي قوي

أمره، وتطلع إلى التخلص من الدولة العباسية وإعلان الدولة العلوية، ولتحقيق سياسته، زحف بجيشه إلى الكوفة وبها الخليفة المنصور ـ وكان موقفه حرجا، لأنه كان في قلة من الجند، لا تمكنه من التصدي للخطر العلوي الزاحف، وقال: والله ما أدري كيف أصنع مافي عسكري إلا ألفا رجل، فرقت جندي مع المهدي بالري ثلاثون ألفا، ومع محمد بن الأشعث بأفريقية أربعون ألفا، والباقون مع عيسى بن موسى، والله لئن سلمت من هذه لا يفارق عسكري ثلاثون ألفا. إذن أدرك المنصور أنه لا محالة هالك، وأنه على شفى حفرة من النار، وأن دولته قاب قوسين أو أدنى من الانهيار. ولكن الأمور تغيرت فجأة، فسرعان ما عاد جيش عيسى بن موسى إلى الكوفة، ويتكون من ١٨ ألف جندي، وأعد العدة للتصدي لجيش إبراهيم، والتقى الجمعان في باخمري ـ بالقرب من الكوفة ـ ودار قتال مرير، أبلى فيه إبراهيم بلاءا حسنا وظل يقاتل حتى قتل في ذي القعدة سنة ١٤٥ هـ، وهزم جنده وعرف بقتيل باخمري، وقتل في هذه الواقعة الكثير من أفراد البيت العلوي، كما قبض على كثير منهم، وحبسهم المنصور في سرداب بالقرب من الكوفة. وبذلك فشلت الثورة العلوية الثانية.

ومما لا شك فيه أن ثورة الأخوين محمد وإبراهيم، يرجع فشلها إلى تعجلهما القيام بالثورة قبل الاستعداد لها، فضلا عن أن محمد ذي النفس الزكية قد تسبب باختفائه في اضطهاد أهل بيته حتى ضاقوا ذرعا به، وانفض بعض أنصاره من حوله، كما أن المدينة المنورة لا تصلح من الناحية العسكرية، كمركز تنطلق منه الثورة، فالحصار يؤدي بسرعة إلى نفاذ كل ما فيها من قوت لاعتمادها كلية على المنتجات الزراعية خارجها. ولم يقم الأخوان بالثورة في وقت واحد، الأمر الذي كان يوزع جهود الخلافة العباسية في جبهتين، وأجل إبراهيم الثورة بعض الوقت بسبب مرض ألم به، ولو قاما في وقت واحد لأمكن النصر، نضيف إلى ذلك أن الدولة العباسية كانت في أوائل أيامها قوية فتية يحظى فيها الخليفة

بتأييد معظم المسلمين. وقوة الإمامة العلوية لم تكن متعادلة مع قوة وهيبة الخلافة العباسية. وسبب آخر يجب أن نضيفه عند مناقشتنا لأسباب فشل الثورتين العلويتين، وهو أن محمد ذي النفس الزكية اعتمد على أهل الحجاز وهذا لا يكفي، فلو انضم إليه شعوب أخرى من الدولة الإسلامية لازداد قوة، ولاستطاع الوقوف والصمود في وجه خصمه واستخدم الأخوان الأسلحة البدائية والتنظيم البدائي للجند وساروا على خطط حربية غير مدروسة، وهذا لم يمكن العلويين من التصدي للجيش العباسي القوي، المعد إعداداً قويا، والمجهز بأحدث الأسلحة في ذلك العصر.

على أن فشل الثورتين السابقتين، لم يحبط عزيمة العلويين، ولم يفرق شملهم، بل زادهم تماسكا وإصرارا على تحقيق مبادئهم والانتقام من قتلاهم، والثورة في وجه العباسيين، وظل آل الحسن يتزعمون هذه الثورات في العصر العباسي الأول، فبث الحسن بن إبراهيم دعاته في سائر البلدان، وأعد العدة للثورة ـ وأنتم تعلمون أنه ابن شهيد باخمري ـ لابد وأن ينتقم لأبيه ولعمه النفس الزكية، ولابد أن يسعى إلى تحقيق مبادىء العلويين في ضرورة تولية آل رسول الله ﷺ الإمامة، والسيادة في الأمة الإسلامية، والقيادة لجماعة المسلمين.

ولكن الخليفة المهدي علم بتحركات الحسن بن إبراهيم، فأمر وزيره يعقوب بن داود بحبسه. ولكن هذا الوزير الذي كان يضمر التشيع، أخرج ابن إبراهيم سرا من سجنه، وأفلح في صرف الخليفة المهدي عن تتبع العلويين.

لما ولي الهادي الخلافة تتبع العلويين، الذين نظموا أمورهم وانضم إليهم الكثير من الأتباع، وأعدوا العدة للثورة، وصاروا إلى قادة النواحي فاستقبلوهم ووعدوهم بالنصر والمعونة واشتد الهادي في تعقبهم، وأخافهم خوفا شديدا،

وقطع ما كان المهدي يجريه لهم من الأرزاق والأعطية، وكتب إلى الآفاق وطلبهم، ولما اشتد خوفهم وكثر من طلبهم، التف الشيعة حول الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي، وعرف عنه العلم والتقوى والكمال وقالوا له: أنت رجل أهل بيتك وقد ترى ما أنت وأهلك وشيعتك فيه من الخوف والمكروه. ودعوه إلى قيادة الثورة، فلبى الدعوة، وبايعه خلق كثير ممن حضر الحج سنة ١٦٩ هـ. وأعلن الحسين الثورة بعد أن كثر أتباعه وأنصاره، ودخل الحرم النبوي بالمدينة المنورة، واجتمع به كثير من الناس، وبايعوه على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ للمرتضى من آل محمد، وانتصر أتباع الحسين على معارضيهم من العباسيين، واستولوا على بيت المال. وبذلك سيطر الحسين بن علي على المدينة المنورة.

رأى الحسين بعد أن انضمت المدينة إليه، ضرورة المسير إلى مكة، وضمها إليه، وعسكر هو وجنده في ذي طوى بالقرب من مكة، وتصدى العباسيون للعلويين، في معركة انتهت بانتصار العباسيين، وقتل الحسين بن علي في مكان يقال له فخ على بعد ستة أميال من مكة في يوم التروية سنة ١٦٦هـ.

وعلى الرغم من هذه المحن التي مر بها العلويون، إلا أنهم لم يكفوا عن مناوأة العباسيين، والمطالبة بخلعهم من الخلافة، حتى لا نكاد نقرأ تاريخ خليفة في العصر العباسي الأول، إلا ونجد فيه ثورة علوية. فلما ولي الخليفة الرشيد، اتخذ الأئمة العلويون سياسة تدعو إلى الثورة في البلاد النائية في العالم الإسلامي، حتى يكونوا بعيدين عن أعين الخلفاء العباسيين ولا يتعرضوا إلى ماتعرض له أسلافهم من بطش وتنكيل، ومن أهم البلاد النائية التي لجأوا إليها بلاد الديلم والمغرب الأقصى، لأن هذه البلاد فضلا عن بعدها عن الخلافة العباسية، فإن أهلها يميلون إلى مناصرة الحركات العلوية.

ظهر في بلاد الديلم يحيى بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، واشتدت شوكته وقوي أمره، وقدم إليه الناس من الأمصار والكور، فعهد الرشيد إلى الفضل بن يحيى البرمكي قمع هذه الثورة، وزوده بجيش كبير، به صناديد القواد. على أن الفضل بن يحيى رأى أن يخضع هذه الثورة سلميا، لأنه من الفرس الذين لا يميلون إلى إراقة دماء العلويين، بل يتطلعون إليهم. على كل حال استمال الفضل البرمكي، يحيى العلوي، وناشده وحذره وأشار عليه وبسط أمله، فاستجاب يحيى إلى الصلح والسلم على أن يكتب له الرشيد أمانا بخطه على نسخة يبعث بها إليه، فكتب الرشيد أمانا أشهد عليه القضاة والفقهاء وجلة بني هاشم ومشايخهم، وأرسل إليه الجوائز والهبات. عندئذ قدم يحيى بن عبدالله إلى الفضل، فصحبه إلى بغداد، ولقيه الرشيد بكل ما أحب، وأمر له بمال كثير، وأجرى له أرزاقا سنية وأنزله منزلا يليق به. ولكن لم يلبث الرشيد أن أساء الظن به، وتوهم أن يحيى يتصل بأنصاره لإعلان ثورة جديدة، وكانت الثورات العلوية تثير ذعر الخلفاء العباسيين، لذلك لم ير الرشيد غضاضة في نقض الأمان، وتخلص من يحيى.

ولكن العلويين لم يستمروا في الاتحاد والتضامن في وجه عدوهم فسرعان ما دب الخلاف بينهم في عهد الرشيد، حتى أن بعضهم وشى إلى الرشيد بموسى الكاظم بن جعفر الصادق، الذي عرف عنه الورع والتقوى، وقالوا: إن كثيرا من الناس بايع موسى بالإمامة، وأنه يستعد للثورة. فأمر الرشيد بالقبض عليه وسيق إلى بغداد، وأنزله منزلا بها، ثم عهد سرا إلى أحد رجاله بقتله سنة ١٧٩ هـ، وأحضر القواد والكتاب والقضاة والهاشميين، ومن ببغداد من الطالبيين، وأشهدهم أن موسى مات حتف أنفه. ومما يجدر ذكره أن موسى كان ورعا تقيا، ومن أقواله: ما أهان الدنيا قوم قط إلا هنأهم الله إياها، وما أعزها

قوم قط إلا بغضهم الله إياها. وقال عن الجبابرة: لئن عز بالظلم في الدنيا ليذلن بالعدل في الآخرة.

رأى العلويون أن الخلاف الذي وقع بين الأمين والمأمون فرصة سانحة لإظهار نشاطهم، فبثوا دعاتهم وخرج على المأمون محمد بن إبراهيم العلوي المعروف بابن طباطبا بالكوفة سنة ١٩٦ هـ، ودعا إلى الرضا من آل محمد والعمل بالكتاب والسنة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعاونه في نشر دعوته قائد جنده أبو السرايا السري ابن منصور الشيباني، الذي استولى على الكوفة من يد واليها العباسي..

ولما توفي محمد بن إبراهيم، ولى أبو السرايا السري بدله غلاما من العلويين يدعى محمد بن محمد بن زيد، ومن ثم انفرد بالسلطة، وضرب دراهم بالكوفة، ونقش عليها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ كما أرسل ولاة من العلويين إلى مكة والمدينة واليمن وغيرها من البلاد الإسلامية.

وكان الوالي العباسي على مكة والمدينة داود بن عيسى بن موسى، حينما وجه أبو السرايا إلى مكة، حسين بن حسن الأفطس العلوي، وإلى المدينة، محمد بن سليمان بن داود بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، فدخلها دون قتال. أما حسين بن الحسن الأفطس، فقد دخل مكة في يوم عرفة.

شجعت الانتفاضة العلوية إبراهيم بن موسى وجماعة من أهل بيته بمكة على مد الثورة إلى اليمن، فخرج على رأس فريق من العلويين إلى اليمن، حيث عهد إليه ابن طباطبا بولاية اليمن من قبله، وضمها إلى الثورة العلوية في الكوفة والحجاز والأمصار الإسلامية. ولما علم والي اليمن من قبل المأمون إسحاق بن موسى بن عيسى بن عباس، أسقط في يده وكره قتاله، فخرج منصرفا من اليمن

بجنوده. وبذلك أتيحت الفرصة لإبراهيم بن موسى بالسيطرة على اليمن دون عناء، وقاتل كل من اعترضه، وأسرف في القتل حتى لقب بالجزار.

لم يكتف إبراهيم بن موسى بالسيطرة على اليمن، بل تطلع إلى بسط نفوذه على بلاد الحجاز، فأرسل في موسم الحج سنة ١٩٩ هـ جيشا كبيرا إلى مكة المكرمة، ولكن المكيين لم يمكنوهم من دخولها، وردوهم على أعقابهم خاسرين. ذلك أن الدولة العباسية، أعدت العدة لإحباط هذه الثورة العلوية، فسيرت جيشا في العام التالي سنة ٢٠٠ ـ لاستعادة بلاد الحجاز من العلويين، لأن الدولة العباسية لا يمكن أن تقبل انتزاع بلاد الحجاز منها، لأنها تستمد دعامتها وقوتها كحامية لحمى المسلمين من خلال الإبقاء على الحرمين الشريفين في حوزتها، وفعلا هزم العباسيون إبراهيم بن موسى وجنوده.

وكان الخليفة المأمون وقتذاك بمرو ـ عاصمة خراسان ـ فأرسل الحسن بن سهل ـ واليه على العراق ـ إلى القائد هرثمة بن أعين يستدعيه لإخماد فتنة أبي السرايا السري، فحاصره بالكوفة حتى اضطر إلى الخروج منها، ومن معه من الطالبيين في سنة ٢٠٠ هـ وأخذ يتنقل من بلد إلى آخر، وقبض عليه في جلولاء، وسيق إلى الحسن بن سهل في النهروان، فأمر بقتله، وبذلك فشلت هذه الثورة العلوية.

وعلى الرغم من العداء الشديد بين البيتين العلوي والعباسي وتعدد ثورات العلويين في كل عهود خلفاء العصر العباسي الأول تقريبا، إلا أن الخليفة المأمون رأى بثاقب نظره، وبتفكيره الفلسفي أن ينهي العداء بين البيتين، ويوحد بينهما، إذ هما أولاد عمومة، وينتسبان إلى البيت الهاشمي، فرأى أن يفسح المجال في تولي الخلافة إلى من هو أكفأ من العلويين أو العباسيين، بدلا من أن تقتصر الخلافة على بني العباس، الأمر الذي يثير ثائرة العلويين لأنهم أصحاب حق في

الخلافة. وتطبيقا لنظريته هذه فقد عهد إلى علي بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق، لأنه أكفأ رجال البيتين في الخلافة، وخلع لباس السواد، ولبس اللون الأخضر واستدعاه من المدينة إلى خراسان وزوجه ابنته. لكن أهل بغداد عامة والعباسيين بصورة خاصة عارضوا سياسة المأمون، لأنه ينقل بذلك الخلافة إلى العلويين، وأعلنوا خلع المأمون، وبايعوا عمه إبراهيم بن المهدي، وكان شاعرا أديبا.

وهنا يجب أن نناقش أسباب اتخاذ المأمون هذه الخطوة الجريئة - هناك من يقول أنه كان يريد تحويل الخلافة إلى العلويين، واتخذ اللون الأخضر، وخلع اللون الأسود شعار آبائه وأجداده ولجأ إلى هذه الخطوة وهو يجري تحت تأثير وزيره الفارسي الفضل بن سهل الذي عزله عن ممارسة حقه في الحكم، واستبد بأمور الدولة دونه. والمعروف أن الفرس يميلون إلى التشيع. ورأي آخر يقول - وهو الأرجح - أنه اتخذ هذه الخطوة حقنا للدماء التي أريقت في صراع البيتين حول الحكم، وربما نصحه وزيره بذلك.

ومهما يكن من أمر فقد خشي المأمون من ثورة أهل بغداد وتخلص من وزيره الفضل بن سهل، ومن ولي عهده علي الرضا وقصد بغداد سنة ٢٠٠ هـ، فهرب منها إبراهيم بن المهدي، والفضل بن الربيع، ودخل المأمون بغداد، واسترد نفوذه عليها. وبذلك لم يحقق المأمون نظريته في إنهاء النزاع بين البيتين العلوي والعباسي، وإتاحة الفرصة لتولي الخلافة لأحد أفراد البيتين.

كان المأمون يعطف على العلويين، وأوصى أخاه المعتصم - ولي عهده - بهم خيرا، لكن المعتصم فوجيء بعد توليه الخلافة بثورة علوية ضده، قادها محمد بن القاسم العلوي في الطالقان، والتف حوله الكثير من الناس، فوجه إليه عبدالله بن طاهر بعض عماله للتخلص منه، لكنه لجأ إلى نيسابور، فاعتقله جند

بني العباس، وسيق إلى المعتصم، فأمر بحبسه، لكنه هرب من سجنه ليلة عيد الفطر سنة ٢١٩ هـ، ولم تتمكن جند الخلافة من تتبعه وقد اختلف الناس في نهاية حياته، فمن قائل أنه قتل بالسم، ومن قائل أن أتباعه وأنصاره أخرجوه من مكانه، وذهبوا به إلى موضع مجهول، ولم يعرف له خبر. كان أنصار محمد بن القاسم العلوي من الزيدية، ويزعم فريق منهم في نواحي الكوفة وبلاد فارس أنه حي لم يمت وأنه سيعود إلى الدنيا ليملأها عدلا بعد أن ملئت ظلما وجورا. وظل هذا الاعتقاد سائدا حتى بداية القرن الرابع الهجري.

من هذا يتضح أن القرنين الأول والثاني الهجريين شهدا ثورات متعددة، أشعلها العلويون ضد الأمويين والعباسيين مطالبين بتحقيق هدفهم الرامي إلى تولي الخلافة، وواجهوا في ذلك -كما رأيتم- الكثير من المحن والشدائد. وشغلت هذه الصراعات المسلمين سنين عددا عن تحسين أحوالهم وإصلاح أمورهم. ولكن الأمر الذي يثير الإعجاب أن العلويين لم يضعفوا ولم يهنوا ولم يستكينوا، على الرغم من التضحيات الكثيرة التي بذلوها. حتى أن الأصفهاني صنف كتابا أسماه «مقاتل الطالبيين» تحدث فيه عن العلويين الذين أهدرت دماؤهم في الثورات والصراعات المريرة مع الجهاز الحاكم. وظل العلويون يعملون سرا وعلانية في إقامة دولة يحكمها آل بيت رسول الله ﷺ، حتى حققوا بعض أهدافهم، وأقاموا دولة الأدارسة في المغرب الأقصى. ثم واصلوا نضالهم ضد العباسيين، منتهزين ضعف الخلافة العباسية، بسبب ازدياد نفوذ الأتراك -وأقاموا الدولة الفاطمية في أفريقية، التي امتدت إلى مصر والشام والجزيرة العربية فضلا عن بلاد المغرب وجزيرة صقلية.

ثانيا ـ محاولات الفرس استعادة نفوذهم وإظهار نحلهم القديمة

استعاد الفرس نفوذهم في العصر العباسي الأول، بعد أن أقاموا بجهودهم دولة بني العباس، ووجدوا الفرصة سانحة لإعادة مجد الفرس القديم، وإظهار نحلهم القديمة في ثوب إسلامي، ونشأت طائفة المسلمية التي تدعو إلى الأخذ بثأر أبي مسلم. وفي سنة ١٣٧ هـ خرج سنباذ بخراسان، يطالب بدم أبي مسلم ـ وكان مجوسيا من إحدى قرى نيسابور، وامتدت سيطرته على بعض بلدان خراسان، ولما دخل الري استولى على خزائن أبي مسلم، وأرسل الخليفة المنصور جيوشه لقهر هذه الطائفة، والتقى الفريقان بين همدان والري وهزم سنباذ، وقتل هو وكثير من أتباعه، وبذلك تم التخلص من خطر هذه الطائفة.

ولم يكد المنصور يفرغ من اخضاع هذه الطائفة حتى فوجىء بظهور طائفة الراوندية، وقد سموا بذلك نسبة إلى قرية راوند القريبة من أصبهان ـ وكانت مهد دعوتهم ـ والراوندية قوم من الغلاة، غالوا في بني العباس، كما غالى بعض الشيعة في العلويين، وهم قوم من خراسان، يقولون بتناسخ الأرواح ويزعمون أن أحق الناس بالإمامة بعد الرسول، عمه العباس بن عبدالمطلب، لأن أولى الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله، وأجازوا بيعة علي بن أبي طالب، وعارضوا بيعة أبي بكر وعمر، وقالوا: إنهما اغتصبا الإمامة من العباس بن عبدالمطلب وزعموا أن روح آدم انتقلت إلى أحد من خيارهم وأن ربهم الذي يطعمهم ويسقيهم هو المنصور.

أحاط الراوندية بقصر المنصور بالهاشمية، وطافوا بالقصر، قائلين: هذا قصر ربنا، يا ناصر يا منصور، أنت أنت. ومما لا شك فيه أنهم أخفوا غرضهم الحقيقي، وهو الأخذ بثأر أبي مسلم، وادعوا عبادة المنصور، وأرسل المنصور إلى رؤسائهم ينذرهم بسوء العاقبة، إذا ظلوا على التمرد والعصيان، وأمر بالقاء

القبض على مائتين منهم، هنا ثارت الراوندية، وحطموا السجن، وأخرجوا أصحابهم، ولم يكتفوا بذلك بل قصدوا قصر المنصور للتخلص منه، وكان عددهم ستمائة رجل وطافوا بالقصر، وهم يقولون: هذا قصر ربنا، لاستفزازه وخداعه. لكن المنصور فطن إلى غرضهم الحقيقي، وهو الانتقام لمقتل أبي مسلم - كما قلت - فعول على محاربتهم والتخلص منهم ولم يكن لديه من الجند، ما يكفي لقمع هذه الحركة التي تشكل خطراً على ملكه وعلى الإسلام وعليه، ودار قتال مرير بين المنصور والراوندية وتكاثروا عليه، وكادوا يقتلونه، لأنه كان في فئة قليلة من الجند - ولكن ظهر في ميدان القتال فجأة بطل إسلامي كبير، انضم إلى المنصور في صراعه ضد الراوندية. ذلك أن معن بن زائدة الشيباني - وهو أحد قادة بني أمية المعرضين لبطش المنصور - لما علم بموقف الراوندية المعادي للإسلام وللخليفة، حارب إلى جانب عدوه ملثماً حتى لا يعرفه المنصور، وظل يقاتل الراوندية حتى شتت شملهم، وفرق جمعهم. وبذلك فشلت هذه الطائفة في تحقيق أهدافها. وعفا المنصور عن معن بن زائدة الشيباني، وكافأه بأن عهد إليه بولاية اليمن، وقمع حركة الخوارج فيها وإعادة الهدوء والسكينة إلى ربوع اليمن.

وفي سنة ١٥٠هـ خرج رجل في خراسان يسمى أستاد سيس وادعى النبوة، وجذب الناس إليه بمذهبه الذي ينطوي على الإباحية والفوضى، واتخذ من المزدكية عقيدة، فوجه المنصور جيشاً، اشتبك مع هذا الثائر في عدة وقائع، هزم فيها، ووضع المسلمون فيهم السيوف حتى شتتوا شملهم، وقتل أستاذ سيس.

ولكن هذه الحركات التي ذكرناها لم تنته تماما، فانضم بقاياها إلى حركات أخرى، وعلى الرغم من انتشار الإسلام بين الفرس، إلا أنهم انضموا إلى كل حركة مزدكية تبيح الأموال والنساء وتقول بتناسخ الأرواح، وربما رأت الجماهير

الفارسية في هذه العقائد فرصة للتخلص من أوضاعهم الاقتصادية الحرجة أو متنفسا من حياتهم الاجتماعية المقيدة.

ظهر المقنع الخراساني أو هاشم بن حكيم في إقليم خراسان، وكان يعمل من قبل في خدمة أبي مسلم الخراساني كقائد من قواده وقد عرف بذكائه الخارق، وذاع عنه اطلاعه على معارف السحر، ولما قتل أبو مسلم حدثته نفسه بادعاء النبوة، ودعا إلى نفسه فعلاً، فقبض عليه، وسيق إلى بغداد، وأمضى في سجنه بعض الوقت، ولما عاد إلى خراسان، دعا لنفسه ثانية، واستجاب له أنصار كثيرون حوالي سنة ١٥٠هـ، واتخذ وجها من الذهب، وجعله على وجهه حتى يخفي قبح منظره، ولذا سمى بالمقنع.

ولما ظهر المقنع بين أتباعه لأول مرة سنة ١٥٠هـ سألهم عن نفسه، فأجابوه بأنه هو هشام بن حكيم، فرماهم بالجهل، وزعم أنه رب العالمين، وأظهر لهم عقيدة تناسخ الأرواح، وزعم أنه يظهر في صور الأنبياء، وقال: الله خلق آدم فتحول في صورته ثم في صورة نوح، ثم إلى صورة إبراهيم، ثم إلى صور الأنبياء واحداً بعد واحد، وأخيراً في صورة محمد، ثم في صورة علي بن أبي طالب، ثم انتقل منه إليه، وزعم لأتباعه أنه يتنقل في صور الأنبياء، لأن الناس لا يطيقون رؤيته في صورته التي هو عليها، ومن رآه احترق بنوره. وأسقط الصلاة والصوم والزكاة والحج. ومازال المقنع يجذب إليه العامة بتعاليمه هذه حتى كثر أتباعه وعبدوه.

بقى المقنع بادىء أمره في نواحي مرو، وبعث رسله من هناك إلى تركستان، يدعون الناس إلى الدخول في ملته، وكان يكتب إليهم قائلاً: من هاشم بن حكيم ملك الملوك أنا المقنع رب القدرة والعظمة والحق، فبادروا إلى وآمنوا بي... فمن تبعني دخل الجنة ومن عصاني دخل النار..

عظم أمر المقنع بخراسان، وقوى بأسه، وكثر أتباعه، وانضم إليه أهل خراسان وبخاري وسمرقند وبلاد الترك، واعتصموا بقلعة حصينة تسمى بكش. وأقام هذا الإله المزعوم في هذا الحصن الحصين حوالي أربعة عشر عاماً، يرسل أنصاره إلى قرى خراسان وبلاد ما وراء النهر لإلقاء الذعر والرعب بين أهل القرى، ولم يستطع والي خراسان قمع هذه الفتنة، لأن أتباعه حاربوا ببسالة إلى جانب زعيمهم الروحي.

ومن عوامل ازدياد أنصار المقنع، أن المسلمين في تلك الجهات، كانوا حديثي العهد بالإسلام، لم يتمكن منهم الدين الجديد ورأوا في مبادىء مزدك - التي نادى بها المقنع - فرصة للسلب والنهب، والخلاص من متاعبهم الاقتصادية.

على كل حال لم يتغاض الخليفة المهدي عن هذه الحركة المضادة لدولة الخلافة والإسلام، فأمر والي خراسان بالتخلص من المقنع، فارسل جبريل بن يحيى إلى بخاري، وبعد قتال مرير، سقط فيه الكثير من جند الخلافة صرعي، فتح المسلمون حصن نرشخ ووعد المسلمون الثوار بالعفو والصفح، إن عادوا إلى الإسلام الصحيح، وسلموا أسلحتهم وزعماءهم إلى الخليفة، ولكن الثوار قاوموا جيش الخلافة باصرار وعناد، وأخذت قوة المقنع في الازدياد من بعد، وتعرض الإسلام بدوره إلى محنة شديدة تبعا لذلك.

أثارت هزيمة المسلمين، وعدم استطاعتهم قهر المقنع ثائرة الخليفة المهدي، فسار بنفسه إلى نيسابور، وعين والياً آخر على خراسان، وجهزه بجيش كبير لقهر المقنع، وكان من أثر الاضطرابات والفوضى التي أشاعتها الحرب في خراسان وبلاد ما وراء النهر، أن ساد الذعر بين أهالي هذه البلاد، وانضم كثير من الإيرانيين إلى الجيش العباسي.

استولى والي خراسان على سمرقند بعد لأي وعناء، ولما قوى أمره، انطلق إلى الحصن الذي اعتصم فيه المقنع. وكان هناك من جند المقنع ألوف كثيرة يرابطون أمام باب الحصن، ويترقبون رؤية المقنع، وقد خلع قناعه. ولكن المقنع رفض ذلك، وأرسل إليهم يقول: نبىء عبادى أن موسى أراد بدوره أن يراني جهرة أنا الله فغشى بصره من شدة أنواري، فلم يراني، فمن يراني يحترق نوري. واستطاع أن يلهب حماسهم، باتخاذ عدد من المرايات تعكس ضوء الشمس، زاعماً أن هذا الضوء القوي هو نوره، فخروا له سجداً، ودافعوا ببسالة عن معبودهم.

لقى المسلمون الكثير من الشدائد في حصار حصن المقنع، حتى أن هذا الحصار استمر أكثر من أربع سنين، وأقام المسلمون بيوتاً لهم حول الحصن. وضاق أتباع المقنع ذرعاً بالحصار، واشتد الجوع وعظم البلاء، حتى استسلم الكثير من اتباعه. ولما انفض أتباع المقنع من حوله، ورأى أنه لا محالة هالك، قتل نساءه، وانتحر، واقتحم المسلمون الحصن واستولى العباسيون على الأموال التي في الحصن، وبذلك تخلصت حدود الإسلام الشرقية من محنة شديدة، ومن مذهب مضاد للإسلام يدعو إلى عدم تأدية الفروض وشيوعية النساء، والتقرب إلى الله بقتل المسلم.

على أن موت المقنع لم يقض تماماً على مبادئه، فاعتنق بعض أهالي بلاد ما وراء النهر معتقداته، وزعموا أن المقنع لم يمت وسميت هذه الطائفة بالمقنعية المبيضة، وقالوا أن المقنع اله، وأنه مصور في كل زمان بصورة مخصوصة، واتخذوا لأنفسهم، مساجد إذا دخلها مسلم قتلوه.

وكان هناك إلى جانب هذه النحل التي بذل الخلفاء العباسيون جهودهم للقضاء عليها، حركة الزندقة. ولكي نلم بهذه الحركة يجب أن تعرض نبذة سريعة عن معتقدات الفرس القديمة.

من أقدم وأبرز الديانات الفارسية قبل الإسلام، الديانة الزرادشتية نسبة إلى زرادشت، وكان له كتاب مقدس يسمى أفستا. ومن تعاليمه أنه يقول للعالم الهين، أحدهما للنور والآخر للظلمة، والإنسان موضع نزاع بين الالهين لأنه مخلوق مخير، وتجاذبه القوتان. وديانة زرادشت ديانة عملية، تدعو إلى أن ينصرف الإنسان إلى العمل المنتج من زراعة وتجارة وصناعة، وترفض القعود عن العمل والزهد.

ومن الديانة الفارسية القديمة، المانوية، ولها أنصار كثيرون في آسيا وأوروبا، وتعاليمها مزيج من الديانتين النصرانية والزرادشتية، ويقول ماني بالنور والظلمة، ويمتاز مذهب ماني عن زرادشت بالرهبنة، ويدعو إلى تعجل فناء العالم والزهد، لذلك يدعو إلى عدم الزواج والنسل، والتقاعس عن العمل المنتج. والصوم سبعة أيام في كل شهر، وفرض صلوات كثيرة.

والديانة الثالثة المشهورة، هي المزدكية، وتدعو إلى الإباحية والفوضى، ونبذ الملكية الخاصة، ورفض الزواج وقد نشأت الزندقة في فارس في العصر العباسي الأول، وهي كلمة تطلق على أصحاب ماني معتنقي مذهبه، ولا تطلق على كل كافر أو ملحد. ويقول بعضهم: إن كلمة زنديق في الأصل معناها بالفارسية، الذي يتبع زند، ثم أطلق على المانوية لأنهم كانوا يقدسون زند وغيره من الكتب المقدسة. وعلى ذلك تكون الكلمة وضعت لطائفة خاصة من المانوية، ثم استعملت في المانوية جميعاً، ثم الإلحاد بصفة عامة.

انتشرت الزندقة في العصر العباسي الأول، حتى أن البعض اعتبر كلمة زنديق تطلق على كل من لا يلتزم بتعاليم الإسلام وأسرف بعض شعراء ذلك العصر في دعوة الناس إلى الفجور وحملهم على الاستهتار، وأخذوا يجهرون بأقوال فيها سخرية من بعض تعاليم الإسلام، كبشار بن برد وأبي نواس، واتهم آدم حفيد عمر بن عبدالعزيز بالزندقة لخلاعته ومجونه وادمانه الشراب.

أظهر بعض الفرس هذه المعتقدات، لأنهم دخلوا الإسلام ظاهراً وظلوا يضمرون عقائدهم القديمة، وحاولوا اعلانها كلما أتيحت لهم الفرصة وبذلك انتشرت الزندقة حتى غزت بيوت الوزراء ورجال الدولة.

شكلت حركة الزندقة خطراً على الإسلام لابد أن يواجهها الخلفاء العباسيون بكل قوة، وتصدى لهذا العمل الكبير الخليفة المهدي، فأسس ديواناً للزندقة، مهمته تتبع الزنادقة، واستئصال شأفتهم، وأطلق على رئيس الديوان، صاحب الزنادقة، ومهمته القضاء عليهم وعلى تعاليمهم، وكان المهدي يأمر بقتل كل من تحوم حوله الشبهات باعتناقه الزندقة، وألف هيئة علمية لمناظرتهم، وأمر بتصنيف الكتب للرد عليهم، وأوصى خليفته وابنه الهادي بتعقبهم والتخلص منهم، لذلك اشتد الهادي على الزنادقة وقتل الكثير منهم. وكان الرشيد يمتحن كل من تحوم حوله الشبهات بالزندقة، ويعاقب من تثبت عليه.

وعلى الرغم مما بذله الخلفاء العباسيون من جهود في مقاومة الزندقة إلا أنها تسربت إلى القادة والوزراء، بل والي بلاط المعتصم.

وأدى انتشار الزندقة إلى تنشيط الحركة الأدبية والعلمية فبينما ألقى الشعراء قصائد فيها زندقة، رد عليهم ردوداً تدحض وتسفه آراءهم، ونشأ علم الكلام للرد على أباطيل الزنادقة، وكان واصل بن عطاء أول من تصدى للرد عليهم، ولابن الهذيل مناظرات طويلة مع الزنادقة. وفي النهاية فشل الزنادقة في تحقيق أهدافهم الرامية إلى تشكيك الناس في معتقداتهم، ونشر الإباحية، وذلك بفضل مقاومة الخلفاء العباسيين العنيفة لهم.

ومن الثابت أن معظم ثورات الموالي الفرس في العصر العباسي الأول رفعت شعار وتعاليم مزدك، حتى يقبل الفقراء وجموع الناس على تأييد الثورة، لأن الدولة لم تعمل على حل مشاكل الجوع بالنسبة للجماهير العريضة، ولم يهتم

مبدأ الزكاة، فأستأثرت قلة من الناس من عرب وفرس بالثروات الكبيرة على حين بقيت الغالبية العظمى لا أمل لها في الحصول على الأموال، وإعادة توزيع الثروة، والحياة في مستوى أفضل.

ومن الملل الفارسية التي ظهرت في بلاد فارس، وبذل العباسيون جهودا مضنية في اخضاعها، فرقة البابية الخرمية، وقد تأثروا بالمزدكية، وحللوا الحرمات، واستباحوا الأموال. والنساء، وقالوا بتناسخ الأرواح. وهذه الطائفة نشأت قبل الإسلام وقتلهم أنوشروان، ثم عادوا إلى الظهور في العصر العباسي الأول، وهم فريقان: بابكية ومزيارية. وكلتاهما معروفة بالمحمرة.

والبابية أشياع بابك الخرمي الذي ظهر في بلدة من أعمال أذربيجان يقال لها بذ. وكثر بها أتباعه، واستباحوا المحرمات، وقتلوا الكثير من المسلمين، مما يؤكد ثورتهم ضد الإسلام، ورغبتهم في العودة إلى معتقدات الفرس القديمة أو بعبارة أخرى، الردة عن الإسلام.

وينسب البابكية أصل دينهم إلى أمير كان لهم قبل الإسلام اسمه شروين، ويزعمون أن أباه كان من الزنج وأمه من بنات ملوك الفرس، ويضفون على شروين صفات يفضلونه بها على سائر الأنبياء.

وادعى بابك الأولهية، وكثر أنصاره، واشتد خطره حتى نكل به المعتصم، وكان بابك يقوم بخدمة جاويدان ـ أحد رؤساء الخرمية ـ وكان بابك هذا فقيراً، وأبوه من أهل المدائن يعمل دهاناً، ورحل إلى أذربيجان، ولما توفى جاويدان أقامت امرأته بابك مكانه، وزعمت أن روح جاويدان حلت في جسد بابك، وتزوجت منه.

ازداد نفوذ بابك، وأطاعه الجاويدانية سنة ٢٠٣هـ عصر الخليفة المأمون، واشتد خطر بابك في شمال بلاد الفرس بين أذربيجان وآران، وشن الغارات على

القرى المجاورة، وسبي النساء، وسلب الأموال، وألحق بالبلاد الخراب والدمار، واشتد الكرب وعظم البلاء، وبلغ من ازدياد سطوته، وقوة بأسه، أن جيوش الخليفة المأمون التي أرسلها تباعاً لقهره، قد ألحق بها الهزيمة.

اتخذت حركة بابك شكل عداء للدولة الإسلامية، وللمسلمين، وثورة على الأغنياء. واتخذ بابك سياسة خطيرة لتحقيق هدفه، فاتصل بأعداء الدولة الإسلامية، واستعان بهم في القضاء على دولة الإسلام، فعقد تحالفاً مع الإمبراطور البيزنطي ثيوفيلوس بن ميخائيل لغزو الدولة الإسلامية، وشن الحليفان فعلاً الغارات على أطراف الدولة العباسية.

استمرت غزوات بابك للدولة العباسية في أيام الخليفة المعتصم، ووسع قاعدة تحالفه بينها اضاف إليه حليفاً ثانياً هو ملك أرمينية، وهاجم الحلفاء الثلاثة الأطراف الإسلامية بشدة وضراوة، وعاثوا فيها فساداً ونهباً، فأرسل الخليفة العباسي جيشاً بقيادة الأفشين، واشتبك مع بابك في عدة معارك، انتهت بانتصار الافشين على العدو، واستيلائه على معقلة - بذ - ولاذ بابك بالفرار إلى بعض قرى أرمينية، فاقتفى الأفشين أثره حتى قبض عليه، وسيق هو وأخوه إلى سامرا، وأمر المعتصم بقتله هو وأخيه. وبلغ من تقدير المعتصم لجهود الأفشين في قتال بابك، أن توجه والبسه وشاحين مرصعين بالجواهر كما منحه وجنده عشرين مليون درهم. على أن يحتفظ لنفسه بنصف هذا المبلغ.

وبذلك تخلص المعتصم من أخطر الحركات التي واجهتها الدولة العباسية، والتي هددت وجودها وكيانها، واستعانت بالأعداء عليها، والتي اتخذت مبدأ خطيراً وهو تحويل الملك من العرب المسلمين إلى الفرس المجوس. ويقول المخرمية بمبادىء تتنافى مع الإسلام، وتتمشى مع مبدأ تناسخ الأرواح، ويقولون بأن الوحي لا ينقطع أبداً، ويعظمون أمر أبي مسلم، ويلعنون أبا جعفر الذي

قتله، ويكثرون من الصلاة على فيروز لأنه من ولد فاطمة بنت أبي مسلم، ولهم أئمة يعملون بآرائهم في الأحكام، ويقولون بالنور والظلمة.

وثمة حركة فارسية أخرى ضد الدولة العباسية، وهي حركة اشترك فيها الأفشين الذي قضى على بابك ـ كما قلنا ـ والمازيار ـ وكان رئيساً لفرقة من أتباع بابك تسمى ـ المحمرة ـ وقد أظهر المازيار في بداية أمره الولاء للمأمون، فولاه جبال شروين في أطراف طبرستان، وسماه محمداً. لكن المازيار لم يستمر على ولائه للدولة العباسية، فلم يلبث أن انضم إلى حركة بابك الخرمي، تمشياً مع سياسة هذه الفرقة الرامية إلى التخلص من الحكم العربي، ولما قتل بابك، انضم إلى الأفشين ـ الذي عاودته النزعة الشعوبية التي تعمل على الحط من شأن العرب وازالة دينهم ودولتهم وكان الأفشين من قبل ثورته موالياً للمعتصم الذي أسند إليه قيادة بعض الجيوش التي سيرها لغزو الدولة البيزنطية، كما عهد إليه بقتال بابك.

ومهما يكن من أمر فقد سعى الرجلان إلى التخلص من الحكم العباسي، وإعادة الإمبراطورية الفارسية، وقد عثر في بيته على عدد من الأصنام نسب إليه أنه يعبدها، وكتاب للزنادقة ونسبت إليه أحاديث تظهر معاداته للعرب وللإسلام، وتدل على أنه دخل الإسلام ظاهراً، واتهم الأفشين بأنه يأكل المخنوقة ويزعم أنها أرطب لحماً من المذبوحة، واتهم بأنه ضرب رجلين ضرباً مبرحاً لأنهما حولا بيتا إلى مسجد بعد أن أخرجا منه الأصنام، وعمل أحدهما في المسجد إماما والآخر مؤذناً.

كذلك اتهم الأفشين بالردة إلى المجوسية، والعمل على مناصرتها والشد من أزرها، وضبط كتاب أرسله إلى قوهيار يدعوه إلى قتال العرب جاء فيه «فإن وجهت إليك لم يبق أحد يحاربنا إلا ثلاثة: العرب والمغاربة والأتراك. والعربي

بمنزلة الكلب أخرج له كسره، وأضرب رأسه بالدبوس وهؤلاء الذئاب يعني المغاربة، إنما هم أكلة رأس وأولاد الشياطين (يعني الأتراك) فإنما هي ساعة حتى تنفذ سهامهم، ثم تجول الخيل عليهم جولة، فتأتي على آخرهم ويعود الدين إلى ما لم يزل عليه أيام العجم».

«وهذا يدل على تعصب الأفشين لدينه ووطنه، ويدل أيضاً على أن إسلام بعض الفرس كان إسلاماً ظاهرياً حتى ينفذوا من خلاله إلى قلب الدولة الإسلامية، ويستفيدوا منها، لكن في حقيقة أمرهم ظلوا متمسكين بالمجوسية القديمة، وانتهزوا الفرص للعودة إلى معتقداتهم القديمة.

ومهما يكن من أمر فقد نما إلى علم المعتصم هذه الثورة، وأمر بالقبض على الأفشين والمازيار، وعقد المعتصم مجلساً لمحاكمة الرجلين حضره وزيره وقاضي قضاته وكبار رجال الدولة، وأعطى للرجلين حق الدفاع عن التهم التي وجهت إليهما والتي أشرنا إليها من قبل. وبعد المحاكمة، أودع الأفشين السجن، ثم نكل به، وأحرقت أصنامه سنة ٢٢٦هـ. أما المازيار فإنه ضرب بالسوط حتى مات بعد أن شهر به وصلب.

وظهر فريق آخر من الفرس يسعى إلى الحط من شأن العرب وتفضيل الأمم الأخرى عليهم، وهذا الفريق أطلق عليه الشعوبيون، وحركتهم حركة شعوبية، وهؤلاء الشعوبيون ركزوا نشاطهم في الحط من شأن العرب، وقالوا أن الأمم ذات الحضارات العريقة هم الرومان والهنود والفرس، وهؤلاء جميعاً أفضل من العرب، وأنه ليس عندهم ما يفخرون به فأين ملكهم من ملك الفراعنة والعمالقة والأكاسرة والقياصرة. والعرب في زعمهم أضعف الأمم شأناً وأجدبهم عقلاً وليس من حقهم أن يفخروا بأنهم جاؤوا بالإسلام، لأن الإسلام دين البشرية عامة. والشعوبيون أمم مختلفة فرس وأندلسيون ونبط وقبط. وقد صنف

بعض الشعوبيين في مناقب العجم كتباً مختلفة مثل كتاب «انتصاف العجم من العرب» وكتاب «فضل العجم على العرب وافتخارها» وبعضهم وضع الكتب في مثالب العرب. وفضائل الفرس.

كما عمد الشعوبيون إلى ادخال آرائهم الشعوبية واقحامها في الأدب والقصص، وزينوا تاريخ الفرس بثياب سندسية زاهية، وصوروه بأجمل الصور، ونسبوا إلى ملوكهم الحكم الرائعة والسياسة الحكيمة، ونكاد نلمس أثر الشعوبية حتى في الفقه.

ولم يتغاض الكتاب العرب عن هذه الحركة المعادية لهم، فصنفوا مصنفات قيمة في فضل العرب على غيرهم، وإبراز تاريخ العرب القديم وأمجادهم الغابرة، فكتب الكتاب العرب مثل الهمداني ونشوان الحميري كتباً قيمة في إحياء مجد اليمن الغابر، وأبرزوا سمات الأدب العربي القديم، والتراث الثقافي العربي، وانضم إلى هؤلاء الأدباء العرب الخلفاء وعلماء الكلام.

والخلاصة أن خلفاء العصر العباسي الأول لم يألوا جهداً في سبيل القضاء على هذه الحركات الهدامة المضادة للإسلام، لذلك أسلموا للأجيال القادمة حركة إسلامية قوية مبرأة من الشوائب إلى حد كبير.

ثالثاً ـ ازدياد نفوذ الفرس في العصر العباسي الأول:

قامت الدولة العباسية على أكتاف الفرس، وكان من الطبيعي أن ينالوا حظوة في دولة بني العباس، وفعلاً اعتمد عليهم العباسيون في تدبير كثير من أمور الدولة، ولم يكن الحال كذلك في العهد الأموي، إذ اعتمد الأمويون على العرب اعتماداً كاملاً. ويذكر الجاحظ أن دولة بني العباس أعجمية خراسانية. ويتضح لنا ذلك من قول المنصور لأهل خراسان: أنتم شيعتنا وأنصارنا وأهل

دعوتنا. كما أوصى ولي عهده بهم بقوله: أوصيك بأهل خراسان خيراً فإنهم أنصارك وشيعتك، بذلوا أموالهم دونك ودماءهم دونك. ومن لا تخرج محبتك من قلوبهم أن تحسن إليهم، وتتجاوز عن مسيئهم، وتكافأهم على ما كان منهم ولما أسس المنصور مدينة بغداد، سمى باب خراسان باب الدولة، لاقبال الدولة العباسية منه.

على أن الاعتماد على الفرس والرفع من شأنهم في العصر العباسي الأول، أثار مشاكل عدة في بغداد، ذلك أن الفرس طموحون يعملون على احياء مجدهم القديم، ويميلون إلى إبراز نحلهم القديمة، ويناصرون الشيعة، لذلك تصدى لهم الخلفاء وسخطوا عليهم، ولحق بهم من العباسيين الكثير من النكبات، لأن اتجاهاتهم تهدد أمن الدولة وسلامتها.

أسند العباسيون في بغداد إلى الفرس مناصب كبيرة مثل الوزارة وقيادة الجيش، لكن كثيراً منهم لم ينج من بطش العباسيين للأسباب التي ذكرناها، فالخليفة المنصور قتل وزيره أبا أيوب المورياني، وقتل أقاربه واستصفى أموالهم، لأنه أساء استغلال نفوذ وثقة الخليفة فيه.

واستوزر المهدي، يعقوب بن داود، وفوض إليه أمور دولته، وسلم إليه الدواوين ، وقدمه على جميع الناس، حتى قيل أن المشرق والمغرب بيد يعقوب، ولما اتضح للمهدي أن هذا الوزير يتعصب للعلويين، وأسند إليهم بعض المناصب الهامة، وأطلق سراح أحد العلويين دون إذن الخليفة، عزله وزجه في السجن، ولم يزل في سجنه حتى أخرجه الرشيد فاقد البصر.

ازداد نفوذ الفرس في عهد الخليفة الرشيد، فقد استوزر كاتبه يحيى بن خالد بن يرمك، وكان البرامكة قديماً على دين المجوس ثم دخلوا في الإسلام، وحسن إسلامهم، وقد كان خالد بن برمك من الشخصيات البارزة في بغداد في

عهد الخليفة المنصور. ومن أهل الرأي فيها، وكان سخياً جليلاً، حتى قيل لم يكن لجليس خالد دار، إلا وخالد بناها له، ولا ضيعه إلا وخالد ابتاعها له، ولا دابة إلا وخالد حمله عليها.

ويرجع الفضل إلى يحيى بن خالد في تولية الرشيد الخلافة ذلك أن المهدي اعتزم خلع أخيه الرشيد من ولاية العهد وتولية ابنه موسى بدلاً منه، فتصدى له يحيى بن خالد، وحذره بقوله: «حملت الناس على نكث الإيمان، ونقض العهود، وتجرأ الناس على مثل ذلك» ولو تركت أخوك هارون على ولاية العهد ثم بايعت لجعفر بعده، كان ذلك أوكد في بيعته. وحذره من اعتراض بني هاشم. فعدل الهادي عن موقفه.

على أن الهادي وقع تحت تأثير بعض قواده، فزينوا له خلع أخيه هارون، وتولية ابنه جعفر العهد، تقرباً إليه، وأملا في الحصول على العطايا والمنح. فعاد الهادي إلى استشارة وزيره يحيى، ولكنه أصر على موقفه، وكانت الخيزران ـ أم الهادي وهارون ـ تقف إلى جانب يحيى في ضرورة الابقاء على هارون. هنا غضب الهادي من يحيى وزجه في السجن. ولكن في نفس هذه الليلة، حدث ما لم يكن في الحسبان، فقد توفى الهادي وأخرجت الخيزران، يحيى من سجنه، فبايع لهارون، وتولى الخلافة وذلك في سنة ١٧٠هـ.

لما ولى الرشيد الخلافة، قدر ليحيى بن خالد موقفه، وعد هذا فضلاً كبيراً من يحيى عليه، واستوزره الرشيد، وكان يخاطبة بالأبوة، وبلغ من ثقته به أن قال له: يا أبة أنت أجلستني هذا المجلس ببركة رأيك وحسن تدبيرك، وقد قلدتك أمر الرعية، وأخرجته من عنقي إليك، فاحكم بما ترى واستعمل من شئت، واسقط من رأيت، فإني غير ناظر معك في شيء.

نهض يحيى بن خالد بأعباء الدولة أتم نهوض، وسد الثغور وتدارك الخلل، وجبى الأموال، وعمر الأطراف، وأظهر رونق الخلافة، وتصدى لمهمات المملكة، وكان صائب الرأي حسن التدبير.

استعان يحيى بأبنائه وأقاربه في إدارة شؤون الدولة. حتى أن بعض المؤرخين يسمى هذه الفترة بدولة البرامكة. والواقع أن البرامكة كانوا دولة داخل دولة، وكان يحيى وأبناه الفضل وجعفر يجلسون للناس في كل يوم حتى انتصاف النهار لقضاء حوائجهم، والنظر في أمورهم، وتقلد يحيى الوزارة مع رئاسة معظم الدواوين، وكان يحيى يميل إلى ابنه الفضل أكثر من جعفر، ويثق فيه، أما هارون الرشيد، فكان يأنس إلى جعفر بن يحيى، ويلازمه في حله وترحاله، حتى أنزله قصر الخلد، ليكون قريباً منه. وحتى سنة ١٧٦م قلد الرشيد جعفراً أقاليم غرب الدولة العباسية، وأسند إلى الفضل المشرق كله من النهروان إلى أقصى بلاد الترك بما في ذلك خراسان. واستطاع الفضل أن يقضي على ثورة يحيى العلوي في بلاد الديلم بعد أن أخذ له أماناً من الرشيد. وأصلح بلاد خراسان، ونشر الأمن فيها، وهدم بيوت النيران، وبنى المساجد. وأصلح الزراعة.

قبض يحيى بن خالد البرمكي على زمام الأمور في الدولة، فالجهاز الإداري صار في قبضته والشؤون المالية كلها من توقيعه، بعد أن كانت تصدر بتوقيع الخليفة واستطاع يحيى أن يجذب إليه قلوب رعاياه، فأغدق الصلات على رجال الفن والأدب وذوي الحاجات.

وأدى ازدياد نفوذ البرامكة إلى التفاف الناس حولهم دون الرشيد، وقصدهم أصحاب الحاجات، وتغنى بجودهم وفضلهم الشعراء والأدباء.

استاء الرشيد من ازدياد نفوذ الفرس، واستبدادهم بأمور الدولة دونه، فالخلافة على الحقيقة كانت لهم، وليس للرشيد منها شيء إلا أسمها. ولم يكن

الرشيد بالخليفة الذي يستسلم لفقد نفوذه وسلطانه، بل تحرك لاستعادة سيطرته الكاملة على الدولة، فأحاط نفسه بجماعة من رجال العلم والأدب والفلسفة، وجذب إليه الناس بالتوسع في الصدقات والاتصال بهم عن طريق حجة المستمر، وكان يحج سنة ويغزو سنة في الغالب، وكتب له النصر في معظم الغزوات التي قادها، وإذا ذهب إلى أداء فريضة الحج، يغدق الأموال على سكان القرى التي يمر بها، وعلى فقراء مكة والمدينة، ويقضي حوائج المحتاجين.

استاء العرب في بغداد من ازدياد نفوذ الفرس، وسعوا بهم إلى الرشيد ونشأ حزب عربي يقاوم النفوذ الفارسي ويتصدى له، ويعمل على أن تؤول السيادة إلى العرب. ومن أبرز من تصدى للبرامكة من العرب، الفضل بن الربيع الذي مازال يحرض الرشيد على التخلص منهم، ويذكره باستبدادهم بالملك حتى أوغر صدره عليهم، فأوقع بهم. وكان لتأثير السيدة زبيدة ـ زوج الرشيد العربية الهاشمية ـ أثر واضح فيما حل بالبرامكة، وفي تولية ابنها محمد العهد قبل المأمون، كذلك حرض بنو هاشم في بغداد الرشيد على أخذ البيعة لمحمد قبل أخيه المأمون. وفيه ما فيه من الانقياد لهواه والتصرف مع طويته والتبذير لما حوته يده، ومشاركة النساء والإماء لرأيه. وقالوا: أن ملت إلى عبدالله المأمون ـ وأمه فارسية ـ أسخط بني هاشم. وكان الأمين أصغر سناً من المأمون، وأمه ـ كما قلنا ـ عربية. أما المأمون فأمه فارسية.

وبعد مضي سبع سنين من بيعة محمد الأمين، عهد الرشيد بولاية عهده إلى ابنه عبدالله بعد محمد الأمين، ولقبه المأمون ويروي أنه أقدم على هذا العمل بتأثير من جعفر بن يحيى البرمكي ـ مربي عبدالله المأمون ـ وكان جعفر يضمر المحافظة على النفوذ الفارسي، ذلك لأن المأمون أمه فارسية وأخذ له البيعة من وجوه بني هاشم ومن ولاة الأمصار وكبار رجال الدولة، وولى الرشيد ابنه عبدالله المأمون حكم ولايات المشرق الإسلامي بما في ذلك خراسان، بينما عهد إلى محمد

الأمين بحكم بلاد العراق والشام ومصر وبلاد المغرب. ويتضح من ذلك أن الرشيد عهد بحكم الولايات الفارسية لابنه المأمون وأمه فارسية، بينما عهد إلى ابنه الأمين ـ وأمه عربية ـ بحكم الولايات العربية وهذا سيؤدي إلى اشعال نار العصبية بين الأخوين.

وكذلك بايع الرشيد لابنه القاسم بولاية العهد بعد المأمون اجابة لرغبة مربيه عبدالملك بن صالح العباسي، ولقبه المؤتمن وأسند إليه ولاية الجزيرة والثغور والعواصم وهي الأقاليم التي تقع بين الولايات الفارسية والولايات العربية، ولم تكن بيعة المؤتمن تنتمي إلى حزب معين.

حرص الرشيد على حفظ حقوق ابنه المأمون، فأباح له الخروج على ابنه الأمين إذا ما ولي الخلافة، وعزل أخيه المأمون عن بعض الولايات التي يحكمها، بينما أباح للمامون عزل أخيه المؤتمن، إذا رأى ذلك ضرورياً.

اختلف المؤرخون حول أسباب نكبة الرشيد للبرامكة البعض يرجعها إلى ازدياد نفوذ البرامكة، واستئثارهم بالسلطة والنفوذ دونه، وبعضهم ينسبها إلى اطلاق جعفر بن يحيى البرمكي سراح يحيى العلوي، والبعض يرى أن الرشيد غضب على البرامكة، لوجود علاقة بين جعفر بن يحيى وأخته العباسة، ومما ساعد على تغير الرشيد من البرامكة سعاية الحزب العربي بالبرامكة، وعلى رأسه الفضل بن الربيع والسيدة زبيدة.

ونستطيع أن نقول أن السبب الرئيسي لايقاع الرشيد بالبرامكة هو استئثارهم بالنفوذ دونه بدليل ما رواه صاحب الفخري: أن أحد أطباء الرشيد قال: دخلت يوماً على الرشيد، وهو جالس في قصر الخلد، كان البرامكة يقيمون في الجهة المقابلة له وبينه وبينهم عرض دجلة. فلما رأى الرشيد اعتراك الخيول وازدحام الناس على باب يحيى بن خالد. قال: جزى الله يحيى خيراً، تصدى

للأمور، وأراحني من الكد ووفر أوقاتي على اللذة. ثم دخل عليه الطبيب ذات يوم بعد أن ظهرت أمارات انحرافه عنهم، فشاهد حركة الخيول على أبواب البرامكة، كما كانت الحال في المرات السابقة. فقال له الرشيد: استبد يحيى بالأمور دوني، فالخلافة على الحقيقة له وليس لي منها إلا أسمها.

إذن السبب الحقيقي هو شعور الخلافة باختلال التوازن في قضية المشاركة. وقد أدرك الرشيد اختلال التوازن من تصرفات يحيى وأولاده، وهو نفس الحافز الذي دفع المنصور إلى الإطاحة بأبي مسلم، وهو الذي سيدفع المأمون إلى التخلص من الفضل بن سهل، والمعتصم إلى قتل الأفشين. كان هذا تصرف الخلافة للمحافظة على فعاليتها ولو على حساب أي ولاء أو أية مبادىء.

وهكذا تخلص الرشيد من البرامكة، وحدث هذا الانقلاب بهدوء، ولم تقم ثورات تدعو إلى الانتقام لهم. مما يدل على قوة بأس الرشيد، وأحكام سيطرته على الدولة.

ومما لا شك فيه أن التخلص من البرامكة كان خسارة كبرى للدولة الإسلامية، وذلك لحنكتهم الإدارية، وسياستهم المالية الرشيدة، ومقدرتهم الفائقة على تسيير دفة الأمور في الدولة. ولما تخلص الرشيد من البرامكة، اضطر إلى مباشرة أمور الدولة بنفسه، وتنقل بين ولايات الدولة، يخضع الثورات ويحارب الروم. ففي شعبان سنة ١٩٢هـ استخلف الرشيد ابنه الأمين على بغداد، واصطحب معه وزيرة الفضل بن الربيع وابنيه صالح والمأمون الذي رافقه كاتبه الفضل بن سهل ولما بلغ الرشيد جرجان، أرسل ابنه المأمون إلى خراسان، وسار هو إلى طوس في صفر سنة ١٩٣هـ، واشتد به المرض فلما شعر بدنو أجله، جدد البيعة للمأمون على القواد الذين في صحبته، وأمرهم في حالة وفاته تسليم المأمون كل ما في عسكره من جند وخيل وسلاح وأموال ومتاع.

ولما علم الأمين بمرض أبيه، أرسل إلى الفضل بن الربيع يدعوه إلى استلام كل ما في عسكر أبيه، والعودة به إلى بغداد، وأرسل إلى أخيه المأمون يدعوه إلى تجديد البيعة له ولأخيه المؤتمن وفقاً للشروط التي وضعها الرشيد.

لما ولي الأمين الخلافة انتعش العرب في بغداد، وازداد نفوذهم، بينما ضعف الفرس، وأسندت المناصب الكبيرة إلى العرب، فقلد الأمين، الفضل بن الربيع الوزارة، وابنه العباس حجابته، وبكر بن المعتمر ديوان الخاتم.

عاد الفضل بن الربيع بعد موت الرشيد إلى بغداد ومعه الأموال التي أوصى الرشيد بأن تؤول إلى المأمون، فعظمت مكانة الفضل عند الأمين، وهنا غضب المأمون، وآثر البقاء في خراسان مع وزيره الفارسي الفضل بن سهل الذي اشتهر بسعة الحيلة وشدة الدهاء وهو من أولاد ملوك الفرس المجوس، دخل في خدمة البرامكة ولزم جانب المأمون بعد نكبة البرامكة، حيث توقع أن الخلافة قد تؤول إليه، وقام بتدبير بعض أموره، وعظمت مكانته عند المأمون، لذلك سعى إلى تولي المأمون الخلافة حتى يحظى بما كان للبرامكة من نفوذ في عهد الرشيد.

وعلى الرغم من موقف الفضل بن الربيع من المأمون، وتغاضي الأمين عن هذ الموقف، إلا أن المأمون ظل مواليا لأخيه الأمين، ويرسل إليه الكتب التي تتضمن تأييده له، والهدايا النفيسة، كما تقرب من أهل خراسان، وحكمهم بالعدل فالتفوا حوله وناصروه.

على أن الفضل بن الربيع كان يخشى أن تتغير الأمور، ويتولى المأمون بعد أخيه الأمين، وينتقم من موقفه العدائي، لذلك زين للأمين خلع أخيه المأمون، وتولية ابنه موسى عهده، وبعد إلحاح نكث الأمين العهد، وخلع أخاه المأمون، وأمر بالدعاء لابنه موسى ثم للمأمون والمؤتمن من بعده، وأدى ذلك إلى اشتداد الخلاف بين الأخوين. ومنع المأمون إرسال البريد وحذف اسم الأمين من

الطرز، واتخذ الفضل بن سهل عيونا له في بغداد يكاتبونه بالأخبار وتطورها، على حين ضرب الفضل بن الربيع الحصار على الطرق حتى لا تتسرب الأخبار إلى خراسان.

ومن ثم اتسعت دائرة الخلاف بين الأخوين، فخلع الأمين أخاه المأمون ثم المؤتمن، وولى ابنه موسى العهد سنة ١٩٥ هـ وسماه الناطق بالحق، وأرسل إلى مكة من أتاه بالكتابين اللذين وضعهما الرشيد في الكعبة، ثم مزقهما الفضل بن الربيع.

وأقدم المأمون على اتخاذ خطة مضادة، فخلع أخاه الأمين من الخلافة، وأعلن نفسه خليفة وأسمى نفسه إمام الهدى وعهد إلى طاهر بن الحسين ـ أحد قواده الفرس ـ بالمسير إلى بغداد والاستيلاء عليها، على حين أمر الأمين قائده هرثمة بن أعين بالزحف على خراسان، وخلع المأمون، ودارت الحرب بين الأخوين، وهي في الواقع نزاع حزبي بين الفرس أنصار المأمون من ناحية، وبين العرب أنصار الأمين من ناحية أخرى وقاد أمر هذا النزاع الفضل بن سهل وزير المأمون الفارسي، والفضل بن الربيع ـ وزير الأمين العربي ـ.

على كل حال نشبت عدة حروب بين الطرفين، هزمت فيها جيوش الأمين، وأنفق الأمين كل ما لديه من مال حتى اضطر إلى ضرب آنية الذهب والفضة دنانير ودراهم ووزعها على أعوانه وجنده. ولم يجد ذلك فتيلا، ذلك أن قوات طاهر ألحقت الخراب والدمار ببعض أحياء بغداد وتعطلت التجارة، وأغلقت الأسواق، وقاسى الناس ويلات الجوع والحرمان والبؤس.

اضطر الأمين بعد أن تحرج موقفه من شدة الحصار إلى طلب الأمان، وخرج لمقابلة طاهر بن الحسين في سفينة عبرت نهر دجلة، ولكن أنصار طاهر أغرقوا السفينة، فتمكن الأمين من اللحاق بطاهر بالبر الشرقي سابحا في الماء.

على أن بعض أنصار طاهر، قتلوه. وبمقتل الأمين انتصر الحزب الفارسي وفشل الحزب العربي. وتولى المأمون الذي يمثل الحزب الفارسي الخلافة سنة ١٩٨ هـ، واستعاد الفرس نفوذهم بينما ضعف العرب.

ومما لا شك فيه أن مقتل الخليفة الأمين كان مأساة كبرى أصابت الدولة العباسية، ودليلا واضحا على أن الفرس سعوا دائما منذ قيام الدولة العباسية إلى فرض نفوذهم في الدولة العباسية، ولكنه في كل مرة كانوا يخفقون، فقتل أبو مسلم وبعض الوزراء الفرس ونكب البرامكة. ولكن في هذه المرة نجح الفرس نجاحا كبيرا بواسطة المأمون ـ الذي يميل إلى الفرس بحكم تكوينه ـ في التخلص من الأمين الذي يمثل الحزب العربي. وهذه الحرب التي نشبت بين الأخوين تظهر بجلاء بداية الشقاق بين أفراد البيت العباسي، وخضوع الأمين للأهواء السياسية، والتيارات الحزبية. كما أثبتت هذه الحرب خطأ الخلفاء الجسيم في تولية العهد لأكثر من واحد. وقد اتخذ العباسيون هذه السياسة الخاطئة من الأمويين، وأثارت البغضاء والانقسامات بين البيتين الحاكمين الأموي والعباسي.

ازداد نفوذ الفرس بعد تولية المأمون الخلافة سنة ١٩٨ هـ، وانتقل إلى مرو، واستقر فيها، واتخذ وزراءه وحاشيته من الفرس واستوزر الفضل بن سهل الذي سمي ذو الرياستين لجمعه بين السيف والقلم. والفضل بن سهل من أولاد ملوك الفرس المجوس، وكان قهرمانا ليحيى بن خالد بن برمك، ولما رأى الفضل نجابة المامون في صباه لزم ناحيته، وتنبأ بوصوله إلى الخلافة، وكان سخيا كريما يجاري البرامكة في جوده جليلا عالما بآداب الملوك.

وقع المأمون تحت تأثير وزيره، لذا أحدث تغييرا جذريا في نظام الخلافة، فعهد إلى علي الرضا، وكتب بذلك كتابا بخطه وأمر المأمون الناس بخلع السواد، ولبس الخضرة، وكان هذا بخراسان فلما سمع العباسيون في بغداد

بذلك ثارت ثائرتهم لنقل الخلافة إلى البيت العلوي، وخلعوا المأمون، وبايعوا عمه إبراهيم بن المهدي، ولما بلغ المأمون ذلك، تخلص من وزيره الفضل بن سهل، وكان يحجبه في مرو عن سائر الناس، ويمنع الأخبار عنه، وسار إلى بغداد، وأعاد لباس السواد، وأرضى بني هاشم. على أنه استمر في إسناد الوزارة إلى الفرس، فقلد الحسن بن سهل وزارته، وتزوج من ابنته. وكان من أعظم الناس منزلة عند المأمون.

ويبدو أن الرغبة في الاستحواذ على السلطة كانت عند البرامكة وبني سهل، وأوقعتهما في مصير مشترك. وقد أخذ الفضل يمكن لنفسه في خراسان ليعيد دور أبي مسلم القديم بل حاول أن يبسط نفوذه على بغداد، وأراد أن يطيح بالخلافة العباسية نفسها، ونسب إليه رغبته في تحويل الملك من بني العباس إلى آل علي، ليصير ملكا كسرويا.

تحيز المأمون إلى الفرس مما أثار العرب، وتحركوا لاستعادة نفوذهم وعبر عن استياء العرب نصر بن شبث العقيلي بثورة أشعلها في شمال حلب، وانضم إليه العرب، مطالبين بإعادة الحكم للعرب وقوي أمر الثوار بمن انضم إليهم من العلويين وبقايا الأمويين، وأرسل الخليفة المأمون إلى نصر العقيلي يستميله ولكنه رفض، هنا أرسل المأمون جيشا كبيرا إلى الشام، بقيادة عبدالله بن طاهر تعقب نصر في عدة معارك، وهزم الثوار، وسيق نصر إلى المأمون حيث لقي مصرعه سنة ٢١٠هـ.

وتوضح هذه الثورة مدى استياء العرب من زوال نفوذهم وازدياد نفوذ الفرس، وتخوفهم من تطور الأمور في الدولة إلى ما هو أسوأ أو بعبارة أخرى انتقال الخلافة إلى ملك كسروي.

العلاقات الخارجية

لم تنقطع الحرب بين العرب والدولة البيزنطية منذ ظهور الإسلام فقد حاول العرب الاستيلاء على القسطنطينية ثلاث مرات المرة الأولى في عهد عثمان بن عفان، والثانية في عهد معاوية بن أبي سفيان، والثالثة في عهد سليمان بن عبدالملك.

أفادت الدولة البيزنطية من الفتن الداخلية التي وقعت في أواخر العهد الأموي، والتي أدت في سنة ١٣٢ هـ إلى سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية، وترتب على هذا الانقلاب، أن انتقلت حاضرة الخلافة العباسية من دمشق إلى بغداد. وبذلك قلت حدة الضغط الإسلامي على حدود الدولة البيزنطية. واستراحت الدولة البيزنطية فترة من الوقت من هجمات المسلمين، نظرا لبعد عاصمة الدولة العباسية.

ولما انتقل الحكم إلى العباسيين تغيرت السياسة الإسلامية نحو الروم فبينما كان الأمويون يعملون على فتح القسطنطينية وإسقاط الدولة البيزنطية، اتسمت غارات العباسيين على الدولة البيزنطية بطابع شن الغارات للتخريب والهدم وإتلاف المال ويرجع السبب في ذلك إلى عدم اهتمام العباسيين بإقامة أسطول بحري كالأمويين، واعتمدوا في حروبهم على الجيوش البرية، كما أن أهل الشام ظلوا على ولائهم للأمويين، وعارضوا الحكم العباسي. لذلك رأى العباسيون من الصعب الاعتماد على أهل الشام في شن الحروب ضد الدولة البيزنطية.

بدأ البيزنطيون في شن غاراتهم على أراضي الدولة العباسية في عهد أبي جعفر المنصور، فغزا قسطنطين الرابع بعض أراضي الشام سنة ١٣٧ هـ واستولى

على ملطية وخرب حصونها. غير أن العرب تمكنوا من استردادها في السنة التالية، ورموا حصونها بالمنجنيق.

أخذت السياسة الخارجية للامبراطورية في التدهور، ويرجع هذا التدهور بصفة خاصة إلى الخلافة العباسية التي بلغت ذروة قوتها، إذ حدث في زمن الخليفة المهدي أن قام المسلمون سنة ٧٨١م بهجوم عنيف في جوف أملاك الدولة البيزنطية، وأحرزوا انتصارا حاسما في ثغر تراقيسيون، وتحتم على الامبراطورة ايرين أن تعقد الصلح مع العباسيين. وبمقتضاه التزمت بأن تدفع للخليفة العباسي جزية سنوية قدرها سبعون ألف دينار، وأن تستمر الهدنة ثلاث سنين. غير أن السلام لم يستمر طويلا، فنشب القتال من جديد بين الفريقين. ذلك لأن البيزنطيين نقضوا الهدنة التي عقدوها مع المسلمين.

خفت حدة الحرب بين العباسين والبيزنطيين في السنوات الخمس الأخيرة من حكم ايرين، والمعروف أنها قبلت أن تدفع جزية سنوية للخليفة العباسي، وما كاد يتولى نقفور العرش حتى امتنع عن دفع الجزية، بل إنه طالب العباسيين بإعادة ما دفعته ايرين إلى الخليفة. وأرسل إلى هارون الرشيد كتابا جاء فيه سنة ١٨٧ هـ: «إن الملكة التي كانت قبلي... حملت إليك من أموالها ما كنت خليقا بحمل أمثالها إليها، ولكن ذلك ضعف النساء وحمقهن، فإذا قرأت كتابي فاردد ما حصل قبلك من أموالها.. وإلا فالسيف بينا وبينك».

يعتبر هذا الكتاب إنذارا بالحرب ضد الرشيد وإلغاءا واضحا للهدنة بين الطرفين. لذا ثارت ثائرة الرشيد لهذا الكتاب، وأعد جيشا كبيرا سار على رأسه إلى الدولة البيزنطية، لإنزال العقاب بالامبراطور البيزنطي.

عاد الامبراطور البيزنطي إلى طلب الهدنة بسبب ثورة باردانس نوركس الذي دانت له ثغور آسيا الصغرى سنة ٨٠٣، الأمر الذي شغل الامبراطور

بإخضاع هذه الثورة. لكن الرشيد رفض الهدنة، وعول على التوغل في بلاد الدولة البيزنطية، وغنم مغانم كثيرة، وفي سنة ٨٠٦، استولى على عدة حصون بهاخازن للغلال، كما استولى على هرقلة، ثم استولى على طوانه على الطريق المؤدي إلى قيصرية، واتخذها قاعدة يرسل منها السرايا والجند إلى سائر الجهات، فارسل قوة كبيرة إلى أقليم أنقرة. ولما رأى الامبراطور أنه لا قبل له بالرشيد، أرسل يعرض عليه ٥٠ ألف دينار مقابل الانسحاب من أراضي الدولة البيزنطية، فوافق الرشيد، وعقدت الهدنة بين الطرفين.

أمنت الدولة البيزنطية على حدودها من غارات المسلمين في عهد الخليفة الأمين بسبب الحرب الأهلية بين الأمين والمأمون التي استمرت حتى تولى المأمون الخلافة سنة ١٩٨ هـ.

عاد الصراع من جديد بين الدولة البيزنطية والدولة العباسية في عهد الخليفة المأمون، فقد سجع المأمون توماس الصقلي الذي ثار في آسيا الصغرى على الامبراطور ثيوفيلوس وأمده بالمال والرجال وعمل على تتويجه امبراطورا على الدولة البيزنطية نفسها. ولكن سرعان ما انكشفت حيلته. ولم يتم له ما أراد.

واتبع الامبراطور هذه السياسة نفسها مع الخليفة العباسي، فجعل الدولة البيزنطية موئلا للخرمية أتباع بابك الخرمي الذي ثار في سنة ٢٠١ على المأمون. واعتصم في الأقاليم الشمالية الشرقية في منطقة حران واستقل عن الدولة العباسية ٢٢ سنة (٢٠١ - ٢٢٣) نشر خلالها مذهبه المزدكي. إلا أن الامبراطور البيزنطي وجد من الأفضل له مهادنة المأمون وأرسل إليه في طلبها.

لكن الخليفة المأمون رفض الصلح لأنه كان يتطلع إلى مواصلة سياسة الأمويين في محاولة فتح القسطنطينية. وأرسل إليه خطابا ينذره ويتوعده، ويخبره بأن لا عودة إلى المسالة.

وخرج المأمون فعلا في سنة ٢١٨ هـ لغزو الروم، ولكن المنية وافته ودفن في طرسوس.

ولما ولي المعتصم الخلافة زادت العلاقات بين الدولتين العباسية والبيزنطية تدهورا. ولما انشغل الخليفة المعتصم في القضاء على فتنة بابك الخرمي، أغار الامبراطور البيزنطي على مدينة زبطره وأحرقها، وأسر من فيها من المسلمين. وكان الامبراطور يرمي من وراء ذلك إلى إنقاذ بابك. فخرج ثيوفيلوس في مائة ألف، وسبى المسلمات، ومثل بمن صار في يده من المسلمين.

ثارت ثائرة المعتصم لما لحق بالمسلمين من تنكيل على أيدي الامبراطور، وعول على الانتقام، وأعد جيشا كبيرا سار به إلى الدولة البيزنطية، وقصد أنقرة، واستولى عليها بعد أن ألحق الهزيمة بالامبراطور، كما اعتزم تخريب عمورية مسقط رأس الامبراطور، كما أنها تقع على الطريق الذي يؤدي إلى القسطنطينية، وتوغل المعتصم بجنده في آسيا الصغرى، وحاصر عمورية وشدد عليها الحصار، وألحق جنده بالبلدة الخراب والدمار ولم ينج من أهلها إلا من افتدى نفسه بمال كثير.

ولما خشي الامبراطور البيزنطي على بلاده من ويلات المسلمين، سنة ٢٢٣هـ عقد هدنة مع الخليفة المعتصم الذي انسحب على أثرها إلى سامرا.

على أن الخليفة عاودته الرغبة في الجهاد، فقرر فتح القسطنطينية، وأعد لذلك أسطولا مؤلفا من ٤٠٠ سفينة، أبحرت من موانىء الشام سنة ٨٤٢ غير أن المعتصم مات في نفس السنة التي مات فيها الامبراطور.

وتولى الخلافة من بعد المعتصم الخليفة الواثق الذي جرت في زمنه فتن دينية وثورات في بلاد العرب ودمشق، وسخط عليه أهل بغداد، مما جعله عاجزا عن مواصلة الجهاد الديني، وعلى الرغم من أنه لم تعقد بين المسلمين والبيزنطيين هدنة فإنه تم تبادل الأسرى. وتوقفت الأعمال الحربية عدة سنوات.

العلاقات السياسية مع دولة الفرنجة

ارتبطت الدولة العباسية بروابط صداقة، وبعلاقات ودية مع دولة الفرنجة، خصوصا في عهد بيبين وابنه شارلمان، وجمع بين الدولتين تحالف ضد العدو المشترك المتمثل في دولة الأمويين في الأندلس. والمعروف أن عبدالرحمن الداخل، أقام هذه الدولة، بعد أن فر من مطاردة العباسيين ومن بطشهم، واقتطع أسبانيا من الدولة العباسية. وكانت كل من الدولتين الأفرنجية والعباسية تحاول تدمير هذه الدولة. فدولة الفرنجة تخشى بأس هذه الدولة الفتية الناشئة، التي يفصلها جبال البرانس. والدولة العباسية، تريد إعادة الوحدة إلى عالم الإسلام والتخلص من الحكم الأموي فيها.

جرى الأمر على هيئة مؤامرة دولية واسعة على عبدالرحمن الداخل. فلما فشل العباسيون في استرداد الأندلس، لجأ عملاؤهم إلى شارلمان، ودبروا معه أمر غزو الأندلس، ودبروا معه الخطة، على أن يدخل الأندلس كحليف للمنصور. ولكن حملة شارلمان على الأندلس باءت بالفشل.

وهناك إشارات تاريخية حول تبادل السفارات بين الدولتين العباسية والفرنجية، وكلها تنم عن علاقات الود والصداقة بين الدولتين.

العلاقات السياسية مع دول جنوب شرق آسيا

سيطر محمد بن القاسم الثقفي على بلاد السند في العهد الأموي ولما عزل انتفضت البلاد الهندية على الحكم الإسلامي، وانشغل الولاة الأمويون في المحافظة على ممتلكات المسلمين في السند. بدلا من أن ينطلقوا في الفتح. على أن الحكم بن عوانة كان من خيرة ولاة السند، بنى مدينتي المحفوظة والمنصورة

على شاطىء السند، وصارت الأخيرة حاضرة للمسلمين فيها بعد وقد سار في الناس سيرة حسنة، وأطلق للهنادكة حرية العبادة.

ولما سقطت الدولة الأموية، وقامت الدولة العباسية، حافظ الخلفاء على بلاد الهند الإسلامية، وعملوا على توسيع رقعتها ففي عهد الخليفة المنصور، دخلت كشمير في حوزة العباسيين، وأكد العباسيون سيطرتهم على الملتان، وتتابعت غزوات المسلمين في بلاد الهند، ففي سنة ١٥٩ هـ وفي عصر الخليفة المهدي، استولى المسلمون على مدينة باريد، وأحرقوا تمثال بوذا، وما زالت فتوحات المسلمين تتابع في بلاد الهند في عهد المأمون والمعتصم حتى سيطر المسلمون على البلاد الواقعة بين كابل وكشمير والملتان.

ولما ضعفت الدولة العباسية، عجزت الحكومة المركزية عن السيطرة على أطرافها، لذلك استقل حكام الأقاليم عن بغداد وقامت في السند إمارتان مستقلتان، إحداهما في الجنوب وعاصمتها المنصورة، وإمارة في الشمال وعاصمتها الملتان واستقرت أمورهما نتيجة لتحسن أحوالها الاقتصادية، والنشاط التجاري بين السند والشرق والغرب، وازدهرت فيها العلوم والحضارة، وأوى إليها الفارون من بطش الخلافة.

وتؤكد المصادر التاريخية أن العلاقات الدبلوماسية بين الخلفاء وملوك الصين، كانت أوثق مما كانت عليه زمن الخلفاء الأمويين، وكان من أهم السفارات تلك التي كانت من قبل أبي العباس السفاح رأس الدولة العباسية، وأبي جعفر المنصور وهارون الرشيد، وقد ورد في تاريخ الصين خمس عشرة سفارة من العباسيين في نصف قرن (٧٥٠ ـ ٨٠٠م) ولا نعلم تفاصيل هذه الزيارات، ولكن يمكن القول، أن هذه السفارات تم فيها لقاءات ودية وتبادل الهدايا. ولكننا نستنتج أن معظم هذه السفارات أدى إلى تحسن وتقدم العلاقات

التجارية بين العرب والصين. ولقد كانت السفارات التي جاءت من قبل التجار أنفسهم أكثر من التي جاءت من قبل الخلفاء.

وأدت هذه العلاقات التجارية إلى ازدهار التجارة الواردة إلى الخليج العربي والصادرة منه، وأدى تأسيس بغداد إلى تنشيط التجارة بين موانىء الخليج العربي والشرق الأقصى. وقال المنصور عند تأسيس بغداد: هذه دجلة ليس بيننا وبين الصين شيء يأتينا فيها كل مافي البحر.

وكان ببغداد في نهاية القرن الثاني الهجري سوق خاص للتحف الصينية. وقد عثر في أنقاض مدينة سامرا على أنواع من الفخار والخزف الصيني. والمعروف أن سامرا كانت عاصمة للعباسيين نحو خمسين عاما ٢٢١ ـ ٢٧٦ هـ.

الفصل الثاني
العصر العباسي الثاني

استمر العصر العباسي الأول مائة عام، تميزت فيه الدولة العباسية بالقوة، وكانت حكومة بغداد حكومة مركزية، والخليفة يحكم دولته حكما مطلقا، على اعتبار أنه سلطان الله في أرضه، وطاعته من طاعة الله، ولا يسأل عما يفعل، وكانت الدولة على الرغم من اتساعها، يرجع الولاة إلى الخليفة في كل صغيرة وكبيرة، ولم يكن هناك من سلطة أو قوة في الدولة تعلو على سلطان الخليفة ورأيتم أن البرامكة حينما حاولوا الانفراد بالسلطة، لم يجد الخليفة الرشيد صعوبة في التخلص منهم.

طوال فترة العصر العباسي الأول فشلت الحركات الاستقلالية عن الخلافة العباسية إذا استثنينا استقلال الأمويين في الأندلس عن حكومة بغداد، لأنه من غير المعقول أن يخضع أمراء الأمويين في الأندلس، للعباسيين الذين اغتصبوا الحكم من بيتهم، ومزقوا الأمويين كل ممزق، كما أن بعد المسافة، أعطى للأمويين فرصة للاستقلال. ونستثنى كذلك دولة الأدارسة التي قامت في المغرب الأقصى، أقامها ادريس بن عبدالله، وهو من بيت آل الحسن الذي ثار على الحكم العباسي، وتصدى العباسيون لأفراد هذا البيت، وأمعنوا فيهم قتلا وتشريدا. ومن الطبيعي جدا أن يحافظ على الاستقلال بملكه عن السيطرة العباسية.

وفيما عدا ذلك فشلت الحركات الاستقلالية في الدولة العباسية، أمثال حركة المقنع الخراساني، وبابك الخرمي وغير ذلك. وظلت الدولة العباسية طوال هذا القرن قوية متماسكة، تخضع بكل مساحاتها الشاسعة للخليفة، على الرغم من تباعد المسافات ومن صعوبة وبطء الاتصال بين بغداد وأطراف الدولة، ولابد أن الولاء الديني من رعايا الدولة للخليفة، كان من أهم أسباب استمرار وحدة الدولة خلال هذا القرن من الزمان.

ثم ينتهي القرن الذي تحدثنا عنه، ويبدأ عصر جديد في تاريخ الدولة العباسية، اصطلح المؤرخون على تسميته بالعصر العباسي الثاني، تمييزا له عن العصر العباسي الأول. ومن أهم مميزات العصر العباسي الثاني أن المركزية في الدولة لم تعد واقعة وحلت محلها اللامركزية، بمعنى أن الخليفة العباسي في سامرا أو بغداد لم يعد صاحب السلطان المطلق في بلدته ولم تعد بغداد تحكم ولاياتها حكما مركزيا مطلقا، إنما ظهرت الحركات الاستقلالية عن بغداد، بل وانقسمت الدولة العباسية إلى دول مستقلة، تخضع للخليفة العباسي خضوعا اسميا، ويتمثل خضوعها للخليفة في الدعاء له في الخطبة، ونقش اسمه على السكة، والحصول على تقليد من الخليفة بحكم الأقليم، وأداء أتاوة مالية للخليفة في كل عام. وفيما عدا ذلك كان الوالي على الأقليم له جيش مستقل وميزانية مستقلة، ويحكم ولايته مستقلا تماما عن الخليفة.

وعلى الرغم من انقسام الدولة العباسية في العصر العباسي الثاني إلى دول مستقلة، فإن رعايا الدولة كانوا يرون في طاعة الخليفة وإظهار الولاء له عملا من طاعة الله، ومن ثم فإن الأمير أو الوالي المستقل في ولايته كان لا يحظى بطاعة رعاياه إلا إذا اعترف الخليفة به.

يعتقد بعض المؤرخين أن ظهور الأتراك في الدولة العباسية أدى إلى ظهور الدول المستقلة نظرا لنزعاتهم الاستقلالية، يمكن القول بأن الأتراك عجلوا فقط بظهور هذه الحركات ولكن في الحقيقة كانت النزعات الاستقلالية قائمة في الدولة وتنتظر فرصة لتحقيق أغراضها، وكانت الفرصة، بظهور الأتراك الذين أضعفوا الخلافة العباسية، وسيطروا على الخلفاء.

الأتراك والخلافة العباسية:

استاء المعتصم من الفرس والعرب، ورأى ضرورة استبدالهم بعنصر آخر، ليس له مطامح الفرس القومية، ولا الأهواء السياسية التي للعرب يضاف إلى ذلك أن المعتصم أمه تركية، وكان به صفات الأتراك من حيث الشجاعة وقوة البأس، فضلا عن أن الأتراك يتميزون بالروح العسكرية.

جلب الأتراك إلى بغداد من بلاد ما وراء النهر، وكانوا رجالا أشداء يعيشون رعاة وصيادين في هضابهم وجبالهم العالية، لذلك عرف عنهم خشونة الطبع وقوة الشكيمة، وأثرت هذه الحياة في أخلاقهم لذا برعوا في أساليب الحرب والقتال، وساعدهم على الاندماج في مجتمع بغداد، اعتناقهم الإسلام وتعلمهم اللغة العربية.

توافد الأتراك على بغداد بطرق شتى، إما عن طريق وقوعهم في أسر العرب الفاتحين، وبيعوا في أسواق الرقيق، وإما عن طريق إرسال ولاة الأقاليم التركية تركا ضمن الجبايات التي كانت ترسل إلى بغداد بعد فتح بلادهم لتحسين أحوالهم المعيشية. وكانت بلاد ما وراء النهر خصوصا سمر قند أكبر أسواق تجارة الرقيق الأبيض، وكانوا مدربين تدريبا خاصا.

توافد الأتراك بكثرة على مدينة بغداد منذ تأسيسها، وازداد طلب الخلفاء لهم لأن مميزاتهم العسكرية تؤهلهم ـ كما قلنا ـ للعمل في حراسة الخلفاء، وكان المنصور أول من استخدم الأتراك كحرس بل واعتمد عليهم كذلك في الأعمال المدنية، فالجهشياري يذكر أن المنصور أمر حماد التركي ـ أحد كبار موظفيه ـ بتعديل نظام الضرائب في السواد. وكان قصر الرشيد يضم بضعة مئات من الغلمان الترك.

استكثر المعتصم من الترك حتى بلغ عددهم ثمانية آلاف رجل، وتكون منهم فرق من الجيش يقودها قواد من الترك، وكانت هذه الفرق في عزلة تامة عن بقية الجيش. وازداد نفوذ الترك في بغداد، وأصبح لهم السلطة والنفوذ فيها، بينما ضعف أمر العرب والفرس،

وبذلك دخل في نزاع العصبية عنصر قوي جديد، فقد كان النزاع من قبل محصورا بين الفرس والعرب، فأصبح بين العرب والفرس من ناحية والترك من ناحية أخرى، ووجه الترك كل جهودهم للنيل من الفرس المستبدين بالسلطان، وبعد أن كانت الأحداث تتصل بأعلام الفرس كأبي مسلم الخراساني والبرامكة وبني سهل ظهر تاريخ مرتبط أحداثه بأشناس وايتاخ، إذ كانوا القابضين على زمام الدولة والمتصرفين في شئونها.

حافظ المعتصم على جنوده الترك، وحرص على أن تبقى دماؤهم متميزة فجلب لهم نساءا من جنسهم، وكان المعتصم ينفق على جنده الترك بسخاء، وعني بزيهم وألبسهم أنواع الديباج والمناطق المذهبة واتخذ لهم ثكنات خاصة، يعيشون فيها معيشة كريمة، وقد خص المعتصم الأتراك بالنفوذ ـ كما قلنا ـ وجعل لهم مراكز كبيرة في مجالات السياسة والحرب، وأجزل عليهم الهبات والأرزاق وفضلهم على سائر جنوده.

وكانت الأتراك تؤذي أهل بغداد بجريها الخيول في الأسواق وما ينال الضعفاء والصبيان من ذلك، فكان أهل بغداد ربما ثاروا ببعضهم فقتلوه عند صدمه لامرأة أو شيخ كبير أو صبي أو ضرير وضاقت بغداد بعسكر المعتصم، فتأذى منهم الناس، وزاحموهم في دورهم، وتعرضوا للنساء فخشي المعتصم من أن تحدث فتنة في بغداد بين جنده من ناحية وأهل بغداد العرب والفرس من ناحية أخرى. لذلك نقل حاضرة دولته إلى سامرا، ونقل إليها جنده الترك وقال: إن رابني من عساكر بغداد حادث كنت بنجوة، وكنت قادرا على أن آتيهم في البر وفي الماء.

يذكر بعض المؤرخين مثل الفخري والسيوطي أن المعتصم قدم إليه رجل شيخ وقال له: جئتنا بهؤلاء العلوج من غلمانك الأتراك، والله لنقتلنك بسهام السحر ـ يعني الدعاء ـ فسار المعتصم إلى موضع سامرا فبناها. وهذه الرواية متأخرة لا يمكن قبولها لأن العمل الكبير الذي قام به المعتصم من حيث بناء مدينة جديدة يتخذها حاضرة لدولته لا يمكن القيام به خوفا من دعاء شيخ وإنما المعقول أن المعتصم رأى بنفسه بذور فتنة تؤدي إلى اضطراب أمور دولته، وكان يعرف ويدرك جيدا قوة بأس جنده الترك وتهورهم، بدليل ما ذكره الطبري من أن المعتصم شكى إلى نديمه إسحاق الموصلي من مغبة اصطناعه للترك.

استبد الأتراك بالنفوذ والسلطان بعد عهد الخليفة الواثق وأصبحوا مصدر قلق واضطراب في الدولة العباسية وسيطروا على الولايات الإسلامية وعلى الجيش وعلى إدارة الدولة بل امتدت سيطرتهم على قصر الخلافة، وتدخلوا في الإدارة السياسية للدولة وحركوا الجهاز السياسي، وشيئا فشيئا ضعف نفوذ الخليفة ولم يعد قادرا على الانفراد بإدارة شؤون الدولة كما كان الحال في العصر العباسي الأول، بل أصبح الخليفة خاضعا للأتراك، وأصبح الخلفاء ألعوبة في أيدي الترك

يولونهم ويعزلونهم وفق أهوائهم. والمعروف أن الترك يكرهون العرب والفرس، وفي خلاف مع بعضهم البعض لذلك ضغطوا على العرب والفرس، وحاربوا بعضهم بعضا مما أدى إلى تحويل الدولة الإسلامية إلى مسرح للفتن والاضطرابات.

ومما يدل على ازدياد نفوذ الترك أنه لما توفي الواثق اجتمع قواد الترك، وولوا جعفر بن المعتصم الخلافة ولقبوه بالمتوكل وعهد المتوكل إلى أبنائه الثلاثةمن بعده وهم محمد المنتصر، ومحمد المعتز وإبراهيم المؤيد، وقسم بينهم إدارة أقاليم الدولة العباسية.

لم يقبل المتوكل تدخل الترك في الشؤون السياسية للدولة، وعول على سلبهم السلطة والنفوذ، لكن الترك أثاروا القلاقل والاضطرابات ضده، فغادر سامرا، ورحل إلى دمشق لعله يجد من العرب المقيمين في الشام نصيرا وتأييدا ضد هؤلاء الترك، ونقل دواوين الدولة إلى دمشق. لكن أهل الشام لم يكونوا على وفاق مع العباسيين، فأثار جند الشام الشغب ضده، وطالبوه بالأعطيات، بل جردوا السلاح ضده. فلما رأى أنه لا يستطيع البقاء في الشام، عاد إلى سامرا وأعد العدة للتخلص من الترك وإعادة سلطان الخلافة إلى ماكان عليه في العصر العباسي الأول.

وشهدت هذه السنوات الأخيرة من حكم المتوكل الكثير من الفتن والدسائس، فاتهم المتوكل ابنه المنتصر بأنه ينحاز إلى جانب الترك، وأوشك على عزله، فوقف المنتصر إلى جانب الترك في صراعهم ضد أبيه المتوكل. وكان المتوكل يزمع التخلص نهائيا من الترك. هنا حرض الترك المنتصر على التخلص من أبيه وفعلا تم التخلص من المتوكل سنة ٢٤٧ هـ، وبايع الترك المنتصر خليفة.

وبذلك تولى المنتصر الخلافة بمساعدة الترك، وانحاز إليهم كلية في خلافته، وازداد نفوذهم. ولما خشي الترك من انتقام أخويه المعتز والمؤيد حينما تؤول إليهما الخلافة، طلبامن المنتصر عزلهما عن ولاية العهد، فخلعهما.

على أن خلافة المنتصر لم تستمر أكثر من ستة أشهر فعاجلته المنية، واجتمع قواد الترك، وولوا أحمد بن محمد المعتصم الخلافة سنة ٢٤٨ هـ ولقبوه المستعين بالله. وهذا يؤكد مدى ما بلغه الترك من نفوذ، فأصبح من حقهم تولية الخليفة.

استبد الأتراك بالسلطة والنفوذ دون الخليفة المستعين، وطالبوه بالمال الكثير، فأغدق عليهم، وسبك لهم آنية الذهب والفضة ولكنهم ازدادوا بغيا وفسادا، ولم يعد للخليفة من السلطة إلا اسمها. لذلك غادر الخليفة سامرا إلى بغداد، لعله يجد هناك من يساعده على التخلص من الترك، فانزعج الترك من ذلك، وسألوه العفو والصلح، وطالبوه بالعودة إلى سامرا، ولكنه رفض، فخلعوه من الخلافة، وبايعوا المعتز خليفة. وأصبح في الدولة العباسية خليفتان، خليفة في بغداد وخليفة في سامرا، ونشبت الحرب بين أنصار الفريقين، انتهت بتدبير الترك مؤامرة تخلصوا بهامن المستعين، وانفرد المعتز بالخلافة.

ولكن المعتز الذي ولاه الترك، لم يستطع فرض سلطانه كخليفة بل أثار الترك الشغب ضده، وطالبوه بالرواتب، وسعى في سرية وكتمان إلى التخلص منهم، ولكنهم لم يمكنوه، فقبضوا عليه في قصره، وألحقوا به ضروب الإهانات، وجذبوه إلى خارج الدار، وأنزلوه ببيت، وأجبروه على التنازل عن الخلافة وظل حبيسا في هذا البيت حتى توفي سنة ٢٥٥ هـ. وهذا يدل دلالة واضحة على مدى ما وصلت إليه الخلافة من ضعف.

أسند الترك الخلافة إلى محمد بن الواثق، ولقبوه المهتدي بالله، وكان هذا الخليفة ورعا تقيا يتشبه بعمر بن عبدالعزيز، ويتفقد أحوال رعاياه، ولو نشأ في

عصر غير هذا العصر لأثبتِ مقدرة ممتازة وكفاية منقطعة النظير. ولما أراد المهتدي القبض على زمام الأمور في الدولة، وفرض نفوذه، اصطدم بالأتراك فاستعان بفريق من جنده الخاص لمحاربتهم، ودارت الحرب بين الخليفة وبين الترك، لكن بعض جنده كانوا من الترك، غدروا به، والتحقوا بإخوانهم أعداء الخليفة. هنا هزم الخليفة، وعاد إلى قصره في أسوأ حال، وتنازل عن الخلافة سنة ٢٥٦ هـ، ولم يلبث أن توفي.

بايع الترك أحمد بن المعتصم خليفة ولقب المعتمد على الله وعهد بولاية العهد إلى إبنه جعفر ولقبه المفوض إلى الله. ومن بعده لأخيه أبا أحمد طلحة، وقسم بينهما الولايات الإسلامية واستأثر أبو أحمد طلحة بالنفوذ في الدولة دون الخليفة لمقدرته الادارية الكبيرة وكفاءته العسكرية. ويقول صاحب الفخري: وكانت دولة المعتمد دولة عجيبة الوضع، كان هو وأخوه الموفق طلحة كالشريكين في الخلافة. للمعتمد الخطبة والسكة، والتسمي بأمرة المؤمنين، ولأخيه طلحة الأمر والنهي وقيادة العساكر ومحاربة الأعداء ومرابطة الثغور وترتيب الوزراء والأمراء وكان المعتمد مشغولا عن ذلك بلذاته.. ويرجع إلى أبي أحمد الموفق طلحة القضاء على ثورة الزنج التي أقلقت الدولة العباسية وكادت تؤدي إلى انهيارها.

خلف المعتضد بالله المعتمد في الخلافة، وكان قوي الشكيمة، قبض على زمام الأمور في الدولة، وأضعف نفوذ الأتراك، ولم يمكنهم من التدخل في شؤون الدولة، وهابه الناس، وكان يسمى السفاح الثاني، لأنه جدد ملك بني العباس.

ولما توفي المعتضد سنة ٢٩٩ هـ خلفه ابنه أبومحمد علي، ولقب المكتفي بالله، وحاول القبض على زمام الأمور في الدولة، لكن فتنا خطيرة لم تمكنه، فالاسماعيلية الذين عملوا في الخفاء قبل توليته بسنوات عديدة، قد استفحل

أمرهم في عهده، وغادر عبيدالله المهدي مكانه السري، وذهب في رحلة تكتنفها الأخطار والأهوال إلى بلاد المغرب، كما أن هجمات القرامطة وغاراتهم على بعض البلدان الإسلامية، استفحل خطرها، كل ذلك لم يمكنه من التفرغ لاسترداد نفوذه، الأمر الذي مكن الأتراك من استعادة سيطرتهم على الدولة.

اتخذ الأتراك بعد وفاة المكتفي سياسة تمكن من استمرار نفوذهم، وتؤكد سيطرتهم على شؤون الدولة وادارتها، فرفضوا بعد ذلك تولية الخلفاء الأقوياء أمثال المعتضد والمتوكل، وصاروا لا يولون إلا الخلفاء الضعاف حتى يكونوا ألعوبة في أيديهم، يحركونهم كيفما شاؤا، فعدلوا عن تولية عبدالله المعتز، الأديب المعروف، وولوا أبا الفضل جعفر بن المعتضد، ولقبوه بالمقتدر، وكان في الثالثة عشرة من عمره، قضى أيام خلافته في لهو وعبث، وسيطر عليه رجال القصر والحاشية، حتى ثار عليه الجند وخلعوه، وولوا بدلا منه القاهر بالله، ولكنهم عزلوه، وأعادوا تولية المقتدر حتى تستمر السيطرة عليه.

ازدادت أحوال الدولة العباسية سوءا بعودة المقتدر إلى الخلافة فسيطر عليه النساء والحاشية والترك، وأنفق أموال الدولة على المسيطرين عليه حتى ذكر ابن الأثير: أن المقتدر أهمل من أحوال الدولة كثيرا، وحكم فيها النساء والخدم، وفرط من الأموال وعزل من الوزراء، وولى ما أوجب طمع أصحاب الأطراف والنواب وخروجهم عن الطاعة، وكان جملة ما أخرجه من الأموال تبذيرا وتضييعا في غير وجه. . واذا اعتبرت أحوال الخلافة في أيامه وأيام المكتفي ووالده المعتضد رأيت بينهم تفارقا عجيبا.

استمرت سيطرة الأتراك على الخلافة العباسية، حتى استولى بنو بويه على بغداد، وآلت سيطرة الترك على الخلافة إلى البويهيين الفرس، وشهدت الخلافة العباسية أسوأ أيامها في عهد نفوذ البويهيين فهم شيعة يخالفون مذهب الخليفة السني.

عصر أمرة الأمراء
(٣٢٤ ـ ٣٣٤ هـ)

رأينا أن الحركات الاستقلالية في بلاد فارس كثرت في العصر العباسي الثاني، وقامت الدول الطاهرية والصفارية والسامانية، والبويهية والغزنوية وأقام مرداويج بن زيار ـ أحد قواد الديلم ـ في دولة فارس دولة شملت الري وهمدان وأصبهان وحلوان، وحدثته نفسه بالمسير إلى بغداد لاسقاط الخليفة العباسي، وإعادة مجد الفرس القديم، وضعفت الدولة الزيارية بعد وفاة مرداويج، وتولية وشمكير، حيث هاجمها البويهيون والسامانيون.

وكان الخليفة العباسي الراضي في حالة من الضعف لا تسمح له بوقف هذه الحركات الاستقلالية، واستعان بوزراء ضعاف لم يمكنوه من بسط سلطانه على الدولة، لذلك استمال ابن رائق ــ وكان يلي واسط والبصرة ــ وسلم إليه مقاليد الأمور، ولقبه أمير الأمراء، وأسند إليه كافة شؤون الدولة، وعهد إليه بالقضاء على نفوذ الأتراك، ومنع تدخلهم في أمور الدولة.

ازداد سلطان ابن رائق، وأصبح بيده تولية الولاة وعزلهم وازدادت مكانته عند الخليفة حتى علت على مكانة الوزير، وأمر أن يخطب له على جميع المنابر. وبذلك سيطر على الأجهزة الادارية والمالية في الدولة، ولم يعد الوزير ينظر في شؤون النواحي ولا الدواوين، وزال نفوذه، واقتصر عمله على الحضور إلى دار الخلافة في أيام المواكب مرتديا السواد، وظل ابن رائق وكاتبه يسيران أمور الدولة. وصار بيده تولية الوزراء وعزلهم، وبالطبع كان يختار وزراء ضعاف حتى يضمن ولاءهم له، وبذلك أصبح ابن رائق ملكا غير متوج في الدولة العباسية.

على أن ابن رائق لم ينعم طويلا بما بلغه من نفوذ وسلطان ذلك أن الأمراء الأقوياء في الدولة، نقموا عليه ما بلغه من نفوذ وسلطان، فدخل أبوعبدالله البريدي ــ صاحب الأهوازــ بغداد سنة ٣٢٦ هـ، وفي العام التالي ــ أقصد ٣٢٧ هـ خرج بجكم على، ابن رائق، وقبض على زمام الأمور في بغداد، وعاث جنده فسادا وتخريبا في الحاضرة العباسية واستصدر قرارا من الخليفة العباس الراضي، بتوليته منصب أمير الأمراء، بدلا من ابن رائق.

ولكن الخليفة الراضي عجز عن تدبير أرزاق الجند، وتسديد نفقاته، وأراد أن يكفل الاستقرار لدولته، ولمدينة بغداد فعقد اتفاقا بين ابن رائق وبجكم، بمقتضاه يلي ابن رائق بلاد الشام، ويبقى بجكم في بغداد، وتوفي الخليفة الراضي سنة ٣٢٩ هـ. وفي عهد هذا الخليفة يقول ابن الأثير؛ ولم يبق للخليفة غير بغداد وأعمالها، والحكم في جميعها لابن رائق، ليس للخليفة حكم. أما باقي الأطراف، فكانت البصرة في يد ابن رائق وخوزستان في يد البريدي، وفارس في يد عماد الدولة بن بوية وكرمان في يد أبي علي محمد بن الياس، والري وأصبهان والجبل في يد ركن الدولة بن بوية وبيد وشمكير أخي مرداويج يتنازعان عليها، والموصل وديار بكر ومضر وربيعة في يد بني حمدان، مصر والشام في يد محمد بن طغج.. وخراسان وما وراء النهر في يد نصر بن أحمد الساماني وطبرستان وجرجان في يد الديلم، والبحرين واليمامة في يد أبي طاهر القرمطي.

ولي المتقي الخلافة بعد الراضي، وأقر بجكم أميرا للأمراء ولكن قتله بعض الأكراد، فاستدعى الخليفة، ابن رائق ــ الذي كان يلي الشام ــ وعهد اليه بمنصب أمير الأمراء. وبذلك تولى ابن رائق هذا المنصب للمرة الثانية. غير أن ابن رائق لم يتمتع أيضا بهذا المنصب فسرعان ما أرسل أباعبدالله البريدي أخاه أباالحسن إلى بغداد على رأس جيش من الأتراك والديلم للتخلص من ابن رائق،

والسيطرة على بغداد. وعاث البريديون فسادا في بغداد، وسخط عليهم أهلها، واشتبكوا معهم في معارك متعددة، ولم يلبث الخليفة أن استوزر أبا إسحاق الاسكافي، وعهد إليه بطرد البريديين من بغداد وفعلا طردهم وتخلص منهم ومن شرورهم.

وفي غضون ذلك ارتفع شأن الحمدانيين، وسطع نجمهم في آفق الدولة العباسية، ولقب الخليفة الحسن بن عبدالله ناصر الدولة وأخيه أبي الحسن لقب سيف الدولة، وطمع ناصر الدولة في منصب أمير الأمراء، فاغتال ابن رائق ليحل محله، وعهد إليه الخليفة بأمرة الأمراء سنة ٣٣٠ هـ.

بدأ ناصر الدولة عهده باصلاح السكة، وحال دون عبث العيارين والصيارف بعيارها، على أن حال بغداد في عهد ناصر الدولة لم تتحسن، فقد اشتد فيها الغلاء، واضطرب الأمن، وتعرض الأهلين لهجمات اللصوص وقطاع الطرق وهرب أناس من بغداد، وتعطلت الأعمال التجارية، واضطرب الجهاز الحكومي.

كما استاء الخليفة من ناصر الدولة الذي استبد بالبلاد دونه، وضيق على الخليفة في نفقاته، وانتزع ضياعه وضياع والدته.

سارع الخليفة المتقي بالتخلص من ناصر الدولة، فلما رحل إلى الموصل، انتهز الفرصة، وعزله سنة ٣٣١ هـ وعهد إلى توزون بأمرة الأمراء، وكان قد أظهر شجاعة في طرد البريديين من البصرة وواسط. ولكن توزون استبد بالخليفة وأضعف من سلطانه، وأساء إليه، لذلك خرج الخليفة من بغداد، وتوجه إلى تكريت، واستعان ببني حمدان على توزون، ولكن بني حمدان فشلوا في التخلص من توزون فاستعان الخليفة بمحمد بن طغج الأخشيد، ولما تأخر الأخشيد في القدوم إلى الخليفة، رأى أن يصالح توزون حتى لا يكون تحت رحمة الحمدانيين

الذين ضايقوه وأذلوه، وتظاهر توزون بمصالحة الخليفة، واستعد للقائه في بغداد بما يليق ومكانته، ولم يلبث أن قبض عليه، وهو في طريقه إلى حاضرة الخلافة، ثم سمل عينيه وحبسه، وولى المستكفي بالله الخلافة، وتوفي توزون سنة ٣٣٤ هـ وخلفه في امرة الأمراء ابن شيرزاد ــ كاتبه ولكن ابن شيرزاد استبد بالناس، وصادر أموال الأغنياء، وفرض الضرائب الباهظة حتى يرضي جنده بالمال، فاستاء أهل بغداد، وضاقت بهم سبل المعيشة، فغادرها كثير منهم وكثر فيها اللصوص الذين سلبوا أموال وأمتعة الناس.

وبذلك لم يؤد نظام إمرة الأمراء إلى استقرار الدولة بل اضطربت بسبب تنافس القواد حول الوصول إلى هذا المنصب، وقاسى الخليفة والرعايا من تعسف وظلم الأمراء وجندهم.

الفصل الثالث

الدول الاسلامية المستقلة في الشرق والغرب

تعرضت الدولة العباسية لكثير من الاضطرابات السياسية بسبب ازدياد نفوذ الأتراك منذ عهد الخليفة المعتصم (٢١٨ ـ ٢٢٧ هـ /٨٣٢ ـ ٨٤١م) وأخذت العناصر التي غلبت على أمرها كالفرس والعرب تعمل على اقتطاع بعض بلدان الدولة العباسية والاستقلال بها، فأقام الفرس في شرق الدولة العباسية دولا مستقلة عن الخلافة العباسية، وهي الدول الطاهرية والصفارية والدولة السامانية والدولة البويهية وأقام العرب الدولة الحمدانية في الموصل وحلب.

وهنا يجب أن نبرز حقيقة هامة، وهي أن هذه الدول المستقلة ظلت تعترف بسيادة الخليفة العباسي الإسمية عليها، وتتمثل في ذكر اسم الخليفة في الخطبة، ونقشه على العملة، فضلا عن أن حكام هذه الدول حرصوا على الحصول عند توليتهم على تقليد من الخليفة بحكم البلاد التي يحكمونها حتى يكتسب حكمهم في نظر رعاياهم الصفة الشرعية.

الدول الفارسية المستقلة في شرق الدولة العباسية

١ ـ الدولة الطاهرية (٢٠٥ - ٢٥٩ هـ / ٨٢٠ - ٨٧٢م):

أقام طاهر بن الحسين الدولة الطاهرية في شرق الدولة العباسية، وهو من كبار قواد الدولة العباسية، فقاد جيش المأمون ضد قوات الأمين وهزم الأمين ويسر للمأمون أمر تولي الخلافة، وكافأه المأمون بأن أسند إليه ولاية خراسان، غير أنه كان طموحا يعمل على تحقيق مطامع قومية، فوطد نفوذه في خراسان، واستطاع أن يكون منها أول إمارة مستقلة عن الخلافة العباسية سنة ٢٠٥ هـ / ٨٢٠م.

اتخذ الطاهريون نيسابور حاضرة لدولتهم، وقد أعادوا السلم إلى هذه البلاد، وقضوا على عناصر الفوضى والاضطراب فيها، كما عنوا بتنمية ثروة البلاد الزراعية. وظل الطاهريون مخلصين للخلفاء العباسيين ويؤدون جزية سنوية لهم ووقفوا إلى جانبهم في القضاء على حركات التمرد والعصيان التي حدثت ضدهم.

لما توفي طاهر بن الحسين سنة ٢٠٧ هـ /٨٢٢م ظل حكم خراسان في أيدي أبنائه حتى اضطربت الدولة الطاهرية واستنجد أهل خراسان بالأمير يعقوب بن الليث الصفار لإعادة الأمن والطمأنينة إلى بلادهم، فزحف الأمير الصفاري إلى نيسابور سنة ٢٥٩ هـ / ٨٧٢م واستولى عليها وعلى جميع بلدان دولة الطاهريين، وبذلك زالت دولتهم.

٢ ـ الدولة الصفارية (٢٥٤ ـ ٢٩٠ هـ / ٨٦٨ ـ ٩٠٢م):

تنسب الدولة الصفارية إلى يعقوب بن الليث الصفار، كان فارسا شجاعا، اشتهر أمره في أقليم سجستان، حتى عهد إليه والي سجستان بقيادة جنده، ثم خلفه في حكم ولايته..

على أن يعقوب بن الليث لم يكتف بحكم سجستان، بل بسط سيطرته على معظم أرجاء فارس، بما في ذلك أقليم خراسان الذي انتزعه من الطاهريين وبذلك استطاع أن يؤسس ملكا واسعا على الرغم من أنه لم يكن من بيت عريق.

اشتهر يعقوب بن الليث باليقظة وحسن التدبير، وكان لا يطلع أحدا على سره، ولا يعرف أحدا تدبيره وعزمه، وقد عمل على التقرب إلى الخليفة العباسي، بإرساله الهدايا إليه. لكن علاقته ساءت بعد ذلك بالخليفة العباسي، فقاد يعقوب جيشه إلى بغداد لمحاربته، لكن العباسيين أوقعوا به الهزيمة سنة ٢٢٢ هـ/ ٨٧٥م، فانسحب إلى نيسابور، وتوفي سنة ٢٦٥/ ٨٧٨م، وخلفه أخوه عمرو بن الليث الذي وجه اهتمامه إلى توطيد نفوذه في دولته، فوضع نظاما دقيقا لمراقبة عماله وقواده، ورتب موارد الدولة وعمل على زيادتها، ورأى أن يحقق أطماعه في توسيع رقعة بلاده، فهاجم بلاد الدولة السامانية المجاورة لدولته، واشتبك في معركة ضارية مع الأمير الساماني اسماعيل بن أحمد، هزم عمرو فيها سنة ٢٨٨ / ٩٠٠م.

أخذت الدولة الصفارية في الضعف والانهيار بعد هزيمة عمرو بن الليث ولم يستطع خلفاؤه من بعده المحافظة على الدولة، وتمرد عليهم قادتهم، فانتهز العباسيون هذه الفرصة وانتزعوا بعض أقاليم الدولة الصفارية، على حين استولى السامانيون على البقية الباقية من أراضي هذه الدولة.

٣ ـ الدولة السامانية (٢٦١ ـ ٣٨٩ هـ / ٨٧٤ ـ ٩٩٨م):

أقام السامانيون دولة في خراسان وبلاد ماوراء النهر على أنقاض الدولة الصفارية والسامانيون أصحاب نسب عريق، إذ أن جدهم سامان ينسب إلى بهرام جور ـ أحد ملوك الفرس السامانيين.

دخل السامانيون في خدمة الخلفاء العباسيين، وقدر الخلفاء إخلاصهم واشتهر من بينهم نصر بن أحمد الساماني الذي ولاه الخليفة العباسي حكم بلاد ما وراء النهر سنة ٢٦١ / ٨٧٤م واتخذ سمر قند مركزا له.

ازدادت شهرة السامانيين في البلاد المجاورة حتى أن بخارى لما اضطربت أمورها، استنجد أهلها بالأمير نصر الساماني في سمر قند، فأرسل إليهم أخاه إسماعيل، فأكرموا وفادته وأقروه واليا عليهم من قبل أخيه نصر. وبذلك انضمت بخارى إلى الدولة السامانية، ونشر السامانيون الأمن في بخارى بعد أن آلت إليهم، وطهروها من اللصوص وقطاع الطرق، فأمن الناس على أموالهم وأنفسهم.

اتسعت رقعة الدولة السامانية في عهد الأمير إسماعيل بن أحمد الساماني فلم تعد تشمل بلاد ماوراء النهر، بل أصبحت تضم خراسان بعد الهزيمة التي ألحقها الأمير الساماني اسماعيل بعمرو بن الليث وفوضه الخليفة العباسي حكم هذه البلاد، ولم يلبث إسماعيل أن ضم طبرستان إلى دولته، واستولى على الري، وأمن بلاده من غارات الترك، وجنبها ويلاتهم.

اتخذ إسماعيل من بخارى حاضرة لدولته، وازدهرت في عهده، إذ أقام فيه المنشآت الضخمة والقصور المنيفة والمدارس، ووفد عليها العلماء ولقوا كل تشجيع من الأمير الساماني. وقد حكم إسماعيل أكثر من ثلاثين سنة أظهر خلالها العدل والإحسان بين رعايا دولته وكان لا يتهاون مع عماله إذا ظلموا الرعية.

أخذت الدولة السامانية في الضعف والانهيار، بعد وفاة الأمير إسماعيل فقد انقسم البيت الساماني على نفسه طمعا في السيادة والحكم، وضعف أمر الأمراء السامانيين حتى أصبحوا ألعوبة في أيدي كبار رجال الدولة. وقد أدى ضعف الدولة السامانية إلى ازدياد نفوذ الترك، فارتفع شأنهم في البلاط الساماني، بعد أن كانوا مجرد خدم وأتباع، ذلك أن هؤلاء الأتراك ما لبثوا أن تقلدوا المناصب العالية في الجيش والإدارة المدنية، واستغلوا نفوذهم الواسع في العمل على إضعاف الدولة السامانية والتعجيل بزوالها.

زالت الدولة السامانية ـ بعد أن ظلت تحكم آسيا الوسطى ـ قرابة مائة وخمس وأربعين عاما. وجدير بالذكر أن الحضارة الإسلامية ازدهرت في عهد السامانيين حتى كانت بخارى وسمرقند وغيرهما تحت حكمهم منارا للعلم، يفد إليها الطلاب للدراسة، وفي عهد الأمير منصور بن نوح ظهر الإنتاج العلمي للفيلسوف والطبيب ابن سينا ومن أهم كتبه كتاب القانون في الطب الذي كان المرجع الأساسي لدراسة علم الطب في أوربا في العصور الوسطى.

٤ ـ الدولة البويهية (٣٣٤ ـ ٤٤٧ هـ /٩٤٥ ـ ١٠٥٥م):

كان البويهيون جنودا مغامرين، استطاعوا بفضل مقدرتهم وكفاءتهم العسكرية أن يتغلبوا على بعض بلدان فارس، وفي سنة ٣٣٤ هـ /٩٤٥م دخل أحمد بن بويه مدينة بغداد، وأسند إليه الخليفة المستكفي منصب أمير الأمراء ولقبه بلقب معز الدولة.

عمل الأمراء البويهيون على إضعاف سلطة الخلفاء العباسيين، فلم تمض أسابيع قليلة على دخول معز الدولة بغداد حتى عزل الخليفة وولى الفضل بن المقتدر الخلافة، ولقب المطيع «وأصبح الخلفاء العباسيون ألعوبة في أيدي البويهيين يولونهم ويعزلونهم كيفما شاءوا».

بلغت الدولة البويهية أوج عظمتها في عهد عضد الدولة، فاتسع سلطانه ونهض بمرافق البلاد كما عمل على تشجيع العلماء وشيد المساجد والبيمارستانات وغيرها من المنشآت العامة، وعني بتحسين أحوال الزراعة. فأصلح القنوات والآبار كما عمل على تيسير سبل العيش لرعاياه.

ضعفت الدولة البويهية بعد وفاة عضد الدولة بسبب النزاع بين أبنائه حول ممتلكات أبيهم، وازداد تمرد ضباط الجيش الأمر الذي يسر لأمراء البلدان المجاورة انتزاع بلدانها ولما ارتفع شأن السلاجقة وقوي أمرهم، قاموا بتوسيع رقعة دولتهم، فانتزعوا باقي أراضي الدولة البويهية في فارس والعراق.

الدول التركية شرق الدولة الإسلامية

١ ــ الدولة الغزنوية (٣٥١ ـ ٥٨٢ هـ /٩٦٢ ـ ١١٨٦م):

كان لازدياد نفوذ الأتراك في بعض مناطق الدولة الإسلامية أثره في تطلعهم إلى أن تكون لهم السيادة في هذه المناطق، فتجلت أطماعهم في الاستقلال بالولايات الشرقية منذ استعان بهم السامانيون في إدارة شئون دولتهم فكان البتكين يعمل في الجيش الساماني، وما زال يرتقي في سلك الوظائف حتى ولي منصب حاجب الحجاب في بلاط السامانيين، ثم ولي أقليم خراسان من قبل الحكومة السامانية. على أن البتكين تمرد على الأمير الساماني وزحف إلى غزنة (في أفغانستان) وتغلب عليها وانتزعها من الوالي الساماني واستقل بها عن الدولة السامانية ٥٣٢ هـ /٩٦٢م.

ولم يكتف بحكم غزنة، بل استولى على بعض البلاد المجاورة لها وبذلك وضع أساس دولة جديدة، سميت بالدولة الغزنوية نسبة إلى غزنة.

ويعتبر سبكتكين المؤسس الحقيقي للدولة الغزنوية، كان من موالي ألبتكين، وولي الإمارة الجديدة سنة ٣٦٧ هـ /٩٧٧م، بعد أن أجمع الجند على توليته، واستطاع بحسن سياسته وبعد همته اكتساب محبة شعبه، ولم يلبث الخليفة العباسي أن اعترف بحكومته.

حرص سبكتكين على توسيع دولته الصغيرة، فبسط سيطرته على بعض بلدان أفغانستان، كما استولى على خراسان وشرع في غزو أطراف الهند، وسيطر على كثير من المعاقل والحصون هناك، فاتسعت رقعة إمارته وعمرت أرض خزانته، وأشفقت النفوس من هيبته، وتوفي سنة ٣٨٧هـ/ ٩٩٧م.

على أن أقوى سلاطين الدولة الغزنوية كان محمود بن سبكتكين الذي ولي الدولة بعد وفاة أبيه بفترة قصيرة، وقد استطاع هذا السلطان أن يسيطر على أملاك السامانيين في خراسان وبلاد ما وراء النهر، كما فتح بلاد الغور في أفغانستان، وكان الغور يقطعون الطريق، ويتخذون من بلادهم الجبلية الوعرة معصما لهم، فاشتبك معهم السلطان الغزنوي في عدة معارك نكل فيها بهم، وأخضعهم لسلطانه ونشر الإسلام بينهم.

أتم السلطان محمود فتح بلاد أفغانستان ثم استولى على بعض أملاك البويهيين في ايران، كذلك ضم إقليم خوارزم وطبرستان وجرجان وبلاد الجبل إلى دولته.

لم تقتصر جهود محمود الغزنوي على فتح البلاد في فارس، بل اتجه إلى غزو بلاد الهند وساعده في ذلك قرب غزنة من بلاد الهند الشمالية ووقوعها على قمة الهضبة التي تشرف على سهولها. ومن الثابت أن محمود الغزنوي كان مسلماً قوى العقيدة، تواقاً إلى نشر الإسلام في غير بلاد المسلمين، ورأى في بلاد الهند ميدان الجهاد الأكبر، فغزاها سبع عشرة غزوة، في مدى سبعة وعشرين عاماً حتى خضع له شمال شبه القارة الهندية.

اتخذ محمود الغزنوي لاهور مقراً لحكومته في الهند، وعين بها نائباً عنه في حكمها، ولقى الإسلام في الهند ترحيباً كبيراً من الطوائف الفقيرة، إذ كان حكامهم الهنود ينبذونهم ويحتقرونهم، أما الإسلام فساوى بينهم وبين غيرهم، ورفع من شأنهم.

ضعفت الدولة الغزنوية بعد أن اشتدت شوكة الأتراك السلاجقة وسيطروا على بعض أقاليم الدولة الغزنوية مثل خراسان، كما أن الغور في أفغانستان

خرجوا من عزلتهم الجبلية، وعملوا على مد نفوذهم فيها وراء حصونهم، وهاجموا البلاد الغزنوية، حتى سقطت في أيديهم البلدة تلو الأخرى، بما في ذلك غزنة، فانتقلت الحكومة الغزنوية إلى لاهور، لكن الغور ما لبثوا أن عبروا نهر السند، واستولوا على لاهور ـ آخر معاقل الغزنويين ـ وبذلك زالت الدولة الغزنوية بعد أن ظل سلاطينها يحكمون مساحات واسعة في قارة آسيا تضم شعوباً متعددة.

٢ ـ الدولة السلجوقية (٤٤٢ ـ ٥٩٠هـ/١٠٥٥ ـ ١١١٣م):

يرجع أصل السلاجقة إلى الترك الذين كانوا يقيمون في الصحراء الواسعة التي تمتد من حدود الصين حتى شواطىء بحر قزوين، وكثرت هجراتهم إلى شواطىء جيحون في وقت انهيار الدولة السامانية حيث المراعي الوفيرة واقتربوا بذلك من حدود الدولة الغزنوية، وازدادت قوة السلاجقة، وأصبحوا مصدر خطر على الغزنويين، وتولى أبناء سلجوق زعامة هؤلاء السلاجقة الرعاة الذين هاجروا إلى هذه الجهات، وأذن لهم السلطان محمود الغزنوي بعبور نهر جيحون، والاستقرار في اقليم خراسان ـ التابع لدولته ـ ولم يشكل السلاجقة خطراً على الدولة الغزنوية في عهد السلطان محمود، لأنهم كانوا يخشون بأسه، فلما توفى، وخلفه ابنه مسعود في حكم الدولة الغزنوية، لم يأبه السلاجقة، لأنه كان يختلف عن أبيه في صفاته وأخلاقه، فتمرد السلاجقة على السلطان مسعود الغزنوي، وحاولوا الاستقلال بالبلاد التي نزلوا فيها.

رأى السلطان مسعود ضرورة التخلص من السلاجقة وطردهم من إقليم خراسان. فجرد لهم جيشاً مني بهزيمة ساحقة، ودخل السلاجقة نيسابور ـ عاصمة إقليم خراسان وأعلنوا استقلالهم، واختاروا طغرلبك سلطاناً عليهم. وبذلك استطاع السلاجقة انتزاع إقليم خراسان من الدولة الغزنوية، وتكوين دولة جديدة تشمل هذا الإقليم، واعترف الخليفة العباسي بطغرلبك سلطاناً على الدولة

السلجوقية الجديدة، وأخذ طغرلبك يدير شئون البلاد مراعياً قواعد الإسلام والعمل على نشر العدل، ومكارم الأخلاق.

اتساع الدولة السلجوقية:

اتسعت الدولة السلجوقية في عهد أول سلاطينها طغرلبك، حتى ضمت بلاد جرجان وطبرستان وخوارزم والري وهمذان وأصفهان، واستنجد به الخليفة العباسي لتخليصه من العناصر الثائرة ضده، فدخل بغداد سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٥م، وتغلب على أعداء الخليفة العباسي.

خلف طغرلبك في حكم الدولة السلجوقية، ابن أخيه ألب أرسلان وقد زاد اتساع هذه الدولة في عهده بما ضمه إليها من البلاد، على أن أهم أعماله الحربية التي خلدت اسمه، كانت انتصاره الرائع في واقعة ملازكرد سنة ٤٦٣هـ/١٠٧١م على الإمبراطور البيزنطي رومانوس، وسبب هذه الواقعة أن البيزنطيين هددوا أطراف البلاد السلجوقية، فسار ألب أرسلان على رأس جيش كبير والتقى بالروم في ملازكرد، وعلى الرغم من أن جند الروم كانوا أكثر من جند السلاجقة إلا أن ألب أرسلان أحرز انتصاراً رائعاً على أعدائه، ووقع الإمبراطور البيزنطي أسيراً في أيدي السلاجقة. غير أن ألب أرسلان أحسن معاملة خصمه، ولم يمض وقت طويل حتى أطلق السلطان ألب أرسلان سراح الإمبراطور البيزنطي بعد أن وعد بدفع فدية كبيرة، ومن أبرز نتائج هذه الواقعة اتساع الدولة السلجوقية في آسيا الصغرى، بينما انكمشت الدولة البيزنطية وأصبحت تخشى نهايتها على أيدى السلاجقة، لذلك استنجد الأباطرة البيزنطيون عقب واقعة ملازكرد بزعماء أوروبا لدفع خطر الأتراك السلاجقة عنهم.

وفي سنة ٤٦٥هـ/١٠٧٢م ولى ملكشاه حكم الدولة السلجوقية فوجه اهتمامه إلى القضاء على الثورات والفتن الداخلية، وبذلك بذل في سبيل ذلك

جهوداً مضنية حتى عم الأمن والسلام أرجاء دولته، كما واصل سياسة أبيه في العمل على مد نفوذه إلى كثير من أراضي الدولة الإسلامية.

نهاية السلاجقة:

بلغت الدولة السلجوقية أوج عظمتها في عهد السلطان ملكشاه، ثم أخذت في الضعف والتدهور بعد وفاته سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م نتيجة النزاع بين الأمراء السلاجقة على العرش، والمحاولات المتكررة التي بذلها حكام الأقاليم للاستقلال عن الدولة السلجوقية، وكثرة المؤامرات والدسائس في قصور السلاجقة، فضلاً عن سوء الأحوال الاقتصادية وحملات الصليبيين على بلادهم، ولما ازدادت الدولة السلجوقية ضعفاً عمل الخلفاء العباسيون على استرداد نفوذهم على البلاد التي انتزعها منهم سلاطين السلاجقة فحرض الخليفة الناصر لدين الله علاء الدين محمد خوارزم شاه ـ سلطان الدولة الخوارزمية ـ على التخلص من طغرلبك الثالث، فسار علاء الدين إلى السلطان السلجوقي واشتبك معه سنة ٥٩٠هـ/١١٩٧م في معركة انتهت بهزيمة السلطان السلجوقي وقتله. وبذلك انتهت الدولة السلجوقية.

الدول المستقلة في مصر والشام:

١ ـ الدولة الطولونية (٢٥٤ ـ ٢٩٢هـ/٨٦٨ ـ ٩٠٥م):

كانت مصر ولاية تتبع الدولة العباسية يحكمها ولاة يعينهم الخليفة العباسي، ويخضعون له مباشرة، ولما ازداد نفوذ الأتراك منذ عهد الخليفة المعتصم كان الخلفاء يولونهم الولايات، على أن الولاة الأتراك كانوا يفضلون الإقامة في حاضرة الخلافة في بغداد أو سامراً، ويرسلون نواباً من قبلهم إلى الولايات التي يتولون حكمها.

ومن هؤلاء الولاة باكباك التركي الذي ولاه الخليفة العباسي حكم مصر فعهد إلى أحمد بن طولون بحكم مصر نيابة عنه، ولما توفى باكباك ولى يارجوخ حكم مصر، فأبقى على أحمد بن طولون نائباً له في حكم مصر، وأطلق يده في إدارة مصر. وفي سنة ٢٥٩هـ/٨٧٢م توفى يارجوخ، فعهد الخليفة العباسي إلى أحمد بن طولون بولاية مصر، فأصبح بذلك والياً من قبل الخلافة مباشرة.

واجه أحمد بن طولون عدة صعوبات، لكنه استطاع التغلب عليها وذلك لحسن سياسته وعلو همته وشجاعته، وأسند إليه الخليفة العباسي حكم الثغور الشامية، وقد مهد ذلك له أمر السيطرة على كافة بلاد الشام وضمها إلى دولته.

ومن أهم الانجازات التي قام بها أحمد بن طولون في مصر انشاء مدينة القطائع، واتخاذها حاضرة لدولته بدلاً من العسكر التي كانت حاضرة لمصر في أيام العباسيين، وقد اتخذ بمدينته الجديدة قصراً، واتخذ أمامه ميداناً فسيحاً، ثم شيد كبار رجال دولته وقواده وأتباعه دورهم حول هذا المكان، وفي هذه المدينة أقامت الطوائف المختلفة، وأقامت كل طائفة في قطيعة، لهذا سميت المدينة بالقطائع.

ولم تلبث أن عمرت المدينة واتسعت حتى اتصلت بالفسطاط كما شيد أحمد بن طولون في القطائع مسجداً فخماً لا يزال قائماً حتى اليوم.

تولى خمارويه حكم الدولة الطولونية بعد وفاة أبيه، وقد بذل جهده للمحافظة على بلدان الدولة التي ورثها عن أبيه وصد الطامعين عنها. وكان محباً للترف يبذل الأموال الضخمة على أبهة بلاطه وقصوره ومتنزهاته.

تحسنت العلاقات بين خماروية والخليفة العباسي المعتضد، وكان من أثر سياسة حسن التفاهم بينهما أن تزوج الخليفة المعتضد من قطر الندى ابنة خمارويه، وبلغت نفقات الجهاز مليون دينار، وأمر خماروية أن يبني لابنته قصراً

على رأس كل مرحلة تنزل فيها فيما بين مصر وبغداد، وبه كل ما تحتاج إليه من وسائل الراحة وأسباب الرفاهية كأنها في قصر أبيها.

ضعفت الدولة الطولونية بعد وفاة خمارويه، وانتشرت الفوضى في البلاد وثار الجند، وتنازع المتنافسون حول السلطة، ولم يستطع الطولونيون المحافظة على أملاك مصر في الشام، لذا أرسل الخليفة العباسي المكتفى جيشاً إلى مصر لاستردادها من آل طولون بقيادة محمد بن سليمان الكاتب، فزحف إلى مصر وفر الأمراء الطولونيون منها، ودخل القائد العباسي مدينة القطائع سنة ٢٩٢هـ/٩٠٤م، وأشعل فيها النار، ونهبت رجاله الفسطاط وهكذا زالت الدولة الطولونية بعد أن حكمت مصر ثمانية وثلاثين سنة، وعادت مصر إلى حظيرة الدولة العباسية.

٢ ـ الدولة الأخشيدية (٣٢٣ ـ ٣٥٨هـ/٩٣٥ ـ ٩٦٩م):

تنسب الدولة الأخشيدية إلى مؤسسها محمد بن طغج الأخشيد ـ وهو من أصل تركي ـ وفد إلى بغداد، واشتهر أمره في الدولة العباسية منذ سنة ٣٠٦هـ/٩١٧م حين ولى بعض أقاليم الشام.

ساءت حالة مصر بعد سقوط الدولة الطولونية واضطربت أمورها بسبب ضعف الخلفاء العباسيين، وعجزهم عن ضبط البلاد المصرية، وتعرضت مصر في ذلك الوقت لغزوات الفاطميين الذين أسسوا دولة في شمال أفريقية وتطلعوا إلى مد سلطانهم إلى مصر. لكن محمد بن طغج الأخشيد أبلى بلاءاً حسناً في صد غزوات الفاطميين عن مصر، وكافأه الخليفة العباسي على عمله هذا بأن أسند إليه ولاية مصر، ولم تلبث سلطة الأخشيد أن اتسعت بعد أن أعاد بلاد الشام إلى حوزته وقلده الخليفة العباسي ولاية الحرمين واليمن.

واجه محمد بن طغج الأخشيد أطماع سيف الدولة الحمداني في دمشق فقامت الحرب بينهما، وانتهت بعقد الصلح في ربيع الأول سنة ٣٣٤هـ/٩٤٥م تضمنت شروطه أن يكون لسيف الدولة حلب وما يليها من بلاد الشام وأن يكون للأخشيد دمشق وأعمالها وأن يدفع الأخشيد لسيف الدولة جزية سنوية.

لما توفى الأخشيد بدمشق في أواخر سنة ٣٣٤هـ/٩٤٥م خلفه بعهد منه ابنه أبو القاسم أنوجور، وقام بتدبير أمره كافور الأخشيدي الذي أخذ يترقى في بلاط الأخشيد حتى أصبح مربياً لأولاده، وقائداً من قواده، وقد اكتسب كافور محبة رؤساء الجند وكبار الموظفين، وخاطبه علية القوم بالأستاذ، وظل أنوجور بن الأخشيد مسلوب السلطة حتى وفاته، واستمر كافور يباشر بنفسه أمور الدولة حتى سنة ٣٣٥هـ/٩٦٥م حيث ورد إليه كتاب من الخليفة العباسي بتقليده ولاية مصر وما يليها من البلاد.

على أن كافور لم يستمر طويلاً في حكم مصر، فقد توفى في جمادي الأولى سنة ٣٥٧هـ/٩٦٧م، واجتمع كبار القواد ورجال الدولة، وأسندوا الولاية لأبي الفوارس أحمد ـ حفيد الأخشيد ـ ولم يكن قد تجاوز الحادية عشرة من عمره. وأصبحت البلاد في عهده مسرحاً للفوضى، كما ساءت في أيامه الحالة المالية، الأمر الذي يسر للفاطميين فتحها سنة ٣٥٨هـ/٩٦٨م.

الدول المستقلة في غرب الدولة الإسلامية:

١ ـ دولة الأدارسة: (١٧٢ ـ ٣٧٥هـ/٧٨٨ ـ ٩٨٥م):

قامت دولة الأدارسة في بلاد المغرب على يد الإمام إدريس بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب الذي فر من أيدي العباسيين سنة

١٦٩هـ في عهد الخليفة الهادي، وأقام الأدارسة في المغرب الأقصى دولة علوية سنة ١٧٢هـ/٧٨٨م، التف حولها البربر.

خشي الخليفة الرشيد تفاقم خطر إدريس بن عبدالله، فأرسل رجلاً إلى المغرب الأقصى يعرف بالشماخ حيث التقى بإدريس، وتظاهر بمحبته للعلويين ثم عمد إلى التخلص منه، على أن موت إدريس لم يقض على دولة الأدارسة فولى أتباعه ابنه الصغير الذي عرف بإدريس الثاني، وبايعوه بالخلافة وبذلك خرجت بلاد المغرب الأقصى من سلطان العباسيين.

شرع إدريس الثاني في بناء مدينة فاس سنة ١٩٢هـ/٧٠٧م وتم بناؤها في السنة التالية، واتخذها حاضرة لدولته، كما وجه همته لمحاربة الخوارج وأحل بهم الهزيمة، وكتب إلى إبراهيم بن الأغلب والي افريقية (تونس) حين علم بعزمه على محاربته يذكر له قرابته للرسول ﷺ فكف عن محاربته.

لما توفي إدريس الثاني سنة ٢١٣هـ/٨٢٨م، أخذت دولة الأدارسة في الضعف بسبب الخلافات بين أمرائها، وكان ذلك مما سهل على الفاطميين في عهد عبيد الله المهدي القضاء على نفوذهم ببلاد المغرب.

٢ ـ دولة الأغالبة (١٨٤ ـ ٢٩٦هـ/ ٨٠٠ ـ ٩٠٩م):

كان قيام دولة الأغالبة في افريقية (تونس) نتيجة هذه السياسة التي سار عليها الخليفة العباسي الرشيد في بلاد المغرب، وهي العمل على اخماد ثورة البربر، والوقوف في وجه الأدارسة إذا أرادوا الإغارة على أراضي الدولة العباسية، فعهد إلى إبراهيم بن الأغلب بولاية تونس سنة ١٨٤هـ/ ٨٠٠م، وكان يرمي من وراء توليته العمل على تأديب البربر وغيرهم من القواد.

وقد وجه إبراهيم بن الأغلب اهتمامه بعد أن آلت إليه مقاليد الحكم في افريقية (تونس) إلى ضبط أمورها ،| وبنى في سنة ١٨٥هـ/٨٠١م مدينة على بعد ثلاثة أميال من القيروان عرفت باسم العباسة.

على أن سلطان الأغالبة في بلاد افريقية ما لبث أن أخذ في الضعف بعد وفاة إبراهيم بن الأغلب بسبب الثورات التي أشعل نارها البربر، والمنازعات التي قامت بين أفراد أسرة الأغالبة، هذا إلى ميل فريق من وزرائها إلى المذهب الشيعي الذي انتشر إذ ذاك في بلاد المغرب مما مهد السبيل أمام دعاة الفاطميين للقضاء على دولتهم سنة ٢٩٦هـ/٩١٩م في عهد زيادة الله الثالث آخر أمراء الأغالبة.

الدولة الفاطمية (٢٩٧ - ٥٦٧هـ/٩٠٩ - ١١٧١م):

قامت الخلافة الفاطمية في بلاد المغرب بفضل دعاة الإسماعيلية الذين كانوا يدعون إلى أن تكون الخلافة في سلالة علي بن أبي طالب عن طريق ابن الحسين. وينتهي الإسماعيلية إلى إسماعيل بن جعفر الصادق أحد أحفاد الحسين. ومن أشهر دعاتهم في بلاد المغرب أبو عبدالله الشيعي - الذي صادفت دعوته شيئاً كثيراً من النجاح، وأرسل إلى عبيدالله وهو من أحفاد إسماعيل بن جعفر الصادق. وكان إذ ذاك يقيم بسلمية في شمال الشام - وفدا يدعوه للقدوم إلى بلاد المغرب ليتولى الحكم فيها.

وقد استطاع عبيدالله رغم الجهود التي بذلتها الخلافة العباسية للقبض عليه أن يصل إلى مصر، ثم يخرج منها مع أتباعه إلى بلاد المغرب، حيث وجد الأمور ممهدة لتوليته الخلافة، فقد استطاع داعيته أبو عبدالله الشيعي أن يمد نفوذه على معظم أرجاء المغرب عن طريق الحرب والفتح.

الاندلس
المغرب الاوسط
المغرب الأقصى
بحر الروم
افريقية
الدولة الفاطمية
بلاد النوبة

خريطة رقم (٤)

وأخذت البيعة لعبيدالله بسجلماسة بالمغرب الأقصى، ثم رحل عن هذه المدينة قاصداً افريقية (تونس) حيث نزل بقصر من قصور مدينة رقادة على مقربة من القيروان واتخذها حاضرة له في شهر ربيع الآخر سنة ٢٩٧هـ/٩٠٩م وأمر بذكر اسمه في الخطبة، على منابر البلاد وتلقب بالمهدي أمير المؤمنين وبذلك قامت الخلافة الفاطمية في شمال افريقية.

لم تقتصر مجهودات عبيدالله المهدي على توطيد سلطان خلافته بالمغرب بل شرع في بناء حاضرة في مكان يتوسط أجزاء دولته، ووقع اختياره على مكان يقع على بعد ستين ميلاً جنوبي القيروان، حيث وضع أساس مدينة جديدة سماها المهدية، انتقل إليها سنة ٣٠٨هـ، واتخذها حاضرة لخلافته.

آلت الخلافة الفاطمية بعد وفاة عبيدالله المهدي سنة ٣٢٢هـ إلى ابنه أبي القاسم الذي لقب بالقائم بأمر الله. وقد شغل طيلة خلافته بالعمل بالقضاء على ثورات البربر التي اشتد خطرها في عهده، وواصل ابنه المنصور الذي خلفه بعد وفاته سنة ٣٣٤هـ سياسته في تعقب حركات البربر والقبائل الخارجة على حكمه، واستطاع بعد قضائه على الصعوبات التي واجهته أن يعيد تنظيم بلاد المغرب ويعمل على انعاش مواردها، وأسس مدينة جديدة سنة ٣٣٧هـ عرفت بالمنصورية اتخذها حاضرة له.

المعز لدين الله وفتح مصر:

لما آلت الخلافة إلى المعز لدين الله بعد وفاة أبيه المنصور سنة ٣٤١هـ عنى بالعمل على توطيد نفوذ الخلافة الفاطمية في بلاد المغرب، فعهد إلى جوهر الصقلي باخضاع الأمراء الثائرين على الحكم الفاطمي في هذه البلاد كما شرع في مواصلة الجهود التي بذلها كل من الخليفتين عبيدالله المهدي والقائم بأمر الله

الفاطمي في فتح مصر، ومما شجعه على ذلك اضطراب الحالة السياسية في مصر بعد وفاة كافور الأخشيدي، فأسند قيادة الحملة التي أعدها لفتح مصر إلى جوهر الصقلي سنة ٣٥٨هـ/٩٦٨م، فسار جوهر على رأس جيشه حتى وصل برقة، فقدم له صاحبها فروض الولاء والطاعة ثم مضى جوهر في سيره قاصداً الإسكندرية، فدخلها من غير مقاومة، ومنع جنده من التعرض للأهلين.

ولما علم أهل الفسطاط بخبر وصول جوهر إلى الإسكندرية، توجه وفد منهم إليه لمفاوضته، وانتهت المفاوضة بكتاب الأمان الذي كتبه جوهر، وأعلنه للمصريين، تضمن تعهده بالعمل على استتباب الأمن ونشر العدل وتأمينهم على أنفسهم وأموالهم.

رأى جوهر بعد أن تيسر له فتح مصر، وضمها إلى حوزة الفاطميين أن يشرع في انشاء مدينة جديدة تكون حاضرة للدولة الفاطمية ومركزاً لدعوتها فوضع أساسها شمالي الفسطاط في ١٧ شعبان سنة ٣٥٨هـ وأنشأ بها قصراً للخليفة المعز عرف باسم القصر الشرقي الكبير، وقد أطلق جوهر على مدينته الجديدة اسم المنصورية، ولما قدم المعز لدين الله الفاطمي إلى مصر بعد أربع سنوات سماها القاهرة تفاؤلاً بأنها ستقهر الدولة العباسية وكل من يحاول الخروج على أميرها، وأقام جوهر حول تلك المدينة وقصر الخليفة سوراً أنشأ به أربعة أبواب: باب النصر، وباب الفتوح، وبابا زويلة.

رأى جوهر ضرورة انشاء مسجد في المدينة الجديدة تقام فيه شعائر المذهب الفاطمي، فشرع في بناء الجامع الأزهر في رمضان سنة ٣٥٩هـ/٩٧٠م وقد سمى هذا الجامع في بادىء الأمر بجامع القاهرة نسبة إلى العاصمة الجديدة، ثم سمى الجامع الأزهر نسبة إلى فاطمة الزهراء بنت الرسول، وجدة الخلفاء الفاطميين وكان الجامع الأزهر وقت انشائه يتوسط قاهرة الفاطميين.

ولما فرغ جوهر الصقلي من بناء القاهرة وتأسيس الجامع الأزهر أمر بحذف الدعوة لخلفاء بني العباس التي كانت تقام بمساجد مصر، وأقامها للخليفة المعز، ثم كتب إلى المعز بعد أن استقر سلطان الفاطميين في مصر يستدعيه ليتولى بنفسه زمام الحكم في البلاد.

قدم المعز لدين الله الفاطمي إلى مصر سنة ٣٦٢هـ/٩٧٣م وأحضر معه رفات آبائه (عبيدالله المهدي والقاسم والمنصور)، ولما وصل الإسكندرية في شعبان من السنة المذكورة، استقبله أعيان البلاد، ثم غادر الإسكندرية قاصداً القاهرة فوصلها في ٧ رمضان سنة ٣٦٢هـ، ونزل بالقصر الشرقي الذي بناه له جوهر. وأصبحت مصر منذ ذلك الحين دار خلافة بعد أن كانت ولاية فاطمية، وغدت القاهرة مركز الدولة الفاطمية.

العزيز بالله الفاطمي (٣٦٥ ـ ٣٨٦هـ/٩٧٥ ـ ٩٩٦م):

يعتبر عهد العزيز بالله الفاطمي عهد يسر ورخاء وتسامح ديني، وقد عمل على تحويل الجامع الأزهر إلى معهد للدراسة، فعين به بعض الفقهاء للقراءة والدرس، وكانوا يقصدون مجالسهم بهذا الجامع في كل جمعة بعد الصلاة حتى العصر، وظل الأزهر مركز الفقه الفاطمي إلى أن بنى جامع الحاكم بأمر الله فانتقل إليه الفقهاء لإلقاء دروسهم.

اتسعت رقعة الدولة الفاطمية في عهد العزيز، فاسترد بلاد الشام بعد قضائه على القرامطة وأفتكين التركي، كما أقيمت الدعوة له في بعض مدن العراق وبلاد الحجاز واليمن.

الحاكم بأمر الله (٣٨٦ - ٤١١هـ/٩٩٦ - ١٠٢٠م):

ولى الحاكم بأمر الله الخلافة بعد وفاة أبيه العزيز سنة ٣٨٦هـ، وله من العمر احدى عشرة سنة ونصف، وقام بالوصاية عليه برجوان الصقلبي حتى سنة ٣٩٠هـ حيث تخلص منه الحاكم وقبض على زمام الأمور في البلاد. وكانت سياسته تتصف في بعض الأحيان بكثير من العنف، فأصدر عدة قوانين للقضاء على الفوضى الاجتماعية التي سادت البلاد المصرية كما حرص على الإشراف بنفسه على مصالح دولته ولزم هذه الخطة طول حياته، وعلى الرغم من سياسة العنف التي سار عليها الحاكم بأمر الله فإنه كان متقشفاً في حياته العامة والخاصة، فمنع الناس من ذكر عبارة سيدنا ومولانا في المكاتبات الواردة إليه وحتم عليهم تنظيم القضاء وتطهيره من الرشوة كما وجه اهتمامه إلى مطاردة العابثين بالأمن.

وقد أظهر الحاكم في بعض فترات حكمه تعصباً شديداً للمذهب الفاطمي فعمد إلى إصدار كثير من الأوامر والقوانين التي تنطوي على مناهضة السنيين كما نبذ سياسة التسامح الديني الذي سار عليها كل من المعز والعزيز، واتسع نطاق اضطهاد أهل الذمة من النصارى واليهود في عهده.

كذلك اهتم الحاكم بأمر الله بالعمل على نشر الثقافة العلمية والأدبية فضلاً عن الثقافة المذهبية. فاسس سنة ٣٩٥هـ دار الحكمة وأطلق عليها هذه التسمية رمزاً إلى الدعوة الشيعية لأن مجالس الدعوة كانت تسمى مجالس الحكمة. وزود الحاكم هذه الدار بمكتبة، عرفت باسم دار العلم، حوت الكثير من الكتب في سائر العلوم والآداب من فقه ونحو ولغة وكيمياء وطب، وسمح لسائر الناس على اختلاف طبقاتهم بالتردد عليها.

المستنصر بالله الفاطمي (٤٢٧ - ٤٨٧هـ/١٠٣٥ - ١٠٩٤م):

كان أطول الخلفاء الفاطميين عهداً، فظل يلي الخلافة مدة ستين عاماً، ولم تتمتع مصر خلال حكمه بالرخاء والطمأنينة سوى فترة قصيرة. فقد تجلى في عهده النزاع بين عناصر الجيش وبخاصة بين الأتراك والسودانيين. كما تعرضت البلاد المصرية في أيامه لضائقة اقتصادية بسبب المجاعة التي بدأت بانخفاض النيل سنة ٤٥٧هـ واستمرت سبع سنين، فقلت الأقوات بالقاهرة ومدينة الفسطاط، وغلت الأسعار. وعانى جميع الأهالي من هذه المجاعة، واضطر بعض أصحاب النفوذ والأعيان إلى مغادرة مصر والرحيل إلى بلاد الشام والعراق.

ولما ساءت أحوال مصر من جراء الفوضى والاضطرابات التي سادتها بسبب المنازعات بين عناصر الجيش، وازدياد نفوذ الأتراك، رأى الخليفة المستنصر أن يبعث إلى بدر الجمالي والي عكا يطلب منه القدوم ليتولى تدبير شئون دولته واصلاح ما فسد من أمور مصر فلبى بدر الجمالي دعوة الخليفة وقدم إلى القاهرة على رأس جنده الأرمن. واستطاع بعزمه ومهارته أن يعيد إلى البلاد المصرية ما كانت تتمتع به من رخاء، فزاد خراج مصر في أيامه وعاد الفلاحون إلى زراعة الأرض وتحسنت أحوالهم.

ضعف الدولة الفاطمية وزوالها:

أخذ نفوذ الوزراء في الازدياد منذ أواخر عهد المستنصر بالله الفاطمي وبدأ ذلك باستئثار بدر الجمالي بالسلطة دون الخليفة كما أن ابنه الأفضل غالى في اغتصاب حقوق هذا الخليفة بل أنه استبد بالسلطة دون ابنه المستعلى بالله.

وهكذا دخلت مصر في عهد نفوذ الوزراء وأدى ضعف الخلفاء الفاطميين إلى تنافس كبار رجال الدولة على تقلد الوزارة، بل أن بعضهم استعان بأمراء الدول المجاورة لتحقيق أطماعهم مما ترتب عليه تطلع هؤلاء الأمراء إلى بسط

سلطانهم على مصر. فقد تقلد شاور الوزارة في عهد الخليفة العاضد، ولم يلبث أن ثار عليه ضرغام ـ أحد قواد الجيش ـ وتقلد الوزارة، فاضطر شاور إلى الالتجاء بنور الدين محمود ـ صاحب دمشق ـ ليعاونه في استعادة منصبه، فأرسل حملة إلى مصر يقودها أسد الدين شيركوه تصدت لضرغام وتغلبت عليه وعاد شاور إلى الوزارة ولم يلبث أن تخلى عن حليفة نور الدين فطلب من شيركوه العودة إلى بلاد الشام وبعث إلى أماريك ملك بيت المقدس الصليبي يستنجد به ويخوفه من نور الدين إذا تمكن من الديار المصرية، فسارع إلى تلبية طلبه وأرسل جيشاً أرغم شيركوه على العودة بجنده إلى الشام.

وكان لهذه السياسة أثرها في توجيه أنظار كل من نور الدين صاحب دمشق والصليبيين في بيت المقدس إلى غزو مصر ثم تتابعت حملات أسد الدين شيركوه والصليبيين على مصر. وانتهى الأمر بانتصار حملة شيركوه الثالثة وعودة أماريك ملك بيت المقدس من غير حرب ولا قتال، ثم أسند الخليفة العاضد الفاطمي إلى شيركوه منصب الوزارة بعد تخلصه من شاور. غير أن شيركوه لم يستمر طويلاً في الوزارة، فتوفي بعد قليل واستدعى الخليفة الفاطمي صلاح الدين يوسف بن أيوب وولاه الوزارة.

وكان الخليفة الفاطمي مسلوب السلطة مع صلاح الدين الذي عمل على تدعيم مركزه في مصر بإحاطة نفسه بأهل بيته، فطلب من نور الدين محمود أن يرسل إليه أباه وأقاربه، وأسند إليهم بعض المناصب الهامة كما وجه اهتمامه إلى القضاء على المذهب الشيعي في مصر، فأنشأ بعض المدارس لتدريس المذهب الشافعي والمذهب المالكي، وأقام الخطبة للخليفة المستضيء بالله العباسي وأسقط اسم العاضد من الخطبة. وكان ذلك في أول جمعة من المحرم سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧١م. ولم يعلم الخليفة العاضد بهذا التغيير لمرضه، ثم توفي في العاشر من المحرم سنة ٥٦٧هـ. وبذلك سقطت الدولة الفاطمية.

الفصل الرابع

مصر والشام على عهد الأيوبيين والمماليك

أولاً: الدولة الأيوبية: (٥٦٧ - ٦٤٨هـ/١١٧١ - ١٢٥٠م):

واجه صلاح الدين عدة صعوبات في مصر بعد قضائه على الخلافة الفاطمية ذلك أن العناصر الموالية للفاطميين اعترضوا على العمل الذي قام به صلاح الدين فأعلنوا الثورة ضده بل استنجدوا عليه بالقوى الخارجية المعادية مثل ملك صقلية النورماندي، وملك بيت المقدس الصليبي، لكن صلاح الدين تصدى لهذه العقبات، وتمكن بفضل شجاعته واقدامه من التغلب عليها وقبض على زعماء الفتنة. وبذلك دانت له مصر بالولاء والطاعة.

على أن صلاح الدين كان لا يمكنه الاستقلال نهائياً بمصر لأنه كان يتبع سيده نور الدين صاحب دمشق ويحكم مصر نيابة عنه، فلما توفى نور الدين سنة ٥٦٩هـ/١١٧٤م قامت المنافسة الشديدة بين أمرائه في حلب ودمشق وأمراء بني زنكي في إقليم الجزيرة شمال العراق حول من يخلفه في حكم الدولة النورية، وانتهت هذه المنافسة بتولية إسماعيل بن نور الدين - وكان صغيرا في الحادية عشرة من عمره - لذلك استصغر أمراء نور الدين شأنه واستضعفوه، وتنافسوا على تدبير شئون دولته، مما ترتب عليه ضعفها وبذلك أتيحت الفرصة لصلاح الدين للمسير إلى بلاد الشام لانقاذ الدولة النورية من التفكك والانقسام وإعادة تكوين جبهة إسلامية متحدة تقف في وجه الصليبيين وتمكن صلاح الدين من الاستيلاء

على دمشق وحمص وحماه ولم يلبث أن توفى إسماعيل بن نور الدين، وخلفه صلاح الدين في حكم الدولة النورية.

حكم صلاح الدين أربعة وعشرين عاماً قضى معظمها في حروب بعضها لتكوين جبهة إسلامية متحدة، والبعض الآخر لقتال الصليبيين وكانت موقعة حطين أهم معركة اشتبك فيها مع الصليبيين وانتهت بانتصاره الرائع عليهم، وسلمت له على أثرها مدن طبرية وعكا ونابلس والرملة وقيسارية وأرسوف ويافا وبيروت والإسكندرونة ثم دخل فلسطين واستولى على عسقلان واسترد بيت المقدس وحارب فرسان أوروبا حول عكا نحو سنتين. وتوفى صلاح الدين سنة ٥٨٩هـ/١١٩٣م وله من العمر ٥٥ سنة بعد أن قضى حياة حافلة بجليل الأعمال، وكان سياسياً ماهراً وقائداً مدرباً ميالاً إلى الكرم والعفو ومحباً للعلم والأدب ومخلصاً لأصدقائه وأعدائه، وفياً بوعده وعهوده.

ومن أهم اصلاحات صلاح الدين الداخلية تشييده قلعة الجبل في القاهرة وقد عهد ببنائها إلى وزيره بهاء الدين قراقوش، وكان لها أسوار وأبراج وثلاثة أبواب، كذلك قام بتوسيع مدينة القاهرة بأن ضم إليها الفسطاط والعسكر وأطلال القطائع وأحاط المدينة بعد توسيعها بسور كبير، وعنى ببناء المدارس ونهض بالحركة العلمية في البلاد نهضة كبيرة.

خلفاء صلاح الدين:

انقسمت الدولة الأيوبية بعد وفاة صلاح الدين بين أبنائه الثلاثة وبعض أقاربه وأخيه. وكان أعظمهم العادل الذي اكتسب خبرة واسعة من اشتراكه مع أخيه صلاح الدين في غزواته ومفاوضاته وإدارة أقاليم الدولة واشتهر بالكفاية والدراية بشئون الحكم، ولما اشتد التنافس بين أبناء صلاح الدين الثلاثة رأى

العادل ضرورة انقاذ الدولة الأيوبية من التدهور والانهيار لذلك تخلص من أبناء صلاح الدين، وولى السلطنة وتمكن من التغلب على العقبات التي اعترضت حكمه.

قسم العادل مملكته الواسعة ـ التي تضم مصر والشام وشمال العراق ـ بين أبنائه، ولما توفى تنافس هؤلاء الأبناء فيما بينهم وتنازعوا حول الوصول إلى السلطنة الأمر الذي أضعف من شأن الدولة الأيوبية، وانتهى هذا النزاع بتولي الملك الكامل السلطنة.

واجه الملك الكامل عقبات كثيرة من أهمها المنازعات الشديدة بين أمراء البيت الأيوبي، ومعارضة الكثير منهم لحكمه واستطاع الملك الكامل التغلب على منافسيه بعد مشقة. ووحد مملكته وأصبحت تشمل اليمن والحجاز والشام ومصر وشمال العراق.

ومن أهم اصلاحات هذا السلطان الداخلية اتمامه انشاء قلعة الجبل التي بدأ صلاح الدين في بنائها وأصبحت تلك القلعة منذ عهد هذا السلطان مقراً لدور الحكومة، وأنشأ الملك الكامل مدينة جديدة على الشاطىء الشرقي لفرع النيل أسماها المنصورة.

لما توفى الملك الكامل سنة ٦٣٥هـ/١٢٣٧م تنافس الأمراء الأيوبيون حول الوصول إلى العرش، وانتهى النزاع بينهم بتولية الملك الصالح نجم الدين أيوب سنة ٦٣٧هـ/١٢٤٠م حكم الدولة الأيوبية.

حرص الملك الصالح على تأسيس جيش قوي يدين له بالولاء والطاعة، فلما تمردت عليه فرق الجيش الأيوبي استبدل بهم كثيراً من الأتراك المماليك وجعلهم خاصته وبطانته وكان هؤلاء المماليك خاضعين له خضوعاً تاماً وفي سنة

٦٣٨هـ/١٢٤١م بشيد قلعة الروضة في جنوب جزيرة الروضة وانتقل إليها هو ومماليكه.

واستطاع الملك الصالح بعد أن أعد جيشه ودربه أحسن تدريب أن يتغلب على الثورات والفتن الداخلية في دولته كما اشتبك في عدة حروب مع الصليبيين.

تزوج الملك الصالح من شجرة الدر التي كان لها أكبر الأثر في تغيير مجرى السياسة المصرية وقد اشتهرت بالذكاء والدهاء، ولما توفى الملك الصالح والحرب دائرة بين الأيوبيين والصليبيين أخفت شجرة الدر خبر وفاته في تلك الفترة الحرجة من تاريخ مصر سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م. واستدعت توران شاه - ابن زوجها - من خارج مصر وأصدرت أوامرها إلى قواد الجند ورؤسائهم بأن يقسموا يمين الولاء للسلطان الجديد، وظلت تشرف على سير المعركة حتى وصل توران شاه إلى مصر، وتسلم القيادة وزمام الملك، وأدار الحرب بكفاءة حتى انتهت بانتصار الأيوبيين على الصليبيين.

على أن توران شاه أساء معاملة كبار رجال الدولة وقواد الجيش وشجرة الدر فدبروا مؤامرة للتخلص منه سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م، ونادى كبار رجال الدولة بشجرة سلطانة على مصر، على أن يكون الأمير عز الدين أيبك التركماني مقدماً للعساكر.

لم تستمر مدة حكم شجرة الدر لمصر أكثر من ثمانين يوماً، أظهرت خلالها كفاية وجدارة وحسن تدبير للأمور، ويقال أن الخليفة العباسي لم يقبل أن تتولى حكم مصر امرأة فأرسل إلى زعماء المماليك يقول لهم: إن كانت الرجال قد عدمت عندكم، فاعلمونا حتى نسير إليكم رجلاً. ولما وجدت شجرة الدر أن ولايتها حكم مصر تثير معارضة كبيرة، تزوجت عز الدين أيبك التركماني ونزلت له عن السلطنة لكنه كان ضعيفاً في رأيه وشخصيته وسلطته ودب الخلاف بينه

وبين شجرة الدر، فتآمرت عليه، ودبرت قتله. وبذلك انتهى حكم الدولة الأيوبية بنزول شجر الدر عن السلطنة.

ثانيا - دولة المماليك (٦٤٨ - ٩٢٣هـ/ ١٢٥٠ - ١٥١٧م):

أصل المماليك:

المماليك طائفة من الأرقاء المشترين بالمال وقد جلبهم الأيوبيون من شبه جزيرة القرم وبلاد القوقاز والقفجاق وآسيا الصغرى وفارس وتركستان وبلاد ما وراء النهر، فكانوا خليطاً من الأتراك والشراكسة والأكراد، فضلاً عن أقلية من مختلف البلدان الأوروبية وكان المماليك فيما بينهم ينقسمون إلى أحزاب متنافرة، وقد دخلوا في خدمة الدولة الأيوبية كجند في الجيش ووصل بعضهم إلى المناصب القيادية فيه، وأول من حكم مصر من المماليك عز الدين أيبك التركماني.

شيد الأيوبيون للمماليك ثكنات بجزيرة الروضة لذلك أطلق عليهم اسم المماليك البحرية، ثم استعان بعض سلاطين المماليك بعد ذلك بفرقة أخرى من المماليك من الأرمن والجركس وأطلق عليها اسم البرجية نسبة إلى أبراج قلعة الجبل التي أقاموا فيها وكان باب الترقى في دولة المماليك مفتوحاً لكل مملوك يثبت كفايته في العمل فيرتقى من مملوك بسيط إلى أمير وقد يبلغ عرش السلطنة ولم يكن السلطان المملوكي إلا واحداً من المماليك وقدموه على أنفسهم لقوة بأسه ووفرة أنصاره وكثرة جنده على التغلب على المنافسين له في الحكم.

بعد مقتل عز الدين أيبك التركماني أول حكام المماليك خلفه ابنه علي ثم ولى الحكم بعده السلطان سيف الدين قطز وقد هدد المغول بغزو مصر في عهده، فخرج للقائهم سنة ٦٥٨ هـ/ ١٢٦٠م وأحرز عليهم انتصارا رائعا في موقعة عين جالوت غير أنه ما لبث أن قتل أثناء عودته إلى القاهرة فخلفه في حكم دولة

المماليك الظاهر بيبرس، ويعتبر بيبرس من أعظم سلاطين المماليك إذ اجتمعت فيه صفات العدل والفروسية والإقدام، ويعد بيبرس مؤسس دولة المماليك، ومبتدع طرق حكمها، فقد نظم الإدارة الحكومية واستعان في إدارة شئون دولته بالأمراء المقربين إليه، فولاهم أرقى المناصب واستحدث كثيرا من الوظائف الهامة، وأعد جيشا قويا قاده في محاربة الصليبيين والمغول، ووضع القوانين التي تمنع الجرائم الخلقية، وكان يعطف على الفقراء والمعوذين ويجلس للنظر في المظالم بنفسه.

انتقال الخلافة العباسية إلى القاهرة:

اتخذ الظاهر بيبرس القاهرة مقرا للخلافة العباسية بعد أن سقطت بغداد في أيدي المغول. وزال عنها حكم بني العباس سنة ٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨م فقد استدعى السلطان بيبرس أحد أمراء البيت العباسي ويدعى أحمد بن الإمام الظاهر وكان قد فر من بطش المغول وأكرم بيبرس وفادته وعقد مجلسا حضره العلماء والقضاة والأمراء وكبار رجال الدولة فأقروا جميعا بصحة نسب الأمير العباسي وبايعه الحاضرون ـ وعلى رأسهم بيبرس ـ بالخلافة، وبايع الخليفة الجديد الظاهر بيبرس بالسلطنة، وأمر بيبرس بذكر اسم الخليفة الجديد في خطبة الجمعة ونقش اسمه على العملة، ولقبه المستنصر بالله وقد أقدم بيبرس على هذه الخطوة ليضفي على حكمه الصفة الشرعية الأمر الذي يكسبه احتراما أمام المسلمين في داخل دولته وخارجها.

أمد الظاهر بيبرس الخليفة الجديد ببعض الجند والعتاد، وسيره إلى بغداد لاستردادها، غير أن الخليفة قتل في بعض الاشتباكات مع المغول فاستدعى بيبرس عباسيا آخر وبايعه بالخلافة. وبذلك أحيا بيبرس الخلافة العباسية في القاهرة، غير أن سلطة الخليفة كانت مقصورة على المظاهر الدينية فقط مثل الخطبة في الجمع والأعياد ومنح السلطان الجديد تقليدا بالحكم، وذكر اسمه في

الخطبة قبل اسم السلطان وكذلك نقشه على العملة، والخروج مع السلطان على رأس الجيش للجهاد، وقد حرص سلاطين المماليك الذين خلفوا بيبرس على الإبقاء على الخلافة العباسية في القاهرة، واستمرت هذه الخلافة حتى سقوط دولة المماليك على أيدي العثمانيين، حين اصطحب السلطان العثماني سليم الأول بعد فتحه لمصر سنة ١٥١٧م آخر الخلفاء العباسيين معه إلى الأستانة ـ عاصمة الدولة العثمانية.

السلطان قلاوون (٦٧٩ ـ ٦٨٩هـ /١٢٧٩ ـ ١٢٨٩م):

انتقلت السلطنة إلى قلاوون سنة ٦٧٩هـ ـ ١٢٧٩م وظلت في بيته شبه وراثية حتى سنة ٧٨٤هـ /١٣٨٢م، وسار قلاوون على نهج بيبرس في إدارة شئون البلاد وإقامة العدل بين الناس، وقد حرص على إعداد جيش قوي، لذا استكثر من المماليك، وشن هجمات ناجحة على الصليبيين في بلاد الشام واسترد اللاذقية وطرابلس منهم، وأوقع بالمغول، وأبعد خطرهم عن مصر والشام وقام بإدارة دولته خير قيام، وشيد بعض المنشآت من أهمها المارستان المنصوري.

السلطان خليل بن قلاوون (٦٨٩ ـ ٦٩٣هـ /١٢٨٩ ـ ١٢٩٣م):

سار السلطان خليل بن قلاوون على سنة أبيه الرامية إلى طرد الصليبيين من آخر معاقلهم في بلاد الشام، ففتح عكا سنة ٦٩٠هـ / ١٢٩١م وبذلك لم يعد للصليبيين وجود في الشرق العربي، كما حارب السلطان خليل المغول الذين زحفوا إلى دمشق واحتلوها، فأوقع بهم الهزيمة، وأبعدهم نهائيا عن بلاد الشام.

السلطان الناصر محمد بن قلاوون (٦٩٢ - ٧٤١هـ/ ١٢٩٣ - ١٢٤١م):

يعتبر عصر الناصر محمد بن قلاوون أزهى عصور دولة المماليك البحرية إذ فيهااستقرت هذه الدولة، وقوي شأنها، وتطورت أساليب الحكم والإدارة فيها كما ازدهرت الفنون في الدولة.

كانت القاهرة في عصر الناصر عاصمة لامبراطورية مترامية الأطراف تضم مصر والشام والحجاز واليمن، وخطب ودها ملوك أوربا وآسيا وذلك بعد الانتصارات الرائعة التي أحرزها السلطان الناصر على أعداء مصر.

بلغ النظام الإداري في عصر الناصر مبلغا عظيما من الدقة والتنسيق فنظمت دواوين الحكومة، واستحدثت بعض الوظائف، وعني الناصر بموارد الدولة والقيام بالإصلاحات التي تحتاج إليها الدولة.

عرف عن الناصر البر والتقوى، وتجلى ذلك فيما أنشأه في مصر من عمائر دينية رائعة والتي مازال بعضها قائما حتى اليوم مثل المسجد الذي شيده بالقلعة.

ومن المنشآت الفخمة التي شيدها الناصر، المدرسة الناصرية التي تقع بشارع المعز لدين الله الفاطمي الكائن بحي النحاسين، كما شرع في تجديد المارستان الكبير المنصوري الذي أسسه أبوه السلطان قلاوون، وبنى الناصر سبيلا ألحقه بمدرسته، وقد ألحق بها مكتبة عظيمة، بالإضافة إلى عدد من القصور ودور الضيافة، ولم تقتصر أعمال السلطان الناصر الإنشائية على القاهرة، بل شملت كافة البلاد المصرية والشامية.

والحقيقة أن السلطان الناصر واضع أسس السياسة العامة لدولة المماليك، كما رفع من شأن هذه الدولة، وذلك بفضل سداد رأيه وقوة بأسه ومباشرته أمور الدولة بنفسه.

خلفاء السلطان الناصر محمد بن قلاوون:

ظل سلاطين المماليك من بيت قلاوون يحكمون مصر حتى ولي حاجي بن شعبان السلطنة سنة ٧٨٣هـ/ ١٣٨١م، وكان صغيرا في السن، فقام بإدارة البلاد نيابة عنه برقوق، ولم يلبث أن تطلع إلى ولاية السلطنة ولما ضمن تأييد الأمراء والنواب له تآمر ضد السلطان حاجي، فخلعه، وخلفه في السلطنة، وزالت دولة المماليك البحرية، بانتهاء حكمه سنة ٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م.

المماليك البرجية:

عرفوا بذلك لأنهم كانوا يقيمون في أبراج القلعة. وقد انتشرت الاضطرابات في مصر في عهد دولة المماليك البرجية، كما قام أمراء الشام بحركات ثورية عنيفة وتعرضت البلاد لخطر المغول بقيادة تيمورلنك، وفضلا عن ذلك كثرت غارات قراصنة الفرنجة، في البحر الأبيض والأحمر على سفن المماليك. وكان لهذه الأحداث الداخلية والخارجية أثر بالغ في تدهور أحوال البلاد الاقتصادية.

السلطان برقوق (٧٨٤ - ٨٠١هـ /١٣٨٢ - ١٣٩٨م):

ولي السلطنة سنة ٧٨٤هـ، وكانت سياسته تنطوي على العنف في معاملة المعارضين لحكمه حتى أصبح عهده عهد إرهاب،قاسى منه شعب مصر الكثير من الويلات، لذلك عمت الثورة ضده في داخل مصر وخارجها، وانتهى الأمر بعزله وأسره في إحدى قلاع بلاد الشام ولم يؤد عزل برقوق إلى عودة الهدوء والسكينة إلى البلاد، فقد استمر الاضطراب يسودها، مما سهل له سبيل الفرار من الأسر وكون جيشا استطاع أن يسترد به عرشه، وابتهجت القاهرة بعودته (برقوق)

وأصدر عفواعن الخارجين عليه وعدل في الفترة الثانية من سلطنته عن العنف، وسلك مع الأهلين مسلكا ينطوي على العدل والتسامح كما أصلح أحوال البلاد الداخلية لذلك هدأت المعارضة من ناحيته حتى وفاته.

وفي أواخر عهده ساءت العلاقات بينه وبين تيمورلنك ـ ملك المغول ـ الذي أغار على العراق، وهدد الشام، فاتحد برقوق مع أمراء شمال الشام، ومع السلطان العثماني على الوقوف في وجه المغول لكنه مات قبل نشوب الحرب، وفي عهد السلطان فرج بن برقوق أغار المغول على بلاد الشام واستولوا على حلب ثم قصدوا دمشق فسار السلطان فرج لصد غاراتهم عنها، غير أنه لم يلبث أن رجع إلى القاهرة لإخماد الثورات التي قامت في مصر. على أن تيمورلنك لم يلبث أن توفي سنة ١٤٠٥م، فعادت بلاد الشام إلى حوزة المماليك.

برسباي (٨٢٥ ـ ٨٤٢هـ /١٤٣٢ ـ ١٤٣٨م):

اهتم السلطان برسباي بوقف الغارات التي وجهتها حكومة قبرص إلى الإسكندرية، فبعث إليها عدة حملات، تمكنت من الانتصار على جيوش قبرص وأسطولها، ووقع ملكها في الأسر، وأحضر إلى مصر حيث افتدى نفسه بمبلغ كبير من المال، واعترف بسيادة مصر على بلاده، وتعهد بدفع جزية سنوية مقدارها عشرون ألف دينار فظلت تلك الجزيرةتابعة لدولة المماليك حتى سنة ١٥١٧م.

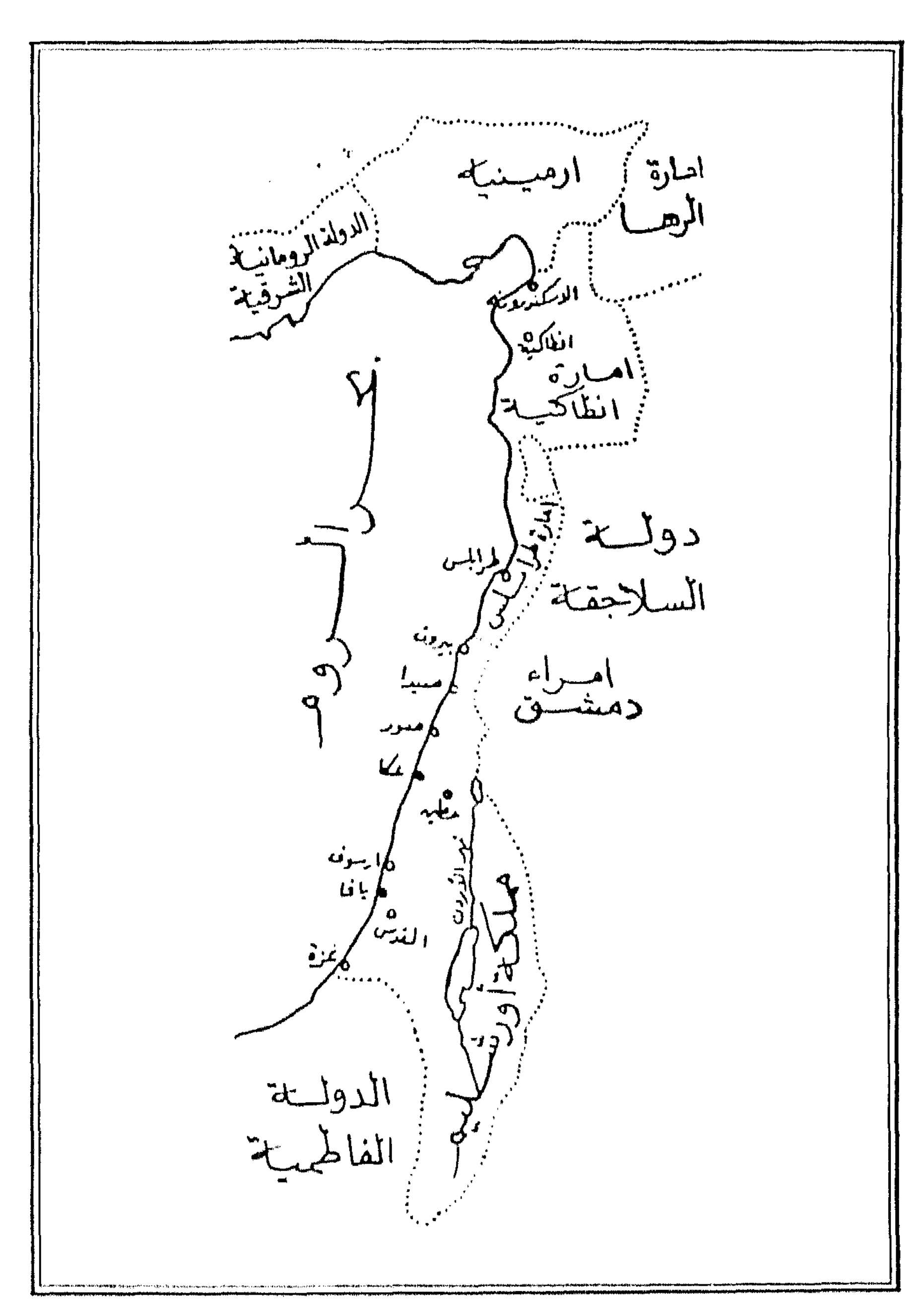
كذلك استطاع السلطان برسباي تأكيد سيادة مصر على بلاد الحجاز وميناء جدة بصفة خاصة، وبذلك سيطرت مصر على تجارة البحرين المتوسط والأحمر، وهذه المكانة التجارية لم تتمتع بها مصر من قبل، وكان لذلك أكبر الأثر في ازدياد ثروتها.

ضعف دولة المماليك وتدهورها:

اشتدت منافسة المماليك على السلطنة بسبب النظام الذي كان متبعا لديهم، وهو أن يتولى الحكم أقواهم، وأكثرهم جندا، وفي أواخر أيامهم كثرت الفتن والاضطرابات وزاد الأمر سوءا بتدهور الأحوال الاقتصادية في مصر في عهد السلطان قنصوه الغوري بسبب اكتشاف البرتغاليين طريق رأس الرجاء الصالح وتحول التجارة بين الشرق والغرب إلى الطريق الجديد، بعد أن كانت تمر بمصر والشام. وبذلك حرمت مصر من أهم مواردها المالية التي كانت تأتيها من العائدات على التجارة العالمية التي تمر بأراضيها، وحاول الغوري أن يعيد طريق التجارة كما كان. واشتبك مع البرتغاليين في معركة ديو سنة ٩١٥هـ/ ١٥٠٩م، هزم فيها واستولى البرتغاليون على عدن.

ظلت دولة المماليك تعاني من الضعف حتى استحكم العداء بينها وبين الدولة العثمانية، وذلك لأن العثمانيين اتهموا المماليك بمناصرتهم لأعدائهم الخارجين عليهم، فزحف السلطان العثماني سليم الأول على بلاد الشام والتقى بجيش المماليك بقيادة السلطان الغوري سنة ٩٢٢هـ /١٥١٦م في موقعة مرج دابق قرب حلب شمال الشام، هزم فيها المماليك شر هزيمة وخر السلطان الغوري صريعا في المعركة.

تولى طومانباي عرش سلطنة المماليك بعد مقتل الغوري، وكان عليه مواجهة الخطر العثماني الزاحف على مصر، وذلك أن العثمانيين استولوا على سورية بعد موقعة مرج دابق، واتجهوا بقيادة السلطان سليم الأول إلى مصر، وقد قاوم طومانباي الغزو العثماني لمصر بكل ما استطاع من قوة، لكنه هزم ودخل العثمانيون القاهرة، وأمر السلطان سليم الأول بإعدام طومانباي شنقا عند باب زويلة. وبذلك زالت دولة المماليك وأصبحت مصر ولاية عثمانية.



خريطة رقم (٥)

الامارات اللاتينية في سورية



خريطة رقم (٧)
الفتوحات العربية في الأندلس

ثالثاً: المسلمون في الأندلس

عرفت أسبانيا بأندلوسيا نسبة إلى قبائل الوندال التي أغارت عليها في أوائل القرن الخامس الميلادي وسماها العرب بلاد الأندلس وكان يسود بلادها قبل الإسلام النظام الطبقي، فمن طبقات السكان: طبقة النبلاء وهي سلالة القوط والفاتحين الذين استولوا على أكثر الأراضي الخصبة الزراعية وكان من أفراد هذه الطبقة يتولون المناصب الرئيسية في الدولة. أما طبقة رجال الدين فكانت تمتلك مساحة كبيرة من الأراضي الزراعية. وهاتان الطبقتان كانتا معفاتين من الضرائب ويشتركان في حكم البلاد. ويقع عبء الضرائب على الزراع والتجار وصغار الملاك. وهناك طبقة ثالثة هي طبقة الأقنان أو عبيد الأرض، وهؤلاء كانوا يزرعون أراضي أصحاب الملكيات الواسعة، ويدخلون بأنفسهم وعائلاتهم في عداد ثروة مالك الأرض وكانوا ينتقلون مع ملكية الأرض من سيد إلى آخر.

كذلك ظهرت في أسبانيا طبقة أخرى هي طبقة العبيد من أسرى الحروب وكانوا يقيمون في المدن، ويشتغلون في الصناعات المختلفة وشأنهم شأن السلع التجارية ويتصرف فيهم سيدهم في البيع والشراء.

كذلك كثرت الدسائس والمؤامرات في أسبانيا في الثلاثين سنة الأخيرة السابقة للفتح العربي، وكان ختام هذه الدسائس اغتصاب رودريك ـ أحد قواد الجيش ـ العرش، وعزله الملك غيطشه وتوليه الملك، فنقمت أسرة الملك المخلوع على الملك الجديد. وكان رودريك جنديا شجاعا، لكنه لم يستطع استمالة أنصار الأسرة التي سبقته في حكم البلاد فعاونوا العرب في فتحهم أسبانيا.

الفتح الإسلامي للأندلس:

ظهرت في الأندلس معارضة قوية للملك رودريك تزعمها أبناء الملك المخلوع غيطشه، فاتصل هؤلاء المعارضون سرا بيوليان - حاكم سبته - وطلبوا منه أن يعمل على أن يمدهم العرب بقوة تساعدهم على استرداد ملكهم، فصادفت هذه الدعوى هوى من يوليان فزار موسى بن نصير - والي شمال أفريقيا - وطلب منه غزو الأندلس ووصف له حسنها وفضلها وجودة أراضيها وكثرة ثمارها وغزارة مياهها وعذوبتها. فوافق موسى بن نصير على غزو الأندلس وأرسل يستأذن الخليفة الوليد بن عبدالملك فوافق الخليفة بشرط أن يكون حذرا ولا يغامر بقوة كبيرة في بداية الغزو.

عمل موسى بنصيحة الخليفة فأرسل حملة استطلاعية بقيادة طريف بن مالك نقلتها سفن يوليان إلى الشاطىء الأسباني في المكان المعروف الآن برأس طريف حيث شن طريف غزوة استطلاعية وعاد محملا بالغنائم.

لما أيقن موسى من إخلاص يوليان، وتدهور أحوال الأندلس أعد جيشا يتكون من اثني عشر ألفا من المشاة والفرسان وأسند قيادته إلى مولاه طارق بن زياد.

نزل طارق بجيشه فيما يسمى الآن بجبل طارق، وكان الملك رودريك في الشمال يقاتل بعض الثائرين عليه، فلما علم بنزول العرب أسبانيا أسرع إلى الجنوب، والتقى بالمسلمين في واقعة لكه، وكان الجيش الأسباني أضعاف الجيش الإسلامي ومع ذلك كانت تنقصه الروح المعنوية اللازمة لثبات الجند المحارب، فكان به الكثير من الأرقاء الناقمين على الدولة لسوء أوضاعهم، فضلا عن بعض

الأفراد الموالين لنظام الحكم السابق، ودارت المعركة في رمضان سنة ٩٢ هـ / ٧١١م وأثار طارق حماس جنده للقتال، فألقى في جنده خطبته الخالدة التي حثهم فيها على الجهاد والتذرع بالصبر، ومناهم الأماني الطيبة، وبشرهم بما سيفتحون من بلاد، ويصيبون من غنائم وينعمون في دنياهم وآخرتهم لذلك انقض جيش طارق على جيش رودريك، وأحرز المسلمون على أعدائهم انتصارا رائعا. وكان من أثر هذا النصر الذي أحرزه المسلمون أن امتد زحفهم داخل أسبانيا ولم يواجه طارق سوى مقاومة ضئيلة في بعض المدن، بل إن الأسبان كانوا يسلمون إلى العرب بلدا بعد بلد ومعقلا بعد معقل. ومن هذه المدن طليطلة عاصمة أسبانيا في ذلك الوقت.

لما علم موسى بن نصير بانتصارات طارق بن زياد الرائعة في الأندلس لحق به على رأس جيش كثيف من العرب والبربر حتى يتم معه هذا العمل العظيم، وعبر إلى الأندلس، وسار في طريق غير الذي سار فيه طارق ففتح المدن الغربية وواصل زحفه حتى التقى بطارق، ثم سارا معا شمالا ففتحا بقية أسبانيا حتى جبال البرانس.

اعتزم موسى بن نصير عبور جبال البرانس، ومواصلة الفتوح في أوروبا، ولكن الخليفة الوليد بن عبدالملك عارض هذه الخطة واستدعى موسى وطارقا إلى دمشق فعادا إلى المشرق معا، وترك موسى ابنه عبدالعزيز على ولاية الأندلس، ففتح الجزء الشرقي من أسبانيا، وبذلك تم فتح أسبانيا كلها، إلا الجزء الشمالي الغربي الذي يسمى جليقية. فكانت هذه البقعة التي تركها العرب لوعورتها نواة للدولة المسيحية الأسبانية التي مازالت تنمو حتى طردت العرب من الأندلس بعد ثمانية قرون.

أثر فتح الأندلس:

استمر الفتح الإسلامي لأسبانيا أربع سنين من سنة ٩١هـ ـ ٩٥هـ، ولقد أزال هذا الفتح الحكم القوطي في أسبانيا وآثاره السيئة وأصبحت الأندلس جزءا من الدولة العربية الإسلامية أو الدولة الأموية. وقد عامل العرب أهل الأندلس معاملة طيبة وغير العرب نظام المجتمع الأسباني، فتلاشت طبقة النبلاء وضعفت سلطة الكنيسة، وقلت ثروتها وخاصة بعد أن اعتنق الكثير من الأسبان الإسلام وأحسن العرب معاملة الذين حل بهم البؤس والشقاء قبل الفتح مثل رقيق الأرض فنالوا في عهد العرب كثيرامن الحقوق، فزرعوا الأرض لحسابهم كملاك وليس عليهم إلا تأدية ضريبة الأرض.

أما طبقة العبيد التي كانت محرومة من الحقوق، فقد وجدت متنفسا ومخرجا، وسارع كثير منهم إلى دخول الإسلام، فأصبحوا بذلك أحرارا وبذلك تحسنت حالتهم، وسمح العرب لليهود بمزاولة التجارة وأمنوهم على أنفسهم وأموالهم وسمحوا لهم بحرية الملكية، وكانوا قد قاسوا الذل والهوان في عهد القوط.

حروب العرب في فرنسا:

فكر موسى بن نصير بعد أن فتح أسبانيا في عبور رجاله إلى جبال البرانس إلى أرض غاليا (فرنسا الحالية) ومنها يسير شرقا لتحقيق مشروع كبير يرمي منه إلى فتح القسطنطينية ـ عاصمة الدولة البيزنطية ـ والتي بذل العرب جهودا كبيرة لفتحها لكن الخليفة الوليد بن عبدالملك رفض هذا المشروع خشية على المسلمين من الهزيمة في أرض واسعة وطريق لم يقطعه فاتح من قبل.

على أن فكرة غزو ما وراء أسبانيا ظلت تتردد في أفئدة القادة العرب حتى ولي السمح بن مالك الأندلس (١٠٠ ـ ١١٣هـ / ٧١٨ ـ ٧٢١م) وهو من خيرة الولاة الذين تولوا أمر الأندلس. فعبر السمح بن مالك جبال البرانس ونزل على أرض فرنسا منعطفا نحو الغرب حيث مجرى نهر الجارون ولم تكن فرنسا في ذلك الوقت تحكمها حكومة واحدة، بل كانت مجزأة بين عدد من الحكام.

استطاع السمح بن مالك بعد أن عبر جبال البرانس إلى فرنسا أن يستولي على بعض بلدان جنوب فرنسا، غير أنه لم يلبث أن التقى بأحد القادة الفرنسيين في معركة، خر فيها صريعا، وقتل كثير من جنده غير أن هذه الهزيمة لم تضعف من عزيمة المسلمين فواصلوا فتوحاتهم في فرنسا على الرغم من الصعوبات والمشاق التي اعترضتهم. فلما ال أمر الأندلس إلى عبدالرحمن الغافقي من من (١١١ ـ ١١٤هـ / ٧٢٩ ـ ٧٣٢م) الذي يتصف بالشجاعة وحسن القيادة وقوة الشكيمة ـ أعد العدة لغزو فرنسا، فأعلن الدعوة إلى الجهاد في الأندلس وشمال أفريقيا فجاءه المتطوعون من كل ناحية حيث تجمع لديه جيش كبير عبر به جبال البرانس وزحف في أرض فرنسا، لم يستطع أهالي البلاد التي مر بها مقاومته، لذلك استنجدوا بدولة الفرنجة، وكانت السلطة والنفوذ في هذه الدولة في يد أمير القصر شارل مارتل الذي لبى الدعوة لأنه خشي على بلاده من بأس العرب، فسار على رأس جيش كبير والتقى بالقوات العربية في المعركة المشهورة بين بلدتي تور وبواتييه على مسيرة حوالي سبعين كيلومترا من باريس.

دار قتال مرير بين العرب والفرنجة استمر عدة أيام، وكان جيش الفرنجة أكبر من الجيش العربي ولكن لم يضعف ذلك من موقف العرب ولم يوهن من عزيمتهم فأحسنوا البلاء في المعركة، غير أن الجيش العربي كان مثقلا بالغنائم، وفطن العدو إلى ذلك فقام فريق من الفرنجة بحركة التفاف سريعة هاجموا فيها مؤخرة الجيش العربي حيث الغنائم فاختل نظامه ونهض فريق من هذا الجيش

لحماية الغنائم، بينما بقي الفريق الآخر يقاتل، وصمد عبدالرحمن الغافقي في المعركة وظل يقاتل حتى استشهد في ميدان القتال وبذلك أتيحت الفرصة للفرنجة لينقضوا على العرب فقتلوا عددا كبيرا منهم وعادت فلول المسلمين متسترة تحت جنح الظلام من حيث أتت ولما أحرز شارل مارتل النصر على قوات العرب عاد إلى بلاده وسميت هذه الموقعة باسم بلاط الشهداء، وذلك لكثرة من استشهدوا فيها من المسلمين سنة ١١٤هـ / ٧٢٢م.

تعد هذه المعركة من المعارك الفاصلة في التاريخ، إذ ترتب عليها نتائج بالغة الأهمية، فلو أن العرب انتصروا لكان من المحتمل جدا أن تواصل جيوشهم الفتح والغزو في أوربا. وتوقفت فتوحات المسلمين بعد هذه الواقعة في فرنسا واستهان شارل مارتل بقوة العرب بعد ذلك، فعاد إلى جنوب فرنسا مرة أخرى وانتزع البلاد التي استولوا عليها.

عبدالرحمن الداخل وتأسيس الدولة الأموية في الأندلس:

اضطربت الأندلس بسبب انقسام العرب على أنفسهم فضلا عن الخلافات التي قامت بينهم وبين البربر، ولما سقطت الدولة الأموية، وقامت الدولة العباسية نكل العباسيون بكل أفراد البيت الأموي، ولم ينج من بطش بنى العباس سوى عبدالرحمن بن معاوية بن هشام بن عبدالملك الذي ما زال يتنقل من بلد إلى بلد مجتازا ما يصادفه من صعاب ومشاق حتى نزل عند أخواله في المغرب الأقصى.

ترقب عبدالرحمن ما يجري في الأندلس من حروب ومنازعات فاستعان بموالي بني أمية في الأندلس لإعادة ملك آبائه وأجداده في هذه البلاد البعيدة عن مركز الدولة العباسية.

اتصف عبدالرحمن بالهمة العالية والشجاعة النادرة، فلم يكد يستقر بين أخواله حتى تطلع إلى الأندلس، واستطاع أن يقيم دولة في بلاد تتنازعها الحزبية وسيطرت عليها أهواء العصبيات، واعتمد هذا الشاب الذي لم يتجاوز العشرين من عمره بعدد من الموالي لا يزيد على ثلاثمائة واستطاع أن يقيم دولة في الأندلس على أنقاض الفوضى التي سادت تلك البلاد خلال الحكم العربي، وقضى على الصعوبات التي واجهته في داخل الأندلس وتغلب على العقبات الخارجية التي صادفته من الدولتين العظيمتين، الدولةالعباسية في الشرق ودولة الفرنجة في أوربا.

أسس عبدالرحمن بن معاوية بن هشام بن عبدالملك الدولةالأموية سنة ١٣٨ هـ / ٧٥٥م واتخذ قرطبة عاصمة لها، وكانت مدة حكمه أربعة وثلاثين سنة تضاها كلها في العمل الشاق والجهاد العنيف شأن مؤسسي الدول.

واجه عبدالرحمن عدوين كبيرين خارج الأندلس، وهما الدولة العباسية في الشرق ودولة شارلمان في أوربا، ففي الشرق حاول الخليفة العباسي المنصور التخلص من عبدالرحمن الداخل الذي استقل بالأندلس عن الدولة العباسية، فاستعان عليه بالعلاء بن مغيث - واليه على أفريقية - وأمره بأن يقضي على عبدالرحمن، ويضم الأندلس إلى الدولة العباسية، فتوجه العلاء إلى الأندلس على رأس سبعة آلاف مقاتل، ونزل في أحد أقاليم الأندلس ورفع العلم الأسود - شعار العباسيين - ودعا لأبي جعفر المنصور، وانضم إليه العرب الساخطون على عبدالرحمن، واستطاعت قوات العلاء أن ترغم عبدالرحمن على التقهقر إلى مدينة قرمونة، فحاصرها العلاء شهرين، لكن عبدالرحمن صمد للحصار، وألهب حماس قواته وانطلق بهم إلى العدو، واشتبك مع العلاء وجنده في قتال مرير أحرز فيه انتصارا رائعا وقتل العلاء وعدد كبير من جنده.

توطد مركز عبدالرحمن في الأندلس بعد انتصاره على العباسيين كما دعم استقلال دولته عن الخلافة العباسية، وجعل الحكم فيها وراثيا لكنه لم يلقب بلقب خليفة اعتقادا منه بأن الخلافة لا تتجزأ، أما ما كان من أمر شارلمان، فإن أنصار العباسيين في الأندلس استعانوا به في أوربا للقضاء على عبدالرحمن الداخل، واتفقوا معه على أن يدخل الأندلس كحليف للمنصور، فعبر شارلمان جبال البرانس وزحف إلى داخل أسبانيا، فاشتبك معه عبدالرحمن الداخل في معركة انتصر فيها على أعدائه الفرنجة، وقتل في هذه الموقعة صفوة فرسان شارلمان، وكانت هزيمة مروعة ظل صداها يتردد في أمم الغرب عدة سنين.

عاد شارلمان بعد هذه الهزيمة بجيشه إلى فرنسا يجر أذيال الفشل والخيبة ولقي جنده مشقة أثناء عبورهم ممرات جبال البرانس وذلك أن بعض القبائل الموالية لعبدالرحمن تعرضت لهم ونكلت بهم.

إصلاحات عبدالرحمن الداخلية:

لما تخلص عبدالرحمن من أعدائه في الداخل، وهدأت البلاد ودانت له بالولاء والطاعة، وأمن على دولته من الخطر الخارجي اتجه إلى الإصلاحات الداخلية، فأحاط قرطبة التي اتخذها عاصمة له بسور ضخم، وأسس قبل وفاته بعامين جامع قرطبة سنة ١٧٠ هـ/ ٧٨٦م، وأصبح هذا الجامع ـ بعد أن أتمه خلفاؤه ووسعوه وزادوا في زخرفته ـ قبلة المسلمين في الغرب كما عني عبدالرحمن بالعمل على ازدهار الحركة الفكرية التي جعلت الأندلس أحد المراكز الهامة في الثقافة العالمية.

خلفاء عبدالرحمن الداخل:

سار خلفاء عبدالرحمن الداخل على سياسته الرامية إلى إصلاح البلاد في الداخل ومقاومة الأخطار الخارجية التي تهدد استقلال البلاد وسيادتها فسارت البلاد في عهدهم في طريق الحضارة وأخذت مدن الأندلس في النمو والازدهار، وظهر بها كتاب ومؤرخون وعلماء صنفوا كتبا قيمة في العلوم والفنون والآداب.

ظلت الأندلس على هذا الحال من التقدم والازدهار حتى توفي عبدالرحمن الأوسط سنة ٢٣٨هـ / ٨٥٢م فعادت الأندلس إلى التمزق والتفكك، فكون العرب دويلات فيها وكان البربر أكثر عددا من العرب فخلعوا طاعة بني أمية وأظهروا العداء نحوهم واستقلوا بالولايات الغربية واحتلوا مراكز عظيمة الشأن في الأندلس وبذلك ضعف أمر الأندلس ولم يعد ملك بني أمية يجاوز قرطبة.

عبدالرحمن الناصر:

استمرت الأندلس على هذا الحال حتى ولي عبدالرحمن الناصر الحكم (٣٠٠ - ٣٥٠هـ - ٩١٢ - ٩٦١م) وهي مجزأة إلى دويلات يحارب بعضها بعضا، وتدهورت تبعا لذلك الحالة الاقتصادية في البلاد واستطاع عبدالرحمن الناصر أن يقضي على الحركات الانفصالية في دولته ويوحد البلاد تحت سيطرته، وكان يقود الجيوش بنفسه في نواحي الأندلس للقضاء على الحركات الانفصالية وبذلك أعاد عبدالرحمن الناصر إلى الحكم الأموي هيبته في الأندلس.

لما أيقن عبدالرحمن الناصر من قوته في داخل الأندلس، وأن دولته لا تقل في مكانتها عن الخلافتين العباسية والفاطمية عمد إلى التلقب بلقب خليفة سنة ٣١٧هـ، وبذلك تحولت الإمارة في الأندلس إلى خلافة وأصبح في العالم الإسلامي ثلاث خلافات: العباسية في بغداد، والفاطمية في المغرب، والأموية في الأندلس.

حكم عبدالرحمن الناصر الأندلس خمسين عاما، تمتعت البلاد في عهده بالرخاء والأمن. وتجلت عنايته بالعمارة فيما قام به من توسيع جامع قرطبة وزخرفته حتى أصبح من أفخم مساجد العالم الإسلامي، كما أنشأ مدينة الزهراء في أول المحرم سنة ٣٢٥هـ في الشمال الغربي من قرطبة وعلى بعد ثلاثة أميال منها، وتألق في بنائها وجعلها تضم قصر الملك ومساكن حاشيته وخدمه وجنده، كما شيد بها مسجدا جامعا.

الدولة الأموية بعد عبدالرحمن الناصر:

لما توفي عبدالرحمن الناصر سنة ٣٥٠هـ خلفه ابنه الحكم المستنصر فحافظ على وحدة البلاد وحماها من الأخطار الخارجية، واتسع نفوذ الأندلس في عهده حتى دانت له بلاد المغرب الأقصى والأوسط بالولاء والطاعة.

أخذت الدولة الأموية بالأندلس في الضعف بعد وفاة الحكم المستنصر سنة ٣٦٦هـ فخلفه ابنه هشام المؤيد وهو في العاشرة من عمره. وصارت أمه (صبح) تتمتع بنفوذ كبير في الدولة. وقربت إليها محمد بن أبي عامر الذي ازداد نفوذه حتى أصبح الحاكم الفعلي للدولة.

ظل محمد بن أبي عامر حاجبا للخليفة هشام المؤيد نحوا من سبع وعشرين سنة ولقب بالمنصور وكانت سنوات حجابته مليئة بجلائل الأعمال واستطاع أن يكسب محبة الشعب ورجال الدين والجند بحسن سياسته وبعد نظره، وقاتل كل من وقف في سبيله من الأمراء وزعماء القبائل والقواد حتى استتب له الأمر في الأندلس وأنشأ جيشا قويا تغلب به على أسبان الشمال.

وكان لا يألو جهدا في سبيل دفع الخطر الخارجي عن البلاد. وظل طوال حكمه يغزو كل عام غزوتين إحداهما في الربيع والأخرى في الخريف. ومما يجدر ذكره ان مملكة أسبان الشمال لم تر هزائم ولا مذلة كالتي لحقت بها على يديه.

وتجلى اهتمام محمد بن أبي عامر بالعمارة في بناء مدينة الزاهرة على نهر الوادي الكبير شرقي قرطبة. وشيد بها قصرا فخما. وانتقل إليها سنة ٣٧٠هـ واتخذ بها الدواوين وأقطع ما حولها لوزرائه وكتابه وقواده وحجابه، فأقاموا بها كثيرا من المباني والقصور.

ضعف الدولة الأموية بالأندلس وزوالها:

لما توفي الحاجب المنصور بن أبي عامر سنة ٣٩٣هـ / ١٠٠٢م ضعفت الدولة الأموية لأن هشام المؤيد كان لا يستطيع القيام بأعباء الحكم. ولما توفي سنة ٣٩٩هـ / ١٠٠٨م سادت الفوضى بلاد الأندلس، ولم يستطع الخلفاء الذين تولوا الحكم بعد هشام السيطرةعلى البلاد، فتنافس حزبا الصقالبة والبربر على الاستئثار بالسلطة. ولم يكن في البيت الأموي بالأندلس من يصلح لتوحيد البلاد، فزالت الخلافة الأموية سنة ٤٢٢هـ / ١٠٣٠م وانقسمت الدولة الإسلامية في أسبانيا إلى عدة دويلات حتى أصبح لكل مدينة أميرها المستقل، ودخلت الأندلس في عصر جديد، يعرف بعصر ملوك الطوائف.

عصر ملوك الطوائف (٤٢٢ - ٤٨٤هـ / ١٠٣١ - ١٠٩١م):

كان يقيم بالأندلس عناصر البربر والصقالبة والعرب، فأصبح لكل منها مناطق نفوذ في الدويلات الإسلامية التي قامت على أنقاض الدولة الأموية بالأندلس، فتغلب البربر على الأجزاء الجنوبية الخصبة وقامت في مدينة مالقه والجزيرة الخضراء والجزر المجاورة لأسبانيا دولة بني حمود.

وكان للصقالبة دولة بني عامر في بلنسية. أما العرب فمن أشهر دولهم دولة بني هود بسرقسطة، وبني جهور بقرطبة وبني عباد بأشبيلية.

تعتبر دولة بني عباد، أشهر دول ملوك الطوائف بالأندلس. وقد ولي إمارتها على أثر زوال الخلافة الأموية أبو القاسم اللخمي. وكان يعاونه في الحكم مجلس يضم مشاهير الرجال ولا يقطع أمرا دون أخذ رأيه. ولما توفي سنة ٤٣٩ خلفه ابنه المعتضد بالله الذي وجه همته إلى توسيع نفوذ دولته، فظلت مهيبة الجانب حتى توفي سنة ٤٦٢هـ وخلفه المعتمد على الله الذي يعد من أعظم ملوك دول الطوائف وكان شغوفا بالشعر والأدب، فأصبحت أشبيلية في عهده أشبه بسوق للأدب في الأندلس. وكان المعتمد إلى جانب ذلك محبا للترف ومغرما بتشييد القصور الفخمة.

أدى الإسراف في الترف في أشبيلية وغيرها من دول الطوائف إلى استياء سواد الشعب وطبقة الفقهاء الذين كان لهم نفوذ سياسي بالأندلس كما أن هذه الحالة التي سادت الأندلس كانت تنذر بسوء العاقبة، ذلك أنه في الوقت الذي غلب فيه الترف على حياة الأندلس وانتشرت الفوضى والاضطرابات في الأندلس، كانت الولايات النصرانية في شمال أسبانيا مثل ليون وقشتالة وأرجونة قد أخذت تتعاون فيما بينها وتتحد للوقوف في وجه المسلمين. ورأت الاستفادة من الخلافات القائمة بين ملوك الطوائف، فقام فردناند ملك قشتالة بالعمل على توسيع بلاده من ناحية الجنوب، وفرض أتاوة على بعض ملوك الطوائف، واستطاع خلفه ألفنس السادس الاستيلاء على مدينة طليطلة سنة ٤٧٥هـ وقضى على الدولة الإسلامية التي قامت بها.

تنبه ملوك الطوائف إلى مطامع ألفنس السادس، كما عرفوا الخطر الذي يهددهم بعد سقوط طليطلة، فاستقر رأيهم على الاستنجاد بدولة المرابطين التي قامت في مراكش بالمغرب الأقصى، وبعثوا إلى زعيمها يوسف بن تاشفين وفدا من قضاة أشبيلية وغرناطة، بينوا له الخطر الذي يحدق بهم من ناحية نصارى الشمال، وطلبوا منه النجدة. وكان يوسف بن تاشفين ذا مطامع سياسية

فاستجاب لندائهم بدافع الحماس الديني، وما لبث أن وصل جيشه إلى الجزيرة الخضراء جنوب الأندلس، واضطر المعتمد بن عباد إلى الجلاء عنها فاحتلها يوسف بن تاشفين ووفد إليه ملوك الطوائف وأمدوه بالجند والمؤن والأموال.

ورابطت الجيوش الإسلامية بمكان يقال له الزلاقة حيث التقت بجيش الفنس السادس، ودارت معركة بين الفريقين، انتهت بهزيمة نصارى الشمال في واقعة الزلاقة سنة ٤٧٥هـ / ١٠٨٢م، على أن نصارى الشمال لم يكفوا عن مهاجمة بلاد الأندلس الإسلامية فوجه الفنس السادس هجومه على الجهات الشرقية، ولما عجز ملوك الطوائف عن الدفاع عنها، ذهب المعتمد بن عباد بنفسه إلى يوسف بن تاشفين بالمغرب يستنجده، فعبر يوسف البحر مرة ثانية إلى أسبانيا ونجح في رفع الحصار عن ساحل أسبانيا الشرقي وتراجع الفنس إلى الشمال.

وقف يوسف بن تاشفين أثناء إقامته الثانية بالأندلس على حقيقة الحال في هذه البلاد واتضح له أن ملوك الطوائف مترفون ولا يحيون حياة إسلامية صحيحة، كما أظهر له الفقهاء تذمرهم من سوء سيرة هؤلاء الملوك الذين انغمسوا في حياة اللهو والترف وأجمعوا على تمليكه البلاد، فقبل بعد تردد وشرع في العمل على تقلد زمام الأمور في الأندلس فاستولى جنده على مدن ملوك الطوائف وقبض أحد قواده من البربر على المعتمد بن عباد وأهل بيته جميعا ونقلوا إلى قرية على مقربة من مراكش حيث ظل المعتمد أسيرا مدة سنتين. وبذلك انتهى عهد ملوك الطوائف بالأندلس سنة ٤٨٢هـ / ١٠٨٩م.

مملكة غرناطة:

لم يبق للمسلمين في أسبانيا في أوائل القرن السابع الهجري سوى شرق الأندلس وجنوبه فقد عاد نصارى الشمال إلى شن غاراتهم على بلاد الأندلس وأعلن كل من فرديناند السادس ملك قشتالة وجيمس الأول ملك أرجونة حربا

لا هوادة فيها على المسلمين حتى أنه فيما بين سنة ٦٢٦هـ، سنة ٦٦٠هـ تغلب نصارى الشمال على شرقي الأندلس بأكمله وانحصر ملك العرب في أسبانيا في مملكة غرناطة بعد هذه الغزوات التي قام بها نصارى الشمال.

أسس دولة غرناطة محمد بن يوسف بن نصر سنة ٦٢٩هـ ويرجع نسبه إلى سعد بن عبادة سيد قبيلة الخزرج. وقد تتابع على عرش هذه الدولة عشرون ملكا من أسرته وكان المتقدمون منهم إلى أوائل القرن التاسع الهجري على شيء كثير من الدهاء السياسي ومن أهم أركان سياستهم صد خطر الأسبان وتوطيد صداقتهم مع سلاطين الدولة المرينية بالمغرب.

ظلت دولة غرناطة محتفظة بكيانها واستقلالها حتى دخلت في دور الضعف والاضمحلال منذ أواخر القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) ومن العوامل التي ساعدت على ضعفها وزوالها في النهاية.

أولا: اتحاد مملكتي قشتالة وأرجونة، ففي سنة ١٤٦٩م عقد قران الملكة ايزابلا ملكة قشتالة بفرديناند ملك أرجونة وبعد عشر سنوات تم الاتحاد السياسي بينهما، وبذلك تهيأ للأسبان القضاء على القوة الإسلامية في أسبانيا.

ثانيا: الانقسامات الداخلية في دولة غرناطة. وهذه أقوى العوامل التي ساعدت على سقوطها.

استغل الأسبان الخصومة والخلاف بين أفراد الأسرة الحاكمة في غرناطة ووجهوا هجومهم على دولتهم، فاستولوا على كثير من مدنها، ولم يبق في يد المسلمين سوى مدينة غرناطة بأسوارها وحصونها ولما شدد فرديناند ملك أرجونة الحصار على المسلمين بغرناطة، اضطر ملكها أبو عبدالله إلى تسليم المدينة له في ربيع الأول سنة ٨٩٧هـ / ٣ يناير سنة ١٤٩٢. وبذلك سقطت مملكة غرناطة في يد الأسبان، وانتهى حكم المسلمين في بلاد الأندلس.

الباب الثالث

الصليبيون والمغول

الفصل الأول الصليبيون

الفصل الثاني المغول

الفصل الأول

الصليبيون

الحروب الصليبية

الحروب الصليبية من الناحية النظرية تعتبر حربا مقدسة، والغرض منها والدافع إليها تأمين طريق الحجاج المسيحيين إلى بيت المقدس والأراضي المقدسة المحيطة به، والتي كان يمتلكها المسلمون، ولقد استشار رجال الدين في أوروبا المسيحيين حول ضرورة تخليص الأرض المقدسة، ورأوا أن ذلك أفضل سبيل يسعى إليه الانسان لتخليصه من الذنوب والخطايا التي اقترفها ومن وسائل طلب المغفرة من الله الوقوف في الأراضي المقدسة التي وقف بها المسيح والرسل في أمن وسلام. ورأت الكنيسة أن خير وسيلة لتخليص بيت المقدس هو دفع أمراء الاقطاع إلى حمل السلاح والذود عن القدس بدلا من أن يحاربوا بعضهم بعضا، وعلى ذلك يمكن اعتبار الحروب الصليبية إصلاحا للمحاربين من الناحية الدينية، وإذا كان من مبادىء الفروسية الأساسية الدفاع عن كل ما هو حق، فإن الدعوة للحروب الصليبية دعوى لمهاجمة كل ما هو باطل ومنكر. وهذا الباطل من وجهة النظر البابوية ـ وجود بيت المقدس في أيدي المسلمين. والفارس الذي يستجيب لنداء البابوية يشبع في نفسه غريزة المقاتلة بمهاجمة بلاد الشرق، والسعي إلى تخليص الأراضي المقدسة، وفي الوقت نفسه يرضي الجانب الروحي من طبيعته وهو التماس الخلاص وغفران الذنوب.

والحروب الصليبية قامت لإنقاذ المسيحية من الأخطار التي يمكن ان نتعرض لها من السلاجقة الذين ازداد نفوذهم وقوى أمرهم وهددوا الدولة البيزنطية،

واضطهدوها بعد انتصارهم الرائع على البيزنطيين في موقعة ملازكرد، مما دعا إلى استنجاد الأباطرة البيزنطيين بالبابوية لتخليص ما فقدوه من ممتلكاتهم في آسيا الصغرى، فأرسلت أوروبا الحملة الصليبية الأولى. على أن الامبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين لم يكن يقصد من هذه الاستغاثة سوى استرداد ما فقده من ممتلكات، ولم يقصد حملة تتجه إلى بيت المقدس كما حدث فعلا إذ فوجيء بحملة تضم مئات الألوف من الأوروبيين المسلحين يقودهم أمراء لا يخضعون للامبراطور البيزنطي، ووجهتهم الأولى تخليص بيت المقدس.

ويجب أن نشير هنا إلى أن الحروب الصليبية لم تحدث لأسباب دينية فقط، بل لأسباب أخرى سياسية واقتصادية واجتماعية كذلك، ومن هذه الأغراض مطامع الأمراء والنبلاء في تكوين إمارات في الشرق، والحصول على منتجات الشرق ومتاجره بدون وساطة وبأثمان معقولة، ولا يمكن تحقيق ذلك إلا بانشاء مستعمرات في الشرق تكون مراكز تجارية هامة. ولقد حدثت مجاعات في أوروبا. وساءت الأحوال الاقتصادية في كثير من بلدانها الأمر الذي دفع الكثيرين إلى الاتجاه إلى الشرق ليحيا حياة أفضل. ولا يغيب عن الأذهان مقدار البؤس الذي كان يعيش فيه الفلاح في أوروبا في العصور الوسطى في ظل نظام الاقطاع، ومدى الاستغلال الذي كان يعرض له من السيد الاقطاعي وإرهاقه بالضرائب. كل ذلك دفع الكثيرين منهم إلى البحث عن الخلاص من الجور الذي تردى فيه، فكان الشرق وما عرف عنه من سعة في الرزق ووفرة في الخيرات خير ملاذ يلوذ به الفلاح الأوروبي لتحسين معيشته.

بدأت الدعوة للحرب الصليبية في مؤتمر كلير مونت في جنوب فرنسا في خطاب مشهور دعا فيه البابا أربان إلى مساعدة البيزنطيين، وأشار إلى ما يحيط

بالمسيحية من خطر داهم نتيجة تقدم الترك السلاجقة، ودعا الناس إلى المبادرة بمحاربة المسلمين، في حملة نظامية، وذلك ضمان بقبول التوبة وغفران الذنوب.

ولقد أثار البابا بخطا به حماس المجتمعين في أرجاء المجمع حتى أنهم هتفوا بعبارة هكذا أراد الله، وأعقب ذلك مسارعة الألوف إلى حمل الصليب واتخاذه شارة لهم. وحدد خطة الحملة وموعد مسيرها، وقرر بأن تكون القسطنطينية مكاناً يلتقي فيه الصليبيون.

ونلاحظ أن فكرة الحروب الصليبية قد نبتت في أرض فرنسية، ودعا إليها بابا من أصل فرنسي، ولذلك اعتبرت الحروب الصليبية من الأعمال الفرنسية، يضاف إلى ذلك أن المملكة التي أقامها الصليبيون في الشرق كانت فرنسية في نظامها وعاداتها وتقاليدها، وكانت فرنسا مهد الفروسية الذي زود الجيوش الصليبية بخيرة الفرسان، وفعلا حشدت فرنسا جيشا قويا يتقدمه أمراء الاقطاع، وهم الذين كانوا على استعداد لأن يقوموا بمغامراتهم الحربية الجريئة، ورأى الفرنسيون أن الحروب الصليبية فرصة للخروج من الأوضاع السيئة التي عانوها نتيجة الحروب والأوبئة والمجاعات ولعب النورمانديون دوراً هاماً في الحروب الصليبية لأنهم يحبون التجوال والترحال، ويتحمسون للدين وأهله لذلك كانوا حلفاء مخلصين للبابوية.

الحملة الصليبية الأولى

تشمل الحملة الصليبية الأولى حملتين، يطلق على الأولى حملة الشعوب، والأخرى يطلق عليها حملة الأمراء. أما حملة الشعوب فهي أسبق في قيامها من حملة الأمراء ذلك أن خطاب أربان الثاني في كليرمونت كان، الزاد الذي تزود به المبشرون الذين جابوا البلاد يدعون للحروب الصليبية، وأشهر هؤلاء المبشرون

بطرس الناسك الذي عرف عنه المقدرة على إثارة حماس الجماهير، وهو قسيس فرنسي حاول تأدية فريضة الحج فيا مضى، غير أنه لم يتيسر له ذلك بسبب ما لقيه من الأتراك السلاجقة من سوء المعاملة، فاضطر إلى العودة إلى بلاده، واشتهر بطرس بأنه كان يسير حافي القدمين رث الثياب، لا يأكل الخبز ولا اللحوم، إنما يعيش على السمك وشرب النبيذ، ولقد كان شديد التحمس للدعوة الصليبية، واستطاع بشكله الأسطوري أن يؤثر تأثيراً بالغا في العوام في غرب أوروبا.

لم يشهد بطرس الناسك مجمع كليرمونت، بل بدأ رحيله للدعوة الصليبية قبل انعقاد هذا المؤتمر، وطاف على حماره الأعرج ببلاد أوروبا مثل أورليان وشامبني واللورين، وانتهى به المطاف في كولونيا على نهر الرين حيث أمضى عطلة عيد الميلاد، ومن كولونيا بعث بتلاميذه ومريديه إلى الجهات التي لا يستطيع أن يزورها، وأخذ بطرس يتنقل من جهة لأخرى راكبا حماره مبشرا بالحروب الصليبية، فكثر جمعه حتى زاد انصاره على خمسة عشر الفا. وهاجروا رجالا ونساء منازلهم وحقولهم، وازداد عددهم بمن انضم اليهم من الألمان. فتكون من هؤلاء الفقراء خمس جموع، قبل حلول الموعد الذي حدده البابا لاجتماع الجيوش الصليبية بالقسطنطينية وهو مايو ١٠٩٦.

غير أن ثلاثة من هذه الجموع لم تصل إلى القسطنطينية، إذ هلك أغلبها أثناء اجتيازهم بلاد المجر، بسبب ما ارتكبوه من أعمال السلب والنهب أثناء سيرهم، فتعرض لهم المجريون. ومزقوهم شر ممزق، أما الجمعان الآخران فقد وصلا إلى العاصمة البيزنطية فعلا، وقاد أولها والتر المفلس، والثاني بطرس الناسك، بعد أن فقد كثيرا من أنصاره بسبب اعتداءات البلغاريين عليهم. وقد أحسن الأمبراطور البيزنطي معاملة أفراد الحملتين على الرغم مما ارتكبته هذه

الجموع من تخريب وتدمير في البلاد الأوروبية التابعة للأمبراطور، وعبرت هذه الجموع مضيق البوسفور في أغسطس ١٠٩٦.

واشتبكت هذه الجموع الغفيرة بالأتراك السلاجقة في آسيا الصغرى وهزمهم السلاجقة، وقتلوا منهم كثيرين. وقد حاول الامبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين إنقاذ هذه الحملة، فأرسل عدداً من السفن، وصلت بعد فوات الأوان، وحملت الفلول المهزومة إلى القسطنطينية. وهكذا فشلت حملة العامة في تحقيق أهدافها.

حملة الأمراء.

حدث هذا وأمراء وفرسان أوروبا يعدون العدة للسير إلى الشرق وقسموا حملتهم إلى ثلاثة أقسام، يقود كل فريق أمير من أمراء أوروبا المعروفين بالشجاعة والفطنة، وتولى جودفري وأخوه بلدوين قيادة جيش اللورين، وأخذوا طريقهم عبر المجر فالقسطنطينية فبلغوها في ديسمبر ١٠٩٦م ٤٩٠ هـ. أما ريموند - أمير تولوز، وأول من حمل الصليب من الأمراء - فقد قاد جيشه من البروفنسال وبلغوا القسطنطينية في ابريل سنة ١٠٩٧م ٤٩١ هـ، بينما سار بوهيموند مع ابن اخيه تانكرد على رأس النورمانديين بطريق البحر إلى القسطنطينية، فوصولها في الوقت الذي بلغها فيه ريموند، وبلغ القسطنطينية أمراء آخرون يقودون جيوشا أوروبية من بلدان مختلفة من القارة الأوربية، غير أن دورها كان ثانويا إذا قيس بالدور البارز الذي قام به الأمراء الذين تحدثنا عنهم.

ومهما يكن من أمر فقد تجمع في القسنطينية جيش كبير قدره بعض المؤرخين بأكثر من نصف مليون مقاتل من بينهم أكثر من مائة وخمسين ألف فارس من شجعان أوروبا وأشدائهم.

وكانت تكتنف العلاقات الصليبية البيزنطية بعض الصعوبات، فحينما وجد الامبراطور البيزنطي الكسيوس من نفسه امام جموع الصليبيين الضخمة كان عليه ان يواجه أحد أمرين، إما يعتبر الأمراء حلفاء له، وفي ذلك عليه أن يشترك مع هؤلاء الأمراء بجيشه ويحارب في الشرق معهم، ويقاسمهم مكاسب الحرب وغنائمها، وإما يعتبرهم أتباعا له، يقسمون له يمين الولاء والطاعة ويحاربون بأمر منه. وكل الأراضي والمكاسب من الحروب تؤولان للأمبراطور البيزنطي، وقد تشبث الامبراطور بالفكرة الثانية، وحمل الأمراء على أن يقسموا يمين الولاء والتبعية له، واعتبر الأراضي التي تؤدي إلى بيت المقدس أراض بيزنطية انتزعها المسلمون ومن حقه استردادها بعد أن يفتحها الصليبيون.

على كل حال عبر الصليبيون البسفور أوائل مايو ١٠٩٧ ٤٩١ هـ إلى أملاك قلج أرسلان في آسيا الصغرى، وحاصروا نيقيه ـ عاصمة السلاجقة ـ وشددوا عليها الحصار حتى استولوا عليها، وانضمت إلى الدولة البيزنطية، بحجة أنها كانت ملكا لها من قبل، لذلك ارتاب الصليبيون في نوايا الامبراطور. ووقفوا على مدى استغلاله لهم. على أن الصليبيين رغم ذلك واصلوا زحفهم في آسيا الصغرى وهزموا كل من اعترض طريقهم من السلا جقة، واستولوا على مدن آسيا.

بلدوين والرها:

استطاع الأمير بلدوين أن يحرز تقدماً كبيرا، وأن يستولي على كثير من المواقع والمدن والقلاع في شمال الجزيرة. وذلك بفضل مساعدة العنصر الأرمني الذي كانت له السيادة في تلك الجهات، والذي نظر إلى تقدم الصليبيين بعين الرضا للتخلص من حكم الأتراك المسلمين. لذلك استولى بسهولة على تل باشر بمؤازرة الأرمن الذين ثاروا ضد الحاميات التركية الضعيفة. وفي غضون ذلك كان

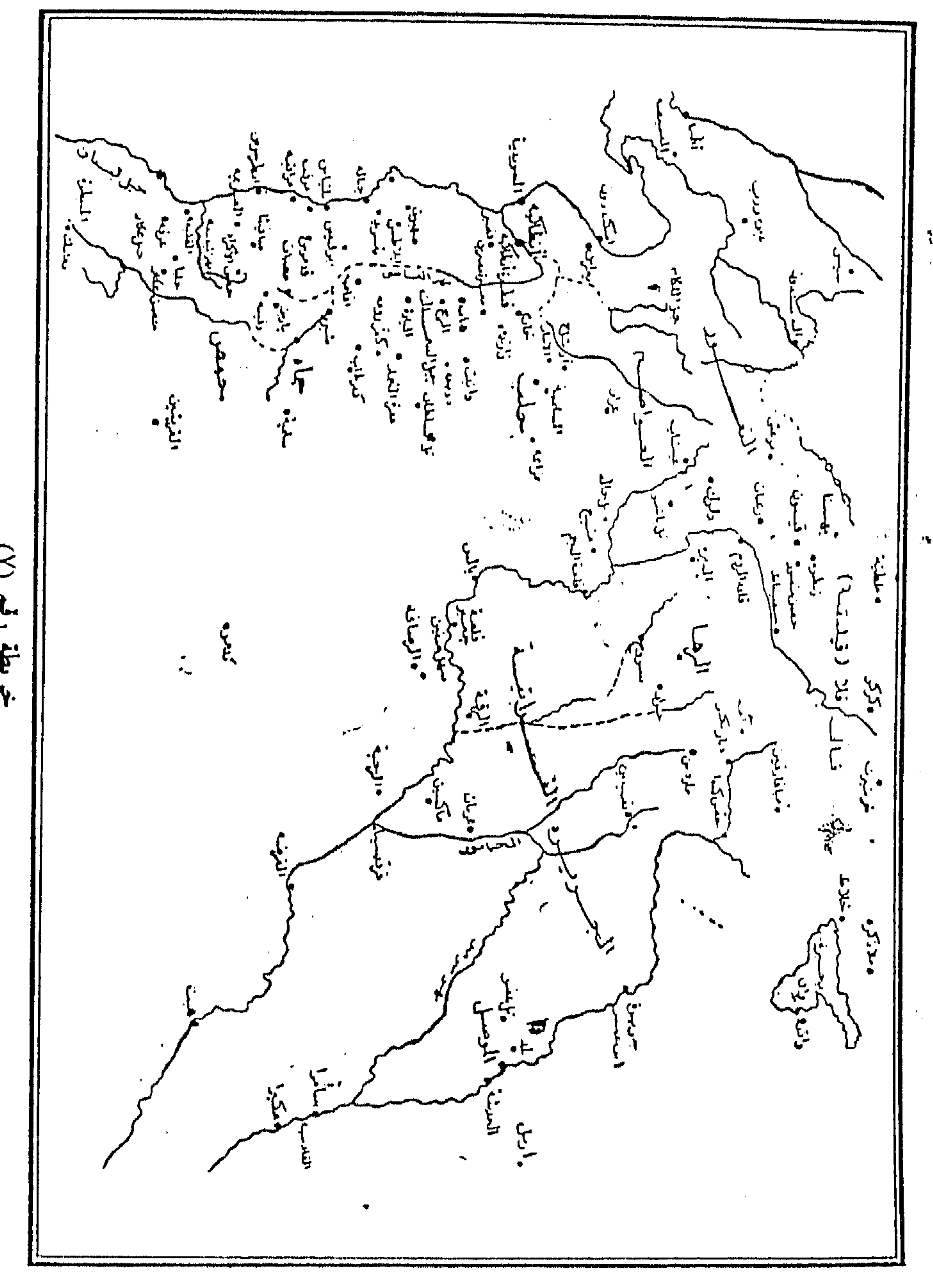
ثوروس يتخوف من أن يكتسح ذلك الجيش ـ وهو في طريقه إلى الشام ـ الرها وغيرها من الأمارات الأرمنية.

ووافق بلدوين على نجدة ثوروس، فشد رحاله إلى الرها سنة ١٠٩٨م على رأس عدد قليل من الفرسان، وتمكنت فرقة بلدوين من تثبيت أقدام ثوروس في الرها، ومن حمايتها من أعدائها الأتراك في سميساط، ولم يكتف ثوروس بحماية بلدوين لامارته، بل أعلن تبنيه له حتى يخلفه في حكم الامارة، ولم يبق ثوروس طويلا على قيد الحياة بعد هذا، إذا لقي مصرعه في ثورة أشعل نارها الأرمن، فخلفه بلدوين في حكم الرها: وهذه أول إمارة صليبية في الشرق، قامت أثناء الحملة الصليبية المعروفة بالأولى، أميرها بلدوين البولوني.

وللرها مكانة كبيرة في العالم المسيحي، إذ كانت أولى البلاد التي عاشت فيها جالية مسيحية كبيرة، وترجمت فيها أجزاء من الانجيل باللغة السريانية في القرن الثاني للميلاد. واستفاد الصليبيون من سيطرتهم على الرها، لأنها مركز دفاعي ممتاز يحمي ممتلكات الصليبيين في الشام من هجمات المسلمين التي قد يشنوها من الشرق.

عول بلدوين على توسيع رقعة إمارته، فبسط سيطرته على سميساط التي كان وقوعها على الضفة المقابلة للفرات يشكل خطرا على الرها، ولم يكتف بالاستيلاء على سميساط، بل زحف إلى سروج على بداية الطريق الموصل إلى حلب، وبذلك أمن بلدوين إمارته الجديدة، وكفل لها الحماية والطمأنينة، فضلا عن زيادة ممتلكاتها.

اتجه الصليبيون إلى انطاكية، وحاصروها في ٤٩١ هـ وظل هذا الحصار قائما حتى سقطت المدينة في أيدي الصليبيين، وكان بوهيموند الذي تمكن من الاستيلاء على أنطاكية قد أحبط جميع المحاولات التي قام بها دقاق ورضوان



خريطة رقم (٧)
الموصل والجزيرة العربية وشمال الشام

لانقاذ المدينة، ولما سمع ياغي سيان بقوة بأس الصليبيين، أمر أهل أنطاكية من المسلمين بالخروج منها لأنه خشي عليهم من أعدائهم وأمرهم بحفر خندق. ودافع عن المدينة التي ظلت محاصرة تسعة اشهر وظهر من شجاعة ياغي سيان وجودة رأيه وحزمه واحتياطه ما لم يشاهد من غيره، وشدد هجماته على الصليبيين حتى أفنى الكثير منهم، ولم يستطع الصليبيون الاستيلاء على انطاكية إلا بخيانة فيروز الأرمني مستحفظ القلعة فقد تواطأ مع الصليبين ويسر لهم عملية الإستيلاء على أنطاكية، وكانت الامدادات تصل الصليبيين من البحر المتوسط على السفن الايطالية، ولكن الصليبيين ما كادوا يستولون على أنطاكية حتى هاجمهم قوات كربوقا - أمير الموصل - وقاسى الصليبيون من ضغط هذه القوات الويلات والبؤس على أن الصليبيين قد شددوا هجماتهم على القوات الاسلامية حتى طردهم نهائيا من المدينة، وأتموا سيطرتهم عليها.

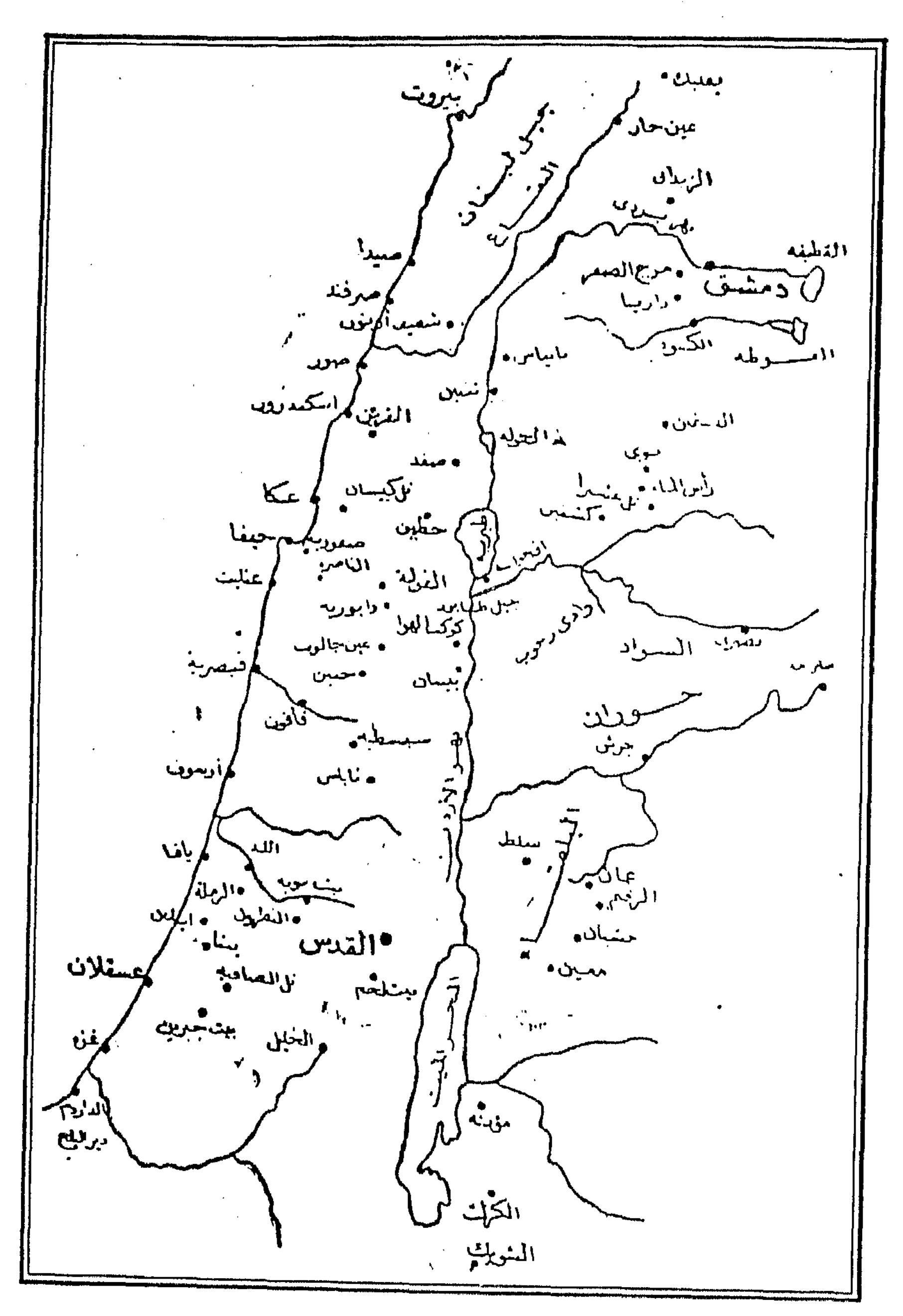
سار ريموند إلى بيت المقدس تاركا أنطاكية في يد بوهيموند، وأضاع وقتا طويلا في الاستيلاء على المدن التي في طريقه، وتجنب الصليبيون مهاجمة المدن الساحلية حتى لا يفقدوا قوتهم قبل تحقيق هدفهم المنشود وهو الاستيلاء على بيت المقدس، واكتفوا بحصولهم من أصحابها على ضمانات عدم الاعتداء عليهم أو التعرض لهم، والتعهد بتقديم المؤن لهم، واخيرا وصل الجيش الصليبي إلى بيت المقدس في يونيو سنة ٤٩٢ هـ ١٠٩٩م.

كان بيت المقدس لتاج الدولة تتش واقطعه للأمير سقمان بن أرتق التركماني فظفر الفرنج بالأتراك في أنطاكية وقتلوا منهم كثيرا. فلما رأى الفاطميون ضعف الأتراك السلاجقة ساروا الى القدس بقيادة الوزير الفاطمي الأفضل بن بدر الجمالي، وحاصروا القدس، وامتلكوها بالأمان سنة ٤٩٠ هـ، وأحسن الأفضل إلى حاكم القدس سقمان. وأجزل له العطاء هو ورفاقه، وسيرهم إلى دمشق،

وبذلك انضمت القدس إلى الدولة الفاطمية، وعهد الفاطميون إلى افتخار الدولة بحكم المدينة الكبرى.

قدم الصليبيون إلى القدس وحاصروها نيفا وأربعين يوما نصبوا عليها برجين أحدهما من ناحية صهيون ، أحرقه المسلمون، وقتلوا كل من به فلما فرغوا من احراقه، كان الصليبيون قد امتلكوا البلدة من الجانب الآخر وملكوها من جهة الشمال. وأعمل الصليبيون السيف في رقاب أهل المدينة. ومكثوا أسبوعا يقتلون فيه المسلمين، واحتمى جماعة من المسلمين بمحراب داود «فاعتصموا به، وقاتلوا فيه ثلاثة أيام، فبذل لهم الصليبيون الأمان، فسلموه إليهم، وخرجوا ليلا إلى عسقلان، وأقام الصليبيون في المسجد الأقصى مذبحة مروعة قتلوا فيها على حسب تقدير ابن الأثير ما يزيد على سبعين الفا منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ممن فارق الأوطان. وجاور بذلك الموضع الشريف، واستولوا على الأموال والتحف والنفائس التي وجدوها في القدس، وعبثا حاول أهل القدس الذين غادروها الاستنجاد بالقوى الاسلامية لانقاذ مدينتهم، من ذلك أن وفدا منهم قصد بغداد، وتكلموا كلاما أبكى العيون وأوجع القلوب، وأستغاثوا بالناس في صلاة الجمعة وبكوا وأبكوا وذكروا مادهم المسلمين من ذلك الشر وما تخلله من قتل الرجال وسبى الحريم والأولاد ونهب الأموال.

وبذلك حققت الحملة الصليبية الأولى أهدافها باستيلائها على بيت المقدس واختار الصليبيون جود فرى حاكما على بيت المقدس لما اشتهر به من التقوى والورع، وتوج ملكا في بيت المقدس. واتخذ لنفسه لقب حامي القبر المقدس، وكان على جودفري أن يدافع عن كل محاولة تبذل لاسترداد مدينة القدس ففي سنة ٤٩٢ هـ لما علم الفاطميون في مصر نبأ استيلاء الصليبيين على القدس جمع الوزير الفاطمي الأفضل أمير الجيوش العساكر، وسار إلى عسقلان، وأرسل إلى



خريطة رقم (٨)
جنوب الشام

الصليبيين ينكر عليهم جريمتهم، ويتهددهم، فأعادوا الرسول بالجواب، وراحوا على أثره، وطلعوا على المصريين عقيب وصول الرسول، وباغتوا المصريين، ولم يكونوا على أهبة للقتال فركبوا خيولهم ولبسوا أسلحتهم، لكن الصليبيين هاجموهم. وهزموهم، وقتلوا منهم كثيرين، وغنموا ما في العسكر من مال وسلاح، وانهزم الأفضل، وعاد بخواصه إلى مصر، ونزل الصليبيون عسقلان وضايقوها فبذل لهم أهلها إتاوة مالية كبيرة.

وبعد أن توفي جودفري خلفه في حكم مملكة بيت المقدس التي ضمت يافا وحيفا والرملة - بلدوين الأول أمير الرها والمؤسس الحقيقي لمملكة بيت المقدس وقد اتسعت المملكة الجديدة في عهده بأن ضم إليها ارسوف وقيصرية وعكا وصيدا وبيروت، وقد ساعد انضمام هذه المدن على تأمين وصول الأساطيل الايطالية محملة بالمؤن والامدادات للصليبيين.

لما أيقن الفرنجة في بلاد الشام أنهم في مأمن من الدولة البيزنطية عولوا على التوسع في البلاد الإسلامية، فشنوا عدة غارات على حلب وأعمالها منتهزين فرصة انشغال الأمراء المسلمين وجندهم بقتال بعضهم بعضا فضلا عن تفرق كلمتهم، فقضى الفرنجة على كثير من سكان حلب، وفرضوا عليهم مبالغ كبيرة من المال ليتقوا أذاهم، كما اعتزم جوسلين - أمير تل باشر - وبوهيموند - صاحب أنطاكية - الاستيلاء على حران - التي تقع بين الرها ونهر الفرات ليقطعوا ما بين المسلمين في الشام وأخوانهم في العراق وفارس من صلات.

نهض الأميران سقمان بن أرتق - صاحب ماردين - وجكرمش - أتابك الموصل - للذود عن بلادهما، فتناسيا ما بينهما من خلافات، وأرسل كل منهما إلى صاحبه يدعوه للتشاور معه في جهاد الفرنجة، فاجتمعا في الخابور ومعهما عشرة آلاف جندي من العرب والأكراد والتركمان وهاجما الرها، فانضم بلدوين دي

بورج ـ أمير الرها ـ إلى جوسلين ـ صاحب تل باشر ـ وبوهيموند ـ أمير أنطاكية ـ وهاجموا حران حتى تنصرف القوات الاسلامية عن مهاجمة الرها ولكن المسلمين لم يمكنوهم منها، إذ اشتبكوا معهم في معركة حاسمة سنة ٤٩٧ هـ (١١٠٤م) دارت فيها الدائرة على الصليبيين. وغنم التركمان كثيرا من الغنائم.

بل وقع بلدوين دي بورج ـ أمير الرها ـ أسيرا وكذلك جوسلين، أما بوهمند وجنده، فعادوا إلى أنطاكية لا يلوون على شيء واتجه سقمان إلى ديار بكر، واستولى وهو في طريقه إليها على عدة حصون للفرنجة، أما جكرمش، فسار إلى حران وفتحها.

على أن ايلغازي بن أرتق ـ الذي ولى ماردين بعد وفاة سقمان ـ أطلق سراح جوسلين مقابل الحصول على مبلغ قدره عشرون الف دينار، ثم سعى جوسلين إلى اطلاق سراح بلدوين بفدية قدرها ثلاثين ألف دينار.

كان لموقعة حران أهمية كبيرة، إذ أوقفت توسع الصليبيين نحو الشرق على حساب المسلمين، كما أدت إلى تأمين مدينة حلب بصفة خاصة وسورية الشمالية من خطر الفرنجة، بل أثبتت أن الصليبيين لا يستطيعون قطع الصلة بين القوى الإسلامية في العراق والشام وآسيا الصغرى.

على أن الفرنجة لم يكفوا عن الزحف على المدن الاسلامية في الشام، فاغاروا سنة ٤٩٨ هـ (١١٠٤م) على طرابلس، فاستنجد فخر الملك عمار ـ صاحبها بسقمان بن أرتق ـ أمير ماردين ـ فاستجاب له، وتوجه إلى طرابلس، غير أنه توفي وهو في طريقه إليها، وضم الفرنجة طرابلس إلى حوزتهم سنة ٥٠٣ هـ (١١٠٩م).

فأنفذ جيشا كبيراً يتكون من جند الموصل بقيادة أتابكها مودود، وجند التركمان تحت امرة ايلغازي بن أرتق ـ صاحب ماردين ـ وجند من خلاط وميا فارقين، وطلب اليهم الاستيلاء على الرها.

زحفت قوات الموصل والجزيرة إلى الرها سنة ٥٠٤ هـ ـ ١١١٠ م، فاستنجد بلدوين دي بورج ـ صاحبها ـ ببلدوين الأول ـ ملك بين المقدس ـ فخرج لنجدته وأنضم اليه الأمراء الصليبيون في بلاد الشام، غير أن الفرنجة تفرق شملهم، إذ وصل إلى تانكرد ـ أمير أنطاكية ـ أن رضوان ـ أمير حلب ـ غزا امارته، كما أن بلدوين الأول ـ ملك بيت المقدس ـ عاد إلى مملكته بعد أن بلغه أن الفاطميين ازدادت هجماتهم عليها.

ولما اشتدت هجمات قوات الموصل والجزيرة على إمارة الرها، وعجز أميرها عن حماية بلاده الواقعة شرقي الفرات، أمر السكان المسيحيين بأن يغادروا هذه البلاد، فرحلوا إلى البلاد الواقعة على الضفة اليمنى لنهر الفرات لأنها أكثر أمنا. ولما شرع هؤلاء السكان في المسير إلى تلك البلاد التي اتخذوها موطنا لهم، باغتهم مودود ـ أتابك الموصل ـ ونكل بهم.

استقر رأي تانكرد ـ أمير أنطاكية ـ بعد عودة جند الموصل والجزيرة إلى بلادهم ـ على الانتقام من رضوان ـ أمير حلب ـ الذي هاجم بلاده، فأغار على حلب، وأخذ يشدد الحصار على حصن الأثارب حتى يتيسر له الاستيلاء عليه، ثم قصد زردنا، وامتلكه سنة ٥٠٤هـ ـ (١١١٠م) ولما بلغ ذلك أهل منبج وبالس غادروا بلديهما مما أتاح للفرنجة الفرصة لدخول هذين البلدين. لكنهم سرعان ما رحلوا عنها، وساروا إلى صيدا، واستولوا عليها، الأمر الذي أدى إلى إثارة المسلمين، وتخوفهم من إقدام الفرنجة على الاستيلاء على سائر بلاد الشام، فسار جماعة من أهل حلب إلى بغداد لتحريض أهلها على الفرنجة. وذكر ابن

الأثير أنه قبل وصول وفد حلب إلى بغداد أرسل الامبراطور البيزنطي آلكسيوس كومنين ـ وكان في خلاف مع الفرنجة ـ إلى السلطان السلجوقي في بغداد يستفزه على الفرنجه، ويحثه على قتالهم، ولما علم بذلك أهل بغداد صاحوا في السلطان: «أما تتقي الله تعالى أن يكون ملك الروم أكثر حمية منك للإسلام، حتى أنه أرسل إليك في جهادهم»، عندئذ لم يتردد السلطان السلجوقي في إنفاذ عساكر الموصل والجزيرة إلى بلاد الشام لصد الفرنجة عنها.

اجتمعت قوات كبيرة من الموصل والجزيرة بقيادة مودود ـ أتابك الموصل ـ وإيازين أيلغازى بن أرتق، وسارت نحو سنجار، فاستولت على بعض حصون الفرنجة القريبة منها سنة ٥٠٥هـ (١١١١م)، ثم حاصر جند الموصل والجزيرة مدينة الرها، غير أنهم ما لبثوا أن اضطروا إلى التقهقر عنها إلى حران لحمل الفرنجة على تعقبهم، لكن الفرنجة فطنوا إلى خدعة قواد المسلمين ولم يتبعوا قواتهم بل عمدوا إلى تحصين مدينة الرها، وتزويدها بالجند والعتاد والمؤن حتى تستطيع الصمود ضد هجمات قوات الموصل والجزيرة.

ولما عاد مودود وإياز بن ايلغازى إلى الرها حاصراها، فاستعصت على قواتهم، مما اضطرهم إلى الرحيل عنها، فقصدوا تل باشر وحاصروها خمسة وأربعين يوما، وكادت تسقط في أيديهم لولا أن جوسلين الثاني ـ صاحب تل باشر ـ اتصل بأحد قواد القوات الإسلامية الأكراد، واتفق معه على رفع الحصار عن تل باشر مقابل مبلغ من المال، وفي نفس الوقت اتصل رضوان ـ صاحب حلب ـ بمودود ـ أتابك الموصل ـ يستنجده على الفرنجة ـ الذين زادت غاراتهم على حلب وهكذا أتيحت الفرصة للقائد الكردي ليقنع مودود برفع الحصار عن تل باشر، والمسير إلى حلب. غير أن القوات الإسلامية التي اتجهت إليها مالبث أن هاجمها جوسلين ـ ولما اقتربت قوات الموصل والجزيرة من حلب أدرك أميرها رضوان أن تلك القوات وهؤلاء الأمراء الذين يتولون قيادتها يشكلون خطرا عليه

وعلى سلطانه، ومن ثم لم يخرج لاستقبال مودود وحلفائه، بل أغلق أبواب حلب في وجوههم.

لم يكف مودود ـ أتابك الموصل ـ عن مواصلة جهاد الفرنجة، فسار على رأس قوات الموصل والجزيرة إلى معرة النعمان لاسترداد النواحي التي استولى عليها تانكرد ـ صاحب أنطاكية ـ وانضم إليه طغتكين ـ أتابك دمشق ـ لكن حدثت خلافات بين الأمراء المشتركين في حملة مودود وبين أتابك دمشق الذي طلب منهم المسير إلى طرابلس والاستيلاء عليها، فأبوا إجابة طلبه لأنهم رأوا في ذلك مخاطرة لا يستفيد منها إلا هو، كما أن ـ أتابك دمشق ـ رفض التعاون مع هؤلاء الأمراء وتوجس منهم خيفة حين علم أن بعضهم يزمع التآمر عليه بغية انتزاع دمشق بل شرع في مهادنة الفرنجة سراً، وسرعان ما تفرق الأمراء المسلمون ولم يبق مع مودود سوى أيازين ايلغازى وطغتكين فاتجهوا إلى نهر العاصي،

لما علم الفرنجة بتفرق القوات الإسلامية، عولوا على استغلال هذه الفرصة لتحقيق مطامعهم، فساروا إلى فامية بقيادة بلدوين الأول ـ ملك بيت المقدس وبلدوين دي بورج ـ أمير الرها، وجوسلين ـ صاحب تل باشر ـ وبرترام ـ أمير طرابلس ـ عندما اقتربوا من شيزر، استنجد صاحبها ـ سلطان بن منقذ ـ بمودود فاستجاب له، وسار إلى شيزر، واشتبك قواته مع قوات الفرنجة في معركة دارت فيها الدائرة على الصليبيين.

ظل مودود ـ أتابك الموصل ـ يعمل على الاستيلاء على الأمارات الصليبية في بلاد الشام على الرغم مما واجهه من صعوبات في سبيل تحقيق غايته، فقصد الرها سنة ٥٠٦ هـ ـ (١١١٢م) منتهزا فرصة اتصال سكانها الأرمن ـ المقيمين فيها ـ به. وتشجيعه على المسير إليهم لكراهتهم بلدرين دي بورج ـ أمير الرها ـ

ولما سار مودود إلى هذه المدينة أبقى فيها فريقا من جنده لمحاصرتها، بينما توجه إلى سروج - على اعتبار أنها المركز الثاني للصليبيين شرقي الفرات - وحاصرها، غير أن حاكم الرها فطن إلى تآمرهم عليه، فأنزل بهم عقابا صارما. أما جوسلين - صاحب تل باشر - باغت عسكر الموصل، ويبدو أن صاحب الموصل لم يأخذ حذره من الفرنجة. وفي ذلك يقول ابن الأثير:

«ولم يحذر منهم، فلم يشعر إلا وجوسلين - صاحب تل باشر - قد كبسهم».

عاد أتابكة الموصل والجزيرة إلى مهاجمة الأمارات الصليبية في بلاد الشام، حين توالت غارات بلدوين الأول - ملك بيت المقدس -

عماد الدين زنكي واليقظة الإسلامية

واصل عماد الدين زنكي سياسة أسلافه - أتابكة الموصل - في مجاهدة الفرنجة بعد أن استفحل خطرهم في بلاد الشام، وامتد ملكهم من ناحية ماردين إلى عريش مصر، فيما عدا حلب وحمص وحماه ودمشق التي بقيت في حوزة بعض الأمراء المسلمين، بل أن هذه البلاد تعرضت لغارات متعددة شنها الفرنجة بغية السلب والنهب، ولم يكتفوا بذلك بل فرضوا أتاوات على البلاد المجاورة لهم، مقابل عدم اعتدائهم عليهم.

بدأ زنكي يناهض الصليبيين منذ سنة ٥٦٤هـ (١٢٩م) وعلى الرغم من أنه لم يستفد من الاضطرابات التي حدثت بأنطاكية بعد مقتل أميرها بوهمند الثاني. فإنه عمد إلى مهاجمة بعض حصون الفرنجة التي تهدد ممتلكاته في بلاد الشام ومنها حصن الأثارب سنة ٥٢٤ - (١١٣٠م) - بين حلب وأنطاكية - وكان أهل حلب يلاقون كثيرا من الضر والضيق من هذا الحصن الذي اتخذه الفرنجة قاعدة لمهاجمة حلب، ونهب أموالها ومحاصيلها، بل كانوا يقاسمون أهل حلب

على جميع أعمالها الغربية، فلما هاجم عماد الدين زنكي هذا الحصن، حشد الفرنجة جندهم لصده، ودارت بين عماد الدين والصليبيين معركة حلت فيها الهزيمة بهم، ووقع كثير من فرسانهم في الأسر، واستطاع أتابك الموصل أن يستولي على حصن الأثارب عنوة، ثم سار زنكي من الأثارب إلى قلعة حارم ـ على مقربة من أنطاكية فحاصرها، وضيق عليها الحصار. ولما رأى الفرنجة أنه لا طاقة لهم بزنكي وجنده، عرضوا عليه الكف عنهم في مقابل منحه نصف دخل بلدهم، فأجابهم إلى ذلك ورفع الحصار عن حارم.

على أن عماد الدين زنكي انصرف بعض الوقت عن قتال الصليبيين بعد عودته إلى العراق، وانشغاله بالصراع الدائر بين السلاجقة والخلفاء العباسيين، والاضطرابات التي أثارها الأكراد في شمال العراق.

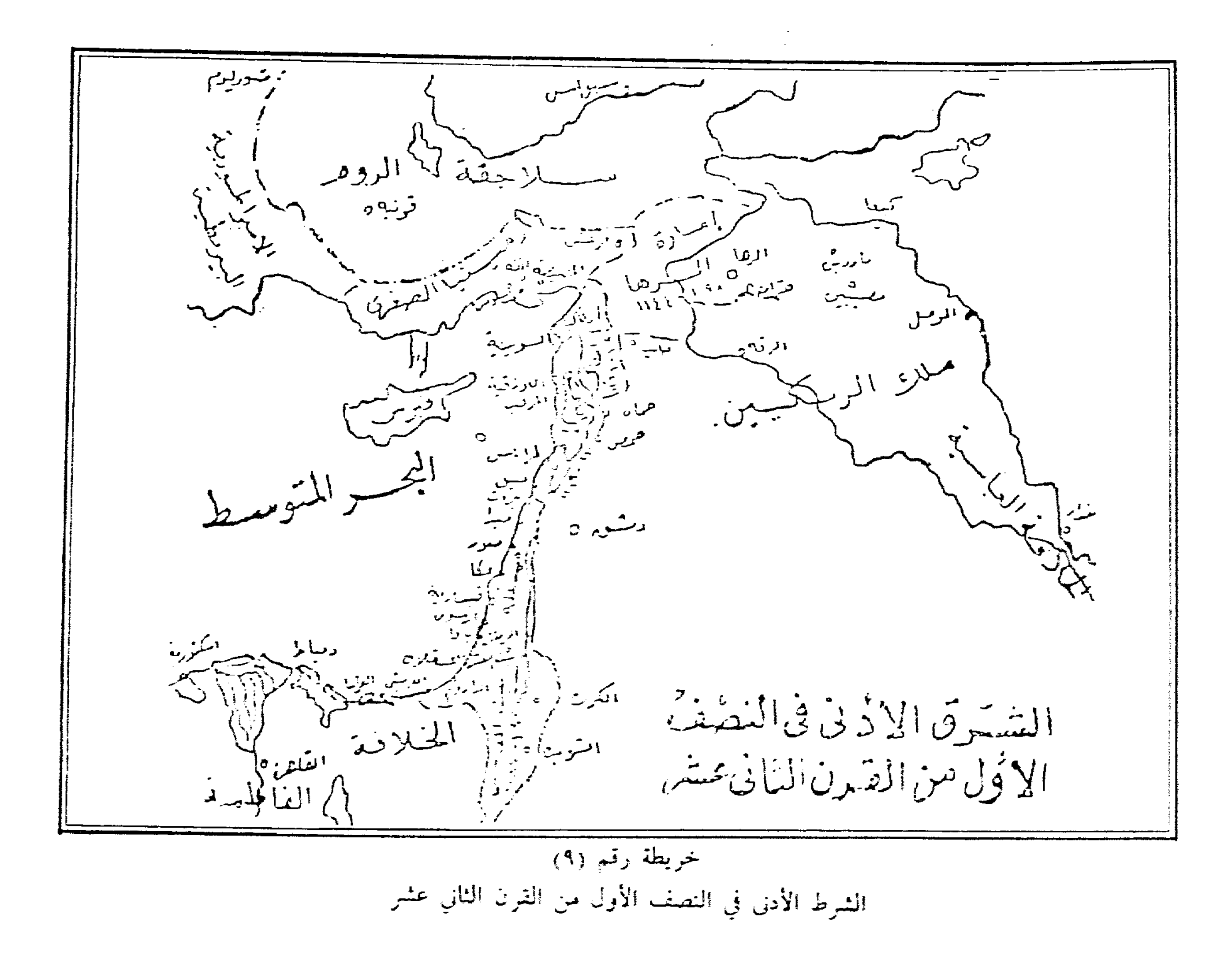
وعلى الرغم من تغيب زنكي عن الشام، فإن جهوده في محاربة الصليبيين لم تتوقف، فأمد سيف الدين سوار ـ نائبه في حلب ـ بجند من التركمان وطلب إليه مجاهدة الفرنجة، فشن سوار هجماته على أنطاكية مما حمل أهلها على الاستنجاد بفولك ـ ملك بيت المقدس ـ فسار إلى أنطاكية وفي طريقه إليها علم أن سيف الدين سوار هاجم تل باشر التابعة لإمارة الرها ـ وغنم منها مغانم كثيرة، ولم يستطع الصليبيون صده عنها، فتقدم فولك إلى قنسرين، حيث كان سوار معسكرا بقواته، واشتبك الفريقان في معركة انتصر فيها الصليبيون، وعاد فولك إلى فلسطين سنة ٥٢٧هـ (١١٣٢م).

انتهز سوار فرصة الفتن الداخلية التي حدثت في أنطاكية نتيجة النزاع على الحكم، فهاجم أنطاكية والقرى الصليبية المجاورة لها حتى بلغت غاراته اللاذقية سنة ٥٣٠ ـ (١١٣٥م) ويذكر ابن القلانسي أن جند زنكي عادوا إلى حلب ومعهم ما يزيد على سبعة آلاف أسير عدا ما غنموه من الدواب والأسلحة.

رأى عماد الدين زنكي بعد عودته إلى بلاد الشام سنة ٥١٦هـ (١١٣٧م) أن يعمل على تحقيق سياسته في إقامة جبهة إسلامية متحدة حتى يتيسر له استئناف الحرب ضد الصليبيين، فهاجم حمص مرة أخرى لكن معين الدين أنر ـ واليها من قبل أتابك دمشق ـ تصدى له، بل استعان عليه بالفرنجة فسار الصليبيون إلى حمص لمنع زنكي عنها، فاضطر أتابك الموصل إلى رفع الحصار عن حمص، وسار لمواجهة الصليبيين عند بارين ـ بين حماة وحمص ـ وكان الصليبيون قد اتخذوها قاعدة يشنون منها الغارات على البلاد الواقعة بين حمص وحماه.

استنجد ريموند ـ صاحب طرابلس ـ بفولك ملك بيت المقدس واشتبكا مع عماد الدين في معركة رغبة في صده عن بارين، لكن عماد الدين زنكي هزم الفرنجة، وألحق بهم خسائر فادحة في الأرواح والعتاد ووقع في الأسر كثيرون، منهم ريموند ـ أمير طرابلس ـ بينما فر فولك إلى حصن بارين، واحتمى به، واضطر إلى الاستنجاد ببطريرك بيت المقدس، وأميري الرها وأنطاكية، وقد لبى هؤلاء الثلاثة طلبه وخرجوا لنجدته على رأس جيش كبير. غير أن جند زنكي شددوا الحصار على القلعة وقذفوها بالمنجنيقات، ولما ندرت الذخائر والمؤن لدى الفرنجة اضطر فولك إلى طلب الأمان من زنكي في مقابل تسليم القلعة، فأظهر زنكي في بداية الأمر عدم اكتراثه بهم. لكنه حين بلغه اقتراب جيوش الفرنجة ـ الذين استنجد بهم فولك ـ منح الأمان لجندهم المحاصرين بالقلعة في مقابل تسليمها، وأذن للملك فولك وفرسانه بمغادرة القلعة. والعودة إلى بلادهم كما أطلق سراح ـ أمير أنطاكية ـ وجميع أسرى الحرب الأخيرة واستولى على القلعة وأنفذ إليه الفرنجة خمسين ألف دينار مقابل إطلاق سراحهم.

كان لاستيلاء زنكي على قلعة بارين أهمية كبيرة إذ أن امتلاكه لها يعوق الفرنجة عن الوصول إلى أعالي وادي نهر العاصي فضلا عن أنه يمكن زنكي من السيطرة على حمص وحماه اللتين كانتا في دائرة نفوذ دمشق.



خريطة رقم (٩)

الشرق الأدنى في النصف الأول من القرن الثاني عشر

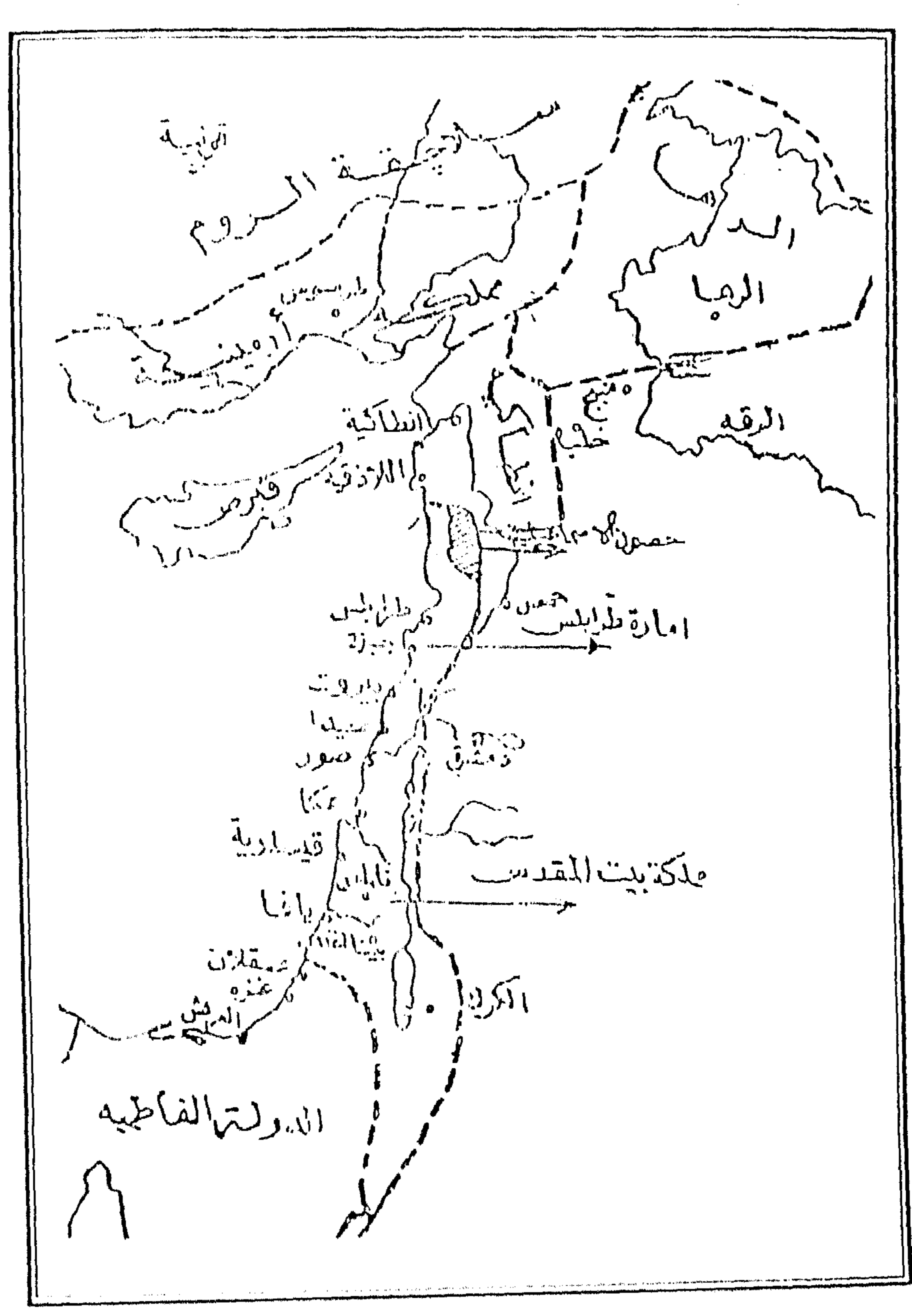
وبينما كان زنكي محاصراً لقلعة بارين، تمكن من فتح معرة النّعمان وكفر طاب وغيرها من البلاد الواقعة بين حلب وحماه، ومما يجدر ذكره أن هذه البلاد أفادت من استيلاء زنكي عليها، إذ عمرت وزاد دخلها.

واصل زنكي سياسته التي تنطوي على توحيد القوى الإسلامية في الشام لمواجهة الخطر الصليبي، فهاجم دمشق سنة ٥٣٤هـ (١١٣٩م) مما اضطر معين الدين انر - نائب أتابك دمشق - إلى الاستنجاد بالصليبيين، وبذل لهم الأموال في مقابل صد زنكي عن دمشق، فخرجوا لنصرته، لأنهم أيقنوا بالخطر الذي يواجههم من جراء استيلاء زنكي على دمشق.

ولما سارت الفرنجة إلى دمشق. اضطر عماد الدين زنكي إلى رفع الحصار عنها وقصد حران معتزما قتال الفرنجة قبل أن يلتقوا بأهالي دمشق غير أن الفرنجة لم يواصلوا زحفهم إلى هذه المدينة خوفا من وقوع اشتباك بينهم وبين عماد الدين زنكي.

أماعن موقف معين الدين أنر - نائب أتابك دمشق - فإنه عمل على الوفاء بتعهداته للفرنجه، فانتهز غياب - أتابك الموصل - عن بلاد الشام وسار إلى بانياس لانتزاعها وتسليمها للفرنجة - وكانت من أملاك زنكي - وانضم إليه فولك - ملك بيت المقدس - وريموند - أمير أنطاكية - وعجز أهل بانياس - عن صد أنر وحلفائه عن بلدهم مما هون عليه أمر الاستيلاء عليها، وتسليمها للفرنجة، وهكذا أدى التحالف بين حكام دمشق وبيت المقدس إلى عرقلة الجهود التي بذلها عماد الدين زنكي في تكوين جبهة إسلامية متحدة تستطيع مواجهة الخطر الصليبي.

على أن غارات قوات عماد الدين زنكي لم تتوقف في بلاد الشام، فيذكر ابن العديم أن الفرنجة لما أغاروا سنة ٥٣٦هـ (١١٤١م) على سرمين وعاثوا فيها



خريطة رقم (١٠)

الممتلكات الصليبية في بلاد الشام سنة ٥٣٥هـ (١١٤٠م)

سلبا ونهبا، ثم تحولوا إلى جبل السماق وكفر طاب، لم يقف قواد عماد الدين زنكي في بلاد الشام مكتوفي الأيدي إزاء أعمال الفرنجة التخريبية، فاجتمع كثير من جند التركمان بقيادة علم الدين بن سيف الدين سوار، وساروا إلى أنطاكية، وشنوا عليها غارات وغنموا منها كثيرا من الغنائم.

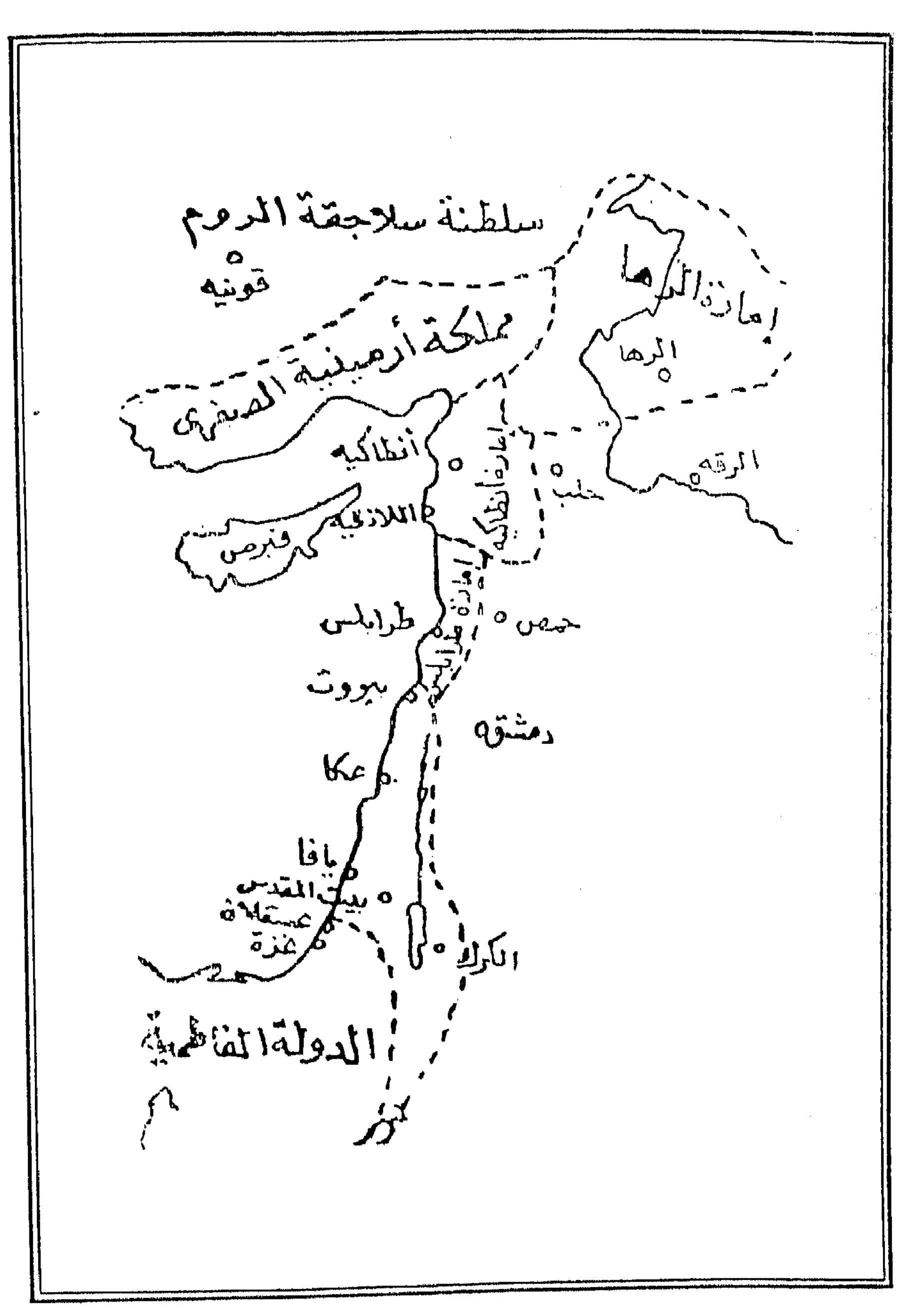
واصل قادة زنكي جهودهم في مقاومة الصليبيين، ففي سنة ٥٣٨هـ (١١٤٣م) خرج القائد سيف الدين سوار ـ نائب زنكي في حلب ـ إلى أنطاكية واشتبك مع بعض القوات الصليبية وأوقع بهم الهزيمة وغنم منهم مغانم كثيرة، ولما خرج صاحب أنطاكية إلى بزاعة للانتقام من جند زنكي رده سوار على أعقابه.

كما استولى عماد الدين زنكي في نفس السنة على بعض بلاد ديار بكر التي كانت في حوزة جوسلين ـ أمير الرها ـ وعمل على إصلاح أمورها وأبقى بها حامية من الجند لدرء الأخطار التي تتعرض لها.

الحملة الصليبية الثانية

كان للنزاع الذي حدث بين ريموند ـ صاحب أنطاكية ـ وجوسلين ـ أمير الرها ـ وضعف مملكة بيت المقدس على أثر وفاة ملكها فولك، وعجز خليفته بلدوين الثالث عن المحافظة على وحدة الفرنجة وتوحيد كلمتهم، أثر بالغ في إتاحة الفرصة أمام زنكي لاستئناف الجهاد ضد الصليبيين، فأعد جيشا لمهاجمة الرها التي كانت من أشرف المدن عند النصارى، وأكثرها محلا.

كانت أمارة الرها تشكل خطراً كبيراً على المسلمين، فأدى موقعها على خطوط المواصلات بين الموصل وحلب وبين بغداد ودول سلاجقة الروم في آسيا الصغرى. إلى تعرض المسلمين لأخطار جسيمة. كما أن الفرنجة اتخذوها قاعدة لشن غاراتهم على البلاد الجزرية.



خريطة رقم (١١)
الإمارات اللاتينية في الشام (سنة ١١٤٠م - سنة ٥٣٥هـ)

رأى عماد الدين زنكي أنه إذا ما قصد الرها اجتمع بها من الفرنجة من يعمل على صده، فيتعذر عليه فتحها، فاتجه إلى ديار بكر ليوهم الفرنجه أنه منشغل عنهم بمحاربة قرا أرسلان ـ أمير ماردين ـ الذي تحالف مع جوسلين الثاني ـ أمير الرها ـ وقد تمكن زنكي من انتزاع عدة قلاع في ديار بكر. أما فيما يتعلق بأمير الرها فإنه لم ينشغل عن حليفه أمير ماردين، فخرج على رأس جيش كبير عبر به الفرات إلى البلاد الشامية ليحول دون الاتصال بين حلب والموصل، وعسكر بقواته في تل باشر، ولما وقف زنكي على تحركات خصمه جوسلين، عقد الصلح مع الأراتقه، وسار إلى الرها.

لم يترك جوسلين في الرها حامية كبيرة، بل اعتمد في الدفاع عنها على السكان الأصليين من المسيحيين على الرغم من قلة خبرتهم بشئون الحرب والقتال، كما تولى الدفاع عن المدينة الجند المرتزقة.

لما زحف عماد الدين زنكي إلى الرها شاهد مدينة تجمع بين حسن التنسيق، ودقة التحصين، فأرسل إلى أهلها يعرض عليهم الأمان ـ لكن زعماء المسيحيين رفضوا ذلك العرض الذي تقدم به زنكي. أملا في أن تصل إليهم نجدات من جوسلين، ومن أميري أنطاكية وبيت المقدس.

على أن ريموند ـ أمير أنطاكية ـ خيب أملهم حين رفض إرسال نجدة إليهم، أما ميليسند ـ ملكة بيت المقدس ـ فأرسلت جيشا إلى الرها، لكنه وصل إليها بعد فتحها، بينما ازدادت قوات عماد الدين زنكي بما انضم إليه من الأتراك والتركمان.

حاصرت قوات عماد الدين زنكي الرها من جميع الجهات سنة ٥٣٩هـ (١١٤٤م) وحالت دون وصول الأقوات والميرة إليها، ونصبت على أسوارها المنجنيقات، وبعد عدة هجمات، تمكن جند الموصل من تحطيم أسوار الرها،

ودخلوا المدينة بعد حصار دام ثمانية وعشرين يوما، وفر أهلها إلى قلعتها، لكن هيو ـ رئيس الأساقفة اللاتين ـ أمر بإغلاق القلعة دونهم، مما جعلهم يواجهون خطر هجوم قوات زنكي.

أما عن زنكي فإنه أمر جنده بالكف عن قتال المسيحيين الشرقيين، بينما حاصرت قواته الفرنجة، ونكلت بهم.

رأى زنكي بعد دخوله مدينة الرها أن يقطعها لزين الدين علي كجك وطلب إليه أن يعمل على إصلاح أمورها ونشر العدل بين أهلها، فسار زين الدين في أهل الرها سيرة حسنة. وشملهم بعنايته ورعايته، فطابت نفوسهم وانضموا إلى المسلمين في الدفاع عن المدينة ضد هجمات الفرنجة الذين يخالفونهم في مذهبهم الديني. وهكذا عادت الرها إلى حالها الأول مدينة مسيحية يحكمها أمراء مسلمون.

علت مكانة زنكي بعد ذلك الانتصار الرائع الذي أحرزه على الصليبيين فمنحه الخليفة العباسي الهدايا، ولقبه بطل الإسلام، الملك المظفر المنصور قاهر الكفرة والمتمردين.

كان لسقوط الرها آثار بعيدة المدى على المسلمين، إذ أنها أول أمارة صليبية قامت في الشرق، ولم يعد للفرنجة بعد زوالها إلا بلاد تقع على ساحل البحر المتوسط كما أن سبل الاتصال بين حلب والموصل صارت آمنة.

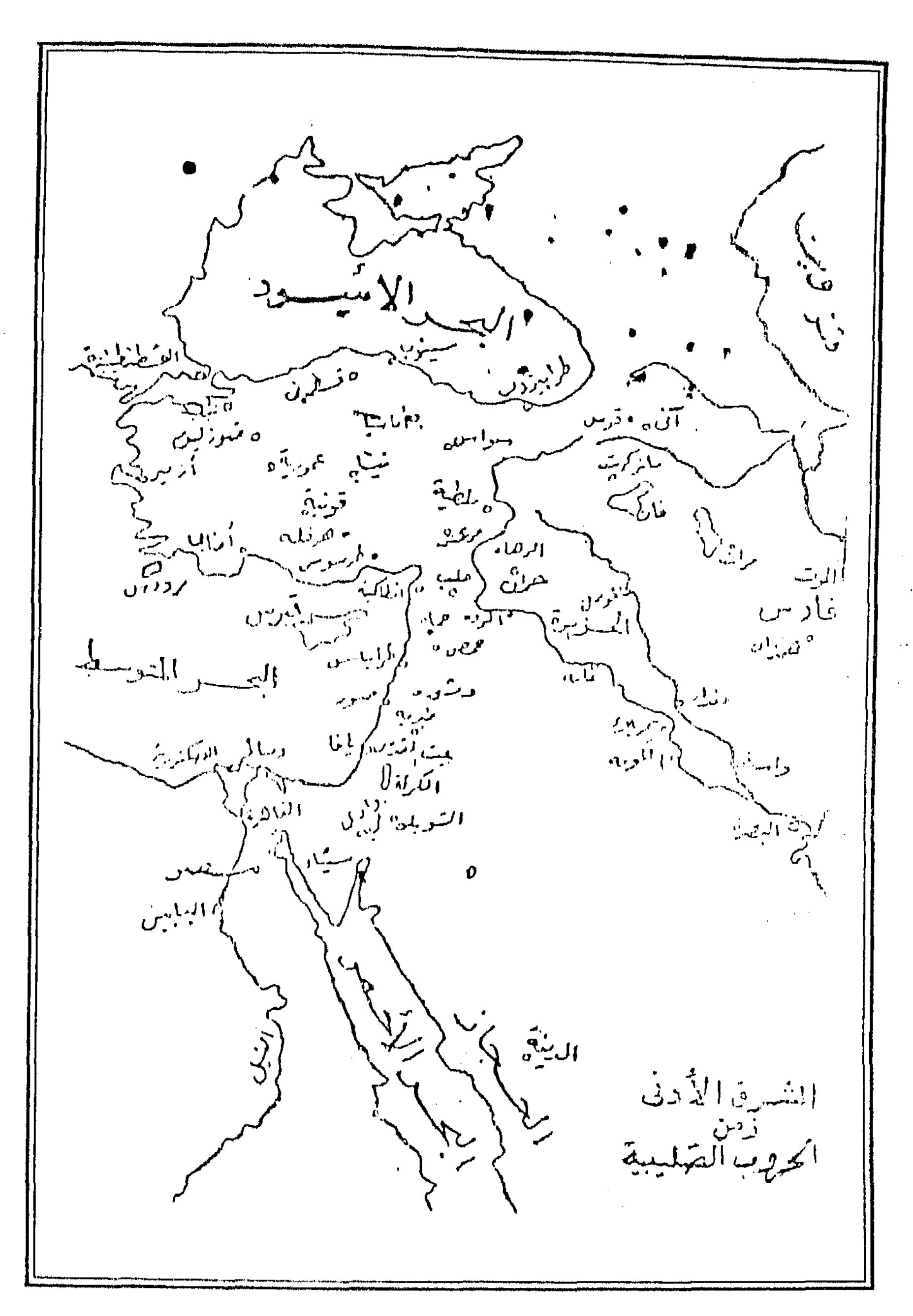
لم يكتف عماد الدين زنكي بفتح الرها، بل عول على انتزاع أعمالها من جوسلين الثاني، فسار إلى سروج ـ التي تعتبر ثاني الحصون الصليبية الكبيرة الواقعة شرقي الفرات ـ ويذكر ابن القلانسي، أن هذا الحصن كان حصنا تحصينا قويا، فلما نزل زنكي عليه، قطع عنه سائر ما يصل إليه من المؤن والمعدات حتى

استولى عليه، كما امتلك زنكي البلاد والمعاقل التي كانت في حوزة جوسلين على نهر الفرات، حتى لم يبق لهذا الأمير الصليبي سوى البيرة التي تتوافر فيها المؤن والذخائر، فحاصرها عماد الدين زنكي سنة ٥٣٩هـ (١١٤٥م) غير أن الفرنجة قاوموه مقاومة عنيفة، واضطر زنكي إلى رفع الحصار عنها، وعاد إلى الموصل لإقرار أمورها إلى وضعها الصحيح، بعد محاولة السلطان السلجوقي ألب أرسلان الاستئثار بالسلطة في أتابكيته.

انتهز حسام الدين تمرتاش ـ أمير ماردين ـ فرصة رفع زنكي الحصار عن البيرة وعودته إلى بلاده، وسار إلى البيرة، وشدد الحصار عليها، وحال دون وصول المؤن والذخيرة إليها، ولما عجز أهلها عن مقاومته، رأوا أن من الخير تسليم بلدتهم لأمير ماردين خشية من وقوعها في يد زنكي وهونوا لتمرتاش أمر الاستيلاء على البيرة وهكذا لم يبق بيد الفرنجة أي بلد شرقي الفرات.

كان للهزائم التي ألحقها جند الموصل والجزيرة بالصليبيين في الشام أثر بالغ في نفوسهم فعولوا على الانتقام من المسلمين، ففي سنة ٥٣٩هـ (١١٤٥م) اجتمع حشد كبير من الصليبيين بنواحي أنطاكية لاستعادة الرها وأعمالها كما أن سكان الرها من الأرمن أرسلوا إلى جوسلين الثاني يطلبون منه القدوم إلى مدينتهم واستعادتها وخاصة أن زنكي ترك حامية صغيرة، ولما علم عماد الدين زنكي بذلك باغت جموع الصليبيين، وألحق بهم هزيمة ساحقة، وردهم على أعقابهم، ثم سار إلى الرها وقضى على المتآمرين.

كذلك انضم أتابكة الموصل والجزيرة إلى نور الدين محمود في الحرب التي نشبت بينه وبين الفرنجة سنة ٥٥٩هـ (١١٦٣م) ذلك أن الفرنجة قصدوا مصر في هذه السنة، فعول نور الدين محمود على مهاجمة بلادهم وسار لنجدته قطب الدين مودود ـ أتابك الموصل ـ وقرا أرسلان بن داود بن أرتق ـ صاحب حصن



خريطة رقم (١٢)
الشرق الأدنى زمن الحروب الصليبية

كيفا ـ وألب أرسلان بن تمرتاش ـ صاحب ماردين ـ ولما اجتمعت قواتهم عند نور الدين محمود، نازل حارم، ونصب عليها المنجنيقات، غير أن قوات الفرنجة ما لبثت أن زحفت إليها واضطرت القوات الإسلامية إلى الإنسحاب قرب حلب. ومع ذلك فشلت قوات الفرنجة في تتبعها وعادت إلى حارم، فتعقبهم المسلمون، وألحقوا بهم الهزيمة ووقع في أيديهم كثير من أسراهم كان من بينهم بوهمند ـ صاحب أنطاكية ـ غير أنه لم يستمر طويلا في الأسر، فقد أطلق سراحه بعد أن أدى أموالا كثيرة.

لم تقف جهود قطب الدين مودود في محاربة الفرنجة عند هذا الحد، بل انضم إلى نور الدين محمود للمرةالثانية في مهاجمة الفرنجة فتوغلت قوات الموصل وحلب في أعمال أنطاكية، وحاصرت حصن الأكراد ـ على مقربة من حمص ـ ونزلوا بعرقة، كما حاصروا حلب، واستولوا عليها ثم فتحت قوات الموصل وحلب، العريمة وصافيتا سنة ٥٦٢هـ (١١٦٦م) وقصدوا حصن هونين، وألحقوا الهزيمة بالفرنجة، وعاد قطب الدين إلى الموصل بعد أن منحه نور الدين محمود الرقة مكافأة له على حسن بلائه في مناهضة الفرنجة.

مهدت الانتصارات التي أحرزها كل من نور الدين محمود وقطب الدين مودود على الصليبيين في أنطاكية السبيل لبعض أمراء بني أرتق للتوسع في بلاد الفرنجة فهاجم قرا أرسلان ـ صاحب حصن كيفا ـ الأجزاء الشمالية من إمارة الرها ونجح في الاستيلاء على كركر.

كذلك أسهم أتابكة الموصل والجزيرة في الحروب التي قام بها صلاح الدين يوسف بن أيوب ضد الصليبيين ذلك أنه لما ازدادت غارات ريجنالد ـ أمير حصن الكرك ـ على المدن الإسلامية، وكثر تعرضه لقوافل المسلمين المتجهة إلى مصر أو القادمة منها، عول السلطان صلاح الدين على مهاجمة هذا الحصن، وانضم إليه قرا أرسلان ـ صاحب حصن كيفا وآمد ـ وعندما اشتد حصار المسلمين لحصن

الكرك، استنجد صاحبه بالفرنجة، فخرج لنجدته ريموند الثالث - أمير أنطا
فاضطر المسلمون إلى رفع الحصار عن الحصن وسارت قواتهم إلى نابلـ
فأحرقوها ودمروها، ثم عادوا إلى دمشق سنة ٥٨٠هـ (١١٨٤م).

ولما خرج صلاح الدين لحصار حصن الكرك سنة ٥٨٣هـ (١١٧٧م)
أتابكة الموصل والجزيرة وديار بكر لنجدته كما عهد هذا السلطان لمظفر ا
كوكبوري - صاحب حران والرها - بالمسير إلى عكا لمهاجمتها فزحف إ
واشتبك مع الفرنجة في معركة انتهت بانتصار قواته، واستيلائها على كثير
الغنائم.

صلاح الدين والصليبيون

واصل صلاح الدين الحرب ضد الصليبيين سنة ٥٨٤هـ (١١٨٨م) فأ
إلى أمراء الموصل والجزيرة وديار بكر يستنفرهم، ويحثهم على سرعة القدو
بلاد الشام، فأجابوا طلبه، ويذكر ابن شداد أن السلطان صلاح الدين سر
لقدوم هؤلاء الأمراء وأكرم وفادتهم ومنحهم الهدايا، وسارت القوات الإسـ
المتحالفة إلى حصن الأكراد واستولت عليه، ثم هاجمت أنطرطوس وأعملوا
التخريب، واستولوا على جبلة، ثم قصدوا اللاذقية وضموها إلى حوزتهم
فتحوا حصون صهيون وباكاس والشفر وسرمينية وبرزية وانتزعت الـ
الإسلامية إلى جانب ذلك درب ساك على نهر العاصي وبغراس، ولما عقد
الدين هدنة مع بوهمند الثالث - أمير أنطاكية - أذن لعسكر الموصل وا
بالعودة إلى بلادهم، وكافأ حلفاءه، وأجزل لهم العطاء.

واستطاع صلاح الدين يوسف بن أيوب أن يعد العدة لحرب شاملة
الصليبيين، وسانده في ذلك أتابكة الموصل والجزيرة، ذلك أن أرناط
أنطاكية - بعد أن وقع أسيراً في أيدي المسلمين سنين عددا، تزوج من إتينـ

ميلي Etennette de Milly وريثة صاحب الأردن. وأطلقت يده في حكم الأردن وحصني الكرك والشوبك.

وتعرض أرناط للقوافل الإسلامية السائرة بين دمشق والقاهرة مارة بحصنه، كما جرد حملة سنة ٥٧٧هـ / ١١٨١م على الجزيرة العربية. لكن قوات صلاح الدين أحبطت هذه المحاولة، وعلى الرغم من ذلك «فقد ظل أرناط يهاجم المسلمين، وأرسل أسطولا إلى شواطىء الحجاز. إلا أن العادل ـ نائب صلاح الدين في حكم مصر ـ أرسل قوات شتت شمل الصليبيين شمال ينبع، وأسرت الكثير منهم، وفر الباقون وعلى رأسهم أرناط».

لذلك طلب أرناط من صلاح الدين عقد هدنة بينهما، فوافق السلطان الأيوبي، وعادت القوافل الإسلامية إلى المرور بين مصر والشام عبر صحراء الأردن في أمن وطمأنينة، ولكن أرناط لم يلبث أن نقض الهدنة، وعاد مرة أخرى إلى أعمال السلب والنهب، فهاجم قافلة إسلامية متجهة من القاهرة إلى دمشق ومحملة بالنعم الجليلة سنة ٥٨٠ / ١١٨٦م، واستولى على كل مافيها من نفائس، ونهب أفراد القافلة، وزجهم في حصن الكرك.

حاول صلاح الدين إنقاذ أسرى القافلة، فطلب من أرناط إطلاق سراحهم، وإرسال الأموال التي اغتصبها، ولكنه رفض. فأرسل إلى جاي لوزجنان ـ ملك بيت المقدس ـ يطلب منه بذل مساعيه الحميدة لدى أرناط للإفراج عن الأسرى، وإطلاقه الأموال وفشل ملك بيت المقدس في إقناع أرناط، وفي هذا ما يدل على أن صلاح الدين أراد حل المشكلة سلما، ولما أصر أرناط على العناد نذر دمه وأعطى الله عهدا إن ظفر به أن يقتله بيده.

شن صلاح الدين عدة حملات استطلاعية على المواقع الصليبية، فأدرك قادة الصليبيين مدى الخطر الذي يتهددهم من المسلمين، فدخل ريموند الثالث

ـ أمير طرابلس ـ في طاعة الملك جاي لوزجنان واتفق معه على أن يعمل تحت قيادته في مواجهة أي هجوم إسلامي، وعسكر الصليبيون في صفورية ـ قرب عكا ـ ومعهم صليب الصلبوت فعول صلاح الدين على استدراج الصليبيين إلى طبرية، فهاجمها، وكان يحكمها أشيفا ـ زوجة ريموند الثالث.

لذا رأى الصليبيون خطورة الموقف، واتجهوا إلى طبرية، وضمت الحملة، أرناط، وجاي لوزجنان ـ ملك بيت المقدس ـ وجيرار دي ريد فورت مقدم الداوية. وريموند ـ أمير طرابلس ـ.

اجتمع الصليبيون واحتشدوا للدفاع عن إمارتهم، واجتمعت كلمتهم بعد فرقتهم، ولم تغن عنهم من الله شيئا، وجمعوا فارسهم وراجلهم، ثم ساروا من عكا إلى صفورية، وسار صلاح الدين وجنده وعسكر في موضع مجاور لطبرية، وصعد المسلمون جبلها وتقدموا حتى اقتربوا من الصليبيين فلم ير منهم أحدا، ولا فارقوا خيامهم، وأمر صلاح الدين فرقة من جنده بمنع الصليبيين من القتال، بينما هاجم طبرية، وشدد هجماته عليها، حتى استولى على المدينة عنوة، ولجأ من بها إلى القلعة، واعتصموا بها، وأطلق صلاح الدين لجنده العنان في نهب البلدة وإحراقها، عندئذ تقدم الصليبيون نحو معسكر المسلمين حتى اقتربوا منهم، وكان المسلمون قد نزلواعلى الماء والزمان قيظ الحر، ولم يتمكن الصليبيون من الوصول إلى ذلك الماء من المسلمين، وكانوا قد أفنوا ما هناك من ماء الصهاريج، ولم يتمكنوا من الرجوع خوفا من المسلمين، فبقوا على حالهم إلى الغد، وقد أخذ منهم العطش كل مأخذ، وقد أدرك المسلمون ذلك، وتأكدوا أنهم في وضع أحسن بكثير من وضع العدو، فباتوا يحرض بعضهم بعضا، وقد وجدوا ريح النصر والظفر، وكلما رأوا حال العدو السيء، وخذلانهم زاد طمعهم وجرأتهم، فأكثروا التكبير والتهليل طول ليلتهم.

موقعة حطين

وأصبح صباح يوم السبت من شهر ربيع الآخر سنة ٥٨٣هـ ١١٨٧م تجمع المسلمون، وتقدموا بقيادة القائد صلاح الدين، واقتربوا من الصليبيين، وكان حالهم قد ازداد سوءا بعد أن اشتد بهم العطش، ودارت رحى معركة بين الفريقين، وحمي وطيس القتال، وحاول بعض جند العدو الاقتراب من طبرية حيث الماء، فلما علم صلاح الدين مقصدهم صدهم عن مرادهم، وأمر جنده بالحيلولة بين العدو وبين الماء، وطاف صلاح الدين بنفسه على المسلمين يحرضهم على مواصلة القتال، والجهاد في سبيل الله فأتمر المسلمون بأمره، ووقفوا عند نهيه، فهاجم المسلمون ـ بعد أن استثار القائد حماسهم ـ أعداءهم، وحملوا عليهم حملة منكرة، أنهكوا قوى العدو، وقتلوا منهم كثيرين، ولما رأى الصليبيون أنهم لا طاقة لهم بالمسلمين، حاول بعضهم فتح طريق يخرجون منه، وكان بعض المتطوعة قد أشعل في تلك الأرض نارا، وكانت الأعشاب والحشائش كثيرة، فاحترقت، وكان الريح، فحملت حر النار والدخان إليهم، فاجتمع عليهم العطش وحر الزمان وحر النار والدخان وحر القتال، وأسقط في يد الصليبيين بعد الهزيمة، وكادوا يستسلمون، لذلك رأوا أنهم لا يستطيعون النجاة إلا إذا شنوا حملات انتحارية على المسلمين، وفعلا هاجموا المسلمين بضراوة وعنف، إلا أن المسلمين ـ الذين عقدوا العزم على مواصلة النضال مهما كانت التضحيات ـ تصدوا لهم، وقتلوا كثيرا منهم، حتى وهنوا وضعفوا وتخاذلوا، وأدركوا أن الهزيمة لاحقة بهم لا محالة وأحاط بهم المسلمون إحاطة الدائرة بقطرها، فصعد من استطاع من الصليبيين إلى تل بناحية حطين، وأرادوا أن ينصبوا خيامهم، ويحموا نفوسهم به، فاشتد القتال عليهم من سائر الجهات، واستولى المسلمون على صليبهم الأعظم المسمى صليب الصلبوت.

وأعمل المسلمون فيهم السيف حتى أفنوهم، وبقي ملك بيت المقدس الصليبي على التل مع مائة وخمسين فارسا من الفرسان المشهورين الشجعان

وأسر المسلمون الملك الصليبي وفرسانه عن بكرة أبيهم، ومن بين الأسرى أرناط ـ أمير الكرك ـ ولم يكن من بين الصليبيين أشد عداءا للمسلمين من هذا الرجل، وأسر المسلمون جماعة من الداوية والاسبتارية وكثر القتل والأسر فيهم، فكان من يرى القتلى لا يظن أنهم أسروا واحدا، ومن يرى الأسرى لا يظن أنهم قتلوا أحداً.

نزل صلاح الدين يوسف بن أيوب بعد هذا النصر المبين في مخيمه، وأحضر ملك بيت المقدس عنده، وأمراء الصليبيين ومن بينهم أرناط، وأجلس صلاح الدين، الملك الصليبي إلى جانبه، وقد أهلكه العطش، وأضناه القتال، فسقاه ماء فشرب، وأكرمه وقال: إن الملوك لا تتعرض للملوك بسوء، ولكن صلاح الدين رفض أن يسقي أرناط، ثم ذكره بذنوبه وآثامه وأخطائه الجسيمة حيال المسلمين، وقام إليه بنفسه، وقتله وقال: كنت نذرت دفعتين أن أقتله إن ظفرت به، إحداهما لما أراد المسير إلى مكة والمدينة، والثانية لما تعرض للقافلة الإسلامية بالسلب والنهب.

لما فرغ صلاح الدين من هزيمة الصليبيين أقام بموضعه باقي يومه وفي يوم الأحد عاد إلى طبريه ونازلها، فأرسلت صاحبتها اشيفا تطلب الأمان لها ولأولادها وأصحابها ومالها فأجابها إلى ذلك.

وغادرت البلدة مع جماعتها في أمن وطمأنينة، ثم أمر صلاح الدين بإرسال الملك الصليبي والأمراء والفرسان الصليبيين إلى دمشق، وأمر بقتل الأسرى من الداوية والاسبتارية، لأنهم أشد شوكة من جميع الصليبيين، فأراح المسلمين من شرهم المستطير، وأمر نائبه في دمشق بقتل من دخل البلدة منهم.

بعد أن استولى صلاح الدين على طبرية، اتجه إلى عكا، وحاول أهلها الدفاع عنها، ولما رأوا قوات المسلمين فزعوا وجزعوا، وخرج كثير من أهل عكا

يضرعون ويطلبون الأمان، فأجابهم إلى ذلك، وأمنهم على أنفسهم وأموالهم، وآثروا الخروج عن البلدة خوفا من المسلمين بما خف حمله، وغلا ثمنه من الأمتعة والعتاد، ودخل صلاح الدين عكا، وغنم المسلمون من البلدة مغانم كثيرة لأنها كانت مقصد التجار الصليبيين والروم وغيرهم.

بعد أن استولى صلاح الدين على طبرية وعكا، تفرق جنده في البلاد التي كانت في أيدي الصليبيين مثل الناصرة وقيسارية وحيفا وغيرها من البلاد المجاورة لعكا فملكوها، وامتلك العادل ـ نائب صلاح الدين في مصر ـ مدينة يافا عنوة، بينما سار صلاح الدين إلى صيدا، فلما سمع صاحبها بمسير القائد المنتصر إلى البلدة، أسقط في يده، وغادر البلدة، وتركها من غير مدافع، فلما بلغها صلاح الدين تسلمها ثم سار إلى بيروت، لكنه رأى أهلها قد صعدوا على سورها وتأهبوا للدفاع عنها، وقاتلوا المسلمين قتالا شديدا، إلا أن المسلمين لم يخشوا من حملاتهم، بل شددوا هجماتهم عليهم، حتى وهنوا وضعفوا وأرسلوا إلى صلاح الدين يطلبون الأمان على أنفسهم وأموالهم، فاستجاب لهم، واستولى على المدينة بعد حصار دام ثمانية أيام، وأما جبيل فإن صاحبها كان في جملة الأسرى الذين سيقوا إلى دمشق، وأطلقه صلاح الدين بعد أن تنازل عن جبيل للمسلمين.

وبذلك استولى صلاح الدين على معظم المدن والقلاع والمراكز الساحلية في جنوب بلاد الشام، إلا أنه ترك من فيها من الصليبيين أحرارا، وأذن لهم بالمقام في البلاد التي استولى عليها، أو مغادرتها فقصد معظمهم إلى صور حيث احتشدت الجماعات المتخلفة من مملكة بيت المقدس الصليبية وقد أدى ذلك إلى صعوبة التغلب عليها، الأمر الذي لم يغب عن ذهن السلطان صلاح الدين، فأزمع تأجيل مهاجمتها، والاتجاه إلى غيرها.

ولما استولى صلاح الدين على بيروت وجبيل وغيرهما، عول على المسير إلى عسقلان والقدس، وعسقلان لها أهمية استراتيجية لصلاح الدين لأنها على طريق

مصر، وأيضا تيسر له الزحف إلى القدس، وكان صلاح الدين يفضل أن تتصل الولايات له ليسهل خروج الجند منها، ودخولهم إليها، فسار عن بيروت نحو عسقلان، واجتمع بأخيه العادل ومن معه من جند مصر، وهاجموها، وكان صلاح الدين قد أحضر أسيريه الملك الصليبي، ومقدم الداوية من دمشق، وطلب منهما أن ييسرا له استلام البلدة مقابل أن يفرج عنهما، فأرسل الأسيران إلى الصليبيين المحاصرين في عسقلان يطلبان منهم التسليم فلم يستجيبا لطلبهما، وردوا عليهما أقبح رد، فلما رأى السلطان صلاح الدين ذلك شدد هجماته على عسقلان، ونصب المنجنيقات عليها، وضرب المدينة بعنف وضراوة حتى أيقن أهلها بعدم استطاعتهم الصمود أمام ضربات المسلمين القوية، فأرسلوا إلى صلاح الدين يطلبون منه التسليم مقابل شروط اشترطوها، فأجابهم صلاح الدين إليها وسلموا المدينة للمسلمين بعد حصار دام أربعة عشر يوما، وسيرهم صلاح الدين ونساءهم وأموالهم وأولادهم إلى بيت المقدس، ووفى لهم بالأمان، وأعقب الاستيلاء على طبرية، فتح البلاد المجاورة لها مثل الرملة وغزة ومشهد إبراهيم الخليل وبيت لحم وغيرها.

الحملة الصليبية الثالثة

كان لابد لصلاح الدين يوسف بن أيوب، وهو القائد الذي بذل كل جهده لتحرير الأرض الإسلامية المغتصبة أن يتوج انتصاراته الرائعة على الصليبيين بالعمل على استرداد بيت المقدس الذي انتزعه الصليبيون من المسلمين في الحملة الصليبية المعروفة بالأولى، وفعلا أعد صلاح الدين العدة لاسترداد بيت المقدس بعد أن استولى على عسقلان وما يجاورها، فأمر قائد أسطوله في مصر بالإقلاع إلى سواحل الشام لمنع وصول الإمدادت إلى الصليبيين في الشام عبر البحر المتوسط، وهاجم صلاح الدين المدينة المقدسة، واحتشد الصليبيون

للدفاع عنها، واجتمعوا من كل مكان للدفاع عن البلدة بجهدهم وطاقتهم مظهرين العزم على النضال، ونصبوا المنجنيقات للحيلولة بين أعدائهم وبين البلدة ودارت مناوشات بسيطة، ثم هاجم صلاح الدين البلدة من نا حية الشمال ونصب المنجنيقات، ورمى بها، ودار قتال شديد، ولما رأى الفرنج شدة قتال المسلمين، وتحكم المنجنيقات بالرمي المتواصل. وتمكن المسلمين من إحداث ثغرات في سور البلدة، وأنهم أشرفوا على الهلاك، اتفق كبارهم على طلب الأمان، وتسليم بيت المقدس إلى صلاح الدين، فأرسلوا جماعة من كبرائهم وأعيانهم في طلب الأمان، فأظهر صلاح الدين امتناعا، ولكن باليان قال للسلطان: إعلم أننا في هذه المدينة في قلق كثير، وإنما يفترون عن القتال رجاء الأمان ظنا منهم أنك تجيبهم إليه، وهم يكرهون الموت، ويرغبون في الحياة، فإذا رأينا الموت لابد منه فلابد أن نقتل أبناءنا ونساءنا ونحرق أموالنا وأمتعتنا ولا نترككم تغنمون منا ديناراً واحداً ولا درهما ولا تسبون وتأسرون رجلا ولا إمرأة، وإذا فرغنا من ذلك أخربنا الصخرة والمسجد الأقصى وغيرهما من المواضع ثم نقتل من عندنا من أسارى المسلمين وهم خمسة آلاف أسير. ولا نترك لنا دابة ولا حيوان إلا قتلناه، ثم خرجنا إليكم كلنا قاتلناكم قتال من يريد أن يحمي دمه ونفسه، وحينئذ لا يقتل الرجل حتى يقتل أمثاله، ونموت أعزاء.

رأى صلاح الدين استلام المدينة صلحا بعد أن أنهكت الحرب جنده وبعد أن أيقن باعتزام الصليبيين الحرب إذا لم يوافق على الصلح، فبذل للصليبيين الأمان، وكان الرجل منهم يفتدي نفسه بعشرة دنانير يستوي فيها الغني والفقير، والمرأة خمسة دنانير، والطفل دينارين وأمهلهم أربعين يوما، يغادرون خلالها البلدة بعد أن يؤدوا المبلغ الذي قرره عليهم، وغادروا البلدة بأمتعتهم، وتسلمها المسلمون في السابع والعشرين من رجب، وكان يوما مشهودا، ورفعت الأعلام الإسلامية على أسوار القدس، وترك الصليبيون مالم يستطيعون حمله من معداتهم

وذخائرهم وأمتعتهم وأموالهم وباعوا ذلك بأرخص الأسعار، وترك صلاح الدين النصارى من أهل القدس الأصليين يعيشون في كنف الحكم الإسلامي في أمن وسلام، كما كان الحال منذ فتح القدس في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، وتم هذا الفتح سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م.

لما استرد صلاح الدين القدس عمر البلدة التي خربتها ودمرتها قوى البغي والعدوان، ولقد ذكرنا أن صلاح الدين استرد القدس في ليلة الإسراء المنصوص عليها في القرآن الكريم، ويذكر ابن شداد أن هذا الفتح العظيم شهده من أهل العلم خلق عظيم، ومن أرباب الحرف والطرق، وذلك أن الناس لما بلغهم أنباء هذا النصر، قصد العلماء من مصر ومن الشام القدس وارتفعت الأصوات بالدعاء والضجيج والتهليل والتكبير، وخطب في المسجد الأقصى، وصلى فيه الناس يوم فتحه، وأمر القائد بحط الصليب الذي كان على قبة الصخرة، وجمع صلاح الدين الأموال من الصليبيين الذين غادروا البلدة، وفرقها على الأمراء والعلماء.

وبذلك استرد المسلمون القدس، وكان صلاح الدين ـ كما رأينا ـ متسامحا كريما مع الصليبيين، فلم يعمل فيهم السيف، كما فعل الصليبيون في الحملة الأولى عند استيلائهم على القدس.

لما توطدت أقدام المسلمين في القدس والمدن الساحلية، اعتزم صلاح الدين قصد صور، لأن فتحها كان أمرا لابد منه لأن الصليبيين الفارين من الغزو الإسلامي، احتشدوا بها، فضلا عن الإمدادات التي كانت تصلها من أوربا، وهاجم صلاح الدين البلدة، وضايقها وقاتلها قتالا عظيما، واستدعى أسطول مصر، وكان يحاصرها من البحر، والعسكر من البر. ولكن الأسطول الصليبي هاجم الأسطول الإسلامي، ودمره، وقتل في هذه الواقعة الكثير من المسلمين،

ورأى السلطان صلاح الدين أنه لا يستطيع البقاء طويلا في المعركة بعد أن هجم الشتاء، وتراكمت الأمطار، فقرر الانسحاب من البلدة، ليأخذ جنده قدراً من الراحة، ويستعدوا لهذا الأمر استعداداً جيداً، ففرق العساكر، وسار كل قوم إلى بلادهم، وكان عدداً كبيراً من قواته في بلاد الجزيرة، انسحبت إلى ديارها بعد أن أدت واجبها خير أداء. أما السلطان فقد عاد إلى عكا مع جماعة من خواصه حتى دخلت سنة ٥٨٤هـ. وعادت الحروب الصليبية من جديد.

ذلك أن الانتصارات التي أحرزها صلاح الدين على الصليبيين أحدثت دويا هائلا في أوروبا، فارتفعت الصيحات مطالبة باسترداد بيت المقدس، وخرجت من أوربا إلى الشرق الحملة الصليبية الثالثة لهذا الغرض، وتزعمها ثلاثة من كبار ملوك أوربا، هم فردريك باربروسا ـ إمبراطور ألمانيا ـ وفيليب أغسطس ـ ملك فرنسا ـ ورتشارد قلب الأسد ـ ملك انجلترا ـ غير أن إمبراطور ألمانيا مات غرقا، وهو في طريقه إلى الشام. لذلك تشتت شمل جنده، ولم يصل منهم إلى عكا سوى عدد قليل. أما رتشارد وحليفه فيليب فقد نجحا في الاستيلاء على عكا. في سنة ٥٨٧هـ / ١١٩١م رغم استبسال المسلمين في الدفاع عنها. ولم يلبث أن عاد فيليب إلى فرنسا، وبقي ملك انجلترا في الشام يحارب المسلمين، فاستولى على أرسوف ويافا وحصنها من جديد. واعتزم استرداد بيت المقدس. وعلى الرغم من سيطرته على المدن الساحلية، فإنه تفاوض مع صلاح الدين في الصلح. وأدت هذه المفاوضات إلى صلح الرملة.

كانت الحالة في انجلترا تستدعي عودة رتشارد قلب الأسد إليها، ودب التنافس بينه وبين الأمراء الصليبيين في الشام، كما أنه أدرك أنه يتعذر عليه الاستمرار في انتصاراته على المسلمين لحرصهم على مواصلة النضال لتحرير بلادهم، لذلك عقد ملك انجلترا صلح الرملة مع صلاح الدين ويتضمن الشروط الآتية:

١ ــ تخريب عسقلان لأنها مفتاح بيت المقدس.

٢ ــ يحكم الصليبيون الساحل من صور إلى يافا. ويكون جنوبي ذلك الساحل لصلاح الدين، وتقع في حدوده بيت المقدس.

٣ ــ يسمح للمسيحيين بالحج إلى بيت المقدس في أمن وسلام.

وعلى أثر هذا الصلح عاد رتشارد قلب الأسد إلى بلاده. ولم يلبث أن توفي صلاح الدين في العام التالي. بعد أن بذل جهوداً مضنية في توحيد القوى الإسلامية، والحد من قوة الصليبيين. ولم يعد للصليبيين سوى بعض البلدان على الساحل.

توجه الحملة الصليبية إلى مصر

حاول الصليبيون بعد ذلك شن حملات على مصر، لأنها مركز المقاومة ضدهم، وأدركوا أهميتها الاستراتيجية، فهي تمكنهم من النفاذ إلى البحر الأحمر، والاستفادة من طريق تجارة الشرق، فضلا عن تطلعهم إلى الاستفادة من موارد مصر الاقتصادية.

ومن أهم الحملات الصليبية على مصر حملة جان دي برين التي هاجمت دمياط سنة ٦١٦هـ / ١٢١٩م، وكان يحكم مصر في ذلك الوقت السلطان العادل بن أيوب، لكنه لم يلبث أن توفي، وخلفه ابنه الملك الكامل الذي حاول إنقاذ دمياط، ومنع الصليبين من عبور النيل. وقد تجلت شجاعة المصريين في الدفاع عنها، وعرض الملك الكامل على الصليبيين النزول عن بيت المقدس في مقابل رفع الحصار عن دمياط، لكنهم رفضوا. وهذا يدل على أن الصليبيين في حملاتهم لم يعد يهمهم بيت المقدس بقدر ما يهمهم المصالح الاستراتيجية والاقتصادية. ثم اعتزم الصليبيون المسير إلى القاهرة، واخترقوا الدلتا وسط منطقة مائية تجري فيها عدة قنوات، وكان ذلك وقت فيضان النيل.

أما المصريون فاستعدوا للمقاومة في المنصورة، وحطموا السدود، وتركوا المياه تغطي المنطقة. وبذلك أحيط الصليبيون بالمياه، وحاولوا الهرب، فلم يتمكنوا، وطلبوا الأمان، فقبل الملك الكامل طلبهم، وسمح لهم بالرحيل من مصر في أمان، وجلوا عن دمياط.

الحملتان السادسة والسابعة

ولم تكد تهدأ الأحوال في مصر حتى جاءت الحملة الصليبية السادسة ثم تلتها الحملة الصليبية السابعة، وقادها لويس التاسع - ملك فرنسا - وقاد جيشا قويا، وأسطولا ضخما، وسار قاصداً مصر، وعلى الرغم مما تعرضت له جيوشه من صعوبات بين قبرص ومصر ومقاومة الصليبيين لجيشه فور نزوله مصر، إلا أنه استولى على دمياط، ثم سار إلى القاهرة واستخدم نفس الطريق الذي استخدمه أسلافه من قبل، ووصل لويس إلى المنصورة، وكانت محصنة تحصينا قويا من الداخل والخارج فحاصرها، ورغم دفاع المسلمين المجيد وقذفهم جيشه بالرماح والسهام والنيران الإغريقية، فإن لويس انتصر عليهم بعد أن فقد نصف فرسانه في المعركة. في هذه الأثناء مات الملك الصالح نجم الدين أيوب، وأرسلت شجرة الدر تستدعي توران شاه - ابنه - فقدم إلى المنصورة. وولى السلطنة بعد أبيه، وقاد الجيش الأيوبي بمهارة فائقة، واستطاع أن يحاصر الصليبيين، كما منع المؤن والإمدادات عنهم حتى أشرفوا هم وخيولهم على الفناء، وطلب لويس التاسع الصلح، وعرض نزوله عن دمياط مقابل أخذه بيت المقدس، ولكن توران شاه رفض مطلبه لأنه شعر بقوته، وطارد لويس الذي تقهقر إلى دمياط، والتقى به توران شاه في فارسكور، فأوقع به الهزيمة، وفي موقعة فارسكور نكل المسلمون بقوات ملك فرنسا، وأغرقوا سفنهم في النيل، وغنموا منهم مغانم كثيرة، وأسروا منهم عدداً كبيراً من بينهم الملك الفرنسي نفسه، وبعض الأمراء والنبلاء، وظل لويس التاسع أسيراً في سجن ابن لقمان

بالمنصورة، حتى افتدى نفسه بمبلغ كبير من المال، وانسحب الصليبيون نهائيا من مصر. وبذلك فشلت الحملة الصليبية السابعة فشلا ذريعا.

خاتمة الحروب الصليبية

كانت حملة لويس على تونس آخر الحملات الصليبية على الشرق، ولم يبق أمام المسلمين سوى تصفية البقية الباقية من الصليبيين في بلاد الشام، وقام المماليك فعلا بهذا الدور، فاستولى السلطان بيبرس على حصن الكرك سنة ٦٦٢ هـ / ١٢٦٣م، وعلى قيصبريه وأرسوف وصفد سنة ٦٦٤هـ /١٢٦٥م، ثم سقطت يافا في يده بعد عامين، واستطاع أخيرا أن يستولي على أنطاكية، واختتم أعماله الحربية بالاستيلاء على حصن الأكراد.

وفي سنة ٦٧٥ـ / ١٢٨٥م حاصر السلطان قلاوون اللاذقية، واستولى عليها «ثم حاصر طرابلس بعد ثلاث سنوات، فسقطت في يده بعد شهر من حصارها، وفي سنة ٦٩١هـ /١٢٩١م هاجم السلطان خليل بن قلاون عكا، وحاصرها وتمكن من دخولها. بعد أن ظلت في أيدي الصليبيين مائة عام، ثم استولى على صور وحيفا وبيروت، وكان عام ٦٩٢هـ / سنة ١٢٩١م نهاية أمر الصليبيين في الشرق، إذ تم طردهم نهائيا من آخر معاقلهم في بلاد الشام. وبذلك تخلص المسلمون من الخطر الصليبي الذي استمر في الشرق قرابة قرنين من الزمان».

الفصل الثاني

المغول

من الملاحظ أن تاريخ المغول مرتبط بالدولة الخوارزمية.

جنكيز خان والدولة الخوارزمية

أسس الدولة الخوارزمية توشتكين ـ أحد الأتراك في بلاط ملكشاه ـ وكان يشغل وظيفة الساقي، ومازال يترقى في سلك الوظائف، وكان حسن الطريقة كامل الأوصاف، وقد أدب ابنه محمد، وأحسن تأديبه، لذا وقع اختيار أحد قادة بركياروق عليه ليكون حاكما على أقليم خوارزم ولقبه خوارزمشاه سنة ٥٩٠هـ وكان حاكما عادلا، قصر أوقاته على معدلة ينشرها، ومكرمة يفعلها، وقرب أهل العلم والدين، فازداد ذكره حسنا ومحله علوا، ولما ملك السلطان سنجر السلجوقي خراسان، أقر محمد خوارزمشاه على أقليم خوارزم وأعمالها، فظهرت شجاعته وكفايته، وعظم سنجر محله وقدره.

لما توفي محمد بن توشتكين ولي ابنه أتسز، فمد ظلال الأمن وأفاض العدل وقربه السلطان سنجر، وعظم ابنه واستصحبه معه في أسفاره وحروبه، فظهرت منه الكفاية والشهامة، فزاده تقدما وعلوا.

عول أتسز على توسيع رقعة دولته على حساب الدولة السلجوقية المتداعية، وانتهز فرصة تهديد الخطا للسلاجقة، لكن سنجر أحبط محاولته، وهزمه، لكن أتسز استجمع قوته، وانتهز فرصة سيطرة الخطا على بلاد ما وراء النهر، واستولى على خراسان، وجلس على عرش سنجر، واستولى على أمواله وجواهره سنة

٥٣٦هـ /١١٤١م وقطع الخطبة للسلطان سنجر، لكن سنجر استطاع أن يسترد أقليم خراسان من أتسز سنة ٥٣٨هـ /١١٤٣م، وتعهد أتسز بالاعتراف بسيادة الدولة السلجوقية.

على أن الدولة الخوارزمية أخذت تزداد قوة، بينما أخذت الدولة السلجوقية في الضعف والانحلال بعد وفاة سنجر، ومدت الدولة الخوارزمية نفوذها على البلاد التابعة للسلاجقة، واستطاع السلطان الخوارزمي تكش أن يهزم ويقتل آخر السلاطين السلاجقة، ويستولي على ملك السلاجقة في العراق، ويستولي على أصفهان والري.

ولما توفي تكش سنة ٥٩٦هـ /١١٩٩م خلفه ابنه علاء الدين محمد خوارزمشاه. فسار على سياسة أبيه الرامية إلى توسيع حدود دولته، فاستولى على معظم أقليم خراسان، واستطاع أن يهزم الخطا سنة ٦٠٦هـ /١٢٠٩م، ويبسط سيطرته على بلاد ما وراء النهر. واستولى على أقليم كرمان ومكران. والأقاليم الواقعة غرب نهر السند وعلى ممتلكات الغور في أفغانستان، وبذلك بلغت الدولة الخوارزمية أقصى اتساعها في عهد السلطان علاء الدين خوارزمشاه، إذ امتدت من حدود العراق العربي غربا إلى حدود الهند شرقا، ومن شمال بحر قزوين وبحر آرال شمالا إلى الخليج العربي والمحيط الهندي جنوبا.

غزوات المغول للعالم الإسلامي

على أن الدولة الخوارزمية قد جاورت دولة المغول ـ ولم يكن هناك بد من حدوث احتكاك بين الدولتين، وكان العالم الإسلامي في ذلك الوقت قد مزقته الانقسامات، ولم تعد فيه دولة قوية إلا الدولة الخوارزمية، وكان الخليفة العباسي الناصر يخشى بأس هذه الدولة، لأن خوارزمشاه كان يطمع في بغداد فسعى إلى تدبير المؤامرات والدسائس للنيل منه، بل تقاعس عن نصرته، ولكن لا يمكن قبول ما أشيع في ذلك العصر من أن الخليفة العباسي الناصر لدين الله حرض

المغول على غزو أعدائه الخوارزمين، وكان من الطبيعي أن تكثر الشائعات في هذه الأيام المضطربة، وكان السلطان جلال الدين منكبرتي يتهم الخليفة العباسي بأنه يحرض عليه المغول دون أن يمتلك دليلا على اتهامه والخليفة العباسي يعلم يقينا أن غزو الدولة الخوارزمية يؤدي بالضرورة إلى تهديد الدولة العباسية المتداعية، ذلك أنها تقف سدا منيعا يحول بين المغول وبين العراق.

نشأ المغول في صحراء جوبي القاحلة، وهم شعب يشبه الترك في اللغة والمظهر العام، وعاش هؤلاء القوم في بلادهم في شظف من العيش، يعملون بالصيد والرعي في حياة كلها ترحال وتجوال، وكثر بينهم النزاع والشقاق. وتكررت إغاراتهم على المناطق الخصبة المجاورة، لذا شيد الصينيون سور الصين العظيم درءا لشرهم وحماية لبلادهم من شرهم المستطير.

ظلت هذه القبائل في منازعاتها وتمزقها حتى ظهر منهم شاب في ريعان شبابه الغض هو تيموجين، واستطاع أن يوحد هذه القبائل تحت لوائه، وهذاالشاب نشأ يتيما، وكان أبوه زعيما لإحدى قبائل المغول، ولما توفي انفض أفراد القبيلة من حول تيموجين واستصغروا شأنه واستضعفوه وعاش هذا الفتى مع أسرته عيشة بؤس وحرمان وشقاء، وكان عليه أن يتلمس سبل العيش، وقاسى الكثير من النكبات، وهذه المحن أصقلته وأخرجت منه رجلا صلبا شجاعا.

ولما بلغ تيموجين مبلغ الرجال، التف أفراد قبيلته حوله لما أظهره من قوة البأس ومضاء العزيمة، ولم يكتف بذلك بل ظل يناضل حتى تمكن من السيطرة على المغول. وقضى على كل الحركات التي تهدف إلى عرقلة جهوده ولم يأت عام ٦٠٢هـ سنة ١٢٠٦م حتى كان قد أخضع لسلطانه كل بدو صحراء جوبي، واتخذ من حصن قراقورم مقرا له ووضع نظاما للقبائل الخاضعة له يسمى الياسا

وهو دستور اجتماعي وحربي صارم أساسه الطاعة العمياء للسلطان وأخبر تيموجين الرؤساء بأن السماء أضفت عليه اسما جديدا هو جنكيزخان أي امبراطور البشر أو أعظم حكام الأرض.

تطلع جنكيزخان ـ بعد أن وحد القبائل المغولية تحت سيطرته ـ إلى توسيع رقعة دولته، وكان المجال الحيوي له بلاد الصين التي تقع جنوب مملكته ـ حيث الخصب والرخاء والازدهار ـ فشن عدة حملات على امبراطورية كين واستولى على مسطحات شاسعة من بلاد الصين، وسيطر على بكين سنة ٦١٢هـ سنة ١٢١٥م.

أصبحت امبراطورية المغول القوية تجاور الدولة الخوارزمية ا لعظيمة، دولة الإسلام القوية البأس، ولم يكن هناك بد من حدوث احتكاك بين الدولتين العظيمتين، ولابد أن تنقض إحداهما على الأخرى، ووجد السبب لاشتعال الحرب. فقد وفد جماعة من التجار من رعايا جنكيزخان إلى أترار في الدولة الخوارزمية، فارتاب فيهم ينال خان حاكم أترار ـ وأرسل إلى السلطان محمد خوارزمشاه يخبره، فأمره بالقبض عليهم وإعدامهم على اعتبار أنهم جواسيس بعث بهم جنكيزخان، وظاهر أمرهم التجارة، وهؤلاء التجار كان مركزهم خجنده وتسير منها قوافلهم إلى منغوليا تحمل إلى خان المغول الهدايا من نسيج الكتان والديباج، وكان يشجعهم على ممارسة نشاطهم التجاري.

ساءت العلاقات بين الدولتين عقب قتل التجار، وشعر السلطان خوارزمشاه بمغبة قتل التجار. فأرسل إلى دولة المغول جواسيس لاستطلاع قوتهم، ومعرفة نواياهم، فعادوا إليه، وأخبروه بكثرة عددهم. وأنهم من أصبر خلق الله على القتال لا يعرفون هزيمة، وأنهم يعملون ما يحتاجون إليه من سلاح بأيديهم. وعلى الرغم من ذلك فقد تشدد علاء الدين محمد مع جنكيزخان ولم

يقبل شروطه في تجنب الحرب، فقد أرسل جنكيزخان إلى خوارزمشاه رسلا يطلب منه تسليم حاكم أترار، وجاء في رسالة خاقان المغول: فإن كنت تزعم أن الذي ارتكبه ينال خان ـ حاكم أترار ـ كان من غير أمر صدر منك فسلم ينال خان إلي لأجازيه على ما فعل، حقنا للدماء، لكن السلطان الخوارزمي اعتقد أنه لو لاطف جنكيزخان، في الجواب، لم يزده ذلك إلا طمعا فيه فتماسك وتجلد بل أمر بقتل الرسل سنة ٦١٥هـ ١٢١٨م ويقول الجويني: «إن دمهم أهرق، ولكن كل قطرة منه قد كفر عنها بسيل جارف من الدماء، وأن رؤوسهم قد سقطت، ولكن كل شعرة منها قد كلف مئات الألوف من الناس حياتهم» ويقول النسوي: «فيالها من قتلة هدرت دماء الإسلام، وأجرت بكل نقطة سيلا من الدم الحرام، فاستوفى عن الغيظ فيضا، وأحلى بكل شخص أرضا».

ونستطيع أن نقول أن الدولة الخوارزمية كانت ستتعرض لغزو المغول سواءا حدثت مذبحة أترار أو لم تحدث، ذلك أن دولة المغول قامت على أساس التوسع والغزو وضم الأراضي إليها بالقوة، ونعرف من تاريخ المغول أنهم استمروا في ضم البلاد واحتلالها طمعا في ثرواتها وخيراتها، ولكن مذبحة أترار كانت بمثابة الشرارة التي فجرت الموقف بين الدولتين وعجلت بغزو المغول للدولة الخوارزمية.

اتسمت غارات المغول على الدولة الخوارزمية بالوحشية والهمجية، وتدمير المدن والقرى، وهذا يتضح من كتابات المعاصرين، ويقول ابن الأثير: «لقد بقيت عدة سنين معرضا عن ذكر هذه الحادثة استعظاما لها، كارها لذكرها. . . وهؤلاء لم يبقوا على أحد بل قتلوا النساء والرجال والأطفال، وشقوا بطون الحوامل وقتلوا الأجنة: . .» وكان مظهر المغول يدعو إلى الفزع والجزع، ويلقي الرعب في النفوس، كانوا قساة مع أعدائهم، لم يبقوا على أحد من قاهريهم، وأشاعوا الخراب والدمار في كل بلد ملكوه، حتى تحولت المدن العامرة، والقرى والمزارع الخصبة إلى صحاري قاحلة، وكانوا يستنزلون أسراهم، بحيث يجعلونهم

في طليعة الجيوش التي يحاربون بها، وإذا بدأت المعركة يقذفون بهم في المقدمة، ويتخذونهم دروعا لهم، وقد يقذفونهم في الفجوات التي يحدثونها في أسوار المدينة ليملأوا الخنادق بأجسامهم، وإذا سلم أحد منهم، يتخلصون منه بالقتل، حتى يفسحوا المجال للأسرى الجدد. على كل حال اكتسح هذا الزلزال المدمر، وتلك القوى الجائحة العالم الإسلامي وأتوا على الأخضر واليابس، وأهلكوا الحرث والنسل.

أعد جنكيزخان جيوشه لمهاجمة الدولة الخوارزمية، وقسم جنده إلى أربع جيوش، الأول بقيادة ابنيه جغتاي وأوكتاي، ومهمته فتح مدينة أترار، والجيش الثاني أسند قيادته إلى ابنه جوجي، ووجهته البلاد الواقعة على ساحل نهر جيحون، والثالث مهمته فتح مدينتي بناكت وخجند على نهر سيحون. أما الجيش الرابع فيتكون من أغلب قوات المغول، ويقوده جنكيزخان ومعه ابنه تولوي، ووجهته وسط أقليم ما وراء النهر.

سارع المغول إلى مدينة أترار، وشددوا هجماتهم عليها، وقد اعتصم ينال خان - حاكمها - بقلعتها، ودافع بكل بسالة بل أنهك المغول وأجهدهم شهرا كاملا بضرباته القوية لهم، حتى فقد معظم رجاله، وفقدت المؤن والأقوات وشدد المغول حصارهم للقلعة، فألقى بنفسه إلى سقف أحد المنازل، وظل يقاتل المغول بكل ما أوتي من قوة حتى قبض عليه المغول، وسيق إلى جنكيزخان - وكان أمام سمرقند - فأمر بصهر الفضة وصبها في أذنيه وعينيه، فقتل تعذيبا، وبذلك انتقم جنكيزخان من قاتل التجار، وسقطت مدينة أترار - مفتاح بلاد ما وراء النهر سنة ٦١٦ هـ / ١٢١٩م بعد أن قتل المغول سكانها ودمروها تدميرا.

سار الجيش الثاني بقيادة جوجي إلى مدينة جند - على نهر سيحون - بعد أن استولى في طريقة على المدن والحصون على ساحل سيحون. ولما بلغ المغول جند، رأى قائدها أن لا قبل له بالمغول، فغادر البلدة تاركا أهلها يدافعون عن

المدينة، وشدد المغول هجماتهم، ورموها بالمنجنيقات حتى اقتحموها وبذلك سقطت جند في أيدي المغول.

اتجه الجيش الثالث إلى منطقة فرغانه والوادي الأعلى من نهر سيحون، وحاصر هذا الجيش يناكت، ولم يجد المغول مقاومة من سكان هذه المدينة فاستولوا عليها بسهولة ويسر، وعلى الرغم من إعطائهم الأمان لأهلها، إلا أنهم قتلوا منهم الكثيرين، ولم يبقوا إلا على من التمسوا فيهم المقدرة على خدمتهم. ثم سار المغول إلى خجند ـ وهي مدينة جميلة اشتهرت بحدائقها الغناء وانتعاش التجارة فيها، وشجاعة أهلها وقوة بأسهم ـ وقد قاوم حاكمها الشجاع تيمور ملك المغول بكل بسالة، حتى ضعفت قوته، فامتطى جواده وذهب إلى خوارزم حيث كان يرابط السلطان خوارزمشاه. ودخلت خجند في حوزة المغول.

سارت جيوش المغول بقيادة جنكيزخان إلى بخارى ودارت الحرب بين جند المغول والجند الخوارزمي ثلاثة أيام هزم فيها الخوارزميون، وفر الجند الخوارزمي، فضعف أهلها ووهنت عزيمتهم، واعتصم بعضهم في القلعة، وشدد المغول هجماتهم عليها ثلاثة أيام، وقاتل من فيها حتى قتلوا جميعا، وتسلم جنكيزخان القلعة، وأمر أعيان المدينة وتجارها بالاجتماع معه، وجردهم جميعا من أموالهم، وطردهم من المدينة، وقتلوا كل من صادفوه في بخارى من أهلها بعد ذلك، ونهبوا البلدة، وكان يوما عظيما من كثرة البكاء من النساء والرجال والولدان وتفرقوا أيدي سبأ ومزقوا شر ممزق، وأحرقت المساجد والمدارس، وبعد أن استولى المغول على بخارى، ساروا إلى سمرقند، وأمامهم الأسرى مشاة على أقبح صورة، وكل من عجز عن المشي قتل، وحاصروا سمر قند، وبها الكثير من الجند الخوارزمي، وأعد أهل سمرقند العدة لمقاومة المغول، وذار قتال شديد بين الفريقين، هلك فيه أكثر الجند الخوارزمي، الأمر الذي أضعف مقاومة أهل سمرقند، وطلبوا الأمان، وأجابهم المغول إلى طلبهم، وفتحواأبواب البلدة وطلبوا

من أهل البلدة تسليم أسلحتهم وأمتعتهم ودوابهم، ففعلوا تجنبا للقتل، ولكن المغول كعادتهم وحبهم لسفك الدماء، أعملوا السيف في رقاب الأهلين، حتى أفنوهم عن آخرهم، ودخلوا البلد، ونهبوا مافيه، وأحرقوا الجامع. وبذلك دخلت سمرقند في حوزة المغول سنة ٦١٧هـ سنة ١٢٢٠م.

وبعد أن امتلك المغول بخارى وسمرقند، أعد جنكيزخان جيشا يتألف من عشرين ألف مقاتل، وأمر قائده بالتوجه إلى خوارزمشاه والبحث عنه أينما وجد «ولو تعلق بالسماء حتى تدركوه وتأخذوه»، فسارت جيوش المغول تتعقب خوارزمشاه الذي أخذ يضرب في الأرض، وينتقل من بلد إلى بلد، وجند المغول تطارده، وانتهى به المطاف إلى الاستنداد ـ وهي من أمتع النواحي في أقليم مازندران ـ وباغته المغول، فلجأ إلى إحدى جزر بحر قزوين، وقد انتابه اليأس من الحياة، ومرض وكان يقول: «لم يبق لنا مما ملكناه من أقاليم الأرض قدر ذراعين تحفر فنقبر، فما الدنيا لساكنها بدار، ولا ركونه إليها سوى انخداع واغترار، وأقام بالجزيرة في عزلة تامة يعاني المرض وكان أهل مازندران يقدمون إليه كل ما يشتهي، وقبل وفاته سنة ٦١٧هـ / ١٢٢٠م أوصى بالسلطنة من بعده لابنه جلال الدين، وولى جلال الدين منكبرتي السلطة بعد أن سيطر المغول على بلاد ماوراء النهر ـ ومعظم أجزاء دولته المتداعية وامتلكوا أقليم مازندران رغم حصانته ومناعته، ثم اتجهوا إلى الري، وفي الطريق التقوا بالملكة تركان خاتون ـ والدة السلطان علاء الدين ـ وقد غادرت خوارزم على أثر تهديد المغول، ولم تر فيه دار قرار واستصحب ما أمكنها استصحابه من حرم السلطان وصغار أولاده ونفائس خزانته، وقبض المغول عليها، واستولوا على ما معها من ثروات هائلة. وهكذا قضت هذه الملكة أيامها الأخيرة في أسر المغول، والجدير بالذكر أن تركان خاتون كانت ذا مهابة ورأي، تنظر في المظالم، وتحكم فيها بالعدل، وتنصف المظلوم من الظالم، ولها إصلاحات كثيرة، وكان لها من كتاب الإنشاء سبعة من مشاهير الكتاب.

باغت المغول الري على حين غفلة من أهلها، وملكوها ونهبوها، واسترقوا نساءها، وقتلوا أطفالها، ثم غادروها في طلب خوارزمشاه، وعاثوا في البلاد التي مروا بها نهبا وفسادا، واقتربوا من همذان، فقدم أهلها للمغول الأموال والهدايا حتى يكفوا عن قتلهم، وسيطر المغول على هذه البلدة، ثم زحفوا إلى قزوين، وامتلكوها عنوة وقهرا وبذلك سيطر المغول على بلاد العراق العجمي.

أثار المغول الرعب في بلدان الدولة الخوارزمية حتى أن اقترابهم من مدينة أو قرية، يثير الفزع في النفوس، فيهجرون بلداتهم، أو يقدمون فروض الولاء والطاعة لأعدائهم. وبذلك استسلمت البلاد الإسلامية للمغول في سهولة، ويسر، إلا أن استسلام الأهلين لم ينجهم من بطش المغول وويلاتهم، وظل المغول يواصلون تقدمهم حتى بلغوا تبريز ـ عاصمة أذربيجان ـ ويحكمها أوزبك بن البهلوان وهو شيخ بلغ من العمر أرذله، يقضي وقته في الشراب، ولا يكاد يفيق، ولما اقترب المغول من بلاده، أرسل إليهم المال والهدايا والثياب والدواب، وصالحهم ثم اتجهوا إلى ساحل البحر حيث المراعي الكثيرة اللازمة لدوابهم، وواصلوا سيرهم حتى بلغوا موقان، ودخلوا في معارك حامية مع أهالي بلاد الكرج، وهزموهم، وامتلكوا مراغة سنة ٦١٧هـ وبذلك سيطروا على أذربيجان وبلاد الكرج.

شرع جنكيز خان بعد أن امتلك بلاد ما وراء النهر وبلاد العراق العجمي وأذربيجان إلى السيطرة على خراسان وخوارزم حتى يتم له السيطرة الكاملة على بلاد الدولة الخوارزمية قاطبة، فأعد جيشين، الأول عبر جيحون وقصد مدينه بلخ، وطلب أهلها الأمان فأمنهم المغول سنة ٦١٧ هـ، ولم يتعرض المغول لهم بالقتل والنهب وأدخلوا البلدة في حوزتهم، وواصلوا تقدمهم في بلاد خراسان، فسقطت في أيديهم، البلدة تلو الأخرى ثم حاصروا مرو، وشددوا عليها الحصار حتى استسلمت ثم مضوا في قتل أهلها، ونهبوا البلدة، وضموا إليهم أرباب

الحرف والصناعات من سكان مرو، ويقال أنهم أجهزوا على أهل البلدة جميعهم حتى بلغ عدد القتلى سبعمائة قتيل، ثم ساروا إلى نيسابور، فامتلكوها بعد حصار دام خمسة أيام، وارتكبوا مع أهلها من الفظائع ما ارتكبوه مع غيرهم، وأقاموا في البلدة خمسة عشر يوما ينهبون ويدمرون، وواصلوا مسيرتهم، حتى بلغوا طوس، وامتلكوها ثم ساروا إلى هراة، وبسطوا سيطرتهم عليها، ومنها اتجهوا إلى غزنة، فالتقوا بالسلطان جلال الدين منكبرتي، ودارت معركة انتصر فيها خوارزمشاه على أعدائه.

أما الجيش المغولي الذي اتجه إلى خوارزم، فقد لقي مقاومة باسلة من أهلها، ودارت بين الفريقين معارك ضارية، وصمد أهل خوارزم للقتال الذي دام خمسة أشهر، وقتل من الفريقين خلق كثير، وبلغ الأمر بالمغول أن أرسلوا إلى جنكيز خان يطلبون منه النجدة وأمدهم بجيش كبير وتمكنوا من الاستيلاء على خوارزم بعد لأي وعناء، وبعد أن امتلك المغول خوارزم بعد هذا الجهد الشاق والتضحيات الكثيرة، قتلوا كل من فيه، ونهبوا كل ما فيه، ولم يكتفوا بذلك بل فتحوا ماء جيحون على خوارزم، فغرقت البلد، وتهدمت الأبنية، ولم يسلم من البلد أحد، «فمن اختفى من النار أغرقه الماء، ومن سلم من الماء قتله الهدم، فأصبح البلد خرابا يبابا، كأن لم يغن بالأمس».

ولي السلطان جلال الذين منكبرتي ــ كما رأينا ــ في وقت حرج، اذا استولى المغول على معظم المملكة، ونهبت خزائنها، ومزق جيشها، وكان جلال الدين شجاعا مقداما، اعتزم استرداد ملكه السليب، ورد الغزاة عن بلاده، واستطاع جمع شمل جنده المبعثرين في البلدان الخوارزمية. وأقام في غزنة بعد أن استردها من المغول، ونظم جيشا قوامه ستين ألف مقاتل، وقد أزعج ذلك جنكيز خان، ورأى التخلص من خصمه، فأرسل جيشا إلى غزنة، التقى

بالجيش الخوارزمي في معركة خامية الوطيس، أنزل الله فيها نصره على المسلمين، وانهزم المغول شر هزيمة، وقتل المسلمون منهم كثيرين وكان لهذا النصر أهمية كبيرة في البلاد الإسلامية التي مزقتها هزائم المغول المتكررة، وغاش أهلها في يأس وقنوط وتمزق، فارتفعت الروح المعنوية عند المسلمين وتيقظوا وثاروا على المغول، وقتل أهل هراة واليهم المغولي.

سار جلال الدين على سياسته الرامية إلى طرد المغول من بلاده، وأرسل إلى جنكيز خان يتوعده ويهدده ويقول «في أي موضع تريد يكون الحرب حتى تأتي إليه» فلم يتغاض جنكيز خان عن هذا التهديد، وشن الحرب من جديد على جلال الدين الذي أصبح يشكل خطرا على مملكته المترامية الأطراف، ولكن السلطان الخوارزمي انتصر مرة أخرى على جيش جنكيز خان، وقتل الكثير من المغول، وغنم الخوارزميون ما معهم، واسترد المسلمون أسراهم من العدو، لكن الخوارزميين انشغلوا بجمع الغنائم، وكانت تفوق كل وصف، وتنازع جند السلطان حول الغنائم نزاعا أدى إلى انقسام خطير في الجيش عجز السلطان عن تداركه، وفارق فريق من الجيش الخوارزمي المعركة بقيادة بغراق إلى بلاد الهند، وحاول جلال الدين عبثا أن يثني هذا الرجل عن عزمه، وأوضح له خطورة عمله هذا على الاسلام والمسلمين، وألح عليه في ترك الخلاف والشقاق بل بكي بين يديه لذلك ضعف أمر جلال الدين بمفارقة معظم جيشه له، ونهض إليه عدو الله بجيوشه ودارت المعركة بين الجمعين على حافة نهر السند، وكادت أن تدور الدائرة على المغول، لولا أن نصب جنكيز خان كمينا أدى إلى قتل كثير من الخوارزميين، وحلت الهزيمة بالمسلمين، وكان الرجل منهم يأتي النهر فيهوي بنفسه في تياره، وهو يعلم أنه لابد غريق «وأن ليس له إلى الخلاص طريق» وأسر ولد جلال الدين، وكان غرا في الثامنة من عمره، وقتل بين يدي غريمه جنكيز خان ولما عاد جلال الدين إلى حافة السند كسيرا، رأى والدته وأم ولده وجماعة من

حرمه يصحن بأعلى صوتهن بالله عليك اقتلنا وخلصنا من الأسر، فأمر بهن فغرقن «وهذه من عجائب البلايا ونوادر المصائب».

وعبر جلال الدين نهر السند مع أربعة آلاف من رجاله متجهين إلى الهند «حفاة عراة كأنهم أهل النشور، حشروا فبعثوا من القبور» وقد أعادت الهزيمة التي لحقت بالخوارزميين إلى المغول هيبتهم، واستردوا قوتهم، وامتلكوا غزنة التي خلت من الجند، وقتلوا أهلها ونهبوا أموالهم وأسروا النساء، ودمروا البلدة تدميرا، حتى أصبحت غزنة خرابا دمارا.

اعتزم جلال الدين استرداد قوته في بلاد الهند، واستعان بسلطان دهلي لكن ألتمش توجس خيفة من جلال الدين، وقضى في الهند ثلاث سنوات واشتبك مع سلطان دهلي في عدة معارك، وخشي قباجة ــ حاكم السند ــ من إقامة الخوارزميين في ولايته، لأنها قد تؤدي إلى تعقب المغول لهم، وما ينجم عن ذلك من خطر داهم على بلاده، ولكن جلال الدين أوقع بهم الهزيمة، ولما علم جلال الدين أن المغول يعتزمون القدوم إلى الهند والنيل منه، سار إلى دهلي، وأرسل إلى سلطانها ــ ألتمش بأن يعطي جنده حق الاقامة في دهلي، لكن السلطان المملوكي اعتذر إليه بحجة أن حرارة الجو في دهلي لا تناسب الخوارزميين، ذلك أن سلطان دهل خشي أن ينضم جنده الترك في دولته إلى سلطان الخوارزميين، جلال الدين منكبرتي وأرسل إلى السلطان يقول: ولا يليق بمثلي أن يجرد السيف في وجه مثلك ليس يخفى ما وراءك من عدو الدين، وأنت اليوم سلطان المسلمين وابن سلطانهم، ولست أستحل أن أكون عليك عونا. وإن رأيت زوجتك بابنتي لتحتكم الثقة.

وعلم السلطان جلال الدين أن ألتمش ــ سلطان دهلي ــ وسائر ملوك الهند وراجاتها وأصحاب ولايتها قد تآمروا على طرده من ديارهم. ولم يتغاض جلال

عن موقف سلطان دهلي العدائي منه، فاشتبك مع قواته بالقرب من دهلي، ثم انسحب إلى لاهور، وكثر جمع جلال الدين بما انضم إليه من الجند التابعين لأخيه غياث الدين ــ حاكم العراق ــ كذلك انضمت إليه قبائل الكهكرية الهندية ــ وكانوا ناقمين على قباجة، فكثر جمعه واشتد بأسه، وعظم أمره، وتمكن من انتزاع بعض البلدان من والي السند.

لم يكن جلال الدين يهدف من التجائه إلى الهند، الاقامة فيها، وإنما كان يهدف إلى تجنب الاشتباك مع المغول حتى يستعيد قوته، ويعود إلى بلاده، وقد واتته الفرصة للانتقام من المغول، وشن الحرب ضدهم، واستعادة ملكه السليب، حين توفي جنكيز خان ــ قاهر الخوارزميين ــ وأعقب وفاته انسحاب القوات المغولية الرئيسية التي تحتل إقليم الدولة الخوارزمية إلى مواطنها الأصلية، فعبر جلال الدين نهر السند سنة ٦٢٢ هـ سنة ١٢٢٥ م، وقصد ايران، واشتبك مع المغول في عدة معارك.

عادت معظم بلدان الدولة الخوارزمية إلى حوزة السلطان جلال الدين منكبرتي «ولجأ إليه حكام المدن والبلاد الخوارزمية يعلنون ولاءهم وبهجتهم بالتخلص من حكم المغول وأبقى بعضهم على ما بيده، وعزل بعضهم «وأفرجت أيام السلطان عن الناس الكرب، وأطفأت من نيران الفتن ما التهب، وتفرقت العمال والوزراء في الأطراف بتواقيع السلطان فضبطوها».

وبذلك استرد هذا السلطان الشجاع ملكه وسلطانه على أقاليم خوارزم وغزنة وكرمان وفارس وخراسان ومازندران، على أن بلاد ما وراء النهر بقيت في أيدي المغول.

خلف أجتاي جنكيز خان، وعول على استرداد البلاد التي آلت إلى جلال الدين، وسيرّ جيشاً كبيراً إلى الري فانتزعها، واستولى على همذان سنة

٦٣٨/١٢٣١ وطارد المغول السلطان جلال الدين، وتعقبوه في موقان وتبريز وفي أذربيجان، واتجه إلى آمد فهزمه المغول هناك، وشردوا رجاله، وقتل المغول كل من تتبعه في فراره، وظل السلطان يتنقل من بلد إلى بلد، والمغول تلاحقه أينما سار واتجه، حتى وصل إلى جبال كردستان، وقد شك فيه بعض الأكراد، وأخذوه وسلبوه بسائر من ظفروا به، فحين هموا بقتله قال لكبيرهم سرا؛ إني أنا السلطان فلا تستعجل في أمري، ولك الخيار في احضاري عند الملك المظفر شهاب الدين، فيغنيك، أو إيصالي إلى بعض بلادي فتصير ملكا، فرغب الرجل في إيصاله إلى بلاده، وتركه عند امرأته، ومضى بنفسه إلى الجبل لاحضار خيله ولكن هاجم المنزل رجل من الأكراد، وقتله بعد أن تعرف عليه، ثأرا لمقتل أخ له على يديه سنة ٦٢٨ هـ/ ١٢٣١ م.

وهكذا كان مصير هذا السلطان الشجاع، وبوفاته. زالت الدولة الخوارزمية.

سقوط الخلافة العباسية

تتابعت انتصارات المغول وفتوحاتهم، واستولوا على أذربيجان وبلاد أران وغالبية مدن جورجيا وأرمينية الكبرى، وزحفوا إلى شمال العراق، وهددوا أقاليمه الشمالية، واشتبكوا عدة مرات مع جيوش الخلافة العباسية لاختبار قوتها.

أخذت الدولة العباسية في الضعف والتدهور في عهد المستعصم آخر الخلفاء العباسيين سنة ٦٤٠ - ٦٦٦ وكان رجلا لين الجانب ضعيف الوطأة لين العريكة قليل الخبرة، وكانت الأخبار تصل الخليفة تباعا بزحف جيوش المغول ومع ذلك لم يتخذ الأهبة لمواجهتهم قبل ان يستفحل خطرهم ويستطير شرهم.

جاء المغول في عهد المستعصم إلى العراق عدة مرات حيث حدثت مناوشات بينهم وبين جيوش الخليفة لكنهم لم يوفقوا في الاستيلاء على بغداد حتى سنة ٦٥٦ وعندما اعتزم هولاكو مهاجمة الاسماعيلية أرسل إلى الخليفة يطلب إليه أن يمده بجيش ليعاونه في القضاء على تلك الطائفة فلما شاور الخليفة أتباعه حذروه أن يقدم على هذا العمل وأدخلوا في روعه أن هولاكو يريد بهذه الوسيلة أن تخلو بغداد من الجيش حتى يتيسر له الاستيلاء عليها.

ولما فرغ هولاكو من محاربة الاسماعيلية ودحرهم قصد همدان في شهر رمضان سنة ٦٦٥ أرسل رسولا يحمل رسالة إلى الخليفة مصاغة في قالب التهديد والوعيد لامتناعه عن ارسال المدد، ولم يكن هذا الاحتجاج في الواقع الا ذريعة للمطالبة بالسلطة الزمنية التي سبق أن منحت في بغداد للأمراء البويهيين ثم السلاجقة. يقول هولاكو في هذه الرسالة: لابد انه قد وصل إلى شخصك على لسان الخاص والعام ما حدث للعالم على أيدي المغول منذ جنكيز خان وعلمت أية مذلة لحقت بأمر الخوارزميين والسلاجقة وملوك الديلم والأتابكة وغيرهم ممن كانوا أرباب العظمة وأصحاب الشوكة ومع ذلك لم يغلق باب بغداد قط في وجه أي طائفة من تلك الطوائف التي تولت السيادة، واعلم أنني إذا غضبت عليك وقدت الجيش إلى بغداد فسوف لا تنجو مني ولو صعدت إلى السماء أو اختفيت في باطن الأرض. رفض الخليفة انذار المغول وأرسل هولاكو يتوعده أن هو حاول غزو بلاده على الرغم من أنه كان لا يملك القوة اللازمة لمواجهة هولاكو، وكان المسلمون في حالة شديدة من الضعف والانقسام، لذلك كان طبيعيا عدم جدوى تهديدات الخليفة، بل كان لها على العكس أسوأ الأثر في نفس هولاكو فاعتزم قبل كل شيء فتح بغداد.

وصل رسل الخليفة إلى هولاكو، فلما اطلع على رسالة الخليفة وعلم بما لحق رسله من أذى العامة في بغداد غضب غضبا شديدا وأعاد رسل المستعصم

وحملهم رسالة أخرى تضمنها انذارا نهائيا له صيغ في لهجة شديدة عنيفة جاء فيها: لقد فتنك حب المال والعجب والغرور بالدولة الفانية بحيث لم يعد يؤثر فيك نصح الناصحين. . فانى متوجه إلى بغداد بجيش كالنمل والجراد.

رأى وزير الخليفة مؤيد الدين العلقمي بذل الأموال والتحف، والهدايا وارسلها إلى هولاكو مع تقديم الاعتذار له وكان يرى ذكر إسم هولاكو في الخطبة ونقشه على السكة حتى يبعد هولاكو عن غزو بغداد، ولكن الخليفة رفض العمل بمشورة الوزير وأصر على اعداد العدة للدفاع عن بغداد.

وقبل إن يقدم هولاكو على غزو بغداد استشار المنجمين فيما يتعلق بأحكام النجوم وطوالع السعد والنحس وقد أشار عليه فلكي مسلم يعطف على الخليفة بعدم غزو بغداد فقال له: الحقيقة أن كل ملك تجاسر حتى هذه اللحظة على قصد الخلافة والزحف إلى بغداد لم يبق له عرش ولا جاه وإذا أبى الملك أن يستمع لنصائحي وتمسك بمشروعه فسوف تحدث هذه الحملة خللا في نظام الكون، فضلا عن أنها ستكون وبالا على الخان نفسه إذ سيهلك، ويهلك الزرع والحيوان ولن تطلع الشمس ولن ينزل المطر. لكن منجمين آخرين أكدوا لهولاكو نجاح مشروعه، ومهما يكن من أمر فقد أمر هولاكو بتحريك جيشه من أطراف بلاد الروم والاتجاه إلى بغداد وأقام هولاكو معسكره خارج بغداد من الشرق، ولم يستطع جيش الخليفة منع المغول من الاقامة في الجهة الشرقية، وفي أوائل سنة ٦٥٦ هـ حاصر المغول بغداد وأحكموا حصارها وأطلقوا يد التخريب في المدينة وفتحوا أقساما منها، ولما رأى الخليفة حرج موقفه أراد أن يثني المغول عن عزمهم على اتمام الفتح فأرسل اليهم الهدايا القيمة ولكن هولاكو لم يستجب لمحاولة الخليفة.

هزم هولاكو جيشا أنفذه الخليفة لمحاربته وأباده عن آخره، عندئذ خرج الوزير ابن العلقمي إلى هولاكو وتوثق منه لنفسه وعاد إلى المستعصم وأخبره أن هولاكو يبقيه في الخلافة، وحسن له الخروج إلى هولا كو فخرج من بغداد ومعه أبناؤه فلما وصلوا إلى هولاكو أحسن استقبالهم وطلب إلى الخليفة أن ينادي في الناس بالقاء أسلحتهم والخروج من المدينة لاخضاعهم فلما ألقى الناس أسلحتهم وخرجوا قتلوا جميعا. أما الخليفة وأولاده وكل ما يتعلق بهم فقد وضعهم هولاكو في معتقل.

بعد ذلك أمر هولاكو بردم الخنادق وهدم أسوار المدينة كما شيد جسرا على نهر دجلة، ثم أعلن الهجوم العام على المدينة في صفر من السنة نفسها ٦٥٦ هـ فدخلها المغول ودمروها وخربوا المساجد ودمروا القصور بعد أن سلبوا ما بها من تحف نادرة وأباحوا القتل والنهب وسفك الدماء أربعين يوما، واندلعت فيها ألسنة النيران في كل جانب من المدينة وأتت على الأخضر واليابس ودمرت أكثر المدينة وجامع الخليفة، وعندما دخل هولاكو مدينة بغداد قصد قصر الخليفة واستولى على ما فيه من نفائس وتحف نادرة، وأخيرا بعد أن سفك هولاكو من الدماء ما سفك وخرب ما خرب أصدر أمرا بالكف عن القتل، وأن ينصرف كل إلى عمله ويقول المؤرخون أنه لما نودي ببغداد بالأمان خرج من تحت الأرض من كان بالمطامير والقنى والمقابر كأنهم موتى إذا ابتعثوا من قبورهم وقد أنكر بعضهم بعضا فلا يعرف الوالد ولده ولا الأخ أخاه فأخذهم الوباء الشديد فتفانوا وتلاحقوا بمن سبقهم من القتلى وقتل هولاكو الخليفة البائس.

سقوط بغداد في أيدي المغول

وبسقوط بغداد في أيدي المغول سنة ٦٥٦ هـ سنة ١٢٥٨م زالت الدولة العباسية بعد حكم استمر أكثر من خمسة قرون.

دخل بدر الدين لؤلؤ - أتابك الموصل - في طاعة المغول بل صحب هولاكو في فتح بغداد، فأنفذ جيشا إلى هذه المدينة سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨م) بقيادة ابنه الملك الصالح. انضم إلى قوات المغول ولما سقطت بغداد في أيدي المغول، سارع بعض حكام البلاد الإسلامية إلى هولاكو، يقدمون له فروض الولاء والطاعة والتهنئة، وفي مقدمتهم بدر الدين لؤلؤ - أتابك الموصل - الذي شمله هولاكو بالإعزاز والتكريم وأعاده إلى بلاده محملا بالهدايا.

كما وقف بدر الدين لؤلؤ إلى جانب المغول في فتح ميافا رقين سنة ٦٥٧هـ.

واصل المغول سياستهم التوسعية، فزحف بعض قواتهم على الجزيرة في طريقها إلى الشام واستطاع هولاكو أن يستولي على آمد ونصيبين وحران والرها وسروج والبيرة، وحرص على الاستعانة ببعض أمراء المسلمين في غزوه بلاد الشام، فأرسل إلى بدر الدين لؤلؤ - صاحب الموصل - يقول: «إن سنك قد جاوزت التسعين، ولذلك أعفيناك من السير معنا، ولكن عليك أن تبعث بابنك الملك الصالح مع الرايات الغازية، لفتح ديار الشام ومصر». فلم يتردد بدر الدين في انفاذ جيش إلى هولاكو بقيادة ابنه.

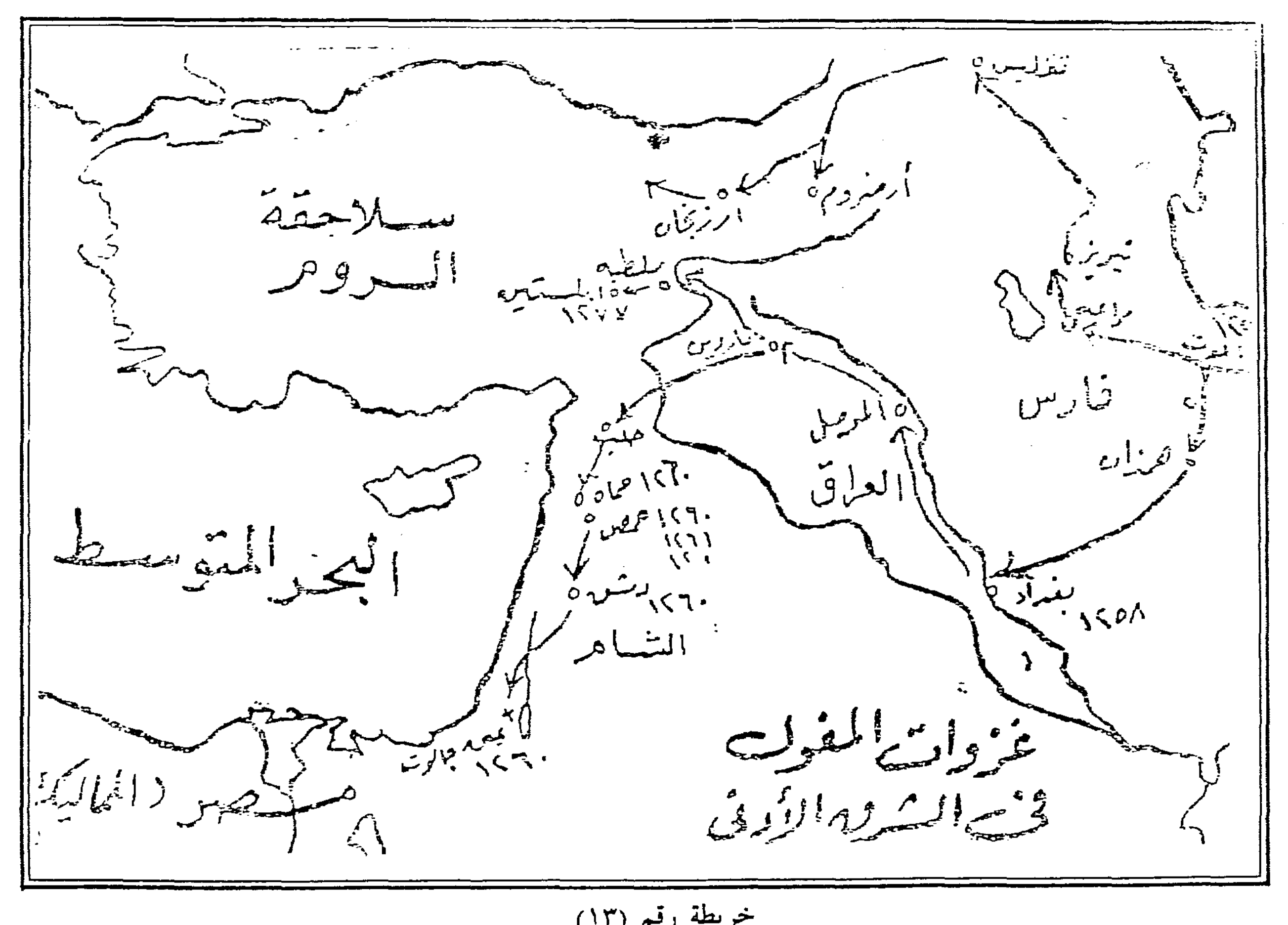
لما توفي بدر الدين لؤلؤ سنة ٦٥٧ هـ قسم هولاكو إمارته بين أبنائه الثلاثة، فولى الملك الصالح حكم الموصل، على حين فوض حكم سنجار لعلاء الدين وجزيرة ابن عمر للمجاهد إسحاق. غير أن أبناء بدر الدين لؤلؤ ما لبثوا أن خرجوا على المغول، وغادروا بلادهم، ولجأوا إلى سلطان المماليك في مصر، فأرسل هولاكو جيشاً استولى على بلادهم سنة ٦٦٠هـ. (١٢٦١م).

كذلك أظهر تاج الدين بن صلاية ـ حاكم اربل ـ ولاءه للمغول ففي أثناء حصار هولاكو بغداد قصد القائد المغولي أرقيونويان ـ مدينة أربل، وطلب من حاكمها تمكينه من الاستيلاء على القلعة، فحاول تاج الدين إقناع حاميتها بالتسليم، ولما استعصت أربل على المغول، إستنجدوا ببدر الدين لؤلؤ ـ صاحب الموصل ـ فأمدهم بفريق من الجند، غير انه لم يكن لهذه الإمدادات أي تأثير في سقوط القلعة في أيدي المغول. فاستدعى القائد المغولي بدر الدين لؤلؤ، فسار إلى أربل، وحاصر قلعتها، وهدم أسوارها وسلمها للمغول.

تطلع المغول إلى الزحف على مصر ليتموا بذلك السيطرة على بلاد الشرق الإسلامي، وليقضوا على آخر قوة إسلامية في الشرق في استطاعتها التصدي لهم.

أرسل هولاكو إلى سلطان المماليك في مصر الملك المظفر قطز خطابا يهدده فيه، ويتوعده إن امتنع عن التسليم والإذعان له، ويذكره بأن المغول فتحوا كافة البلاد، ولم تستطع قوة الوقوف في وجههم، ومما جاء في خطابه «لكم في جميع البلاد معتبر، وعن عزمنا مزدجر، فاتعظوا بغيركم، وأسلموا إلينا أمركم، قبل أن ينكشف الغطاء فتندموا، فنحن لا نرحم من بكى، ولا نرق لمن شكا وأي أرض تؤويكم، وأي طريق تنجيكم؟ فخيولنا سوابق، وسهامنا خوارق، وسيوفنا صواعق، وقلوبنا كالجبال، وعددنا كالرمال... وقد سمعتم أننا فتحنا البلاد، وطهرنا الأرض من الفساد، وقتلنا معظم العباد، فما من سيوفنا خلاص، ولا من مهابتنا مناص».

لكن السلطان قطز لم يأبه بتهديد المغول، بل عقد العزم على ضرورة مقاومتهم مهما كانت التضحيات، فأمر بقتل رسل سلطان المغول وعلقت



خريطة رقم (١٣)
غزوات المغول في الشرق الأدنى

رؤوسهم على باب زويلة، وخرج السلطان قطز إلى بلاد الشام للقاء المغول الذين اجتازوا الشام ودخلوا فلسطين، واقتربوا من حدود مصر، واحتلوا غزة.

موقعة عين جالوت ونتائجها

اشتبك المسلمون من مصر والشام وبلاد الجزيرة في رمضان ١٢٦٠م مع المغول في عين جالوت بالقرب من نابلس في معركة حامية الوطيس انتصر فيها المسلمون على أعدائهم، بعد أن اشتدت هجمات المغول حتى أن كتبغا ـ قائد المغول ـ تحول أثناء المعركة إلى قطعة من اللهب بسبب الغيرة والغضب، وقد أظهر المسلمون شجاعة منقطعة النظير أثناء المعركة، ولما رأى السلطان قطز قوة بأس المغول ألقى بخوذته عن رأسه إلى الأرض، وصرخ بأعلى صوته: واإسلاماه. عندئذ ثارت حماسة جنده، وحمي وطيس القتال. وانتصر المسلمون انتصارا رائعاً ومزقوا شمل المغول كل ممزق، وخر كتبغا ـ قائد المغول ـ صريعاً في المعركة، ولم ينج من المغول إلا من لاذ بالفرار، وفروا لا يلوون على دار ولا يركنون إلى قرار.

ومما لا شك فيه أن موقعة عين جالوت من الوقائع الحاسمة في التاريخ، لأنها أضعفتهم، وأوقفت تقدمهم في بلاد الإسلام.

ترتب على موقعة عين جالوت نتائج بالغة الأهمية، فلو انتصر المغول في تلك الموقعة لفعلوا بمصر وأهلها مثلما فعلوا بالعراق والشام، ولقاسى العالم الإسلامي من ويلات المغول الشيء الكثير، ولتغير مجرى التاريخ في المنطقة كلها. ولكن هزيمة المغول في واقعة عين جالوت لم ينقذ مصر فحسب من وحشية المغول وهمجيتهم، بل أنقذ الشام أيضاً، لأن المغول بعد هزيمتهم في عين جالوت، لم يعد لهم مقام في بلاد الشام.

خـــاتمــــة
المسلمون في العصر الحديث

الدولة العثمانية

نشأت الدولة العثمانية في منطقة الثغور المواجهة للدولة البيزنطية وتقع في آسيا الصغرى في الركن الشمالي الغربي من الأناضول، وكان أرطغرل أول أمرائها، وقد عينه في هذه الولاية، علاء الدين السلجوقي ـ سلطان قونية ـ مكافأة له على تصديه لاكتاي بن جنكيزخان حينما كان يهاجم بلاده.

بذل عثمان بن أرطغرل (١٢٨٠ ـ ١٣٣٥) جهودا مضنية في توسيع ملك أبيه، وفعلا استطاع توسيع دائرة حكمه في آسيا الصغرى منتزعا من الدولة البيزنطية بعض الأراضي والبلدان، واتخذ من بني شهر عاصمة لدولته، واتخذ لقب «بادشاه آل عثمان» أي سلطان العثمانيين، وظل يضم المزيد من الأراضي إلى دولته حتى بلغت فتوحاته البحر الأسود وبحر مرمره، ولما اتسعت دولته اتخذ من بورصه عاصمة لها، ونظم أمور دولته. وبذلك يعتبر المؤسس الحقيقي للدولة العثمانية.

واصل خلفاء عثمان توسيع الدولة العثمانية، ونجح مراد الأول (١٣٦٠ ـ ١٣٨٨م) في ضم منطقة البلقان إلى الدولة العثمانية. وبذلك سيطر العثمانيون على جزء كبير من شرق أوربا.

ترك مراد الأول دولة قوية، وامبراطورية عظيمة، وواصل بايزيد الأول ؛ ١٣٨٩ ـ ١٤٠٢م) توسيع رقعة هذه الامبراطورية ولكن بايزيد وقع أسيرا في أيدي تيمورلنك عام ١٤٠٢ ولم يلبث أن توفي في أسره. وبعد نزاع طويل على العرش ولي السلطنة العثمانية، السلطان محمد الأول (١٤١٣ ـ ١٤٢٠م) وأعاد الهدوء والسكينة إلى البلاد، وواصل مراد الثاني (١٤٢١ ـ ١٤٥١م) الفتح حتى سيطر العثمانيون في عهده على آسيا الصغرى كلها، كما سيطروا على البلقان وشبه جزيرة اليونان، وتغلبوا على المجريين والألبانيين.

وولى السلطنة محمد الثاني الذي لقب بالفاتح، وتم في عهده الاستيلاء على القسطنطينية العاصمة البيزنطية في ٢٩ مايو ١٤٥٣م. وبذلك سقطت قلعة المسيحية في الشرق، عاصمة الروم التي صمدت قرونا عديدة تقاوم دول الإسلام منذ عصر هرقل وعمر بن الخطاب، وصمدت بصفة خاصة في وجه الدولة الأموية، وبالذات أمام حصار مسلمة بن عبدالملك الذي استمر عدة سنوات، وظلت هذه العاصمة الكبرى تواجه تحديات الإسلام، وتنتهز كل فرصة لضعف المسلمين وتفرقهم، وتشن الغارات ـ كلما استطاعت ـ ضد عالم الإسلام، وتناصر الحروب الصليبية، وتواجه ضربات السلاجقة المتكررة حتى زالت في النهاية، وبعد أن كانت عاصمة المسيحية في الشرق، تحولت إلى عاصمة الإسلام، وحاضرة الدولة العثمانية العظمى.

أخذت الدولة العثمانية تزداد قوة، حتى شملت معظم أملاك الدولة البيزنطية مثل بلاد العرب والموره، وجزائر بحر الروم وبوخارست وبلاد البوسنه وجزائر اليونان ورودس، وأصبحت الدولة العثمانية القوة الأولى في مواجهة أوربا، وبذلك استعاد الإسلام مجده وقوته على أيدي هؤلاء الأتراك، وهذه القوة الصاعدة والمتزايدة للدولة الإسلامية العظمى جاءت بعد هزائم وتدهور وانهيار لدول الإسلام في الشرق والغرب، فقد تعرض المسلمون لغزوات وحروب

الصليبيين، وغزوات المغول المدمرة، وانهارت الدولة العباسية، وضعف المسلمون وفي الغرب سقطت الأندلس نهائيا، واسترد الأسبان بلاد الأندلس، وطردواالمسلمين منها، وسقطت غرناطة - آخر معاقل المسلمين في الأندلس - سنة ١٤٩٢م، وانهارت دول المغرب العربي، وضعفت دول المماليك في مصر والشام. لذلك أدى الانهيار السياسي في بلاد الإسلام إلى انهيار شعوبها اجتماعيا واقتصاديا وثقافيا، وتفشى الجهل بين المسلمين، وعم الفقر والبؤس، وانتشر قطاع الطرق في ديار الإسلام، وفي غضون ذلك ظهر أمل جديد للمسلمين لعله يعيد إليهم مجدهم الغابر، ويوقظهم مما هم فيه، ظهرت الدولة العثمانية كقوة كبرى تسيطر على آسيا الصغرى، وشرق أوربا، وتمتد فتوحاتها إلى فينا، وكان جندها الانكشارية مشهورين بالشجاعة والإقدام وبلغت هذه الدولة أوج عظمتها في عهد السلطانين سليم الأول وسليمان القانوني.

وفي عهد السلطان سليم الأول، اتخذت الدولة العثمانية استراتيجية جديدة، وهي الاتجاه شرقا، حيث المسلمين في ضعف وتفكك، ولما ساءت العلاقات العثمانية المملوكية زحف السلطان سليم الأول إلى الشام ومصر للاستيلاء عليهما والقضاء على دولة المماليك. وفي سهل مرج دابق في بلاد الشام سنة ١٥١٦م، التقى السلطان سليم الأول بالسلطان قنصوه الغوري في معركة، انتصر فيها العثمانيون على المماليك، وقُتل السلطان المملوكي، وعلى أثر ذلك، استولى السلطان العثماني على حمص وحماه ودمشق وقدم له أمراء الشام الولاء والطاعة، وأُقيمت له الخطبة في مساجد الشام. وبذلك انضمت بلاد الشام إلى الدولة العثمانية، ونودي بالسلطان سليم سلطانا على هذه البلاد، ولقبه أهلها «خادم الحرمين».

واصل السلطان سليم الأول زحفه إلى مصر، وواجه مقاومة عنيدة من آخر سلاطين المماليك - طومان باي - والتقى السلطان سليم مع طومان باي في

الريدانية ١٥١٧، وبعد قتال مرير، انتصر السلطان سليم الأول. ولمعركة الريدانية نتائج بعيدة المدى، فعلى أثرها سقطت دولة المماليك، وآلت ممتلكاتها مصر والشام وبلاد الحجاز واليمن إلى الدولة العثمانية، واصطحب السلطان سليم الأول معه إلى القسطنطينية ـ آخر الخلفاء العباسيين في مصر ـ وزالت هذه الخلافة نهائيا، وآلت الخلافة الإسلامية إلى آل عثمان. وعلى ذلك انتقلت الخلافة من قريش إلى آل عثمان الترك.

وأما عن بلاد العراق، فقد كانت موضع نزاع بين الدولة الصفوية في إيران والدولة العثمانية، ونشب قتال بين السلطان سليم الأول والسلطان الصفوي إسماعيل في موقعة جالديران سنة ١٥١٤، وعلى أثر انتصار السلطان سليم الأول في هذه المعركة، انضمت شمال العراق الموصل وديار بكر للحكم العثماني. أما العراق الأوسط والجنوبي فقد ظل في يد الإيرانيين. وفي سنة ١٥٣٣م، سار السلطان سليمان القانوني على رأس جيش كبير إلى العراق، وتمكن من ضم بلاد العراق إلى حوزة الدولة العثمانية سنة ١٥٣٤م، ونظم السلطان سليمان أمور هذه الولاية، وأرضى السنة والشيعة، وتودد إلى أهل العراق.

وأما عن بلاد المغرب فكانت مفككة سياسيا في القرن السادس عشر، وبها ثلاث دول، الحفصية في تونس، ودولة بني زيان في الجزائر، ودولة بني مدين في مراكش، وكانت هذه الدول مضطربة داخليا، وفي نزاع مستمر فيما بينها، وكانت تتعرض لغزوات الأسبان الانتقامية من المسلمين الذين غادروا الأندلس، وعاشوا في شواطىء المغرب، يشنون الغارات الانتقامية على شواطىء أسبانيا.

وتطلع أهل المغرب العربي لأكبر قوة ـ إسلامية ـ الدولة العثمانية لحمايتهم من هذا التمزق، ولمواجهة خطر الأسبان وغاراتهم المتكررة، وبذلك امتد سلميا ملك العثمانيين في بلاد المغرب العربي حتى حدود الجزائر الغربية. ولكن المغرب الأقصى لم ينضم إلى الدولة العثمانية.

رأينا أن الدولة العثمانية امتد نفوذها حتى شمل معظم بلدان العالم الإسلامي في القرن السادس عشر. ولكن العثمانيين أحاطوا العالم الإسلامي بسياج منيع من العزلة، عزلوه نهائيا عن أوربا، وضعف المسلمون في كل مكان، وبينما كانت أوربا قد دخلت في عصر النهضة، وتواصل السير قدما في طريق التقدم الاقتصادي والتفوق الفكري، كان المسلمون يزدادون جهلا وتدهورا، ونسوا ما كانوا فيه من وعي وفكر وثقافه، ونسوا تراثهم أو كادوا، وانتشرت الخرافات، وعم الجهل.

إذن كانت أوربا تزداد تقدما في جميع المجالات الاقتصادية والفكرية والفنية والاجتماعية، والمسلمون يزدادون تخلفا وفقرا وضعفا لذلك فالدولة العثمانية عليها مسؤولية كبرى فيما أصاب عالم الإسلام من تخلف.

ضعفت الدولة العثمانية كقوة عسكريةمنذ القرن الثامن عشر وأصبحت عاجزة عن حماية ممتلكاتها، وتقدمت الصناعة في أوربا وقويت جيوش إنجلترا وفرنسا بصفة خاصة، وتطلعت لغزو الشرق، فغزا نابليون مصر في أواخر القرن الثامن عشر، وفي القرن التاسع عشر حدث الانقلاب الصناعي في أوربا، وتطلع الأوربيون إلى تصريف منتجاتهم، وفتح أسواق جديدة، ورأوا أن خير وسيلة لذلك هو الاستعمار، وكانت إنجلترا وفرنسا أقوى دولتين استعماريتين، فاستولت فرنسا على الجزائر سنة ١٨٣٠ وامتد نفوذها حتى شمل تونس والمغرب واستولت انجلترا على مصر والسودان والعراق واحتلت إيطاليا ليبيا، ودخلت فلسطين في نطاق الحكم البريطاني، وسوريا ولبنان في نطاق الحكم الفرنسي. وهذا الاحتلال تم رغم سيادة الدولة العثمانية عليها. وعجز الرجل المريض من ممارسة سيادته على أراضيه.

وسقطت الدولة العثمانية بعد هزيمتها في الحرب العالمية الأولى وبذلك زالت الخلافة الإسلامية نهائيا، وانتهى آخر مظهر لوحدة المسلمين.

المسلمون بعد الحرب العالمية الأولى

تطلع المسلمون منذ بداية القرن العشرين إلى ماحولهم، وتدارسوا وضعهم، وقارنوا بين ماضيهم وحاضرهم، فوجدوا أنفسهم في ضعف ووهن، تتقاسمهم الدول الاستعمارية الأوربية والدولة العثمانية، وانهارت حضارتهم، وتخلفوا عن غيرهم من الأمم، وزال مجدهم، وولت أيامهم التي سادوا فيها العالم حضاريا وسياسيا، وشعر بهذا الغبن الأدباء والمفكرون وبالذات الذين سافروا إلى أوربا، وشاهدوا مافيها من تقدم حضاري، ومدنية رفيعة، ووعي ثقافي، وديمقراطية سياسية واجتماعية، واستقلال تام، وقارنوا بين وضعهم في عالمهم الإسلامي وبين وضع الأوربيين.

وبدأت منذ مطلع القرن العشرين تظهر حركات وطنية تدعو إلى الاستقلال، وإنشاء الجامعات، وتعلم المواطنين، والأخذ بأساليب الحياة الحديثة، حتى يتحرر الفرد والمجتمع، وكانت مصر هي الرائدة في هذا العالم الإسلامي، وبعد الحرب العالمية الأولى، وسقوط الدولة العثمانية، إذا بالاستعمار الأوربي يشدد قبضته على البلاد الإسلامية، وتعاونت واتفقت الدول الاستعمارية الأوربية فيما بينها على استمرار وتعزيز استعمارها للعالم الإسلامي.

قامت أول ثورة تدعو إلى الاستقلال في مصر، وقادها سعد زغلول، واستقلت مصر، وكان لهذه الثورة صداها في العالم الإسلامي، وبدأت تظهر منذ ذلك الوقت الحركات الاستقلالية.

ولكن الاستعمار ظل يراوغ الدول الإسلامية، ويسوفٌ في منحها الاستقلال، ويتدخل في شؤون مصر، حتى قامت الحرب العالمية الثانية، الحلفاء ـ إنجلترا وفرنسا وأمريكا وروسيا ضد ألمانيا وإيطاليا واليابان، وانتهت هذه الحرب بهزيمة ألمانيا واليابان، وخرجت الولايات المتحدة على أثر هذه الحرب كأكبر

قوة عظمى في العالم، وتسلمت من إنجلترا زمام الزعامة العالمية. هنا عادت الدول الإسلامية تطالب بالاستقلال وفعلا استقلت الهند، وباكستان والعراق وإيران وأفغانستان وسورية ولبنان ودول الخليج العربي والسودان وتونس والمغرب والجزائر، وهذه الأخيرة لم تحصل على الاستقلال إلا بعد أن روت دماء الجزائريين أرض بلادهم، واستشهد ـ في أغلب الروايات ـ أكثر من مليون نفس.

على كل حال استقلت معظم بلاد الإسلام، ولكن الاستعمار الإنجليزي متضامنا مع الاستعمار العالمي، خرج من فلسطين، بعد أن هيأ فيها لإقامة دولة إسرائيل، كيما تكون قاعدة للاستعمار الأوربي، من خلالها يواصل الاستعمار العالمي إضعاف المنطقة العربية، ومنع المسلمين بصفة عامة من التقدم، وشغلهم بالحروب مع إسرائيل.

وقامت عدة حروب فعلا بين العرب وإسرائيل، انتصرت إسرائيل بالطبع، لأن من ورائها دول الاستعمار.

ومن ناحية أخرى شهدت المنطقة العربية رواجا اقتصاديا بسبب تدفق البترول في الجزيرة العربية والعراق وليبيا، وعم الرخاء في بعض البلاد العربية.

ولما كانت معظم الدول الإسلامية خارجة من الاستعمار، ممزقة اجتماعيا واقتصاديا، فقد قامت فيها حركات تحررية وكانت ثورة يوليو ١٩٥٢ التي حررت المواطن المصري اجتماعيا واقتصاديا، وخلصت المصريين من حكم بغيض، وقامت ثورة في العراق وفي سوريا، وساندت مصر ثورة اليمن وكانت موجهة ضد نظام حكم حميد الدين حيث كان اليمن يعيش في عالم العصور الوسطى، وكانت من أكثر بلاد العالم تخلفا، وكانت ثورة اليمن من أعظم الإنجازات التي حققتها ثورة مصر، فتحرر اليمن من التخلف، ويسير الآن قدما في طريق التقدم والحضارة.

ومع أن العالم الإسلامي الآن يسير في طريق التقدم. ويستفيد في مسيرته من الحضارة الحديثة، وتنتشر الجامعات والمدارس، ويزداد عدد المثقفين والمتعلمين، ويتخلص تدريجيا من كل مظاهر التخلف، ويبرز فيه علماء وأدباء ومفكرون عالميون، إلا أن هذا العالم يتعرض سياسيا لمشاكل توقف مسيرته، وتضعفه وتسيء إلى اقتصاده ومن هذه المشاكل الحرب بين إيران والعراق التي استمرت عدة سنوات، وأشاعت الخراب والدمار في القطرين، والحرب الأهلية في أفغانستان، والحرب الأهلية في لبنان، والنزاع الداخلي في السودان. ومشكلة فلسطين التي هي أعقد هذه المشاكل، فقد طرد اليهود أهل فلسطين من ديارهم، واستوطنوا أرضهم. وفلسطين هذه هي مشكلة المسلمين رقم ٢. المشكلة الأولى، طرد المسلمين من الأندلس والمشكلة الثانية، هي التي نحن بصدد الحديث عنها.

وعلى الرغم من كل هذه المشاكل المعقدة، فالمسلمون يسيرون بخطى واسعة في طريق التقدم والحضارة، ونرجو من الله أن يحقق للمسلمين كل خير وسعادة.

هذا وبالله التوفيق، ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾

والله يعلم

الباب الرابع

الحضارة العربية الإسلامية

- تمهيد
- نظم الحكم
- الحالة الاقتصادية
- الحالة الاجتماعية
- الحالة الفكرية
- الفنون والآثار
- الجيش والأسطول
- أثر الحضارة الإسلامية فى الحضارة الأوربية

تمهيد : أصول الحضارة الإسلامية وتطورها

بدأت الحضارة العربية الإسلامية فى الظهور بعد حركة الفتوح وانتشار الإسلام واللغة العربية بين شعوب هذه البلاد المفتوحة . وعلى الرغم من أنه ليس من اليسير تحديد أصل أية حضارة ، إلا أنه يمكن القول بأن أصول الحضارة الإسلامية ترجع إلى الدين الإسلامى ، والعرب ، وسكان البلاد التى امتد إليها نفوذهم ، فكان للعرب فى جنوب الجزيرة العربية حضارة متفوقة فى الزراعة والصناعة والتجارة ، كذلك كان للمناذرة فى الحيرة والغساسنة بالشام ، حضارة زاهرة تشهد عليها النقوش وبعض الأعمال العمرانية التى لا تزال آثارها باقية . الا أن الحقائق التاريخية المسلم بها أن تراث العرب الحضارى قبل الإسلام لا يرتفع إلى مستوى تراث الشعوب الأخرى ذات الحضارات القديمة .

لكن ظهر عامل هام فى تاريخ جزيرة العرب كان السبب فى أن العرب أسهموا بنصيب كبير فى قيام الحضارة الإسلامية ، ويقصد به الدين الإسلامى الذى ظهر فى قلب الجزيرة العربية وحمله العرب إلى خارج جزيرتهم ، وبذلوا جهدا عظيما فى نشره بين الشعوب الأخرى ، ذلك أن الإسلام لم يكن عقيدة وأسلوبا للعبادة فحسب ، بل كان أيضاً تخطيطا للأمة والمجتمع ومنهاجا للفكر والسلوك ودستورا للإنسانية فى أسمى صورها ، فقد اشتملت تعاليمه على ما يصلح حال الناس وتنظيم العلاقات والمعاملات فيما بينهم على أسس سليمة وعادلة . فالناس سواسية كأسنان المشط ، لا فرق بين عجمى و عربى إلا بالتقوى ، والديمقراطية فى الحكم شريعة الله . قال تعالى ﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾[1] كما خاطب الله تعالى نبيه بقوله : ﴿ وشاورهم فى الأمر﴾[2] . وللأسرة نصيب كبير فى تعاليم الإسلام

(١) الشورة : آية ٤٢ .
(٢) آل عمران : آية ١٥٩ .

فهى تحدد نظم الميراث والزواج والطلاق . والجهاد بالنفس والمال والعلم ذروة الإيمان . وطلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة .

ولا شك أن أفكار العرب وغيرهم من الشعوب التى دخلت فى الإسلام قد تأثرت بتعاليمه فى نظم الحكم والمعاملات والسلوك وغير ذلك ، واكتسبت من هذا الدين عناصر جديدة مزجتها بما أبقت عليه من عناصر حضارية قديمة ، وكان لهذا المزج أثره فى نشأة الحضارة الإسلامية . هذا فضلا عن أن اهتمام المسلمين بفهم دينهم أدى إلى نشأة كثير من العلوم الدينية كالتفسير والحديث والقراءات والفقة وما يرتبط بها من علوم اللغة والنحو . وهى علوم احتلت مكانة هامة فى الحركة العلمية التى تعد من أبرز مظاهر الحضارة الإسلامية .

أما سكان البلاد التى فتحها العرب ، فكانوا فى جملتهم من المتحضرين لأن أغلبهم يعيشون فى مناطق الوديان والأنهار ، وهم عموما ورثة الحضارة القديمة سواء فى منطقة البحر المتوسط أو الحضارات الآسيوية ، وكلاهما له أثره فى حضارات الإسلام ، أما حضارات البحر المتوسط فتشمل حضارات مصر وبلاد الرافدين وفينيقيا واليونان والرومان . لكن الحضارة اليونانية هى التى أثرت فى حضارة الإسلام بدرجة أكبر من هذه الحضارات . ولم تكن الحضارة اليونانية التى عرفها العرب وافدة من بلاد اليونان مباشرة وإنما كان لها مراكزها فى الشرق ففى مصر التى فتحها العرب كانت توجد الإسكندرية وريثة أثينا وفى سورية كانت توجد أنطاكية . أما الحضارات الآسيوية فيقصد به حضارات الصين والهند وفارس ووسط آسيا ويبدو أن معظم عناصرها وصل إلى الحضارة الإسلامية عن طريق الفرس .

وخلاصة القول أن العرب أفادوا من موقع دولتهم بين آسيا وأفريقيا وأروبا فى الربط والتنسيق بين الحضارات التى صادقوها فى هذه القارات الثلاث فى إقامة حضارة جديدة شامخة عرفت باسم الحضارة العربية الإسلامية .

الفصل الاول

نظم الحكم

الخلافة :

نشأ نظام الخلافة عقب وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام ، إذ بادر أهل المدينة إلى الاجتماع بسقيفة بنى ساعدة فى يوم وفاته ، ورأوا أن يقيموا حاكما يخلف الرسول فى حكم المسلمين ، وعرفت فيما سبق كيف وقع الاختيار على أبى بكر ليكون خليفة للرسول .

وقد حرص أبو بكر على أن يعلن سياسته التى عزم على انتهاجها فى الحكم فألقى بمسجد الرسول خطبة قصيرة جامعة تتجلى فيها الديمقراطية فى أعظم صورها على أثر أخذ البيعة العامة له فى اليوم التالى لاجتماع السقيفة . وإليك نصها :

« أيها الناس ، إنى وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينونى ، وإن أسأت فقومونى ، الصدق أمانة والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ الحق له إن شاء الله ، والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه إن شاء الله ، لا يدع أحد منكم الجهاد فى سبيل الله فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل ولا تشيع الفاحشة فى قوم إلا عمهم الله بالبلاء ، أطيعونى ما أطعت الله ورسوله فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم » .

ولما شعر أبو بكر بدنو أجله حين اشتد عليه المرض ، رأى أن يعين خليفة له ، خشية أن يتجدد الخلاف على من يتولى أمانة المسلمين . لذلك عزم على أن يعهد بالخلافة من بعده إلى عمر بن الخطاب ، لأنه كان يجمع بين صفتين هامتين هما : الشدة فى غير عنف ، واللين فى غير ضعف . لكن أبا بكر لم ينفرد بهذا القرار بل أخذ يستشير من حضره بالمدينة من قادة المسلمين ، حتى وجد منهم تأييداً لرأيه وتزكية لعمر .

فكتب له عهدا جاء فيه : « هذا ما عهد به أبو بكر خليفة رسول الله ﷺ ، عند آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة ، في الحال التي يؤمن فيها الكافر ويتقي الفاجر . أني استعملت عليكم عمر بن الخطاب ، فإن بر وعدل ، فذلك علمى به ورأيى فيه ، وإن جار وبدل فلا علم لي بالغيب » .

وهكذا وضع أبو بكر سنة جديدة في اختيار الخلفاء من بعده ، ذلك أنه عين من يتولى أمور المسلمين بعد وفاته ولكنه علق خلافة عمر بن الخطاب على رضا الناس ، كما أنه لم ينتخب أحدا من أبنائه أو أقربائه ، بل انتخب شخصا أجمع الناس على احترامه ، لما امتاز به من الصفات الطيبة ، وقد ارتاح الناس لطريقة أبي بكر في ترشيح خلف له ، بدليل أنهم طالبوا عمر بن الخطاب قبيل وفاته بأن يعهد إلى أحدهم كما فعل أبو بكر .

ولما طعن أبو لؤلؤة المجوسى عمر بن الخطاب بخنجر ، وأصبحت حياته في خطر محقق ، ألح بعض كبار الصحابة على عمر بضرورة أن يعهد بالخلافة من بعده لمن يرى فيه الكفاية ، فأشار عمر على قومه أن يختاروا رجلا من ستة أشخاص لهم الشرف والرئاسة . وكانوا من السابقين إلى الإسلام . وهم : علي بن أبي طالب ، وعثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، وطلحة بن عبيدالله ، والزبير بن العوام . وقد خشى عمر أن يطول النقاش بين هؤلاء المرشحين ويتحزب الناس ، فجمعهم وقال لهم : « إني نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم ولا يكون هذا الأمر إلا فيكم ، وإني الآن لا أخاف الناس عليكم وإنما أخاف اختلافكم فيما بينكم فيختلف الناس ، فإذا مت فتشاوروا ثلاثة ولا يأتين اليوم الرابع إلا وعليكم أمير منكم » .

ولما اجتمع المرشحون للخلافة بعد وفاة عمر تنفيذا لوصيته ، ظهرت بوادر التنافس بين أنصار على وعثمان ، أو بعبارة أخرى بين بني هاشم وبني أمية ؛ لأن الخلافة انحصرت بينهما ، ثم وقع الاختيار على عثمان ، وسارع الناس إلى بيعته بمسجد الرسول .

ولاشك أن طريقة انتخاب عثمان كان فيها تأكيد لمبدأ الشورى ، لأن المرشحين للخلافة تشاوروا في بداية الأمر فيمن يكون خليفة ، ثم عرضت نتيجة هذه المشاورة على المسلمين في المسجد . وبذلك تمت بيعة عثمان في المحرم سنة ٢٤ هـ .

ويختلف الأمر عن هذا تمام الاختلاف عند اختيار على بن أبي طالب ، ذلك أنه حدثت فتنة ضد الخليفة عثمان بن عفان في أواخر عهده ، تزعمها أناس من البصرة والكوفة والفسطاط . وقد التقت وفود هذه الأمصار الثلاثة من المعادين لعثمان في المدينة أثناء موسم الحج سنة ٣٥ هـ ، ثم قابلوا الخليفة ووجهوا إليه بعض التهم ، لكنه رد عليهم مفندا كلا منها ، حتى بدا أنهم اقتنعوا بوجهة نظره وشرعوا في العودة إلى بلادهم . غير أن وفود الأمصار الثائرة عادت فجأة إلى المدينة وأحاطت بدار عثمان ، ثم اقتحموها على أهلها وقتلوا الخليفة .

ولما مضت خمسة أيام على وفاة عثمان ، اجتمع كثير من أهل المدينة ، وألحوا على علي بن أبي طالب في قبول أمانة المسلمين ، فرفض أول الأمر أن يتولاها وما زالوا به حتى اضطر إلى قبول الخلافة خشية الفتنة .

وهكذا نرى أن بيعة كل واحد من الخلفاء الراشدين قد تمثلت فيها فكرة الشورى ، وإن لم تتم كلها بطريقة واحدة . كما أن أحدا من الخلفاء الراشدين لم يحاول أن يجعل الخلافة وراثية ، إذ أجمع الناس كلمتهم على انتخاب أبى بكر بعد وفاة النبي ، ولم يقبلوا على انتخاب العباس عم النبي أو ابن عمه علي بن أبي طالب . وكذلك عهد أبو بكر إلى عمر ولم يعهد إلى أحد أبنائه ورفض عمر بن الخطاب أن يسند الخلافة إلى ابنه عبد الله من بعده .

على أن انتقال الخلافة إلى بني أمية وتحول العاصمة من المدينة المنورة بالجزيرة العربية إلى دمشق ببلاد الشام أحدث تطورا كبيراً في نظام الخلافة الإسلامية . فقد نقل معاوية بن أبي سفيان نظام الحكم في الدولة العربية من نظام يعتمد الشورى إلى نظام الملك الذي يقوم على أساس الوراثة . وكذلك حين عهد

بالحكم من بعده إلى ابنه يزيد بحجة تجنب الفتن والاضطرابات وانقسام المسلمين . واستعمل معاوية كل أنواع الحيل والدهاء للحصول على البيعة لابنه من أناس كانوا لا يزالون متعلقين بنظام الشورى ، مما أدى إلى قيام كثير من الثورات ضد الدولة الأموية . ومع ذلك فقد كان الخليفة في العهد الأموى يعين ولي عهده ويأخذ البيعة من وجهاء الناس وكبار القواد في حضرته ، كما كانت تؤخذ البيعة من أهالي الأمصار بحضور الوالي نيابة عن الخليفة .

وبناء على ذلك ، فإن الخلافة الحقيقية الجامعة لكل الشروط المتمشية مع التقاليد العربية ، كانت على عصر الخلفاء الراشدين فقط . أما خلافة بني أمية فكانت غير شورية ، لأنها كانت ملكية وراثية تنص على من يتولى الحكم بعد الخليفة القائم . وقد بالغ في ذلك بعض الخلفاء الأمويين حين أصحبوا يولون عهدهم إثنين بل ثلاثة .

وبانتقال الحكم إلى العباسيين حدث تطور آخر في نظام الخلافة نتيجة تحول حاضرة الخلافة من بلاد الشام إلى العراق، فتأثرت إلى حد كبير بنظم الحكم عند أكاسرة الفرس الذين حكموا العراق مدة طويلة قبل أن يضمه العرب إلى دولتهم . كما أقام العباسيون حقهم في الحكم على أساس أنهم ورثة الرسول ﷺ .

كان من أثر ميل الخلفاء العباسيين للفرس أن أصبح نظام الحكم في عهدهم مماثلا لنظام الحكم الفارسي ، فاحتجبوا عن رعيتهم ، واتخذوا الوزراء والحجاب ، وصاروا يعيشون عيشة الأكاسرة ، تحوطهم الأبهة والعظمة و كثيرا ما لجأ هؤلاء إلى تولية العهد لأكثر من واحد كما حدث في عهد الأمويين .

وفي العصر العباسي الثاني (٣٣٢ ــ ٦٥٦ هـ) ازداد ضعف الخليفة وأصبح ألعوبة في أيدى أمراء الأتراك أولا وبني بويه ثم السلاجقة ثانيا . وعلى الرغم ذلك فقد ظل هؤلاء الأمراء يعترفون بأن الخليفة هو صاحب السيادة على جميع

أنحاء الدولة الإسلامية ، ولذلك كانوا يحرصون على إقامة الدعوة له فى البلاد التى تحت أيديهم .

الوزارة :

لم تكن الوزارة من مستحدثات الإسلام ، فإن النبى ﷺ شاور أصحابه فى الأمور العامة والخاصة ، وخص أبا بكر ببعض الأمور . كذلك كان حال عمر فى خلافة أبى بكر ، ولما ولى عمر الخلافة ، استعان بكل من عثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب فى القيام بكثير من أمور الدولة ، كما عهد إليهما بالنظر فى أمور الرعية .

ولما انتقلت الخلافة إلى بنى أمية عمد الخلفاء الأمويون إلى استشارة بعض ذوى الرأى والاستعانة بهم فى إدارة شئون الدولة . وكان هؤلاء يقومون بعمل الوزارة ولا يلقبون بلقب وزير .

ولم يظهر منصب الوزارة رسميا فى الدولة الإسلامية إلا بعد أن انتقلت الخلافة إلى العباسيين ، فاتخذ الخليفة العباسى وزيرا ، يقضى باسمه فى جميع شئون الدولة ، فكان له الحق فى تولية الولاة وعزلهم ، والإشراف على موارد الدولة ومصروفاتها ، وديوان الرسائل .

عرفت الدولة الإسلامية نوعين من الوزارة : وزارة تنفيذ ، ووزارة تفويض . ففى وزارة التنفيذ تكون مهمة الوزير تنفيذ أوامر الخليفة وعدم التصرف فى شئون الدولة من تلقاء نفسه ، بل كان يعرض أمور الدولة على الخليفة ويتلقى أوامره فيها . وبذلك لم يكن وزير التنفيذ إلاواسطة بين الخليفة والرعية . أما وزارة التفويض فهى أن يعهد الخليفة بالوزارة إلى رجل يفوض إليه النظر فى أمور الدولة والتصرف فيها دون الرجوع إليه . ومن وزراء التفويض يحيى بن خالد البرمكى وزير الرشيد ، والفضل بن سهل وزير الخليفة المأمون .

ولما استقل الأمويون بالأندلس فى عهد العباسيين ، صنفت الأعمال بهذا

الإقليم ، وأفرد لكل عمل وزير ، فجعل للمالية وزير ، وللرسائل وزير ، وللمظالم وزير وهكذا . وقد خصص لهم مكان يجتمعون فيه برئاسة الحاجب ، وهو شخص يختار من بينهم ليكون حلقة الوصل بين هؤلاء الوزراء من ناحية وبين الأمير أو الخليفة الأموى من ناحية أخرى .

الحجابة :

كان الخلفاء الراشدون لا يمنعون أحدا من الدخول عليهم ، بل كانوا يخاطبون الناس على اختلافهم بلا حجاب . فلما انتقلت الخلافة إلى بنى أمية ، اتخذ معاوية حاجبا مهمته إدخال الناس عليه بحسب أهمية مراكزهم . وتبع معاوية فى ذلك من تولى بعده من خلفاء بنى أمية ، وذلك خوفا على أنفسهم أن يتعرضوا لمثل ما تعرض له كل من الخليفة عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب وتلافيا لازدحام الناس على أبوابهم وشغلهم عن النظر فى مهام الدولة .

وقد اقتدى الخلفاء العباسيون ببنى أمية ، فاتخذوا الحجاب ، وزادوا فى منع الناس من لقاء الخليفة إلا فى الأمور الهامة ، فصار بين الناس وبين الخليفة داران : دار الخاصة ودار العامة ، يقابل كل طائفة فى مكان معين على ما يراه الحجاب .

وقد علت مرتبة الحاجب بارتقاء الحضارة الإسلامية فى أيام العباسيين ، فأصبح يستشار فى كثير من أمور الدولة . وكثيرا ما كان الحاجب يتدخل فى أمور الدولة العباسية ويستبد بالنفوذ دون الوزير ، ويلزم رؤساء الدواوين بالرجوع إليه فى كل أمور الدولة ، ويحتم عليهم بألا يفصلوا فى الأعمال إلا بعد موافقته .

ومن أبرز الحجاب فى العصر العباسى الأول « الفضل بن الربيع » الذى لعب دورا كبيرا فى الإيقاع بأسرة البرامكة عند الخليفة هارون الرشيد ، بعد أن كان هؤلاء قد حظوا بمكانة عالية لدى هذا الخليفة ، إلى درجة أنه فوض لبعض أفرادها أمور دولته . كما كان للفضل بن الربيع أثر ظاهر فى وقوع الخلاف بين الأمين وأخيه المأمون .

النظام الإدارى :

١ ـــ الإدارة المركزية :

كانت حكومة الرسول ﷺ فى المدينة المنورة بسيطة ، إذ جمع فى يده السلطتين الدينية والدنيوية ، فهو الحاكم والقاضى والقائد ، وتخضع إدارة الدولة فى العاصمة وما حولها لسلطته مباشرة . ولما تولى أبو بكر الخلافة عهد إلى بعض الصحابة ببعض أعماله ، فكلف عمر بن الخطاب بمهمة القضاء فى المدينة ، وعهد إلى أبى عبيدة بن الجراح بأمانة بيت المال . ولم يتخذ أبو بكر ولا الرسول من قبله كاتبا معينا ، وإنما كان يكتب لهما وقت الحاجة بعض الصحابة مثل : عثمان بن عفان ، على بن أبى طالب ، ثابت بن زيد . ولم يتقاض هؤلاء مرتبات عما يقومون به من أعمال .

كان عمر بن الخطاب أول من أنشأ الدواوين ، فأقام ديوان بيت المال وديوان الجند ، وكانت الإيرادات تجمع فى بيت المال وينفق منها على شئون الدولة . أما ديوان الجند فكانت تسجل به أسماء الجند والأعطيات التى تصرف لهم من بيت المال . وقد اعتبر عمر جميع المسلمين فى عهده جنودا مدافعين عن الدولة ، ولم يفرق بين العرب منهم وغير العرب ، فأمر بأن يفرض عطاء لكل من أسلم .

ثم تطورت الدواوين وتعددت فى عهد الأمويين والعباسيين للاضطلاع بالأعباء الإدارية فى عاصمة الخلافة . ومن أهمها دواوين الرسائل والبريد والخراج والخاتم . وكان موظفو ديوان الرسائل يقومون بتحرير الرسائل الرسمية ويتلقون الرسائل الواردة الخاصة بالخليفة والدولة ويردون عليها . وكان يعمل بهذا الديوان طائفة من الكتاب . ورئيس هذا الديوان من أبرز موظفى الدولة وأقربهم إلى الخليفة .

أما ديوان البريد فكان يشرف على نظام البريد الذى عرف فى الدولة العربية منذ عهد معاوية بن أبى سفيان وصار تنظيمه فى عهد عبد الملك بن مروان . ومهمة رئيسه موافاة الخليفة بكافة الأخبار والحوادث التى تصل إليه من أعوانه فى

أنحاء الأقاليم .. وقد تطور نظام البريد باعتماد الخلفاء العباسيين عليه اعتمادا كبيرا في إدارة شئون دولتهم والإشراف عليها ، فوسعوا من اختصاص صاحب البريد .

ومن الدواوين الإدارية ، ديوان الخاتم الذى أنشأه معاوية بن أبى سفيان . وكان موظفوه يقومون بنسخ أوامر الخليفة التى وقع عليها وإيداعها بهذا الديوان بعد ختمها بالشمع ، حتى لا يجرؤ أحد على تزوير هذه الأوامر .

ومن الدواوين الهامة « ديوان الخراج » وكانت تحفظ به السجلات المدون بها تقديرات الخراج على أنواع الأراضى المختلفة فى سائر المناطق . ويصل إليه فائض دواوين الخراج بالولايات مثل الكوفة والبصرة ومصر وخراسان وغيرها .

٢ ـ الإدارة المحلية فى الولايات :

خضعت إدارة الدولة فى المدينة المنورة وما جاورها لسلطة النبى مباشرة أما سائر بلاد العرب فقد قسمت على عهد الرسول إلى مقاطعات كان يعين على كل منها واليا ، عهد إليه فى هذه المرحلة المبكرة فى قيام الدولة بتعليم العرب الإسلام وإقامة الصلاة . وعين أيضا عاملا يتولى جمع الزكاة عرف باسم « المصدق » وأحيانا كان الوالى يكلف بمهمة القضاء فى ولايته أو يعهد الرسول إلى أحد أصحابه بالفصل فى الخصومات ، مثلما فعل مع معاذ بن جبل وعلى بن أبى طالب . وقد أديرت الدولة فى عهد أبى بكر على هذا النحو الذى كانت عليه فى عهد الرسول .

ويجمع المؤرخون على أن عمر بن الخطاب وضع أساس التنظيم الإدارى للدولة العربية بعد أن اتسعت هذه الدولة فى عهده نتيجة الفتوحات الأولى ، فقسمها إلى ثمانى ولايات هى : مكة والمدينة وفلسطين والشام والجزيرة الفراتية والبصرة والكوفة ومصر . ثم تطورت هذه الولايات فيما بعد تبعا لاتساع الدولة الإسلامية وكان عمر بن الخطاب يراقب عماله فى سياستهم للرعية ، كما كان يحاسبهم حسابا عسيرا إذا بدا على الوالى شىء من ثراء لم يكن عليه من قبل توليته .

وكان الوالى يؤم المسلمين فى الصلاة نيابة عن الخليفة وينفذ أوامر الخليفة

فى ولايته ، وله أيضا قيادة الجند وأحيانا كان يضاف إليه الإشراف على جمع الخراج أو يعهد بها الخليفة إلى شخص آخر يعرف بحامل الخراج ، هذا بجانب القاضى الذى يعين أيضا من قبل الخليفة مباشرة .

لم يغير العرب نظام الإدارة المحلية التى وجدوها فى البلاد المفتوحة ، إذ أبقوا على الموظفين السابقين لمواصلة العمل فى الدواوين والمراد بها دواوين الخراج التى كانت تشرف على جباية الأموال فى ولايات الدولة . ومن الطبيعى أن الدواوين التى أنشئت فى عهد عمر والخلفاء من بعده استخدمت فيها اللغة العربية أما دواوين الخراج فى الولايات فظلت بعد الفتح الإسلامى على ما كانت عليه قبله : ففى العراق وسائر بلاد الفرس كانت تكتب بالفارسية وفى بلاد الشام ومصر كانت تكتب باليونانية ، فلما ولى عبد الملك بن مروان الخلافة عمل على تعريب الدواوين فتم تعريب دواوين العراق والشام فى عهده ، وعرب ديوان مصر فى عهد ابنه الوليد . وكان بخراسان ديوان معظم كتابه من المجوس ، وظلت حساباته تدون بالفارسية حتى سنة ١٢٤ هـ فتم تعريبه فى هذه السنة .

الشرطة :

المقصود بالشرطة الجند الذين يعتمد عليهم الخليفة أو الوالى فى استتباب الأمن وحفظ النظام والقبض على الجناة والمفسدين ، وما إلى ذلك من الأعمال التى تكفل سلامة الجمهور . وكان عمر بن الخطاب أول من أدخل نظام العسس الليلى ، وفى عهد على بن أبى طالب نظمت الشرطة وأسندت إلى رئيس أطلق عليه اسم « صاحب الشرطة » .

وكانت الشرطة فى بادىء الأمر تابعة للقضاء ، وتقوم بتنفيذ الأحكام القضائية وتمهيد الطريق لإقامة الأدلة على المتهم لإثبات الجريمة . وكان بعض القضاة يجمع بين القضاء والشرطة . ثم تطور نظام الشرطة وانفصلت عن القضاء فى عهد العباسيين ، وأصبح لصاحبها النظر فى الجرائم وإقامة الحدود وتعقب المفسدين ومثيرى الفتن ومدمنى الخمر وغير ذلك من الجرائم .

النظام القضائى :

لم يكن عند العرب فى الجاهلية سلطة تشريعية تسن لهم القوانين بل ساد عندهم التقاليد والعادات التى يحكم بها شيخ القبيلة بين أفراد قبيلته ، وكثيرا ما كانوا يحكمون بالقرعة ويلجئون إلى الكهان [(١)] ، والعرافين [(٢)] .

وبظهور الإسلام تطور القضاء تطوراً جذرياً ، فقد تحدد القانون الملزم الفصل به وهو القرآن الكريم . قال تعالى : ﴿ فاحكم بينهم بما أنزل الله ﴾ . وقد تضمن القرآن التشريع الكلى فى الأمور المدنية والجنائية والشخصية . وحين هاجر الرسول إلى يثرب ارتضاه أهلها حكما فيما يحدث بينهم من منازعات ، ونص على ذلك فى الكتاب المعروف بالصحيفة الذى سبقت الإشارة إليه . ومما جاء فى هذا الكتاب « وأنه ما كان من أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده ، فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله » . ولما انتشرت الدعوة الإسلامية عهد الرسول إلى الولاة بمهمة القضاء فى ولاياتهم ، كما أذن لبعض الصحابة بفض الخصومات بين الناس طبقا لأحكام الإسلام .

تولى أبو بكر مهمة القضاء فى خلافته بعد الرسول ، ثم أسند إلى عمر بن الخطاب هذه المهمة ، فظل يليها مدة سنتين لكنه لم يلقب بلقب قاض ، ولما اتسعت الدولة الإسلامية فى عهد عمر بن الخطاب تعذر عليه القيام بأعمال القضاء بين الناس فعهد بهذه المهمة إلى أشخاص يتفرغون لها سموا « قضاة » وبذلك كان عمر أول من عين القضاة فى الولايات الإسلامية . وقد سن عمر لهؤلاء القضاة مبادىء يسيرون على هديها فى الأحكام وتتضح هذه المبادىء من كتاب له إلى أبى موسى الأشعرى قاضى البصرة ، فقد نصحه فى هذا الكتاب بقوله « آس بين الناس (اعدل بين الناس) فى وجهك ومجلسك وعدلك حتى لا يطمع شريف فى حيفك (ظلمك) ولا ييأس ضعيف من عدلك ، البينة (الدليل) على من ادعى ، واليمين على من أنكر ، والصلح جائز بين المسلمين ، إلا صلحا أحل حراما

---

(١) الكاهن هو الشخص الذى يعتقد أن له تابعا من الجن يطلعه على كل شىء .
(٢) العراف هو الذى يعرف الأمور عن طريق الفراسة أو القرائن .

أو حرم حلالا ، ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس فراجعت اليوم فيه عقلك وهديت فيه لرشدك ، أن ترجع إلى الحق ، فالرجوع إلى الحق خير من التمادى فى الباطل . ثم اعرف الأمثال والأشياء وقس الأمور بنظائرها .. المسلمون عدول بعضهم على بعض (أى أن شهادة المسلم مقبولة) إلا مجلودا فى حد أو مجربا فى شهادة زور ، أو ظنينا فى ولاء أو قرابة ... » .

كذلك لم يعط عمر الولاة حق تعيين القضاة فى ولاياتهم ، وإنما كان يتم تعيينهم من قبل الخليفة مباشرة ، وذلك حتى لا يكون للوالى سلطان على القاضى فيحكم بالعدل دون خوف من تدخل أحد فى أحكامه . وبذلك يكون عمر أول من فصل بين السلطتين التنفيذية ممثلة فى الوالى ، والقضائية ممثلة فى القاضى .

لم يحدث تغيير فى نظام القضاء فى العهد الأموى إذ حافظ القضاة على استقلالهم فى الأحكام وعدم تأثرهم بالسياسة وميول الدولة الحاكمة حتى إذا جاء العصر العباسى تدخل بعض الخلفاء فى أحكام القضاء وفتاوى الفقهاء ، فحمل بعضهم — مثل الإمام أبى حنيفة النعمان — على أن يعتذر للخليفة أبى جعفر المنصور عن قبول منصب القضاء . كما أنه فى العصر العباسى ظهرت المذاهب الفقهية الأربعة وأصبح القاضى ملزما بأن يصدر أحكامه وفق أحد المذاهب . فكان القاضى فى العراق يحكم وفق مذهب أبى حنيفة ، وفى بلاد الشام والمغرب وفق مذهب مالك ، وفى مصر وفق مذهب الشافعى . كذلك اتسعت سلطة القاضى فى هذا العصر ، فبعد أن كان ينظر فى الأمور الدينية والجنائية أصبح ينظر فى الأوقاف وتنصيب الأوصياء على القصر وغير ذلك من الأمور . ومن التطورات التى حدثت فى نظام القضاء فى العصر العباسى ظهور وظيفة « قاضى القضاة » وكان يقيم فى عاصمة الخلافة ويولى من قبله قضاة ينيبون عنه فى مختلف الأقاليم .وكان فى كل ولاية فى بادىء الأمر قاضٍ واحد ثم أصبح يعين بها أربعة قضاة ، يمثلون مذاهب أئمة أهل السنة وهم : (الإمام أبو حنيفة ، والإمام مالك بن أنس ، والإمام الشافعى ، والإمام أحمد بن حنبل) .

النظر فى المظالم :

أنشأ العباسيون ديوانا خاصا بالمظالم ، وهو هيئة قضائية كانت تنظر فى شكاوى المتظلمين من قضاة لم ينصفوا المتقاضين ، أو من ولاة استبدوا بالأمر وظلموا رعاياهم ، أو من جباة أموال جاروا ، أو من أبناء الخلفاء ، أو أهل الجاه وأصحاب النفوذ ، وما شابه ذلك من الشكاوى التى ربما يعجز القاضى العادى عن تنفيذ أحكامه فيها . ولهذا كانت تسند رئاسة ديوان المظالم إلى رجل جليل القدر ، وكثيرا ما كان الخليفة يجلس للنظر فى المظالم بنفسه، أو يعهد لذلك إلى إحدى الشخصيات الكبيرة مثل الوزير أو قاضى القضاة .

والمعروف أن الخلفاء الراشدين كانوا ينظرون فى شكاية من يأتيهم من المتظلمين ويعملون على إنصافهم ، لكنهم لم يحددوا لذلك زمانا ولا مكانا . وكان عبد الملك بن مروان أول خليفة أموى يفرد يوما للنظر فى شكاوى المتظلمين ، وإن كان بعض الخلفاء الأمويين بعده أهملوا هذه القاعدة ، وفى عهد العباسيين تم إنشاء ديوان خاص بالمظالم على النحو المذكور .

الحسبة :

وضع عمر بن الخطاب نظام الحسبة وتولاها بنفسه فى بادىء الأمر ، ثم صارت من واجب القاضى ، ثم اختص بها موظف عرف بالمحتسب . وكان له أعوان يشرف بمساعدتهم على نظام الأسواق والمرور فى الطرقات . كما يحكم بهدم المبانى الآيلة للسقوط وإزالة أنقاضها ، ويكشف عن صحة الموازين والمكاييل التى كان لها دار خاصة بها تعرف باسم « دار العيار » . ثم توسعت دائرة اختصاصه فجعل له المحافظة على الآداب العامة .

الفصل الثانى

الحالة الاقتصادية

١ ـــ الزراعة :

حرص الخلفاء والولاة فى الدولة الإسلامية على تنمية موارد الثروة الزراعية وذلك لانعاش أحوال البلاد الاقتصادية ، فعنوا عناية كبيرة بتحسين وسائل الرى وذلك بحفر الترع والقنوات وإقامة السدود والقناطر ، فالخلفاء الأمويون استغلوا العيون المائية فى سورية لإخراج قنوات منها تيسر للزراع رى أراضيهم ، والخلفاء العباسيون أشرفوا على الأراضى الواقعة بين نهرى دجلة والفرات وعملوا على تحسين زراعتها ، وتنمية مواردها ، وامتدت فى هذه الأراضى شبكة من الترع والمصارف حتى ازدادت خصوبتها ، وكثر إنتاجها الزراعى ، وعرفت بأرض السواد .

أبقى عمر بن الخطاب الأراضى الزراعية فى البلاد التى فتحها المسلمون فى أيدى أهلها يزرعونها ويؤدون ضريبتها ، ونهى العرب فى الأمصار الإسلامية من امتلاك الأرض حتى ينصرفوا إلى الفتح وحماية الدولة الإسلامية من الأخطار الخارجية . وقد نهى عمر بن الخطاب عمال الخراج عن إثقال كاهل الزراع بالضرائب ، وسار على سياسته الخلفاء من بعده . وقد أدى ذلك إلى تشجيع الزراع على بذل الجهود لزيادة الإنتاج الزراعى .

ومن أشهر الحاصلات الزراعية فى الدولة الإسلامية : الحنطة ، وتزرع فى البلاد التى تتوفر فيها المياه كالعراق ومصر ، وانتشرت زراعة الذرة فى جنوب جزيرة العرب وبلاد النوبة ، وزرع الأرز فى بعض بلاد الفرس . أما الكروم فقد انتشرت زراعتها فى العراق واليمن والشام وبعض بلاد مصر ، وانتشرت زراعة

الزيتون فى بلاد الشام وعلى الأخص فى نابلس وحلب ، كما عنى المصريون بزراعته فى الفيوم والإسكندرية وانتشرت زراعة قصب السكر فى مصر والعراق .

وقد نقل المسلمون إلى صقلية والأندلس زراعة القطن وقصب السكر والتوت ، ووضع الأمويون فى الأندلس تقويما للزراعة عرف بالتقويم القرطبى الذى أصبح دليلا يسترشد به الزراع فى غرس النباتات المختلفة فى مواعيدها وقد أخذه عنهم غيرهم من الأمم .

٢ ـــ الصناعة :

كذلك تقدمت الصناعة فى الدولة الإسلامية بفضل اهتمام الخلفاء وكبار رجال الدولة بالعمل على ازدهارها ، فاشتهرت بعض المدن السورية بصناعة الزجاج ، وأقيم فى بغداد عدد من المصانع لصنع الزجاج والخزف ، وكذلك الحال فى بعض بلاد مصر ، وبلغ من انتشار استعمال الخزف فى مصر أن التجار كانوا يضعون ما يبيعونه فى أوان من الخزف .

واشتهرت مصر بصناعة ورق البردى ، ثم توقفت هذه الصناعة فى القرن الرابع الهجرى ، بسبب ظهور نوع آخر من الورق مصنوع من الكتان يسمى الكاغد وكثرت مصانع الورق فى الدولة الإسلامية وانتشرت دكاكين الوراقين فى المدن الكبرى وكان الوراقون يشتغلون بصنع الورق وتجارته .

ومن الصناعات التى ظهرت فى الدولة الإسلامية ، المنسوجات على اختلاف أنواعها ، فكانت أكبر مراكز صناعة المنسوجات القطنية فى شرق فارس أما المنسوجات الكتانية فاشتهرت بها بعض المدن الفارسية ، كما تفوقت بعض المدن المصرية كالفيوم ودمياط فى صناعتها ، وبلغت صناعة المنسوجات الحريرية درجة كبيرة من الرقى فى فارس والعراق والشام ومصر .

واشتهرت مصر فى العصر العباسى الأول بصناعة المراكب النيلية التى كانت تسير فى النيل حاملة حاصلات البلاد بين جهات الوجهين البحرى والقبلى كما تفوقت مصر فى صناعة السفن الحربية .

حرصت الدولة الإسلامية على استغلال مواردها من الثروة المعدنية كالحديد والذهب والفضة ، وكان الذهب يستخرج على مقربة من أسوان فيتحول الناس هناك فى الليالى التى يضعف فيها ضوء القمر ، ويعملون على المواضع التى يرون فيها شيئا مضيئا ، فإذا أصبحوا جمعوا الرمل الذى عملوا عليه ومضوا به إلى آبار هناك ليغسلوها بالماء ويستخرجوا منها الذهب .

واستخرجت الفضة والنحاس والرصاص والحديد من مناجم فارس . وكان بالقرب من بيروت مناجم للحديد ساعد وجودها على نمو وازدهار بعض الصناعات المعدنية ، واستخراج الخزف والمرمر من تبريز ، والملح والكبريت من شمالى فارس ، وكان بالأندلس مناجم مختلفة استخرج منها الذهب والفضة والحديد والرصاص والنحاس .

٣ ــ النشاط التجارى :

لم يكن اهتمام الخلفاء مقصورا على الزراعة والصناعة ، بل عنوا أيضا بتيسير سبل التجارة ، فنشروا الأمن والطمأنينة فى أنحاء دولتهم وأقاموا المحطات والآبار فى طرق القوافل ، وكان لعملهم هذا أثر كبير فى إنعاش حركة التجارة ، ولهذا أصبحت من أكبر موارد الكسب فى الدولة الإسلامية .

ويجب أن نشير هنا إلى أن العرب فى الجزيرة كانوا تجاراً ممتازين ولما هاجر كثير من عرب الجزيرة إلى البلاد التى فتحها المسلمون ، مارسوا عملهم التجارى بنشاط كبير ، وكان اليمنيون وأهل جنوبى جزيرة العرب أكثر اهتماما بالشئون التجارية من أهل الحجاز ، لذلك سيطروا على النشاط التجارى فى نواحى مختلفة من الدولة الإسلامية ، وكانوا منافسين أقوياء لتجار البلاد التى هاجروا إليها حتى أن أغنياء التجار وأصحاب الأموال كانوا فى كثير من بلدان الدولة الإسلامية من أصول عربية جنوبية .

كانت التجارة الداخلية مركزها الأسواق ، فتقيم كل طائفة من التجار فى سوق معين ، ويمكثون إلى ما بعد الظهر ، ولا يعودون إلى منازلهم إلا فى المساء ،

وكانت الحوانيت فى مصر والشام تمتد على طول الشارع من الجانبين ، أما فى شرق الدولة الإسلامية فكان التجار يقيمون دكاكينهم صفوفا فى مكان واحد .

كان بالدولة الإسلامية مراكز تجارية هامة مثل مدينة دمشق التى كانت محطا للقوافل الآتية من ناحية الفرات إلى جزيرة العرب ومصر ، كما كانت مركزا لتجمع الحجاج حيث يسيرون منها فى جماعات كبيرة إلى مكة المكرمة . وقد ساعدت هذه الحركة المستمرة على رواج التجارة فى دمشق . وكانت المدن الساحلية فى بلاد الشام تحصل على ما تحتاجه من سلع من سوق دمشق الكبير .

كذلك كانت بغداد من مراكز التجارة الهامة لأنها تقع على شاطىء دجلة . وقد مد إليها العباسيون قناة ملاحية من نهر الفرات عبر العراق ، مما ساعد على ارتباطها بآسيا الصغرى .

وازدهرت التجارة بالفسطاط التى كانت من أهم مراكز مصر التجارية لموقعها على النيل ، فضلا عن توسطها بين الوجهين القبلى والبحرى ، وكان يخرج منها قوافل تجارية إلى الحجاز وبلاد الشام والمغرب ، لذلك كانت أسواق الفسطاط عامرة بالبضائع والمنتجات على اختلاف أنواعها .

نشطت حركة التجارة فى البلاد الإسلامية نشاطا كبيرا فى البر والبحر ، فكانت سفن التجار المسلمين وقوافلهم تجوب كثيرامن البلاد والبحار ، وصارت بغداد والإسكندرية تتحكمان فى التجارة العالمية وتحددان الأسعار لمختلف البضائع ، وانتشرت الطرق التجارية التى يسرت للتجار نقل بضائعهم .

كانت طرق التجارة تشق البلاد الإسلامية فى كل اتجاه ، وهذه الطرق لم تكن معبدة ، إذ هى طرق قديمة تعارف الناس على سلوكها فى رحلاتهم وانتشرت بها المرافق التى يحتاج إليها المسافرون .

كذلك كان للملاحة البحرية الإسلامية طرقها المعروفة فى بحار العالم وكانت موانيهم على سواحل البحرين المتوسط والأحمر من أكثر مراكز التجارة نشاطا .

٤ ــ الإدارة المالية :

أنشأت الدولة الإسلامية منذ قيامها بيتا للمال يقوم على صيانته وحفظه والتصرف فيه ، ومن أهم موارده الجزية والخراج والمكوس .

(أ) الجزية :

مبلغ معين من المال يؤديه أهل الذمة ــ المسيحيون واليهود ــ لقاء الحماية التى كفلها لهم الإسلام ، والأمان الذى نعموا به فى ظله ، وفى مقابل إعفائهم من الواجبات الحربية للدفاع عن أرض الإسلام .

وتجب الجزية على الرجال الأحرار العقلاء الأصحاء القادرين على أدائها ولا تؤخذ من فقير معدم ، ولا ممن لا قدرة له على العمل ، ولا من الأعمى أو المقعد أو المجنون أو غيرهم من ذوى العاهات ولا من أحد من المترهبين فى الأديرة إلا إذا كانوا أغنياء .

حدد مقدار الجزية على قدر طاقة الشخص ، ولذلك قسم أهل الذمة إلى ثلاث طبقات تدفع الطبقة العليا منهم ضعف الطبقة الوسطى وأربعة أضعاف الطبقة الدنيا .

راعى الحكام المسلمون الرقة والإنصاف فى جباية الجزية من أهل الذمة . وقد كتب عمر بن الخطاب يطلب من عماله إعفاء من يستحق الإعفاء منهم والتخفيف عن غير القادرين .

(ب) الخراج :

هو مقدار معين من المال أو الحاصلات يفرض على الأراضى التى فتحها المسلمون وتركوها فى يد أهلها على أن يؤدوا خراجها ، فكان الخراج يقدر على

حسب مساحة الأرض ومبلغ جودتها ونوع المحصول . وقد أمر عمر بن الخطاب بألا يكلف أهل الخراج فوق طاقتهم ، كما عمل الخلفاء من بعده على عدم إلحاق الأذى بأهل الخراج لحملهم على أدائه بل كانوا يعاقبون عمال الخراج الذين يثقلون كاهلهم بالضرائب .

وكان الخراج يؤدى إما نقدا وإما حصة من المحصول ويشرف على تنظيم جباية الخراج ، ديوان الخراج . وعلى صاحب هذا الديوان تحديد مقدار الخراج على كل مزارع وإعفاء من يستحق الإعفاء ، وكان الخلفاء يختارون لهذا العمل شخصا له دراية تامة بأمور الأرض والزراعة ومعروفا بالأمانة والعدالة . وكان لكل ولاية من ولايات الدولة الإسلامية ديوان للخراج يتبع ديوان الخراج المركزى فى حاضرة الدولة الإسلامية وينقسم كل منهما قسمين يشرف أحدهما على النفقات ، ويشرف الثانى على الموارد ، وكان الخلفاء يعينون عمالا مستقلين عن الولاة لجباية الخراج ، وكانت ضريبة الأرض تقل وتكثر حسب الاهتمام بالتعمير وإصلاح الجسور والخلجان وتحسين وسائل الرى .

(جـ) المكوس :

المقصود بالمكوس الضرائب التى تفرض على تجار أهل الذمة وتجب مرة واحدة فى السنة ، وكان جباة هذه الضريبة يتخذون أماكنهم فى طرق التجارة البرية أو النهرية ، ويمنح التجار إيصالا يثبت أداءهم ضريبة المكوس .

كذلك فرضت ضرائب على الدور والحوانيت ، وعلى المعادن المستخرجة من الأرض كالذهب والفضة ، أو من البحر كاللؤلؤ .

كانت الأموال التى تجمعها الدولة الإسلامية من المصادر السابق ذكرها تنفق على مصالح الدولة فى الوجوه الآتية :

١ ـــ مرتبات الموظفين كالقضاة والولاة والعمال والجند .

٢ ـــ تزويد الجيش والأسطول بالمعدات الحربية وتأمين حدود الدولة من الأخطار الخارجية .

٣ ـ نفقات البناء والتعمير كتشييد المساجد وتأسيس المدن .
٤ ـ تطهير الأنهار وحفر الترع للزراعة وإنشاء المجارى التى تأخذ من الأنهار لتوصيل الماء إلى الأراضى البعيدة .
٥ ـ العطايا والمنح التى يمنحها الخلفاء والحكام للعلماء والأدباء .

٥ ـ الزكاة :

هى مال يؤخذ من الغنى ويعطى للفقير ولا تعد موردا ماليا للدولة ، إنما هى ضريبة لإصلاح أحوال المجتمع ، ومن هذا يتضح لنا أن الزكاة هى الصدقة التى يخرجها المسلم ، قال تعالى : ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ﴾ .

وكانت الزكاة تؤدى بمقدار معين على ما يمتلكه الشخص من ثروة تفيض بمقدار معين عن حاجته ، وحدد الإسلام مقدار هذه الثروة ، وكان لها ديوان يحضره الخليفة وكذلك الحال فى الولايات الإسلامية يشترط فى رئيسه أن يكون ملما بأحكام الزكاة وأنصبتها المفروضة على ما يمتلكه المسلمون .

الفصل الثالث

الحالة الاجتماعية

عناصر المجتمع :

تحوى الدولة الإسلامية عدة عناصر رئيسية هى العرب ــ الموالى الفرس ــ الأتراك ــ أهل الذمة ــ الرقيق .

١ ــ العرب :

اعتمد الخلفاء الراشدون والأمويون من بعدهم على العنصر العربى فى إدارة شئون دولتهم . وتعصب الأمويون للعرب وفضلوهم على غيرهم ، مما أثار المسلمين من غير العرب ، فانضموا إلى الخارجين على بنى أمية ، وأخذوا يتحينون الفرص لإزالة دولتهم ، ولما آلت الخلافة إلى العباسيين مالوا إلى الفرس وتخلوا عن العنصر العربى .

ويجب أن نشير هنا إلى أن تقاليد العرب وعاداتهم وأساليب حياتهم قد سادت نمط المعيشة فى الدولة الإسلامية ، فالدين الإسلامى الذى حمل لواءه العرب وبشروا به ، كان من الطبيعى أن يحدد الأسس الاجتماعية لحياة الناس ، كما أن اللغة العربية ــ لغة القرآن ــ كان لها أثرها فى تأكيد سيادة العرب ، وكان الخليفة وأمراء البيت الحاكم وسائر بنى هاشم عربا لهم مركزهم أمام العناصر الأخرى ، والعرب هم الذين بذلوا أموالهم ودماءهم فى سبيل فتح البلاد التى دانت بالإسلام ، وأصبحت جزءا من الدولة الإسلامية الكبرى مثل العراق وفارس والشام ومصر وبلاد المغرب وأسبانيا .

٢ ــ الموالى من الفرس :

عرف الفرس بعد دخولهم فى الإسلام بالموالى ، وقد أساء الأمويون

معاملتهم ولم يساووا بينهم وبين العرب فى المعاملة ، وظلوا على هذه الحال حتى انتقلت الخلافة إلى العباسيين فاستعادوا حقوقهم .

٣ ــ الأتراك :

بدأ ظهور الأتراك فى الدولة الإسلامية منذ عهد الخليفة المعتصم ، فقد ضعفت ثقته بالفرس ، كما أن العباسيين من قبله أساءوا الظن بالعرب ولم يبق أمامه إلا الترك ، فأتى بهم من بلاد ما وراء النهر ، وكانوا رجالا أشداء يعيشون رعاة وصيادين فى هضابهم وجبالهم العالية ، لذلك عرف عنهم خشونه الطبع وقوة الشكيمة ، وأثرت هذه الحياة فى أخلاقهم ، لذا برعوا فى أساليب الحرب والقتال .

اعتمد المعتصم على الأتراك في إدارة شئون دولته بدلا من العرب والفرس ، إلا أنهم أساءوا استغلال نفوذهم ، فأثاروا القلاقل والاضطرابات فى الدولة الإسلامية وأضعفوا من شأن الخلفاء .

٤ ــ أهل الذمة :

أهل الذمة كانوا يتألفون من النصارى واليهود ، وقد تمتعوا فى ظل الحكم الإسلامى بالحرية الدينية ، وكان لهم رئيسان فى بغداد ، يعين كل منهما بعهد خاص من الخليفة ، أما اليهود فلهم رئيس واحد يعينه الخليفة .

قام أهل الذمة فى الدولة الإسلامية بجميع الأعمال التى تدر عليهم الأرباح الوافرة ، فاشتغلوا بالصيرفة والتجارة والصياغة وامتلكوا الضياع ، كما نبغ بعضهم فى الطب ، وتفوق البعض فى اللغات الأجنبية وبخاصة الفارسية واليونانية نخص بالذكر منهم حنين بن إسحق الذى اتصل فى بداية أمره بالمأمون ، ونقل كثيرا من مؤلفات علماء وفلاسفة اليونان إلى العربية .

٥ ــ الرقيق :

كثر الأرقاء فى الدولة الإسلامية تبعا لتوالى الفتوح وخاصة فى عهد الوليد بن عبد الملك ، وكان الأرقاء يختلفون فى أجناسهم وأشكالهم وألوانهم ولم يكونوا

جميعا من الأسرى بل كان بعضهم يشترى من أسواق الرقيق .

وكانت قصور الخلفاء والأمراء والعظماء والأغنياء مأوى الكثير من الرقيق وعلى الأخص الجوارى الذين كانوا من أجناس متنوعة . وكان هناك أسواق للرقيق ببعض المدن الكبيرة فاشتهرت سمرقند بأنها أكبر سوق للرقيق الأبيض . وقد اتخذ أهلها تربية الرقيق صناعة لهم ، كما كان أيضا بسامرا سوق للرقيق ، وقد قام الرقيق بكثير من الأعمال فى الدولة ، فمنهم من اشتغل بالزراعة والصناعة ومنهم من كانوا جنودا ، بل إن فريقا منهم وصل إلى مراكز مرموقة فى الدولة مثل قيادة الجيوش وحكم الولايات .

الأسرة فى الإسلام :

استطاعت الأسرة الإسلامية بفضل الإسلام أن تكتسب ضمانات تحميها من التفكك ، فالتشريع الإسلامى يحمى حقوق كل فرد فى الاسرة ، ويصون حقوق الزوجة والأولاد عند وفاة رب الأسرة وقد نص الإسلام على وجوب المحافظة على العلاقات الطيبة بين الزوجين ، كما أوضح أن العلاقة الزوجية رباط مقدس وأن من واجب الرجل أن يكفل لأسرته الحياة المستقرة . وبذلك اكتسبت الأسرة الإسلامية حقوقا حصنتها من الشدائد ، مما فرض على الرجل وجوب رعاية أولاده وتربيتهم التربية القويمة .

المرأة فى الإسلام :

كانت المرأة تتمتع بنصيب وافر من الحرية ، ولم تظهر مشكلة الحجاب فى عهد الخلفاء الراشدين ، لأن المسلمين كانوا يراعون تعاليم الدين ، ولكن ما كادت تبدأ الخلافة الأموية ، ويختلط العرب بشعوب البلاد المفتوحة حتى ظهرت مشكلة الحجاب .

وكان المجال أمام المرأة المسلمة مفتوحا للدراسة فكن يسمعن خطب الخلفاء ودروس الفقهاء ويتعلمن علوم الدين واللغة ولم تقتصر دراستهن على مطالعة المبادىء الشرعية والأحاديث النبوية بل درسن الشعر وفنون الأدب .

ومن النساء العربيات من نبغ فى أيام العرب وأخبارهم وأشعارهم .

اشتهر فى الدولة الإسلامية نساء كان لهن مركز مرموق فى المجتمع وتأثير ملحوظ فى سير الحوادث ، فكانت أم الدرداء الصغيرة تلقى دروسا دينية فى مسجد دمشق ، وبلغ من مكانتها العلمية أن الخليفة عبد الملك بن مروان كان يحضر مجالسها ، بل كانت توجه النصائح الدينية له .

ومن أشهر النساء فى العهد الأموى أم البنين ابنة عبد العزيز بن مروان وزوجة الخليفة الوليد بن عبد الملك ، فقد اشتهرت بالفصاحة والبلاغة وقوة الحجة وبعد النظر ، وكان الوليد يستشيرها فى مهام أمور الدولة ، وهى التى دفعته إلى كثير من الأعمال الجليلة التى قام بها ، ومن قبل أن يلى الخلافة كان الخليفة عبد الملك بن مروان لا يرد لها طلبا .

ومن أبرز نساء الدولة الإسلامية الخيزران زوجة الخليفة العباسى المهدى وأم الخليفتين الهادى والرشيد ، وقد أتيحت لها الفرصة لإظهار مواهبها وفرض إرادتها ، وتدخلت فى شئون السياسة والحكم ، وكان أصحاب الحاجات يقصدون بابها لتحل مشكلاتهم ، وتصدت الخيزران لمحاولة ابنها الهادى خلع أخيه هارون من ولاية العهد ، وتولية ابنه مكانه ، وكان يحيى بن خالد البرمكى — وزير الرشيد — يستشيرها فى شئون الدولة الهامة وسياسة الملك .

ومن أشهر نساء بغداد فى العصر العباسى الأول السيدة زبيدة زوجة الرشيد التى أسهمت مع زوجها فى إصلاح أحوال البلاد ، وتخفيف أعباء الحياة عن الأهلين ، ومن أفضالها أنها سقت أهل مكة المكرمة الماء بعد أن كانت قربة الماء عندهم بدينار ، وذلك بأن أقامت مجرى يأخذ الماء من العين التى عرفت باسمها — والتى تبعد عشرة أميال من مكة المكرمة — وقامت بإصلاحات جليلة فى المدينة المنورة — ومهدت طريق الحج بين بغداد ومكة .

ولا ننسى ما قامت به شجرة الدر — زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب — سلطان الأيوبيين فى إجراء كان له أكبر الأثر فى هزيمة الصليبيين ،

وصدهم عن المنصورة ، فقد توفى الملك الصالح أثناء دفاعه عن هذه المدينة فكتمت شجرة الدر نبأ وفاته ، واستدعت ابنه توران شاه من بلاد الشام ، وقامت بتدبير شئون الدولة ، ولما قدم توران شاه إلى القاهرة سلمت له شجرة الدر زمام الأمور ، وخلف أباه فى الملك واستطاع أن يختم واقعة المنصورة بنصر على الصليبيين .

الفصل الرابع

الحياة الفكرية

كان هناك نوعان من الدراسة ، اشتغل بهما المسلمون : دراسة دينية حول القرآن والحديث ، ودراسة دنيوية حول الطب والفلسفة والكيمياء والمنطق والرياضيات والتاريخ والجغرافيا . وطبقا لتصنيف ابن خلدون ، العلوم نوعان : علوم نقلية مختصة بالملة الإسلامية وتشمل : علم التفسير ، وعلم القراءات ، وعلم الحديث ، والفقه ، وعلم الكلام والنحو ، واللغة ، والأدب . أما العلوم العقلية فهى مشتركة بين الأمم ويهتدى إليها الإنسان بطبيعة فكره وتشمل : الفلسفة والهندسة وعلم النجوم والموسقى والطب والكيمياء والرياضيات والتاريخ والجغرافيا .

١ ــ العلوم الدينية :

أخذت العلوم الدينية المكان الأول لارتباطها بالإسلام ، وعرفت كذلك بالعلوم الشرعية أو النقلية ، لأنها مستمدة من الدين أو منقولة عنه .

(أ) علم التفسير :

وهو العلم المفسر للقرآن . وكان العرب يفهمون القرآن إبان نزوله ، لأنه لسان عربى مبين ، وقد يفسر لهم النبى الأحكام التى يتعذر عليهم فهمها .

ولما أصبح المسلمون من غير العرب فى حاجة إلى من يفسر لهم القرآن وضعت كتب التفسير . وقد اعتبر التفسير فى صدر الإسلام جزءا من الحديث أو فرعا من فروعه . ومن أشهر المفسرين ابن جرير الطبرى (٣١٠ هـ / ٩٢٣ م) (جامع البيان فى تفسير القرآن) والزمخشرى (٥٣٨ هـ / ١١٤٤ م)

(الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل) ، وفخر الدين الرازى (٦٠٦ هـ / ١٢٠٩ م) (التفسير الكبير) والبيضاوى (٦٨٥ هـ / ١٢٨٦ م) (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) وأبو حيان (٧٥٤ هـ / ١٣٥٣ م) (التفسير الكبير) .

(ب)علم القراءات :

من علوم الدين التى تبحث فى كيفية قراءة ألفاظ القرآن ، وذلك لأن اختلاف لهجات العرب والمسلمين من الشعوب المفتوحة أوجد اختلافا فى النطق بحروف القرآن . ثم إن القرآن يشتمل أصلا على ألفاظ القبائل العربية المختلفة بما فيما من عدنانية وقحطانية ، وإن كانت ألفاظ قريش هى الغالبة ولذلك اتفق على قراءات معينة ، وقد أصبحت هذه القراءات علما مدونا توضع فيه المصنفات .

علم الحديث :

الحديث هو ما ورد عن النبى ﷺ من قول أو فعل أو تقرير . وللحديث علاقة قوية بالقرآن لأن الحديث يفسر ما ورد فى القرآن ومن أجل هذا كان اهتمام المسلمين بتدوين علم الحديث ، وكان بعض المسلمين يفضلون أن يبقى الحديث محفوظا فى الصدور وألا يجمع كالقرآن خوفا من التباس الحديث بالقرآن . وينسب إلى عمر بن عبد العزيز أنه هو الذى دون الحديث لأول مرة ومن ذلك الوقت أقبل المسلمون على جمعه وتدوينه .

ومن أشهر جامعى الحديث : محمد بن إسماعيل البخارى (٢٥٦ هـ / ٨٧٠ م) ومسـلم بن الحجاج القشيرى النيسابورى (٢٦١ هـ / ٨٧٥) وابن ماجة (٢٧٣ هـ / ٨٨٦) وأبو داود (٢٧٥ هـ / ٨٨٨ م) والترمذى (٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م) والنسائى (٣٠٣ هـ / ٩١٥ م) .

(د) علم الفقه :

أو علم الأحكام الشرعية فى مسائل العبادات والمعاملات والحدود ، لم يظهر الفقه كعلم فى بادىء الأمر لوجود الصحابة والتابعين ، ولكن لما تعددت المشاكل ، وبعد العهد بظهور الإسلام ، احتاج الأمر ضبط الشرع ، فظهرت عدة

طرق فقهية تمثلت فى المذاهب السنية الأربعة وهى :

مذهب الإمام أبى حنيفة (٨٠ ـــ ١٥٠ هـ / ٦٩٩ ـــ ٧٦٧ م) ومذهب الإمام مالك بن أنس (٩٧ ـــ ١٧٩ هـ / ٧١٥ ـــ ٧٩٥ م) ومذهب الإمام الشافعى (١٥٠ ـــ ٢٠٤ هـ / ٧٦٧ ـــ ٨٢٠ م) ومذهب الإمام أحمد بن حنبل (١٦٤ ـــ ٢٤١ هـ / ٧٨٠ ـــ ٨٥٥ م) .

ومن العلوم الدينية أيضا علم الكلام وهو يتناول العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية ولم يظهر هذا العلم بظهور الإسلام ، ولكنه ظهر لما انتشر الإسلام بين الشعوب المتحضرة .

٢ ـــ العلوم العقلية :

التاريخ :

التاريخ من العلوم العربية التى كان للدين الإسلامى أثر كبير فى تطورها حتى فاق العرب غيرهم من الأمم ، ولم يقم العرب منذ جاهليتهم حتى القرن الأول الهجرى بتدوين التاريخ وإنما كانوا يحفظونه فى ذاكرتهم . وقد روى العرب الحوادث التاريخية المشهورة بشىء غير قليل من التبديل حتى إذا جاء القرن الثانى الهجرى أخذ العرب يبحثون تاريخهم ويعملون على تدوينه وقد تنوعت مصادر التاريخ الإسلامى : فمنها سيرة ابن هشام المتوفى سنة ٢١٨ هـ وتعرف بسيرة رسول الله . ومن مصادر السيرة النبوية أيضا كتاب الطبقات الكبيرة لمحمد بن سعد المتوفى ٢٣٠ هـ ، كما ألف بعض الكتاب فى المغازى من أمثال البلاذرى صاحب كتاب « فتوح البلدان » ، ومحمد بن عمر الواقدى صاحب كتاب « فتوح الشام » .

الجغرافيا :

كان لازدهار التجارة واتساع نطاقها فى الدولة الإسلامية والاهتمام بطرق التجارة وتأمينها أثر كبير فى تسهيل نقل المتاجر وتشجيع الناس على السفر ، الأمر الذى شجع الرحالين على مرافقة القوافل التجارية ، فطاف كثير منهم فى بلاد الدولة الإسلامية ووصفوا فى الكتب التى صنفوها ما شاهدوه فى تلك البلاد ، وهؤلاء

الرحالون عرفوا أيضاً بالجغرافيين ، نذكر منهم : ابن خرداذبه الفارسى الأصل الذى عاش فى النصف الأول من القرن الثالث الهجرى . وقد خلف كتابه « المسالك والممالك » ويعتبر من أقدم الكتب الجغرافية التى ظهرت باللغة العربية . وكان اليعقوبى المتوفى سنة (٢٨٢ هـ / ٨٩٥ م) أول جغرافي من العرب وصف الأقاليم التى شاهدها معتمدا على ملاحظاته الخاصة ، وتحدث عن البلدان من حيث خصائصها الحقيقية وما تتميز به . وقد طاف فى بلاد المملكة الإسلامية كلها ومن مصنفاته كتاب « البلدان » .

ومن أشهر الجغرافيين والرحالين المسلمين فى القرن الرابع الهجرى أبو الحسن على المسعودى المتوفى سنة (٣٣٤ هـ / ٩٥٦ م) وقد زار بلاد الفرس والهند والصين وسواحل أفريقيا الشرقية والسودان . كما قام برحلات فى إقليم بحر قزوين وآسيا الصغرى وبلاد الشام وزار مصر فى عهد الإخشيد ، وقد تحدث فى كتبه التاريخية عن كثير مما لقيه من التجارب والمشاهدات فى أسفاره .

الفكر والنجوم والرياضيات :

اعتمد بعض الخلفاء والأمراء على التنجيم فى توجيه سياستهم ، فالخليفة العباسى أبو جعفر المنصور لم يضع أساس مدينة بغداد إلا بعد أن أشار عليه أبو سهل بن نوبخت المنجم بما تدل عليه النجوم من طول بقاء هذه المدينة وكثرة عمارتها .

وكان من بين من نبغ فى علم النجوم أبو معشر جعفر البلخى ، وله عدة تصانيف فى علم النجامة منها كتاب « هيئة الفلك واختلاف طلوعه » واشتهر فى الرياضيات ثابت بن قرة الحرانى المتوفى سنة ٢٨٨ هـ ، ومن مؤلفاته « كتاب حساب الأهلة » وكتاب فى استخراج المسائل الهندسية . كذلك كان أبو على محمد بن الحسن بن الهيثم الذى نشأ فى البصرة من أشهر الرياضيين فى مصر فى العصر الفاطمى . وكان متفننا فى العلوم لم ينازله أحد فى زمانه فى العلم الرياضى ولا يقرب منه ، وبلغ عدد مؤلفاته فى الرياضة والطبيعة والفلسفة نحو مائتى كتاب .

الفصل الخامس

الفنون والآثار

ارتبط الفن الإسلامي أشد الارتباط بالدين ، فأصبحت آيات القرآن تنقش على الأواني والحوائط والأسوار . وكان في أول أمره فنا خاصا بالحكام ، ثم بدأ يأخذ الصبغة الشعبية في القرنين الرابع والخامس الهجريين ، كذلك أصبح للعمارة شأن كبير عند العرب بعد الإسلام ، وتجلى ازدهارها في تخطيط المدن وبناء المساجد ، والقصور والمدارس وفي المارستانات وغير ذلك . وتجلى تقدم المسلمين في فن العمارة في النواحي التالية :

(أ) تخطيط المدن :

بنى المسلمون مدنا كالكوفة والبصرة والفسطاط في عهد الخلفاء الراشدين والقيروان وواسط في عهد الأمويين ، وبغداد وسامرا في عهد العباسيين ، ولما كان العرب المسلمون قد بنوا المدن في الزمن الأول للفتح الإسلامي لاتخاذها حصونا ومعسكرات لذلك بنوها على أطراف البادية ولا يفصل بينهما ماء ليتمكنوا أن يحموا ظهورهم بالصحراء ولتكون خط رجعة لهم عند لقاء الأعداء . وعلى ذلك لم يهتموا بإحاطتها بالأسوار المنيعة كالكوفة والبصرة والفسطاط ، وعندما توغل المسلمون في البلاد واستقروا بها عنوا بإحاطتها بالأسوار والأبراج كما فعلوا في بغداد .

كذلك حرص المسلمون في عهد الراشدين والأمويين على تنظيم بناء المدن فإذا اختطوا مدينة بدأوا ببناء المسجد الجامع في وسط المدينة وتركوا حوله فراغا تتفرع منه الطرق وإليه تنتهي شوارعها وحاراتها ، وإلى جانبه تماما تقام دار الإمارة وتكون عادة في ضلعه الجنوبي كما فعلوا في البصرة والكوفة والفسطاط والقيروان . وفي العصر العباسي خالفوا ذلك فكانوا يتخيرون أولا مكان قصر

الخلافة وقصور الأمراء وإلى جانبها أو على مسافة منها تنشأ المساجد الجامعة وكانوا يعنون أيضا بتنظيم الأسواق وترتيبها داخل المدن وتصنيفها حسب سلعها .

(ب) المساجد :

اتخذ الرسول ﷺ مسجده بعد هجرته إلى المدينة على هيئة مربع طول ضلعه ١٠٠ ذارع ، وكان أساسه نحو ثلاثة أذرع بالحجارة ثم بنيت جدرانه من اللبن . وفتحت فيه ثلاثة أبواب . وكانت أعمدته من جذوع النخل وسقفه من الجريد ، وقيل إن الرسول ﷺ بناه مرتين وزاد فيه من مشرقه ومن مغربه .

ظل مسجد الرسول فى عهد أبى بكر وفى السنوات الأولى من عهد عمر بن الخطاب باقيا على ما كان عليه يوم أقامه الرسول . فلما ازداد عدد سكان المدينة أمر عمر بالزيادة فيه . ثم زاد عثمان فى مساحته . وعندما آلت الخلافة إلى الوليد بن عبد الملك أمر بتجديد عمارة مسجد الرسول وضم حجراته إليه ومن بينها الحجرة التى دفن فيها الرسول وصاحباه أبو بكر وعمر .

ويتكون المسجد عادة من صحن مكشوف الغرض منه أن يوصل الضوء والهواء إلى داخله . وقد توجد فى وسطه الميضأة وهى مكان الوضوء قبل أداء الصلاة . ويحيط بالصحن أربعة إيوانات أكثرها اتساعا إيوان القبلة وفيه المحراب الذى يتجه نحوه المصلون ويجاوره المنبر الذى يلقى الإمام من فوقه الخطبة .

يعد المسجد الأموى بدمشق الذى جدده الوليد بن عبد الملك أحسن مثل لتقدم فن العمارة والبناء فى العهد الأموى. فكان إيوانه الرئيسى مرتفعا وبه شبابيك فوق الأقواس تطل على الصحن ويحيط بالصحن أقواس تشبه حدوة الفرس محمولة على دعائم وكان محراب المسجد مرصعا بالجواهر وحيطانه مزخرفة . وقد أنفق الوليد على بناء هذا المسجد كثيرا من الأموال حتى أن الناس أخذوا يرمونه بالإسراف .

وكان المسجد الجامع بقرطبة الذى شرع فى بنائه عبد الرحمن الأول سنة ١٦٨ هـ ، وأتمه ابنه هشام سنة ١٧٧ هـ ، من أجمل مساجد الإسلام . وقد تعهده

الأمراء من بعده بالتجميل والزيادة ، فمنهم من صفح الحيطان بالذهب ومنهم من زاد فى رقعته ليتسع للمصلين . وكان محراب هذا المسجد مزينا بالفسيفساء أما المنبر فصنع من العاج وأحسن أنواع الخشب .

(جـ) المدارس :

تتكون المدرسة من إيوانين ، أو أربعة إيوانات ، ويتوسطها غالبا صحن مكشوف به قبة الفسقية ويلحق بها عادة مصلى للطلاب ومكتبة . وبالمدرسة فضلا عن ذلك مرافق أخرى ومن أشهر المدارس التى أنشئت فى العراق المدرسة النظامية ببغداد التى أسسها نظام الملك وزير السلطان السلجوقى ملكشاه سنة ٤٥٧ هـ ، أما فى مصر فقد اتجه اهتمام صلاح الدين يوسف بن أيوب وزير الخليفة الفاطمى إلى إنشاء مدرستين سنة ٥٦٦ هـ الأولى تعرف بالمدرسة الناصرية بجوار جامع عمرو بن العاص لتدريس المذهب الشافعى والثانية على مقربة من هذه المدرسة تعرف باسم المدرسة القمحية لتدريس المذهب المالكى .

وكان الغرض من إنشائها القضاء على المذهب الشيعى فى مصر ، وحذا خلفاء صلاح الدين حذوه فى الاهتمام ببناء المدارس .

كذلك أسس السلطان الملك الظاهر بيبرس بالقاهرة مدرسة الظاهرية سنة ٦٦٠ هـ على نمط المدارس التى بنيت فى عهد الدولة الأيوبية وكانت عبارة عن بناء متجه إلى القبلة وفى وسطه صحن كبير مربع وفى كل جانب من جوانبه الأربعة إيوان تعلوه قبة ، تحتها محراب . ومن ثم كانت المدرسة لا تخرج عن كونها مسجدا .

الفصل السادس

الجيش والأسطول

(أ) الجيش :

كان العرب فى الجاهلية يحاربون بعضهم بعضا بسبب الثأر أو دفاعا عن المرعى أو طلبا للغنائم . وإذا انتهت المعارك عاد القبائل إلى حياتهم العادية . وكانت طريقة الحرب تلائم حرب الصحراء الواسعة معتمدة على ما عرف بالكر والفر مستخدمين السيف والرمح والقوس والنبل والترس[1] ، ولم يعرفوا الجيوش النظامية .

وبمجىء الإسلام تغير مفهوم القتال ، فلم يصبح الجيش أداة اعتداء وإنما أذن للمسلمين بالقتال للدفاع عن النفس ولتأمين الدعوة الإسلامية والدفاع عنها ضد من يقف فى سبيلها وخاصة أن الإسلام فرض الجهاد على المسلمين ، وقد وعد الله المؤمنين النصر على أعدائهم فى الدنيا وبشرهم بالنعيم فى الآخرة . « فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما »[2] .

وكان الرسول ﷺ يتولى القيادة فى الغزوات التى يخرج منها غير أن تطور أحوال الدولة العربية الإسلامية بعد وفاته ، وتعدد الجيوش فى البلاد المفتوحة ، جعل من الصعب على الراشدين القيام بهذه المهمة لذلك اختاروا أصلح الناس لقيادتها من أمثال خالد بن الوليد ، وأبى عبيدة عامر بن الجراح ، وسعد بن أبى وقاص ، وغيرهم من ذوى الكفاية الحربية .

ولما أخذ العرب فى الغزو والفتح فى عهد الراشدين واتسعت الدولة تبعاً

---

(١) مصنوع من جلد البقر لاتقاء قذائف العدو . وهو كالدرع فى يومنا .

(٢) سورة النساء : آية ٧٤ .

لذلك ، أصبحت الحاجة ماسة إلى تنظيم الجيش . ولذا أنشأ الخليفة عمر بن الخطاب ديوان الجند للإشراف عليهم ، بتقييد أسمائهم ومقدار أرزاقهم . ولما تمكنت جيوش المسلمين من فتح العراق والشام وفلسطين ومصر أقام الجند فى الأمصار الإسلامية فى معسكرات خاصة بهم وضمن لهم عمر أرزاقهم .

حرص الأمويون على تنظيم الجيش ، فعملوا على إتمام ما بدأه عمر فيما يتعلق بتنظيم ديوان الجند . وكان الجيش حتى عهد عبد الملك بن مروان يتكون من العنصر العربى . فلما توسع الأمويون فى فتوحهم واستولوا على بلاد المغرب فى الأندلس استعانوا بالبربر فى الجيش .

ولما انتقلت الخلافة إلى العباسيين ، دخل فى الجيش العربى العنصر الفارسى وخاصة الخراسانيين ، وظل الحال على ذلك حتى ولى المعتصم الخلافة سنة ٢١٨ هـ ، فاعتمد على الأتراك فى جيشه وأسند إليهم المناصب الكبرى فى الدولة وأقصى القواد من العرب والفرس مما أثار القواد وبخاصة العرب ، فدبروا مؤامرة للتخلص من المعتصم ، لكنه تصدى لهم وقضى على مؤامرتهم .

وكان من أهم أسلحة الجيش الإسلامى السيف والرماح ومنها الرماح الطويلة الأسنة المسماة « القناة » والرماح الخشبية المسماة قنطاريات (أصلها يونانى) . والأقواس المختلفة منها قوس اليد ، التى تشد باليد فتخرج سهاما تشبه الجراد دفعة واحدة من جهات متعددة ، وقوس الرجل التى تشد بدفعها من الرجلين ، وقوس اللولب التى تشد بواسطة لولب ، وقوس الركاب التى تشد من ركاب الخيل .

وعرفوا أسلحة الحصار الثقيلة مثل المنجنيق والعرادة والدبابة وهى أنواع من المنجنيق الصغيرة ، والمجانيق آلات تستعمل لرمى الحجارة أو المواد الملتهبة المحرقة على الأسوار . بلغت صناعة المجانيق أو المنجنيقات حد الإتقان على يد المسلمين منذ زمن مبكر حتى أنه أيام فتوح الهند نسمع عن منجنيق يقال له العروس كان يديره ساعة الرمى خمسمائة رجل . وتستعمل الدبابة للهجوم المباشر على الأسوار .

واستخدم المسلمون النفط منذ زمن مبكر ويعرف بالنار الإغريقية وقد تكونت فى جيوش المسلمين فرقة خاصة لاستخدامه ، عرفت بالنفاطين ، حيث كانوا يلقونه على العدو فى قارورات النفط ، أو بالنشاب أو من على الخيل .

أما نظام الوحدات فى الجيش فلم يكن واحدا فى كل العصور الإسلامية ، ففى عهد الخلفاء الراشدين كان الجيش ينقسم إلى عرافات فى كل منها عشرة جنود ، ثم اختلف العدد حتى كان يصل فى بعض العرافات إلى ما يزيد على الأربعين . ثم صار يعين عريف لكل عشرة جنود وخليفة لكل خمسين وقائد لكل مائة وأخيرا تطور خلال العصر العباسى إلى عريف لكل عشرة جنود ونقيب لكل عشرة عرفاء وقائد لكل عشرة نقباء وأمير لكل عشرة قواد .

استخدم الجيش الإسلامى الأعلام أو الرايات وقد استخدمها العرب قبل الإسلام وكان يكتب عليها فى صدر الإسلام « لا إله إلا الله محمد رسول الله » كما كانت تحمل أسماء الخلفاء وألقابهم . وأصبح لون الرايات يدل على مذهب الدولة الإسلامية ، فكان للعباسيين رايات سوداء تسمى المسودة ، وللفاطميين رايات بيضاء تسمى المبيضة . كذلك أكثرت الجيوش من استخدام الطبول والبوق لتحميس الجنود .

(ب) الأسطول :

لم يكن العرب فى صدر الإسلام يهتمون بالحروب البحرية وكان أول من ركب البحر فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب العلاء بن الحضرمى أمير البحرين الذى توجه لغزو فارس دون أن يأذن له الخليفة ثم عاد المسلمون إلى البصرة بعد أن فقدوا سفنهم التى عبروا بها بلاد فارس ولما بلغ عمر ما قام به العلاء من إرسال قوات المسلمين بالبحر اشتد غضبه عليه وكتب إليه يعزله من القيادة .

وكان عثمان بن عفان فى السنوات الأولى من خلافته يعارض ركوب البحر . لكن معاوية واليه على الشام استطاع أن يقنعه بالفائدة التى تعود على دولته من إنشاء بحرية إسلامية فأجابه إلى طلبه وأصبح للدولة العربية أسطول قوامه ملاحون

من اليمن ومن أهالى سواحل الشام ومصر وكان لهذه القوة البحرية أثر كبير فى صد خطر الروم ، فقد حارب عبد الله بن سعد بن أبى سرح والى مصر من قبل عثمان ، قسطنطين بن هرقل . وانتصر عليه فى واقعة ذات السوارى أو الصوارى[1] جنوبى آسيا الصغرى مع أن عدد مراكب المسلمين لم يتجاوز المائتى سفينة وقفت أمام ألف سفينة كانت للروم .

لما ولى معاوية الخلافة اعتنى بإنشاء السفن الحربية ، وفى عهده غزا عقبة بن عامر جزيرة رودس ، كما غزا الروم البرلس سنة ٥٣ هـ فى عهد ولاية مسلمة بن مخلد (٤٧ — ٦٢ هـ) وقتلوا عددا كبيرا من المسلمين . وكان ذلك ما حمل أمراء مصر على الاهتمام ببناء السفن وأنشئت لأول مرة دار لبنائها فى جزيرة الروضة سنة ٥٤ هـ واستمرت البحرية الإسلامية تسير فى طريق التقدم طوال العصر الأموى وفى أوائل العصر العباسى .

كذلك اهتم ولاة مصر فى العصر الإسلامى بإنشاء المراكب الحربية ، فجعل لها أحمد بن طولون (٢٥٤ — ٢٧١ هـ) أحواضا حول جزيرة الروضة كانت تعرف باسم « صناعة الجزيرة » وظلت صناعة السفن بجزيرة الروضة حتى نقلها محمد بن طغج الأخشيد (٣٢٣ — ٣٣٤ هـ) إلى مدينة الفسطاط . واتخذ الفاطميون مراكز لإنشاء السفن الحربية فى مدينة مصر (الفسطاط والعسكر) وجزيرة الروضة التى عرفت فى العصر الفاطمى باسم جزيرة مصر ، والمقس التى أنشأ بها المعز لدين الله دارا لصناعة السفن ، والإسكندرية ودمياط .

وكانت المراكب التى استخدمها المسلمون ، هى ذات المراكب التى عرفتها الأمم السابقة ، ولكن المسلمين حسنوا فى صناعتها ، فظهرت منها أنواع متعددة ذات أشكال مختلفة . فمن قطع الأسطول الحربية الكبيرة الشوانى (جمع شينى أو شونى) وفيها أبراج للدفاع والهجوم . ومن سفن الأسطول أيضا الحراريق (جمع حراقة) وهى المركب الحربية المخصصة لمهاجمة سفن العدو بالنفط

(١) سميت بهذا الاسم لكثرة سوارى المراكب التى اشتركت فى المعركة .

الذى يرمى بالمجانيق أو السهام ، ومنها الأغربة جمع غراب ، سميت بذلك لأن مقدمتها على شكل رأس غراب ، وبعضها صغير تستعمل فى المناورة وفى مطاردة العدو . وكانت فى مقدمة المركب قطعة طويلة من الحديد تعرف باللجام فإذا صدمت مركب العدو خرقته ، وفى مقدمة المركب أيضا خطاف أو كلابة تلقى على مركب العدو فتتعلق به ، ثم تقام الألواح بين المركبين كالجسر فيعبر عليه الجند للاشتباك مع الأعداء فى القتال .

وكانت السفن الحربية تزود بالمنجنيقات لقذف الحجارة أو المواد الملتهبة وأدوات الحصار كالأبراج والدبابات والسلالم والحبال التى انتقلت إلى اللغات الأوربية باسم كابل (Cable) كذلك كان الأسطول الإسلامى يستعمل النار الإغريقية منذ أواخر العصر الأموى ، ويستخدم نوعا من النفط يسير على الماء دون أن ينطفى فكان هذا النفط يحرق مراكب العدو وكانت مراكب المسلمين تحتمى من نار العدو بتغطية هيكلها بدرع من الخارج سمى لبوس ، عليه غطاء يسمى لبود من جلود البقر ، أما الرجال فيحتمون من الحريق بدهن أجسامهم بالبلسان ، وهو نوع من النبات .

كان على كل سفينة حربية قائد أو مقدم يتولى القيادة فى سفينته بتدريب الجند وتجهيز الحملات . كما كان هناك موظف آخر يدعى الرئيس يتولى الإشراف على الملاحة، ويدعى قائد الأسطول أمير الماء أو أمير البحر ومنه اشتق لفظ الميرال Amiral, Admiral فى اللغات الأجنبية .

الفصل السابع

أثر الحضارة الإسلامية فى الحضارة الأوربية

بلغت الحضارة الإسلامية درجة كبيرة من التقدم فى وقت كانت فيه أوربا تفتقر إلى ما وصل إليه العرب من مدنية ، ومن أشهر المراكز الحضارية فى دولة الإسلام ، أسبانيا وصقلية وبلاد الشام ، وقد انتقلت الحضارة الإسلامية إلى أوربا عن طريق هذه المراكز .

مراكز الحضارة الإسلامية :

١ ـ أسبانيا :

كانت أسبانيا قبل أن يفتحها العرب فى حالة شديدة من الفوضى والتخلف شأنها فى ذلك شأن باقى البلاد الأوربية ، ولما فتحها المسلمون تمتع أهلها فى ظل الحكم العربى بالأمن والاستقرار والرخاء الاقتصادى حتى أصبحت من أكثر بلاد أوربا ازدحاما بالسكان .

عنى المسلمون فى أسبانيا بالآداب والعلوم والفنون ، ولم يكتفوا بما وصل إليه إخوانهم فى المشرق من تقدم ، بل زادوا عليه وخاصة فيما يتعلق بالجوانب الثقافية والفنية .

عرف الناس فى غرب أوربا مدى مابلغه العرب فى الأندلس من تقدم علمى ، فأقبل الطلاب من غرب أوربا على أسبانيا لدراسة علوم العرب ، وترجم العلماء الأوربيون الكتب العربية إلى اللاتينية .

٢ ـ صقلية :

كذلك انتقلت الثقافة العربية فى أوربا عن طريق صقلية ، فلقد استطاع المسلمون أثناء حكمهم صقلية أن يدخلوا أساليبهم المتقدمة فى الزراعة والصناعة والتجارة ، فعم الجزيرة الرخاء ، كما نشروا فيها علومهم ، ولما زال الحكم الإسلامى عن صقلية ، قدر حكامها الجدد من المسيحيين أهمية المدنية الإسلامية لذلك قربوا إليهم علماء المسلمين وشجعوا ترجمة الكتب العربية .

٣ ـ بلاد الشام :

كذلك كان لبلاد الشام شأن فى نقل بعض مظاهر الحضارة الإسلامية إلى الغرب فى العصور الوسطى ، ذلك أن بلاد الشام كانت ميدانا للحملات الصليبية ، وكون الصليبيون فيها إمارات وعاشوا فيها ما يقرب من مائتى عام ، ولقد أدت الحروب الصليبية إلى تكوين صلات سياسية وحضارية بين الشرق الإسلامى والغرب الأوربى ، فأخذ الأوربيون عن العرب الكثير من الكلمات والمصطلحات العربية ، كما نقلوا منهم بعض فنونهم الحربية وخاصة فيما يتعلق ببناء القلاع والحصون واستخدام الحمام الزاجل فى نقل الرسائل الحربية .

ومما يجدر ذكره أن الأوربيين انحصر نشاطهم الفكرى فى حدود معينة بسبب القيود التى فرضتها الكنيسة على الفكر بينما اتسعت دائرة معارف العرب لأن المفكرين العرب نعموا بالحرية الفكرية فلما اتصلوا بالغرب ولمسوا تفوقهم فى العلوم والفنون ، أقبلوا على نقل كتبهم إلى اللاتينية مما ترك آثار واضحة فى الفكر الأوربى .

أشهر العلماء المسلمين الذين تأثرت بهم الحضارة الأوبية :

تأثرت الآداب الأوربية تأثرا واضحا بموضوعات الأدب العربى ، ذلك أن الشعر العربى بلغ درجة كبيرة من السمو والدقة فى وقت افتقر فيه الأوربيون إلى هذا اللون من الأدب . وسرعان ما ظهر أثر الشعر العربى فى الأشعار الأوربية ، كذلك تأثر الأوربيون فى نثرهم بالعرب ، فأخذوا عنهم فنهم القصصى وما حوته آدابهم من مغامرات وخيال واسع بديع .

ومن العلماء العرب الذين أخذ عنهم الأوربيون محيى الدين بن عربى ، فقد اقتبس الشاعر الايطالى دانتى أوصافه للجنة وقصة الإسراء والمعراج فى كتابه الكوميديا الإلهية .

وقصة روبنسن كروزو مأخوذة عن قصة حى بن يقظان التى كتبها فيلسوف الأندلس ابن طفيل والتى ترجمت إلى اللاتينية والإنجليزية ، كذلك أخذ الأوربيون المقامات عن العرب وبخاصة مقامات الحريرى التى تتألف من قصص متفرقة بطلها شخص يستغل سعة حيله فى كسب قوته .

لم تعرف أوربا فلاسفة المشرق إلا عن طريق أسبانيا ، ولقد تأثر الأوربيون بالفلاسفة المسلمين تأثرا كبيرا . ومن أشهر هؤلاء الفلاسفة الفارابى والكندى وابن سينا ، انتقلت كتبهم إلى أسبانيا ، وترجمت إلى اللاتينية ، ومن ثم أتيح للأوربيين الفرصة للاستفادة منها ، كذلك ظهر فى أسبانيا فيلسوف كبير تأثر به الناس فى غرب أوربا ، وهو ابن رشد ، إذ أفاض فى شرح فلسفة أرسطو وأوضح ما فيها من غموض ، وعبر عن آراء ارسطو تعبيرا صادقا ، ولا أدل على تقدير الأوربيين لفلسفة ابن رشد من أنها ظلت تدرس فى الجامعات الأوربية منذ القرن الثالث عشر حتى السادس عشر الميلادى ، ولقد ظهر أثر فلسفة ابن رشد فى الفكر الأوربى ، إذ أخذوا منه حرية الفكر وتحكيم العقل على أساس المشاهدة والتجربة .

نهض العرب بالرياضيات نهضة كبيرة فقد اطلعوا على حساب الهنود وأخذوا عنهم نظام الترقيم ، وكان الخوارزمى أول من أورد الأرقام الهندية فى مؤلفاته . وكان كتابه فى الحساب الأول من نوعه ، وقد نقله الأوربيون إلى اللغة اللاتينية وظل الحساب عدة قرون معروفا باسم الغورتمى نسبة إلى الخوارزمى . وكان الخوارزمى أول من ألف فى علم الجبر فى عهد الخليفة المأمون ، وبذلك يمكن القول بأنه واضع علم الحساب وعلم الجبر .

كذلك عنى العرب برصد الكواكب والنجوم وحركاتها والكسوف والخسوف وربطوا بين حركة الأجرام السماوية وحوادث العالم ، كما اهتموا بعلم

الفلك لأن بعض الأمور الدينية تستلزم معرفة أوقات الصلاة ، وبداية الأشهر الهلالية ونهايتها ، فظهر علماء كثيرون ألفوا فى الفلك وعملوا أرصادا مثل ثابت بن قرة والكندى والبيرونى .

كان لاتساع الدولة الإسلامية وحب المسلمين للتنقل والترحال فى سبيل التجارة وطلب العلم أثره فى اهتمام المسلمين بعلم الجغرافيا ونبوغهم فيه فوضع العرب كتبا فى الجغرافيا تضمنت معلومات على جانب كبير من الدقة وظلت هذه الكتب أساسا لدراسة علم الجغرافيا فى أوربا عدة قرون ، ومن أبرز العلماء العرب فى هذا المجال الإدريسى الذى وضع كتابا أسماه « نزهة المشتاق فى ذكر الأمصار والأقطار والبلدان والجزر والمدائن والآفاق » وهو مزود بأكثر من أربعين خريطة ، وترجم إلى اللاتينية حيث اعتمد عليه الأوربيون أكثر من ثلاثة قرون .

تمساك العلماء العرب بفكرة كروية الأرض ، وإليهم يرجع الفضل فى استخدام البوصلة البحرية ، ومن المعروف أن كولمبس اطلع على كثير من كتب الجغراقيا والرحلات قبل قيامه برحلته التى أدت إلى اكتشاف أمريكا ، ومن بين هذه المراجع كتب عربية .

تفوق المسلمون تفوقا باهرا فى علم الطبيعة فقالوا إن الضوء يسبق الصوت ولهم دراسات قيمة فى العدسات والبصريات والمغاطيسية والجاذبية ومن علماء المسلمين المشهورين فى الطبيعيات البيرونى .

كذلك يعد الحسن بن الهيثم من أشهر علماء العرب فى الطبيعة ، وقد عرفته أوربا باسم الهازن وهو تحريف لكلمة الحسن ، بلغ عدد ما ألفه فى العلوم الفلسفية والطبيعية ثلاثة وأربعين كتابا ، وفى العلوم الرياضية والتعليمية خمسة وعشرين ، كما وضع بحوثا فى علم الضوء ، ولقد أفاد الأوربيون من دراسات ابن الهيثم فى الضوء حتى أن البحوث والكشوف الضوئية التي أعدها الأوريبون حتى عصر النهضة اقتبست كلها من كتبه .

ومن أشهر علماء العرب في الكيمياء جابر بن حيان ، وهو كيميائي العرب

الأول ، وله مصنفات قيمة في علم الكيمياء ترجمت إلى اللاتينية ، وظلت المرجع الأول للأوربيين زهاء ألف عام ، وكانت مؤلفاته موضع دراسة مشاهير علماء الغرب .

كذلك نبغ ابن سينا فى دراسة الفلسفة والطب ، وقد صنف عدة كتب ويعتبر كتابه القانون فى الطب ، من أفضل الكتب العربية فى هذا المجال نظرا لدقته العلمية وحسن تبويبه ، تناول فيه علوم وظائف الأعضاء وعلم الأمراض وعلم الصحة ومعالجة الأمراض وعلم الأدوية ، وترجم كتابه القانون فى الطب إلى اللغات اللاتينية واللغات الأوربية . ومن مصنفات ابن سينا كتاب « الشفاء » ويقع فى ثمانية وعشرين مجلدا ، وله مؤلفات ورسائل أخرى في الطب والفلسفة والموسيقى والرياضيات والفلك ترجمت جميعا إلى اللغات الأوربية . وكان أبو بكر الرازى من أشهر أطباء المسلمين ، وبلغ عدد مؤلفاته ما يقرب من مائتى كتاب .

وصفوة القول أن آثار المدنية الإسلامية فى الحضارة الأوربية أعظم من أن تقدر أو يحاط بها ، ليس فقط فى ميادين الآداب والعلوم والفنون بل أيضا فى مختلف نواحى الحضارة .

كتب للمؤلف

١ ـــ كتاب « تاريخ الإسلام فى العصر التركي » . الناشر دار الفكر العربى
٢ ـــ « الحواضر الإسلامية الكبرى » . الناشر دار الفكر العربى
٣ ـــ « بلاد الجزيرة في أواخر العصر العباسي ». الناشر دار الفكر العربى
٤ ـــ « اليمن فى ظل الإسلام » .
٥ ـــ « الهند فى العصر الإسلامي » .
٦ ـــ « الإسلام وعالم الفكر » .
٧ ـــ « الدولة الإسلامية المستقلة فى الشرق » . الناشر دار الفكر العربى
٨ ـــ « الدولة العباسية » .
٩ ـــ « تاريخ المغرب والأندلس » .
١٠ ـــ « الدولة الإسلامية وحضارتها » .
١١ ـــ « معالم التاريخ الإسلامي » . الناشر دار الفكر العربى
١٢ ـــ « الحركة الفكرية فى بلاد اليمن فى عصر بني رسول » .

شارك فى إعداد أطلس العالم الإسلامي . يضاف إلى ذلك العديد من البحوث والدراسات فى تاريخ الإسلام وحضارته .